1794

مدينة ما بين الجسور

نكلاس نات أو داغ

ترجمة: محمد عبد العاطي



1794

مدينة ما بين الجسور

نكلاس نات أو داغ

ترجمة: محمد عبد العاطي



1794

مدينة ما بين الجسور



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
The City Between The Bridges ,1794
- العنوان العربي: 1794، مدينة ما بين الجسور
- طُبِع بواسطة:
John Murray (Publishers)

- ترجمة: محمد عبد العاطي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير/ 2023م
- رقم الإيداع: 2022/29086م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-196-9



اجلس بهدوء، لكن توخَّ الحذر دومًا!

انظر فيما حولك في أثناء رفع الأنخاب، لأن الذي ظننته صديقك يخطط لغرس خنجر في ظهرك.

- كارل مايكل بيلمان، 1794

شخصيات الرواية

جان مايكل كارديل: يُعرف بـ «ميكيل»، رقيب سابق في فرقة المدفعية، بعدما فقد ذراعه في اسفينكسُند، وُظِّف في حرس مدينة استوكهولم، لكن ضميره يدفعه لتجاهل واجباته، ويفضِّل كسب عيشه بالعمل قوةً عضلية مأجورة.

سيسل وِينيَه: محامٍ سابق، عُيِّن العام الماضي للعمل مع الشرطة، وهو مريض بالسُّل.

آنا استينا كناب: بائعة متجولة سابقة في أبرَشيَّتي ماريا وكاتارينا، ولاحقًا زُجَّ بها في المشغل، وابتداءً من شتاء 1793/4 تدير حانة «العابث» باسم «لوفيسا أولريكا بليكس»، وهو اسم الابنة الهاربة لصاحب الحانة.

آيزاك رينهولد بلوم: سكرتير وكالة الشرطة، شاعر وأحد معجبي كارل غوستاف ليوبولد، ويحاكيه في أسلوبه الشعري.

يوهان كرستوفر بليكس: جرَّاح متدرب من كارلسكرونا، زوج آنا استينا كناب، لكن زواجهما شكلي، مات منتحرًا تحت جليد «الخليج الذهبي».

بيتر بيترسن: ناظر المشغل في جزيرة «الندبة».

جوناتان لوف: مراقب في المشغل.

دوليتز: لاجئ بولندي سابق، والآن تاجر متخصص في حيوات الناس.

غوستاف الثالث: ملك السويد، بإرادة الرب، لكنه ملكٌ اسميًّا فقط، سيبلغ السادسة عشرة من عمره في نوفمبر القادم، ما يزال قاصرًا، والمملكة يحكمها آخرون باسمه.

الدوق كارل: أصغر أشقاء الملك الراحل غوستاف، الوصي على ولي العهد الشاب، وهو سفيه يفضِّل الاستمتاع بثمار السُّلطة بدلًا من تحمُّل أعبائها.

غوستاف أدولف ريوترهولم: بارون، وأحد أبرز النبلاء في البلاد، وهو الحاكم الفعلي للمملكة بوصفه موضع ثقة الدوق كارل، ويُلقَّب سِرًّا بالـ «الصَّدر الأعظم»، عنجهيٌّ ويؤمن بالخرافات، وعدو لدود للملك الراحل، وشغله الشاغل هو التخلص من إرثه.

غوستاف موريتز آرمفيلت: أحد ذوي الحظوة لدى المِلك الراحل، ويمثِّل الأمل الأخير لأنصار الملك غوستاف. فرَّ إلى المنفى بعدما افتُضِح أمر مؤامراته على الوصي على العرش.

ماغدَلينا رودينسشولد: إحدى سيدات البلاط، كان الدوق كارل معجبًا بها، وهي عشيقة غوستاف موريتز آرمفيلت وشريكته في التآمر، اعتُقِلت لتورطها في المؤامرة. تُعرف باسم «مالا».

كارل توليب: يلقَّب بـ «امرئ الزهر»، مالك حانة «العابث»، وشريك -بإرادته- في خدعة انتحال آنا استينا كناب لشخصية ابنته الغائبة.

ماغنس أولهولم: مدير شرطة استوكهولم منذ ديسمبر 1793، خلفًا لنورلين، الذي نُقِل إلى الشمال. مُنثلم الصيت بعدما اختلس أموال صندوق معاشات الأرامل التابع للكنيسة، وهو تابع طيِّع للوصي على العرش.

كارل ويلهِلم موديه: حاكم استوكهولم، أحد أقوى الرجال نفوذًا في البلاد، ولاؤه للبارون ريوترهولم.

«المعلم إريك»: اللقب الذي يطلقه المراقبون على السوط الذي سيُستخدَم في مشغل «الندبة».

الجزء الأول

من مقبرة الأحياء
شتاء 1794

أي رادع قد يردع من لا يتورع عن ارتكاب أي جريمة؟

من يُعلن على الملأ أنه فوق القانون ولا يكترث بشيء!

من عساه أن يوقِف بطش يده؟

من سوى الله -جلَّ علاه- يعاقب ويعطي كل ذي حق حقه؟

- آيزاك رينهولد بلوم، 1794

الفصل الأول

حل يناير من عام 1794.

أُزعِجتُ في غرفتي في وقت سابق، وأُمرتُ بالنهوض وارتداء ملابسي، وبما أنَّ عامًا جديدًا أقبل، ستُبخَّر الغرفة بأغصان أشجار التنُّوب وتُرَش الأرضيات بالخل، بعدما ظلت القاذورات والهوام تسرح وتمرح مدة طويلة في الهواء الراكد. عقدت رباط بنطالي كيفما اتُّفق، وشددت أربطة حذائي وألقيت معطفًا فوق كتفي، وقد صرت هزيلًا لدرجة أن ملابسي تتدلى مرتخية على جسدي. هبطتُ السلالم وخرجت للمرة الأولى من أسابيع على ما يبدو لي، إلى ضوء النهار الذي لا تسمح نافذتي الضيقة سوى بعبور بصيص منه.

ظلت أشجار الزيزفون في الحديقة مسلوبة الأوراق منذ أشهر، لكن الدَّين الذي تركه الخريف، سدده الشتاء بالثلوج، تمتد الأغصان التي تكسوها الأكفان البيضاء على مد البصر، الشمس مشرقة وتلتمع أشعتها بالبياض بقوة تبدِّد أي لون آخر، بهر الضوء عيني وأُرغمتُ على تغطية وجهي بكفيَّ. رأيت مرضى آخرين يحتشدون في السلالم أو يترنحون سائرين على الثلوج، يطلقون السباب إثر إحساسهم ببرودة أحذيتهم ثم تبلُّلها، وتحاشيًا لرفقتهم سلكتُ الطريق المؤدي إلى المياه، حيث يمتد الجليد مسافة تبلغ ربع ميل قبل أن يفسح المجال للبحر، واتخذتُ من البياض النقي ملاذًا، كان الهواء قارسًا، لكن الشمس أمدتني بالدفء، ورغم مزاجي المعتكر، شرعت في السير عبر الجليد الذي كنت موقنًا أن سُمكه يبلغ القاع.

وبعيدًا إلى يساري، رأيت رصيف ميناء استوكهولم لامعًا كصف من الأسنان المصفرَّة، وقمم أبراج الكنائس راسمةً أنيابًا حادة، وخلفها تربض «القلعة» بكتلتها الضخمة. أشحت بعيني، كما لو أنني أتجنب استرعاء انتباه هذا المفترس النائم، وأعدت نظراتي إلى طريقي، حيث يمتد الوادي مترامیًا على نحو لا يعرفه سوى البحارة.

أدارت المدينة ظهرها لخليج الدنمارك وبدا كأنما الزمن نفسه تخلى عنه. الأيام مختلفة هنا، النهار قصير الأجل، والظلام معمِّر. قمَّتا تلَّين تخترقان السماء من كل جانب وتعترضان مسار الشمس. معظم الذين يشاركونني المكان لا يعانون شيئًا سوى الشيخوخة، أعدَّ لهم المكان أبناء وبنات يرغبون في رعايتهم في سنواتهم الأخيرة لكن يبدو أنهم لا يجدون الوقت ليزوروهم، فيصاب المسنون بالخرف بسبب الإهمال.

يقع المأوى على مبعدة بمحاذاة المياه باتجاه فِنبودا، ومن حيث كنت أقف، أمكنني عد سبعة طوابق تمتد عبر المنحدر حيث شيِّد أساس المبنى بزاوية مائلة، مثل سلالم لعملاق منبثق من الأعماق. يمثل المأوى منبعًا خصبًا للقيل والقال في أروقة المستشفى، يقال إن المبنى فيه ضِعفا العدد الذي ينبغي أن يضمه، كثير من النوافذ مغطاة بألواح الخشب، وأخرى مغلقة بقضبان. عندما اقتربت إلى أقرب نقطة ممكنة، ظننت أنني أسمع جعجعة قادمة من الداخل، قرقعة يتخللها طنين، فتذكرت طفولتي عندما كان فضولي يدفعني إلى الاقتراب خلسة من خلايا النحل في الحقول، وبمرور الوقت تعلمت الربط بين الطنين الخافت واللسعات الحادة. لا بد أن المرضى أنفسهم هم الذين يصدِرون الضجيج بالداخل، وهم في النزع الأخير من جنونهم، مكدَّسين بعضهم فوق بعض في غرف مكتظة. ومن حين لآخر، يأتي سادة وسيدات من المدينة على متن عربات تجرها أحصنة حتى ينشدهوا من اختبال المرضى، مقابل بضع قطع نقود تُدس في أيدي الحراس. بعض القائمين على رعايتي ممن لديهم الطاقة للمشاركة في مثل هذه الأشياء يحرصون على رصد ردود أفعال الضيوف عند افتراقهم، ويبتسمون ابتسامات واسعة عندما يرون وجوههم ممتقعة.

لأسباب أعجز عن التعبير عنها، غيرت اتجاهي نحو المأوى، الذي لاح لي أصفر كبثرة لم تُفقأ بعد، جاثمًا على الجرف المنحدر، طاحونة الملح القديمة،

التي أُبعِدت ذات يوم عن المناطق المأهولة بالسكان بسبب غازاتها الحارقة، والآن بسبب النزلاء. عند المدخل واجهتني لوحة عليها كتابة كأنها ضرب من الشِّعر: «*جشعٌ مثير للشفقة، وحب غير سعيد، حاقا بنزلاء هذه الدار – أيها القارئ، اعرف نفسك!*» أحسنَت هذه الحروف الحجرية وصف حالتي.

لم يعترض أحد طريقي، ووجدت البوابة الضخمة غير موصدة، وما إن فتحتها بمقدار شق ضئيل، تدفق الضجيج إلى الخارج، الضجيج نفسه الذي سمعته آنفًا كأنه تنهيدة مكتومة، عندئذٍ صار بمقدوري تبيُّن الأصوات العديدة: ثرثرة، وتبرُّم، ونحيب، وقهقهة. كان ضوء الردهة معتمًا، فمضت هنيهة قبل أن أتمكن من رؤية رجل صغير، يقف ساكنًا سكونًا تامًّا كأنه ينتظر وصولي، أومأتُ له فهرع إلى جانبي، عيناه كانتا متَّقدتين، وتشيان بفضول تهكمي، وصوته ناعم ومهذب.

قال: «مرحبًا! جئتَ في الوقت المتفَق عليه دون أي تقديم أو تأخير، أهنئك على دقة مواعيدك».

لم أدرِ ما كان يتحدث عنه، ولا بد أن التشوش ارتسم على وجهي، لكن الرجل بمزاجه المتهلل لم يتأثر، وانحنى لي ملوِّحًا نحو السلالم.

قال: «اتبعني من فضلك، أود أن أُريك أرجاء المكان».

بما أنني لا أنكر أن فضولي هو ما اجتذبني إلى هذا المكان، لبَّيت دعوته، رغم أنه يظن أنني شخص آخر.

تبعته إلى الفناء بالخارج، المحاط من كل الجوانب بجدران يبلغ ارتفاعها أربعة طوابق، وتحت الجدار تتناثر كميات مهولة من القمامة، واضحٌ أنها أُلقيت من النوافذ بالأعلى، التي معظم ألواحها مشقَّقة أو مرقَّعة بالخشب، ورأيت مجموعة معتوهين يقفون في ركن بقمصانهم القذرة، يتمايلون للأمام وللخلف واللعاب يسيل من شفاههم.

تابع دليلي اتجاه نظراتي ولوَّح نحوهم بإشارة انصرافية.

ثم قال: «لا تلقِ لهم بالًا! إنهم ماشية على شكل بشر وليسوا جامحين إذا لم تفزِعهم، سأريك مرضى أكثر إثارة للاهتمام».

أوصلتنا بضع خطوات إلى خارج الفناء على الجانب الآخر، وبعدما صعدنا المزيد من السلالم، تموضع مضيفي جوار باب يفضي إلى رواق.

ثم تنحنح وبدأ إلقاء خطبة قصيرة: «منذ البداية، كان لدينا سبع وعشرون غرفة هنا، كل غرفة يفترَض أن تضم مريضًا واحدًا في وضع مريح نسبيًّا. لا أدري نظرتك إلى العالم يا سيدي، لكن في رأيي ليس من المفاجئ أن نكتشف أننا بحاجة إلى عدد أكبر من الغرف، المدينة تُفقِد الناس صوابهم، ونستقبل تدفقًا لا ينقطع من المعتوهين. واليوم، كل غرفة تضم أربعة على الأقل، كثيرون منهم عنيفون لدرجة أننا نضطر إلى تقييدهم بالأغلال حتى نبعد بعضهم عن بعض، وفي كثير من الغرف تعين علينا نصب حواجز لهذا السبب نفسه».

انتحى جانبًا، وجذب مزلاجًا على الباب المفضي إلى الرواق ودعاني إلى الدخول، فرأيت صفَّين من الأبواب الثقيلة، وارتطمت بهدير يصم الآذان، عويل ونحيب مختلط بأصوات لكمات وأشياء تضرب الأبواب وتحتك بالجدران.

قال: «اقترب موعد الطعام، ربما فقدوا عقولهم لكن بطونهم على ما يرام، وبالجوع يقيسون مرور الوقت».

تابع المشي في الرواق، متوقفًا من حين إلى آخر ليشير إلى تفاصيل مثيرة للاهتمام.

- كثير من المرضى فقدوا صوابهم لدرجة أنهم يكاد لا يُسمح لهم بالخروج على الإطلاق، لذا ستلاحظ أننا زوَّدنا الأبواب بفتحات خاصة يمكن عبرها إفراغ مبولات الغرف، وللأسف ليسوا جميعهم قادرين على استعمال المرافق كما ينبغي، وهذا هو سبب الرائحة النتنة، حتى المدافئ تزوَّد بالحطب من الرواق، ولا يمكننا إشعالها إلا في الليل عندما تبلغ البرودة أوجها، والاكتظاظ له محاسنه عندما يتعلق الأمر بجعل الغرف دافئة إلى درجة يمكن احتمالها. أتريد أن ترى؟

وضع إصبعه فوق شفتيه، وبحذر فتح كوة يبلغ ارتفاعها مستوى العين فأرغَمته على الوقوف على أطراف قدميه، جعله المشهد يبتسم ولوَّح لي لأقترب. استغرقت عيناي هنيهة حتى تتمكنا من اختراق الظلال، ثم رأيت بالداخل رجلًا نصف عارٍ يؤدي رقصة متثاقلة على إيقاع رنين حلقات

السلسلة التي تقيد إحدى قدميه إلى الجدار، وبمحاذاة الجدار ثلاثة آخرون يقتعدون حزم قش، وعندما رأيت أنهم جميعهم يداعبون أشياءهم المنتصبة بأصابع ملطخة بالبياض والقذارة، أشحت بوجهي متقززًا.

تابعنا السير، وأراني دليلي الغرفَ الواقعة عند نهاية الرواق.

قال: «هذه هي الغرف المظلمة، حيث استفحل المرض الفرنسي إلى درجة لا يجدي معها الزئبق نفعًا. يتعذر إلقاء نظرة إلى الداخل، لكنهم لم يعودوا ينتمون إلى عالمنا، أنوفهم متعنقدة وقروحهم شنيعة، ونوبات غضبهم مذهلة عندما تعتكر أمزجتهم. عدا عن هذا لا يعبِّرون عن أنفسهم كثيرًا، إذ تآكلت أطراف ألسنتهم بالجدري».

أحسست بغثيان متزايد ورغبة عارمة في مغادرة هذا المكان البائس والتوجه إلى الشاطئ الأجرد الكئيب الذي بدا لي عندئذٍ كالفردوس، بيد أن دليلي لم يحرِّك ساكنًا، وظل واقفًا صامتًا كأنما ينتظر سؤالًا مني.

قلت: «أي أنواع من العلاج تتلقاها هذه المخلوقات التعيسة؟».

أومأ متلهفًا كما لو أنه كان يترقب سؤالي.

- وفقًا لما يخبرنا به العلم، يحدث الجنون نتيجة لاقتلاع العقل من مكانه بسبب عوامل خارجية أو داخلية، ونعرف أن العقلانية قابلة للاستعادة إذا تعرض المريض لصدمة قوية كقوة الصدمة التي سببت الخلل في المقام الأول، لدينا خرطوم جلدي نستعمله لرش المرضى بالماء البارد فجأة، وذات مرة أصبنا النزلاء عمدًا بالجرب أملًا في أن الحكاك سيتغلب على الجنون، لكن العدوى تفشت بين الجدران فصار القادمون الجدد يصابون شاؤوا أم أبوا، وتوجد طرائق أخرى يجدر بنا عدم التطرق إليها في الوقت الراهن.

ربما قرر ختم كلامه بالعبارة الأخير لأن دوارًا مفاجئًا جعلني أستند إلى الجدار. وأخيرًا استدار وأرشدني إلى الخارج، لكن في أثناء اجتيازنا الغرفة التي فيها الرجال الأربعة، أحسست فجأة بيده على كتفي.

قال: «أرى أنني تركت الكوة مفتوحة، وهذا من حسن حظنا لأنني أود أن أريك شيئًا أخيرًا».

دفعني إلى الباب فرأيت المشهد نفسه ما يزال مستمرًّا. قرَّب شفتيه من أذني وصار صوته همسًا: «أترى الركن الذي هناك بالخلف حيث قضى السادة حاجتهم؟ هذا هو المكان الذي خصصناه لك، ستعود عما قريب وستكون مستعدًّا».

تقهقرت ورأيت شفتيه ترسمان ابتسامة شوهاء، كاشفةً عن صفين من الأسنان الحادة تتخللها فجوات عديدة.

- إنك يافع ووسيم، وفي غاية الرشاقة وذو بشرة ناعمة، ستمنح رفاق غرفتك بهجة وافرة، أؤكد لك.

- من أنت؟

ألقى نحوي نظرة امتعاض.

- آه، يتغير اسمي من يوم لآخر، بالأمس كنت الملك شارلي الألف، غارقًا في ذكريات سعيدة عن قيادتي جنودي الذين يرتدون الأزرق عبر غابات منشوريا المكسوة بالثلوج، حيث سحقنا الرُضَّع بأحذيتنا أمام آبائهم في طريقنا إلى ميادين قتال بولتافا. إذا جئت بالأمس لرأيت الرصاصة التي أودت بحياتي عندما هززت رأسي. أما اليوم، فأسمائي من الكثرة بحيث يعجز أي أحد عن عدها، أُطلق عليَّ اسم «إبليس» و «الخصيم» و «زعيم الشياطين» و «أمير الظلام» و «ابن الصباح»، يمكنك أن تدعوني بالشيطان. إننا في انتظارك، تعرف تمام المعرفة مدى انتمائك إلى هذا المكان.

لا أدري كيف كان لي أن أرد على كلامه إذا لم يقاطعنا صوت غريب طغى على هدير الرواق: «توماس! تعرف أن لا شأن لك هنا، أخبرناك عدة مرات بألا تتصرف من تلقاء نفسك لأننا أحسنَّا بك الظن، عُد إلى فراشك حالًا».

ظهر رجل مكتنز يرتدي سترة ملطخة عند الباب الذي في نهاية الرواق، وبدأ يقترب منا بخطوات سريعة.

اقترب دليلي مني خطوة ورمقني بتحديقة وقال: «سأطرح عليك أحجية، يقال إنني محتجَز في مملكتي الجحيمية، موصد في الجحيم، فكيف إذن

تراني هنا بين الناس؟ تركت لك تلميحات في كل مكان. تذكَّر ما رأيتَه، وانتبه لخطواتك وأنت تشق طريقك في هذا العالم».

بلغنا الرجلُ الآخر، الذي لا بد أنه تابِع لموظفي المأوى، وأمسك بالمريض الذي دعاه بتوماس من ذراعه وجذبه مبتعدًا في الرواق، والعرق يسيل على وجهه العريض، وإثر مقاومة توماس، أمسك الرجل به من ياقته وانهال على رأسه بعدة صفعات قوية حتى سالت الدموع والدماء من أنفه على ذقنه.

وألقى نحوي نظرة مرتبكة وقال: «نترك باب غرفته مفتوحًا أحيانًا، فيجول في أنحاء المأوى، حتى يبلغ المستشفى أحيانًا. لا يوجد سوى اثنين منا يراقبون المعتوهين في النهار، سأكون شاكرًا لك إذا لم تخبر أحدًا بهذه الحادثة، آمل أن توماس لم يزعجك، إنه يقول أشياء غريبة».

ترنحتُ إلى الخارج، ممتنًّا لأن ما حدث كان سوء تفاهم لكنني متزعزع مما قاله توماس، وظللت واقفًا ساكنًا هنيهة حتى أتأمل مفكرًا في مقبرة الأحياء هذه، وبدا لي فجأة أن العالم نفسه قد اتشح برداء مزاجي المكفهر، أحسست بالضوء يتغير، رغم أن ما من غيمة في السماء، ضيَّقت عينيَّ رافعًا بصري، فامتلأتُ رعبًا بما رأيته، كان المشهد كما لو أن مخلوقًا غريبًا أخذ قضمة من الشمس نفسها، كأنها شريحة خبز قُطعت شرائح للتو وقد أُخذت منها قضمة بأسناني أنا، لم يسعني سوى إطلاق صرخة، وخارت ركبتاي، إضجعت متكورًا على الثلج مرتجفًا مدة طويلة، ونهشني خوف عميق، ثم تجاسرتُ على فتح عيني ووجدت أن الضوء عاد. كان كسوفًا، ولا شيء آخر، لا بد أنه لم يدم أكثر من بضع دقائق.

هرعت عائدًا عبر الطريق الذي جئت منه حتى أغلقت باب غرفتي خلفي، وزحفت إلى فراشي وتدثرت ببطانية. كان خطأ مني أن أغادر غرفتي، خطأ لن أقترفه مرة أخرى أبدًا. طُلِب مني التحلِّي بالصبر وانتظار العثور على العلاج المناسب، وحتذاك عليَّ أن أصبر وأتجنب رفقة الآخرين. ربما كان توماس مخبولًا، لكنه ذكَّرني بالخزي الذي أحسُّ به، إذ لا يمكنني النظر في عينَي شخص آخر دون أن أتذكر ما اقترفته يداي، والألم الذي يعقب الذكرى لا يطاق.

أمكنني من حين لآخر الحصول على الثيباكا، وهي صَبغة تخدر العقل والجسد، وتسكِّن الوخزات والتشنجات، وتمكِّنني من قضاء اليوم خدِرًا ذاهلًا عما حولي فلا أكاد أحفل بأي زائر، لكن عليَّ مشاركة هذه القطرات الثمينة -التي تُمزج بالماء والسكر أو العسل- مع آخرين كثيرين، لذا كثيرًا ما لا يكون متوفرًا، رغم أننا ميسورو الحال، إذ سمعت أن المستشفى يتحكم في الجرعات المخصصة للمأوى، وفي الأيام التي أتناول فيها الجرعات، أجلس متمايلًا للأمام وللخلف، أو أواجه الجدار وعيناي نصف مفتوحتين، أدندن لحنًا دون إيقاع، وأثبِّت نظراتي في الفراغ حتى ينفد صبر زوَّاري فيتركونني وشأني كي أجتر إحساسي بالذنب، ثم أظل على هذا الحال حتى ساعة الشفق، ويهبط الليل، وعندئذٍ يتسنى لي إخراج أدوات كتابتي دون أن يلاحظني أحد.

من يتولى رعايتي طلب مني أن أكتب لأوثِّق ذكرياتي المتعلِّقة بالأحداث المؤسفة التي أسلمتني لما أنا فيه من بؤس، وربما لأتقبل الأحداث التي جاءت بي هنا إلى شواطئ «البحر المالح» الموحشة، إلى مستشفى خليج الدنمارك. قيل لي إنني لست بكامل قواي العقلية، وإن الخلل الذي أعانيه يمكن أن يعالَج، وإن مصدر شعوري بالذنب ليس من داخلي إنما هفوة من هفوات الطبيعة، بيد أن أملي في صحة هذا الكلام ضئيل.

تثور عاصفة في رأسي، ولا ينطوي قلبي سوى على الخواء. أرفع يديَّ أمامي، فأراهما حمراوَين، أدوات قاتل، يتعذَّر غسلهما.

عشت طوال حياتي مفتقرًا إلى الحب، لكن ما لم أكن لأتخيله قط هو ماهية الحب عندما غمرني أخيرًا، جميل لكنه فظيع، يبث الحمى في عروقي، وحش يكشر عن أنيابه، ولما تخيلت أنه سيفضي بي إلى هذا الطريق المظلم الذي لا عودة منه. إذا أُتيح لي خيار تحقيق أمنية واحدة، فستكون ألا أحب أبدًا، فدون الحب لأمكنني تجنب كل هذا، لما كنت هنا في هذا المكان البائس، ومحبوبتي... كلا، يكفي. سأدع الريشة ترتاح الآن، لست مستعدًّا لكتابة النهاية، البداية تكفي في هذه الليلة.

الفصل الثاني

كان بمتناولي أن أعيش طفولة دون أسى، طفولة لا يعوزني فيها شيء، لكن القدر كان يخبئ لي أمرًا آخر. وُلدت بين ستائر مخملية في منزل أبي الذي توارثته أجيال، يحمل اسم «الورود الثلاث»، وهو نفس اسم عائلتي، تقع الأراضي بعيدًا عن المدينة، وقد أشرف عليها العديد من الآباء والأبناء الذين لا يهتمون كثيرًا بالسياسة وبالتالي لم يعدُّهم العالم مصدر تهديد، كانت الأرض تنتج محاصيل جيدة وفيرة، واعتنى أبي بمستأجريه خير عناية، وكان حكيمًا بما يكفي لمعرفة أن حسن معاملة العاملين لديه يصب في مصلحته.

جئت إلى هذه الحياة بعد أخي جوناس بسبع سنوات، شقيقي الوحيد. بدأت أمي تتوق لإنجاب طفل آخر، إذ أحست بالملل من حياة الريف الهادئة وهي المعتادة أسلوب حياة المدينة وضجيجها، وكانت متقدمة في السن والمخاطرة كبيرة، لكن أمي كانت امرأة شجاعة وحازمة الرأي. سبق مولدي أكثر من حادثة إجهاض، كانت شديدة الوطأة على أمي. أراد أخي أن يستهزأ بي ذات مرة فسرد نقاشًا سريًّا سمعه خلسة، وفيه يحاول طبيب عجوز إقناع أمي بالعدول عن قرارها بحمل طفل آخر وهي في سنها، التي زعم أنها سلبتْ الخصوبة من رحمها، وعرض عليها عدة طرائق لإنهاء حملها، فضحكت له هازئة وقالت له أن يذهب إلى الجحيم. وعندما جئت، متأخرًا قرابة ثلاثة أسابيع عن موعد ولادتي المتوقع، كلَّفتُها حياتها. لم أحس بدفء حضن الأم إلا مرة واحدة لا أتذكرها، اكتنفت البرودة ذراعيها وهما تطوقانني.

ظروف ولادتي المؤسفة تركت أثرًا لا يُمحى على العلاقة بيني وبين أبي، كان راضيًا عن الوريث الذي أنجبه سلفًا، وأحس بأن سِنَّه لا تساعده على تربية رضيع، ويبدو لي أن رؤيتي مثَّلت له تذكيرًا دائمًا بالكيفية التي فقد بها الزوجة التي كان يأمل أن تخفف عنه قسوة خريف عمره، وربما أحس بأنني صفقة خاسرة، إذ رأى أنني لا أتحلى بأي مهارة من المهارات التي يقيم لها وزنًا، لم أحس بالارتياح قط وأنا على صهوة جواد، وكنت أخطئ أسهل الأهداف في الصيد، وينفلت السيف من يدي حالما يلامس سيف الخصم، وكثيرًا ما تجعلني بنيتي الجسمانية أصاب بالحمى أو السعال، فلا أقدر على المشاركة في أي نشاط حتى إذا رغبت.

أصبحت أُترَك تحت رعاية معلِّميَّ على نحو متزايد، وعندما صار النهار حافلًا بالمهام والإحباطات، جعلت الليل معاشي، فصرت أغادر فراشي بعدما ينام كل من في البيت. لأمي لوحة بورتريه معلَّقة فوق السلالم، وقيل إنني أشبهها، لذا كثيرًا ما كنت أسحب مقعدًا حتى أنزِل المرآة الثقيلة وأضعها تحت لوحة أمي لألقي نظرة أوضح على وجهها في وجهي، وأنا أحرك الشمعة من جانب لآخر حتى يقع الضوء على أي ملمح شبه بيننا: زاوية الفك، واستدارة الخد، وقوس الحاجب.

لم أكن قد بلغت الحادية عشرة عندما غادرنا شقيقي ليبدأ مسيرته العسكرية، وكان وقعُ فقدِ رفقته شديدًا على أبي، إذ كانا مقربَين، والوقت الذي يتفرغ فيه أبي بعدما يقضي شؤون عمله كانا يقضيانه في الصيد أو ركوب الخيل أو الرماية، أي جميع الأنشطة التي كنت أُستبعد منها نظرًا إلى سني وعدم كفاءتي، لا أظنني رأيته يبتسم مرة أخرى أبدًا، إلا في أثناء زيارات شقيقي. وفي المواقف التي لا نستطيع فيها أن نتجنب بعضنا، كنت أستشعر لديه غضبًا جيَّاشًا من قدَره، فصرت أبذل كل ما بوسعي لأتحاشى لقاءه في أروقة «الورود الثلاث»، وأحس نحوه برهبة متزايدة. بدأ يلتمس السلوان في قبو النبيذ، ومن حين لآخر يؤدي واجباته الأبوية بتأديبي عندما أخالف إحدى تعليمات المنزل، فيعتدل مزاجه بضعة أيام بعد ضربي، ومن جانبي أذرف دموعًا مريرة، من الحنق أكثر من الألم، وأزداد تقوقعًا على نفسي.

في عيد الفصح من ذلك العام، دعا أبي أصدقاءه ومعارفه ومستأجريه الميسورين إلى منزلنا لتناول وليمة، في أكبر احتفال منذ سنوات، وفي أثناء التجهيزات لاحظت لأول مرة منذ مدة طويلة نوعًا من الحماسة تغمر أبي، لكن سرعان ما تلقينا رسالة بأن كتيبة جوناس لا يمكنها الاستغناء عنه، وعلى الفور انطفأ الوميض الذي اشتعل في عينَي أبي، وعلى الأرجح أراد أن يلغي المناسبة بأكملها، لكن الدعوات أُرسلت قبل ذلك، وفي أثناء الاحتفالات أسرف في الشراب سريعًا وانتشرت إلى بقية الحفل كآبتُه المتزايدة مع كل كأس نبيذ.

قُدِّم العشاء مع اقتراب المساء، وتُرك المكان الذي جوار أبي فارغًا إحياءً لذكرى أمي، وعندما ألقيت نحوه نظرة من مكاني عند المائدة الذي يبعد عنه ببضعة مقاعد، رأيت حُمرة بدأت تصطبغ على وجهه ولاحظت أن لسانه يتثاقل، نهض مترنحًا ليرفع نخبًا لأمي، والدموع تنثال على لحيته، وفي أثناء الصمت الذي أعقب نهوضه، مددت يدي لأحمل كأسي التي جلبتها أمي ضمن أدوات المائدة التي ترافق مهرها ولم تُستعمل كثيرًا، لكنني أخطأت تقدير المسافة وأسقطتها فانكسرت ساق الكأس، كنت قد نمَوت سريعًا في سني عندئذٍ وأعاني في تقدير طول ذراعيَّ وساقيَّ، وكانت حركاتي الخرقاء مصدر حنق لأبي، ورأيت عندئذٍ حزنه يتحول إلى غضب، وقبل أن أدرك ما يجري رفعني من ياقتي وكال لي وابلًا من الضربات، وحالما قفز بعض الضيوف وتمكنوا من تخليصي من قبضته، ركضت خارجًا من الصالة وأنا أنشج، وتكوَّرتُ خلف ركام ثلجي مكوم في الرواق الخارجي، واختبأت عندما جاء الخدم بحثًا عني.

ظللت مضجعًا مدة طويلة، باكيًا، حتى استشعرت حضور شخص، وعندما رفعت رأسي، رأيت فتاة، شاحبة كالثلوج وذات شعر أحمر كجمرات متقدة تحت غلَّاية نحاسية، ظلت واقفة بهدوء في الثلج الذي بدأ يتساقط كثيفًا في تلك اللحظة، كأنها لا تتأثر بالبرد، إذ لم تكلف نفسها ارتداء أي شيء فوق فستانها القطني البسيط، ودون أن تقول شيئًا، رفعتْ يدها ورأيت أنها تحمل كأسًا مطابقة للتي كسرتُها، ودون أن تبعد نظراتها عن عينيَّ أسقطتْ الكأس على البلاط، فتلاشت الشظايا في الثلج. هكذا كان لقاؤنا.

هذا الاحتفال كان آخر مناسبة تمكَّن أبي فيها من إظهار شيء من السعادة، وبعدها ترك نفسه تنغمس في كآبة لا قرار لها.

الفصل الثالث

بحثت عنها كأنني أعرف مكانها، كأنني موهوب بمقدرة على تشمم رائحة آثارها ولا أحتاج سوى إلى اتباع غرائزي، ووجدتها بالفعل، وجدتها في الغابة حيث أذاب الربيع الأرض المتجمدة وتجمعت المياه الذائبة حول جذور الأشجار، بلمحة خاطفة على فستانها الأبيض بين جذوع الأشجار الداكنة، ووجهها الشاحب كعهدي به، وشعرها الذي كأنه لهب، وأطرافها الرشيقة كأغصان الأشجار الصغيرة.

ورغم أن بحثي عنها كُلِّل بالنجاح، أحسست بالحرج في بادئ الأمر لأنها بدت لي مخلوقًا مولودًا من نفس الطبيعة التي حولنا، أو روحًا ما أو كائنًا خياليًّا، وعلى الفور أحسَّتْ بعينيَّ المسلَّطتين عليها فتوقفت في منتصف شجرة ساقطة تحاول أن توازن نفسها عليها، لم تركض مبتعدة إنما استدارت، كأنها ترقص، على جذع الشجرة والتفتت نحوي ناظرة إليَّ فوق كتفها، بعينين مليئتين بالتساؤل والتحدي، فأمدَّتني قوى غير مرئية بالشجاعة للاقتراب منها.

اسمها لِنيا شارلوتا، ووالدها، إسكِل كولينغ، أحد العديدين الذين يستأجرون أرض عائلتي منذ غابر العصور، كان كولينغ رجلًا نشيطًا كادحًا، تمكن بعد عمل دؤوب من تحسين وضعه، ويعرف كيفية فِلاحة الأرض بأفضل طريقة ممكنة، ومنذ مجيئه إلى «الورود الثلاث» قبل بضعة أعوام، تمكن من زيادة مساحة حيازته، وبفضل إدارته الفعالة ارتفعت مكانة أسرته وسُمعتها، كان من الفطنة بحيث يدرك أن المرء يحتاج إلى أكثر من المثابرة في العمل كي يرتقي بمكانته، فسلك سلوك السادة وتجنب بقدر مستطاعه

سلوك المزارعين، لكن بحصافة حتى لا يبدو متطاولًا وقحًا، وجعل زوجته وبناته يرتدين ملابس جذابة بما يكفي لإبراز جمالهن، وهو نفسه كان يضع ساعة ذات سلسلة ذهبية، وإبزيمات فضية على حذائه، وآتت استراتيجيته أُكلها، فمن بين مستأجرينا كان كولينغ هو من يحظى بأرفع مكانة عند أبي، ومتى ما اعتذر شخص عن تلبية دعوة أو كان لدينا مقاعد شاغرة عند مائدتنا، تُوجَّه الدعوة إلى كولينغ وأسرته، كما كان الحال في عيد الفصح عندما وقعت عيناي أول مرة على لِنيا شارلوتا.

كنا نلعب لعبة المطاردة في الغابة، كنا طفلين، والصداقة بيننا بادية لكنها هشة، تسيطر على لنيا نزواتها، وينفد صبرها دون سابق إنذار وينطلق البرق من عينيها، فتعلمت الهروب بدلًا من مجابهة النار بالنار، لكنني دائمًا ما أجدها هناك في اليوم التالي، في انتظاري، فأندهش، وتعلمتُ كلمة «آسفة» بلغة تخصها وحدها: ابتسامة مائلة تحت نظرات خجولة ولمسة تبدو غير مقصودة، وضحكة رنانة إثر سماع شيء قلته لا يستحق الضحك. وعندئذٍ نغدو أصدقاء مرة أخرى، فتقودني إلى أماكن ما كنت لأجدها أبدًا، لأن الغابة بدت، مثلي، غير قادرة على حجب الأسرار عنها. منطقة شراب ذكر أيِّل عند حافة البركة الجبلية، وعش نقَّار خشب مخفي في فجوة بومة سمراء في شجرة متآكلة، وعش نسر بين الأغصان عند قمة شجرة صنوبر... لم أقدِّم لها الكثير بالمقابل، لكن مهاراتي القليلة كانت رهن إشارتها، فوفقًا لنزواتها، أصارع الفروع الصغيرة حتى تتقوس نحو الأرض، مبتلعًا دموعي إذا ارتدَّت ولطمتني على خدي، ثم أغطي الفروع بأغصان التنُّوب ونتخذ منها سقيفة.

وددت لو تُركنا غارقين في ألعابنا الطفولية البريئة، لكن تعاقبت السنوات، وتركت علينا أثرها، إذ تغير جسد لنيا النحيل وفقًا لإرادة الطبيعة بعدما كان لا يكاد يُميَّز عن جسدي. وفي «الورود الثلاث» ظل كل شيء كما كان، ورغم كل الأيام التي أمضيناها معًا بعيدًا عن أعين الآخرين، بدا الوقت لي قصيرًا، قصيرًا جدًّا، تداخلت ذكريات تغير الفصول، عدة فصول صيف صارت فصلًا واحدًا، وأصبحت كل لعبة غميضة شتوية مستحيلة التمييز عن الأخرى، وبلغنا الرابعة عشرة فجأة فلم نعد أطفالًا، تسلل النضج إلينا خلسة، كلانا لم يرغب فيه، أتذكر مدى دهشتنا ذات مرة بأمطار الصيف في المروج،

عندما جعلت الأمطار فستان لنيا شفافًا، فأحاطت جسدها بذراعيها لتغطي نفسها، وغضضتُ بصري مستحيًّا، وبعد ذاك بدأت ترتدي ملابس مختلفة، لكن ألعابنا اتسمت بالعنف أحيانًا فلم يكن بمقدورنا تجنب ملامسة بعضنا بعضًا، وعلى إثرها نجفل مبتعدين عن بعضنا ويخيم علينا صمت طويل، ولا يعرف أحدنا كيف يبدده. كانت تمكث في منزلها بضعة أيام من كل شهر بدلًا من المجيء إلى مكان لقائنا، وبعدها صارت تنتحل أعذارًا مختلفة. أنا أيضًا كبرت، صرت أقوى من لنيا، وعندما نتصارع يتعين عليَّ التظاهر حتى أُبقِي على انطباع أننا ما زلنا نِدَّين لبعضنا. كلانا لم يرغب في تذوق تفاحة المعرفة، ورغم هذا تغير فردوسنا.

أصبح مزاجها أشد تقلُّبًا، من شأن حركة أو كلمة واحدة غير مختارة بعناية أن تضرم فيها نار الغضب، فتسير مبتعدة أو تنفيني من غابتها بإشارة من يدها تليق بملكة. كنا في الصيف عندما تحديتها آخر مرة، وقد كنت معتكر المزاج بعدما اضطررت إلى ملازمة الفراش بالحمى بضعة أيام، دفعاتها لم تكن شيئًا أمام عضلات رجولتي المتفتحة، وعندما قفزت عليَّ لتخدشني، لم يسعني سوى الضحك لأن إحدى عاداتها السيئة هي قضم أظفارها حتى تصير عديمة الفائدة، وعلى حين فجأة أمسكتْ بيدي وغرست أسنانها فيها، ليس على سبيل المزاح، إنما بقوة جعلتني أنزف.

صرختُ من الألم والدهشة بالقدر نفسه، فأفلتتني، والتقت أعيننا، ورأيت دموع اليأس تنهمر على خديها، ثم استدارت بأنفاس مرتعشة وركضت مبتعدة بين أشجار الراتنجية، ورغم أنني أردت اللحاق بها، ظللت في مكاني والقطرات الحمراء تروي الطحالب.

أحمل آثار أسنانها إلى يومنا هذا، على نفس اليد التي أكتب بها هذه الكلمات.

في اليوم التالي استغرقتُ بعض الوقت حتى أعثر عليها، ويدي مضمَّدة ومعلَّقة برباط حول عنقي لتخفيف الألم، كانت قد اختارت منطقة خالية من الأشجار بعيدة لتنعزل فيها، موقع أرَتني إياه قبل مدة طويلة، نشيجها وشى بمكانها، وجدتها جالسة ويداها حول ركبتيها، ترتعش كأوراق شجرة الرجراج في الرياح، ووشى بوجودي صوت انكسار غصن، وتسللتُ نحوها وجلست القرفصاء في أقرب مكان أجرؤ على الاقتراب منه.

قلت: «ما بالك يا لنيا؟ لا تكترثي بيدي، إنه مجرد خدش، فلننس الأمر».

مضت هنيهة قبل أن تجيب، وعندما أجابت تكلمت ووجهها مدفون بين ركبتيها: «ينبغي أن تسمع ما يقولونه عنك يا إريك».

لم أفهم ما تعنيه في بادئ الأمر.

- من؟

- أبي فخور جدًّا بالعمل في أرض أبيك، ويتحدث عن الورود الثلاث الكبير كأنه الشمس نفسها، كأن المحاصيل لا يمكن أن تنمو دون إرادته، وشقيقاتي يتبادلن النميمة بشأن أخيك وأصدقائه الضباط كأنهم جوائز في مسابقة جميعهن يعلمن قواعدها، يقضين كل لحظة فراغ في التأنق والتهندم، ويتعلمن الجلوس مهذبات بفساتينهن الجميلة وتطريز الأزهار بإبرة وخيط وإدارة شؤون المنزل وضبط اللحن وجعل أعينهن مغوية على أن تظل كلماتهن عفيفة محتشمة، أي كل المآثر التي تكفل لهن صيد رجل أغنى من الذي أنجبهن.

رفعتْ وجهها وكفكفت دموعها وجففت أنفها، حتى العينان المنتفختان ومسحة الحزن عجزوا عن تبديد جمالها.

أكملت: «وعليَّ أن أظل جالسة بصمت وأستمع. يريدني أبي أن أهجر الغابة وأعكف على النول، أو أدس أنفي في كتاب تعاليم المسيحية. شقيقاتي يغِظنني بسببك، رأيننا معًا، ويشجعنني لأنهن يحكمن على الآخرين بمعاييرهن. ولا يخطر لهن مدى عسفهن، أحدهم يولد لعائلة كولينغ، والآخر لعائلة الورود الثلاث، أحدهم لا يملك شيئًا، والآخر لديه كل شيء، يضطر أبي إلى التذلل في سبيل فتات مائدتكم، ويعتاد الأمر لدرجة أنه يغمره الحبور كلما استُحسِنت كلمات الإطراء التي يقولها. لا تريد شقيقاتي شيئًا بقدر ما يرغبن في مجيء اليوم الذي يتعالين فيه على الآخرين كما يتعالى الآخرون علينا الآن».

لم أسمعها تتكلم هكذا من قبل قط.

قلت: «لكن يا لنيا...».

لم تدعني أنهي كلامي. قالت: «لا أرغب فيما يرغبن فيه، أريد أن أكون وحدي، لم أرغب في رجلٍ قط».

لا بد أن حيرتي كانت بادية على وجهي، وعندما تابعت كلامها صار صوتها مسموعًا بالكاد.

- لكنني أريدك يا إريك الورود الثلاث، أنت ولا أحد سواك. وأدْتُ أحلامي القديمة، ولم أعد أعرف ما يمكنني أن أجرؤ على الحلم به الآن.

تفتحت بداخلي سعادة عارمة، وخرجت كلماتي من تلقاء نفسها: «أريدكِ أيضًا، ولا أحد سواك، وأعرف ما ينبغي لك أن تحلمي به، لأنه الحلم نفسه الذي رأيته بنفسي عدة مرات. أنت وأنا أمام القس يا لِنيا، زوج وزوجة».

هزت رأسها بحزن وقالت: «لا أريد أن أكون زوجة أحد النبلاء محبوسة في ضيعة، فأنصِّب نفسي حكمًا على الآخرين، وحولي من لا تمثِّل صداقتهم سوى تمويه لحسدهم».

ضحكتُ وقلت: «سوف يرث شقيقي «الورود الثلاث»، ونصيبي يكاد لا يساوي شيئًا. إذا كنتِ تتوقين إلى الحرية ودفع ثمنها بالفقر، فعرضي لكِ هو أفضل عرض».

داخلني شكٌّ مباغت، وصوتي الرجولي الذي تكلمت به للتو تحول مرة أخرى إلى تلعثم صبي.

قلت: «أعني إذا أردتِ».

كانت ما تزال تبكي لكن بدموع مختلفة.

قالت: «أجل! ألف أجل».

وطوقتني بذراعيها بقوة لم أشعر بها من قبل، وظللنا جالسين هكذا مدة طويلة، ومع عدم رغبتها في الافتراق عني، سارت معي إلى أن بلغنا المرج المتاخم لـ «الورود الثلاث».

ودَّعتني بلثم شفتيَّ، لم أقبِّل أحدًا من قبل قط، لكن الفعل قديم قِدَم الإنسانية نفسها، فأغمضت عينيَّ متجاوبًا معها والظلام خلف جفنيَّ يتموج بأشكال ملونة. كل الحب الذي حرمتني منه الحياة تدفق بداخلي عندئذٍ عبر ملامستنا، وُهبتُ ما كان ينقصني، فصرت كاملًا لأول مرة، ارتعش جسدي بأكمله إزاء هذا الحدث الجلل، خارت ركبتاي، وامتزجت دموعنا المالحة حيث التقت شفاهنا.

الفصل الرابع

شقيقي جوناس، الذي مُنح إجازة كي يساعد في عمليات الحصاد، كان أول من نبَّهني إلى أن حبي للنيا ليس سرًّا في «الورود الثلاث»، اصطحبني بعد يوم من وصوله إلى الإسطبلات بذريعة تعريفي بحصانه، وربَّت على كتفي وعلى وجهه ابتسامة ماكرة ساخرة.

قال: «إذن يا أخي الصغير، عُمال الإسطبل يقولون لي إنك تمضي فصول الصيف متقلبًا في القش مع ابنة إحدى مستأجرينا المزارعين».

ظللت واقفًا صامتًا، أحدق إلى الأرض وهو يردف ضاحكًا: «يقال إنها فتاة جميلة، لكن ابنة فلَّاح يا إريك! يمكنك بلا شك أن تحظى بأفضل منها، لطالما كنتَ وسيم الملامح، حتى إذا لم أستطع قول الكثير عن صفاتك الأخرى».

احمر وجهي خجلًا، فتسلَّى بحالي: «كما يقول الناس إنها غريبة قليلًا، وإنها منطوية على نفسها ومتعجرفة، حتى إنها محدودة الذكاء، وهذا أميل إلى تصديقه بما أنها تحتمل رفقتك».

لكزني في خاصرتي بمرفقه ليشير إلى مزاحه، وأصر على سماع التفاصيل الخليعة التي لا توجد إلا في خياله.

وعندما لزمت الصمت، لوَّح بإصبعه محذرًا إياي من أي عواقب غير مرغوبة قد تنجم عن العلاقة، وسيتضح لاحقًا أن تحذيره في محله حالما انتهت احتفالات الحصاد، في الأيام التي شغلتني مهامي عن لقاء لنيا شارلوتا، ليس بالطريقة التي قصدها، إنما باستدعاء أبي لي إلى حجرته، وتساءلت عمن أفشى سرنا.

لم أكن قد رأيت أبي وحده منذ عدة أسابيع، ولم ألاحظ إلا عندئذٍ مدى تأثر صحته بنوبة اكتئابه الأخيرة، بدا لي كأنه شاخ كثيرًا في ذلك الصيف القصير، ازدادت تجاعيد وجهه، وخف شعر رأسه، ولا بد أن وزنه نقص عشرين رطلًا على الأقل، صار خداه غائرين بعدما كانا ممتلئين، فتغيرت ملامحه تغيُّرًا أفزعني. كانت حجرته كئيبة رغم أبَّهتها، وستائرها مسدلة لتحجب شمس العصر. أشار لي بالجلوس على أحد الكرسيين اللذين يبدوان كأنه وضعهما قبالة بعضهما من أجل اللقاء.

أطلق تنهيدة عميقة قبل أن يتكلم: «سمعت من معلمك الخاص أنك تهمل دراستك».

طأطأتُ رأسي وأوجزت ردودي بدلًا من اللجوء إلى الأكاذيب.

وسرعان ما قرر أبي الدخول في صلب الموضوع: «هل أفهم أنك تنام معها؟».

احمر وجهي خجلًا، وسمعت نبضات قلبي في أذنيَّ. هززت رأسي.

فأطرق قليلًا قبل أن يطرح السؤال التالي: «لِمَ لا؟».

وفي أثناء الصمت الذي أعقب سؤاله، نهض وسار إلى النافذة، وظل واقفًا أمام الفجوة التي بين الستائر ويداه مشبَّكتان خلف ظهره.

قال: «أنت الابن الثاني يا إريك، وهذا أمر مؤسف لك، شقيقك هو من سوف يرث «الورود الثلاث» ويصبح سيدًا على الممتلكات، وينبغي لك بذل مجهود إذا رغبت في تعزيز مكانة عائلتنا، عليك أن تجد من يناسبك. إذا كنت مهتمًّا بالنساء، أعرف عدة فتيات آباؤهن مستعدون لدفع مهر معتبَر حتى يحمل أحفادهم ألقاب نبلاء».

طفرت دموع القهر من عيني، فلم تفُت رؤيتها على أبي فهز رأسه ممتعضًا قبل أن يعود إلى كرسيه.

قال: «لا تخطئ فهمي، لا أقول إن عليك أن تقطع صلتك بهذه الفتاة، لا، على الإطلاق، استمتع معها يا إريك، أطلق العنان لشهوات جسدك كما تشاء، وإذا انتفخ بطنها، فبوسعنا تحمُّل تربية النَّغل حتى إذا اضطررنا إلى إيجاد رجل ليتزوجها، وإذا أردت اتخاذها عشيقةً بعد ذلك، فلا مانع لديَّ، لكن لا

يمكن أن تكون زوجتك أبدًا يا إريك، لا أحد من عائلة «الورود الثلاث» يتزوج ابنة فلاح».

كفكفت دموعي وأنا أحضِّر ردي، وسمعت صوتي طفوليًّا، مكتومًا كأنه بين أرفف كتب وستائر ثقيلة: «عائلتها موسرة بما يكفي بالنسبة إليَّ».

وعندئذٍ احمر وجه أبي بدوره، لكن من الغضب، وقال: «إذن تُفضِّل كوخًا متداعيًا ما على منزل أسلافك؟ أتفضِّل حشية فراش قش يعج بالقمل على الأغطية والملاءات الحريرية ما دامت الفتاة بين ذراعيك؟ أتظننا نِلنا كل هذه الممتلكات دون تضحية وأنك حر في نبذ مجهودات أسلافك في سبيل افتتان صبياني؟».

لم أعارض مشيئة أبي إلا نادرًا، وندمت في كل مرة. وجدت الشجاعة التي أحتاج إليها في حبي للنيا.

قلت: «أحبها أكثر من أي شيء آخر، اتفقنا على الزواج بالفعل، ورغم أنه لم يُعلَن في الكنيسة بعد، أنا موقن أن الرب سمع كلماتنا».

انفجر رد أبي من شفتيه كأنه ماء ينبجس من فوهة غلاية: «ضحَّت أمك بحياتها من أجلك، وعندما خرجتَ منها أخيرًا شققتها نصفين. ترى ما عدد سنين السعادة التي لكانت بمتناولنا، أنا وزوجتي الحبيبة، لولاك؟ حرمتَني منها. وما الذي ستفعله لتسدد هذا الدين يا إريك؟ تريد أن تهدر حياتك من أجل فتاة فقيرة».

لاذ أبي بالصمت مدة طويلة، واستشعرت أنه يبحث عن طريقة يستعيد بها هدوءه، وبعد هنيهة تباطأت أنفاسه وتوقف ارتعاش يديه.

وعندما عاود الكلام خرج صوته متزنًا مرة أخرى: «سوف تبلغ الخامسة عشرة في ديسمبر، أمامك ثلاث سنوات قبل أن تبلغ السن التي تمكِّنك من اتخاذ القرار بنفسك».

- سوف أنتظر أي مدة.

رفع يده ليمنع أي مقاطعة أخرى وقال: «سأرسلك إلى الجنوب يا إريك، لديَّ شركاء عمل في سان بارثيلِمي، مستعمرتنا التابعة للتاج السويدي، وسأطلب منهم أن يجدوا وظيفة لك. وعندما تبلغ الثامنة عشرة، لن يكون

بمقدوري منعك من العودة إلى الديار ولن يمكنني فعل أي شيء سوى مناشدتك بالمنطق، لكن آمل أن تغير رأيك بعدما ترى المزيد مما يمكن أن تجده في هذا العالم».

نهضت بسرعة ودفعت الكرسي للخلف، وقلت: «أبدًا، لن أتركها».

وسرت نحو الباب بساقين مترنحتين، فلاحقني صوته إلى الخارج: «سوف تغادر، وإذا رفضت الذهاب، فلن يبقى لي خيار سوى إلغاء عقد إيجار والدها، لك الخيار».

هرعت إلى حجرتي، مدركًا أن أبي قد نصب لي فخًّا لا فكاك منه، أحسست بغضب يمور بداخلي، غضب لم أحس بمثله من قبل، اكتنفتْ بصري غشاوةٌ حمراء، واتسعت حتى شملت العالم بأسره. وعندما استعدت حواسي، وجدت نفسي واقفًا بين حطام الأثاث في حجرتي، فأغمضت عيني وفتحتهما مصدومًا من الدمار، عاجزًا عن الفهم، كما لو أنني شهدت عرضًا مسرحيًّا رُفع ستاره للتو لكن مشهدًا بأكمله لم يؤدَ فلم أستوعب سياق القصة، ثم دفعني الألم لأنظر إلى الأسفل، فرأيت مفاصل أصابعي تنزف وقبضتاي متورمتان وتغطيهما الكدمات. إذا لم أرَ الدليل ماثلًا في يديَّ لاقتنعت بأن معتديًا مجهولًا استغل فرصة فقدان وعيي لينزِل كل هذا الخراب.

هكذا كشفت القُبلة التي تبادلتها مع لِنيا عن جانب خفي من طبيعتي، غضب مكبوت يتربص مستعدًّا للانفجار كلما واجه حبي للنيا شارلوتا عائقًا ما، فقد ظفرت معها بشيء لا يمكنني احتمال خسارته، وظهرتْ قوى لم ألجأ إلى استدعائها مستعدة للانقضاض دفاعًا عما ظفرت به، نوبة الغضب هذه كانت الأولى، ويحزنني أنها لن تكون الأخيرة.

الفصل الخامس

ذهبت لأبحث عن لنيا شارلوتا في أقرب وقت ممكن، لكن لم أجدها في أي من أماكن لقائنا المعتادة، وعندما أسرجت حصانًا وقصدت مزرعة إسكل كولينغ، قيل لي إنها ذهبت لتقيم مع أقارب لهم. استشعرت الخوف في عينَي أبيها، إذ رأى في شخصي -أنا الفتى ذو الأربعة عشر ربيعًا- بعبعًا يهدد بفناء مستقبله. قدت حصاني عائدًا أدراجي إلى البيت، ودموع المرارة على خدي، فوجدت أم لنيا شارلوتا بانتظاري على جانب الطريق حيث تنتهي الحقول وتبدأ الغابة، كانت جالسة على صخرة ودعتني للقعود بجانبها.

قالت: «رأيتك من قبل بالطبع، أنت وابنتي لنيا، وحتى عندئذٍ رأيت أن علاقتكما لن تنتهي نهاية طيبة، لكن ما من شيء كان بوسعي فعله، إنها فتاة ذات إرادة قوية، ولم يسعني سوى أن آمل أن تخمد جذوة شغفكما من تلقاء نفسها».

نظرت في عيني وأردفت: «ظللت أخشى منذ مدة طويلة أنها ليست سوى أداة لهو بالنسبة إليك، ابنة مزارع لفتى نبيل يرقص معها في شهور الصيف».

- لم أمسها قط، أريدها زوجةً لي، وألتمس مباركتك.

استغرقت هنيهة قبل أن تجيب، لكنها أطلقت زفرة حرَّى أولًا وقالت: «بكتْ يا إريك، حتى كاد قلبي أن ينفطر، تعلقتْ بإطار الباب بقوة لا تجدها عند رجل بالغ. أعرف أن والدك سيرسلك بعيدًا، لكن رغم أننا قطعنا له وعدًا بأن نبعد لنيا شارلوتا عنك حتى مغادرتك، سأقطع لك وعدًا أيضًا، آمل أن تجد فيه عزاءً، وهو أنها سوف تنتظر، لنيا لن تتزوج حتى تبلغ أنت سن الزواج،

إنها لا تريد شخصًا آخر، ولم نتمكن قط من إجبارها على فعل ما لا تريد فعله. إذا عدت عندئذٍ، وكلاكما رغبتما في الشيء نفسه، فسوف تحظى بمباركتنا».

انهرت بين ذراعيها، وبعدما ودعنا بعضنا، خطرت لي فكرة مفاجئة واستدرت إليها.

قلت: «إذا كتبتُ لها وأرسلت الرسائل إلى هنا، فهل ستحرصين على إيصالها إلى حيث ينبغي؟».

ترددتْ لحظة، ثم أومأت، وعدت إلى المنزل لأكتب الرسالة الأولى من رسائل عديدة.

حُدد تاريخ مغادرتي ليكون في نهاية أكتوبر، فحظيت بمتسع من الوقت للاستعداد، ذهبت إلى المكتبة أملًا في العثور على شيء عن سان بارثيلمي، بيد أن أبي لم يكن عالِمًا، والكتب التي حوتها مكتبة المنزل كانت قليلة، وبعد بضع ساعات من البحث العقيم، استسلمت وعقدت آمالي على معلِّمي الخاص، وكالعادة وجدت لُندستروم جالسًا في حجرته، منكفئًا على شمعة وكتاب، رمقني بنظرة عتاب صارت شبه دائمة منذ أن بدأت لقاءاتي بلنيا تلقي بظلالها على دراستي، بذلت جهدًا كي أبدو نادمًا كسير الفؤاد، وتحدثنا عن وضعي حديثًا موجزًا، فَلانَ قليلًا. كان من الطبيعي أن تنتشر شائعات مغادرتي الوشيكة انتشار النار في الهشيم، وبذلَ كل ما بوسعه لإبهاجي، فساعدته في مسعاه بإخباره عن لقائي بوالدة لنيا.

قال: «لكن في هذه الحالة يا إريك، ما الذي يمكن أن يكون أفضل من هذا؟ إنها تنتظرك دون أن تتوقع شيئًا من جانبك، وفي مدة الانتظار من الأفضل لك أن تخوض بعض المغامرات، لا يمكنك أن تنتقل من صبي ما يزال يدرس إلى زوج دون أن تخوض تجارب في الحياة، وفي الحقيقة أتمنى لو كنت مكانك. كلٌّ من يوفرازسين وكارلاندر سبق أن زارا سان بارثيلمي من أجل جمع العينات، وفاهلبيرغ الذي ما زال هناك يرسل مكتشفاته، الأمر الذي يسرُّ الأكاديمية، لكنني متأكد أن هناك الكثير مما ينتظر الاكتشاف».

عندما بدأت أطرح عليه أسئلة طالبًا المزيد من التفاصيل، تغيرت تعابير وجهه من الحماسة الصبيانية إلى سيماء مثقف ذي تجاعيد عميقة، فأدركت أنه يحشد تركيزه ليستحضر جوانب معارفه العديدة، أخبرني بأن المستعمرة قائمة منذ عشر سنوات وأن الملك الراحل غوستاف بحكمته العظيمة استحوذ عليها من الفرنسيين مقابل الإعفاء من الجبايات في ميناء غوتنبيرغ في أفضل صفقة سُمع بها، كانت الجزيرة إحدى الجزر العديدة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي العظيم، وقيل إنها جنة استوائية كأنها انبثقت من قلم الروائي دانيل ديفو، ملائمة للمحاصيل التي يكلف شراؤها الدولَ أموالًا طائلة، كالقطن للملابس، والسكر لتحلية الطعام، والمولاص للمشروبات. والعاصمة غوستافيا سُمِّيت تيمُّنًا بالملك نفسه.

قلت له: «من يعيش هناك؟».

نقر لُندستروم أسنانه الأمامية بظفر إبهامه وقال: «الكثير من السويديين، على ما أظن، لكنك سوف تجد عونًا في معرفتك باللغة الفرنسية».

وعندما بدا لي أنه أفرغ جعبته من كل ما يعرفه عن الموضوع، طلبت منه مستحيًّا مسامحتي على سلوكي الذي كلَّفه عمله، لكنه هز كتفيه ببساطة، وقال إنه سيسامحني إذا وعدته بأن أجمع له بعض العينات الطبيعية، فوعدته.

مضت الأسابيع بطيئة ومملة، ومع اقتراب موعد الرحيل، جاء ابن عمي يوهان آكسل حازمًا حقائبه ليرافقني إلى سان بارثيلمي، وكان من الواضح أنه متحمس للمغامرة غاية الحماسة، وهذا بدا لي طبيعيًّا، فيوهان آكسل جاء متأخرًا إلى هذا العالم وليس بوسعه الاعتماد على ميراث، إذ سبقه عدة أشقاء أكبر منه، وكان يخطط للدراسة لكنه رحَّب بإمكانية أن يكتسب خبرات في مكان آخر أولًا. كما أن علاقتنا التي كانت وطيدة أحيانًا في طفولتنا، فترت خلال الشهور التي كنت أمضي فيها كل وقتي جوار لنيا شارلوتا، فبدا سعيدًا بتجديد صداقتنا، ووجدت عزاءً في حماسته.

أنهيت حزم حقائبي بسهولة، فقليل من أغراضي تناسب المناطق الاستوائية. عدَّلت الخادمات قمصاني وبناطيلي لتلائم المناخ الدافئ بدلًا من

مناخ الشمال الأقصى الذي اعتدناه، وجاء إسكافيٌّ ليأخذ مقاسات حذائي وحذاء يوهان آكسل، ثم عاد بعد بضعة أيام ومعه أربعة أزواج من الأحذية الجلدية سوف تستوعب، بقليل من الحظ، أقدامنا النامية في العام أو العامين التاليين. تمثل وداع والدي لي في كلمات مقتضبة كما قد يتخيل المرء، خلال لقاء قصير ومكتبه ينتصب بيننا. أشار إلى شيء على سطح المكتب، كان هدية وداعه، صندوق خشبي مرصَّع على نحو جميل، غطاؤه مثبَّت بمشبك، وعندما فتحته ورفعت الغطاء، وجدت بداخله مسدسًا، ذا ماسورة فولاذية مصقولة ومقبض ذي نقوش نحاسية معقدة، إلى جانب بضع رصاصات وقارورة بارود وقالب رصاص، ورأيت شعار نبالة عائلتنا فوق ماسورة السلاح إلى جانب نقش حروف اسمي الأولى.

الفصل السادس

لم تستغرق الرحلة إلى استوكهولم، حيث صعدنا على متن السفينة التي أخذتنا جنوبًا، سوى يومين، وفي يوم الجمعة في الحادي والثلاثين من أكتوبر عند الثامنة صباحًا، حملنا صناديقنا إلى اسكِنكل أمين حسابات السفينة، ثم جُهزت وثائق السفر وتلقينا مساعدة في حمل أمتعتنا إلى مرسى السفينة عند رصيف الميناء. كانت السفينة مربوطة بحبال ثقيلة لم تكن كافية لمنع سلم السفينة المتحرك من التأرجح للأمام والخلف على حصى الرصيف، السلم مصنوع من بضعة ألواح خشب مربوطة مع بعضها، ومع هذا مثَّل لي حدودًا مصيرية، أحسست بنذير شؤم عندما خطوت الأربع خطوات التي أوصلتني إلى سطح السفينة، فوجدت العالم قد اختلف اختلافًا كليًا، هنا كل شيء في حركة دؤوبة، يرافقها أنين وصرير ألواح الخشب وحبال الأشرعة والصواري، ورائحة نفاذة مصدرها البحر والقطران.

جرى كل شيء بسرعة، حلَّ البحارة المتمرسون الحبال التي تثبِّت السفينة ورفعوا الأشرعة، ودفعتنا ريح خفيفة إلى الخارج نحو بحر البلطيق، تناءت صفوف المنازل الملونة على امتداد رصيف الميناء، ثم غابت تمامًا عن الأنظار خلف منتجع الملك. لم نقطع مسافة طويلة في اليوم الأول، لكن في غضون أقل من أسبوع تركنا الأرخبيل خلفنا واعتدنا إحاطة المياه بنا من كل الاتجاهات على مد البصر. وسرعان ما تعلمت أن مزاج البحر يمكن أن يتغير في أي لحظة، وعندما تهب عاصفة يسود الرعب سطح السفينة، واليد التي تتولى الدفة من شأنها أن تكون الفيصل بين الحياة والموت. وفي أيام أخرى يربض البحر ساكنًا كأرضية صالة رقص، يمتد سطحه لامعًا شفافًا إلى درجة تتيح لنا رؤية الأسماك العجيبة التي تسبح قريبًا من السفينة. وفي

البحر رؤية اليابسة ليست مريحة بالضرورة، وفي الحقيقة يمثل خط الساحل الواقع باتجاه الريح مصدر خوف لكل بحَّار مخضرم يعرف أن أي نسمات مفاجئة من شأنها دفع السفينة إلى الصخور.

كان اسم السفينة «وئام»، وهو اسم كثيرًا ما يكون موضع سخرية الركاب وطاقم السفينة نظرًا إلى الشجارات التي تنشب حتمًا في مثل هذه المساحات المحدودة، التي ستكون منزلنا لثلاثة أشهر ونصف. يمكن قول الكثير عن الحياة على سطح السفينة دون أن أوفيها حقها، جميع الأماكن مكتظة، وما من سبيل إلى العزلة. كانت أسرَّتنا -التي نُجبَر كثيرًا على ملازمتها عندما تصيبنا الأمواج بالغثيان أو لأن الطقس عنيف فلا يُسمح لنا بالصعود إلى السطح- تتمثل في قطع قماش معلَّقة بحبال من حلقات مثبَّتة في العوارض، يسهل ترتيبها عندما لا تُستخدَم، وكان النوم المريح عليها فنًّا في حد ذاته، لكن بالكثير من التدرب تكيفنا معها سريعًا. وفي بادئ الأمر أضنانا دوار البحر، أنا ويوهان آكسل، لكننا لم نعد نحس به في غضون بضعة أيام.

أبحرنا متجاوزين جزيرة غوتلاند بعد أسبوعين، وعبرنا كاتِغات في منتصف ديسمبر، وأقمنا احتفالًا فاترًا بالكريسماس في خضم عاصفة على المياه الضحلة في دوغر بانك، حيث مالت السفينة على جانبها الأيسر حتى بلغ الحاجز المياه، وانتهت محاولات إنزال الشراع الرئيسي بتمزقه. وبعدما تلاشت جروف دوفر البيضاء خلف قمم الأمواج، لم نرَ يابسة مرة أخرى لمدة طويلة. صنعت مع يوهان آكسل لوحًا ذا مربعات وقطع شطرنج بسيطة، ورغم أنني كنت أعتمد على الحظ من أجل الفوز، لم تكن لدينا وسيلة أفضل لتزجية الوقت.

تسلل تغير المناخ إلينا ببطء شديد في أثناء عبورنا الأطلسي لدرجة أننا بالكاد كنا نلاحظ اختلاف يومٍ عن الذي يليه، حتى جاء يوم بعد مضي بضعة أسابيع صرنا أنا ويوهان آكسل نجلس جوار بعضنا عند حاجز السفينة ممسكين بخيوط صيد السمك ولا نرتدي شيئًا سوى بناطيلنا التي تبلغ

الركبتين، كانت الشمس باهرة، فجعلت أكتافنا تحمر في البداية لكن بعد مدة اصطبغت بالسُّمرة. ما من كثير يقال عن مسار رحلتنا عندئذٍ.

وقعت حادثة سوف أتذكرها نادمًا في وقت لاحق، كان يومًا مكفهرًا، عجز الجميع فيه عن الجزم بما إذا كانت السُّحب قد انخفضت أم أن الضباب ارتفع. كنت قد تسلقت الصاري الرئيسي، حيث وجدت مقعدًا جيدًا على عارضة أفقية، وبحلول ذلك الوقت كنت قد تعلمت أن كلما ابتعد المرء عن مركز السفينة ازدادت الحركة عنفًا، لكن البحر كان رائقًا لدرجة أنني كدت لا أحس بأي حركة، كان تسلق الصاري هو السبيل الوحيد للعزلة، صرت محاطًا بمساحة شاسعة من الماء والسماء، سرعان ما استحال عليَّ تبيُّن أين يبدأ أحدهما وأين ينتهي الآخر، وكانت المرة الوحيدة التي لا يستبد فيها الأسى والشوق بي عندما أفكر في لنيا شارلوتا، إنما تذكرت البهجة التي حظينا بها معًا والحُنُو، وظللت بالأعلى وقد ألصق الهواء الرطب قميصي الكتاني بصدري، وتدلى شعري على شكل جدائل دهنية، وبدأت أرتجف، فهبطتُ بأصابع خدرة وذهبت إلى أسفل السطح بحثًا عن ملابس جافة.

وفي حجرتنا الصغيرة وجدت يوهان آكسل منغمسًا في فِعلته فلم يسمعني إلا بعدما فات الأوان، كان قد فتح حقيبتي وشرع في قراءة رسالتي الطويلة إلى لنيا شارلوتا، الرسالة التي بدأت كتابتها بعدما غادرنا كوبنهاغن ولن أتمكن من إرسالها حتى نصل إلى وجهتنا. وعندما أدرك يوهان وجودي، التفت محمرًّا من الخزي وحاول أن يتلعثم بتبرير.

كان الأمر كما لو أنني قاطعت متنصِّتًا بينما أنا أبوح بأعمق أسرار روحي، أسرارٌ أخص بها لنيا وحدها. وللمرة الثانية غيرتْ مشاعري نحو لنيا شارلوتا طبعي الهادئ في الأحوال العادية، انتزعت الرسالة من يدَي يوهان آكسل، مرتعشًا من الغضب، وبيدين مرتجفتين سوَّيت الصفحات الملطخة والتفتُّ نحوه. ومرة أخرى، حدث كل شيء كأنما دخلت في فجوة زمنية، وعندما استعدت حواسي، لم أكن متأكدًا من المكان الذي كنت فيه، وجدتني على سطح «وئام»، وفي بادئ الأمر لم أفهم شيئًا عندما وجدت يوهان آكسل قد

بلغ السطح قبلي، ينزف من أنفه وقميصه ممزق. مرتجفًا بكل كياني تركت قبضتيَّ تتدليان إلى جانبيَّ وحاولت بلا جدوى السيطرة على لهاثي الذي يخز خاصرتي ويضخ مذاق الحديد في فمي، وأنزل يوهان آكسل أيضًا يديه اللتين رفعهما دفاعًا عن نفسه، ثم تغيرت نظرات قلقه إلى التعجب وهو يدرك ببطء ما حدث، وما كدت أقول بعض الكلمات المرتبكة حتى جاء القبطان دامب إليَّ بعدما أيقظه أحد أفراد الطاقم من غفوته للتو، أمسك بتلابيبي وزأر بأنني كنت على وشك قضاء بقية الرحلة محتجَزًا، لكنه تركني عندما لم تبدر عني مقاومة.

ويوهان آكسل، الذي نهض على قدميه عندئذٍ، جفف وجهه بكم قميصه، وأحاطني من كتفي وانتحى بي جانبًا، وسمعت في صوته خزيًا لا يقل عن الذي أحسست به.

قال: «سامحني يا إريك، دفع والدك منصرفاتي شريطة أن أحرص على عدم إقدامك على أي فعل طائش، وكان قد اشتبه في أنك وجدت طريقة للتواصل مع محبوبتك وأصر على أن أخبره بما تكتبه، فقبلت شروطه، ليس من أجله أو لمصلحتي، إنما من أجلك أنت، خدعتُ نفسي بالتفكير في أن تطفلي سيخدم مصلحتك. أعدك بأنني لن أكرر فعلتي، ومن الآن فصاعدًا سوف نكتب التقارير إلى والدك معًا، فلنعد أصدقاء مرة أخرى، وسوف أكون خير رفيق لك».

ابتسم إثر تلميحه إلى ألعاب طفولتنا، ومد لي يده، فصافحته ممتنًّا ونادمًا بالقدر نفسه.

لاحت لنا أنتيغوا في منتصف فبراير، وبعد صراع رياح عكسية لبضعة أيام والميناء أمامنا، وصلنا إلى سان بارثيلمي.

الفصل السابع

سأصف سان بارثيلمي حسبما لاحت لي عندما وقعت عيناي عليها أول مرة.

تسنى لنا متسع من الوقت لنشاهد الجزيرة من بعيد في أثناء رسو السفينة، كنت قد تخيلت جنة مزهرة وسط الزرقة الشاسعة، حيث تطوِّق أدغال كثيفة من الأشجار الغرائبية الحقولَ العامرة بقصب السكر والتبغ، بدلًا من هذا وجدتها صخرة جرداء قاحلة ناتئة فوق سطح المياه، يسودها اللون البني المصفر، ليس عليها غطاء نباتي سوى أحراش شائكة تحتضن التلال، وتربة رملية تتخللها شظايا الصخور رسمت حدودًا غير واضحة مقابل الأمواج على شكل مستنقعات ضحلة. خيَّبت سان بارثيلمي ظني، ولم يسعني سوى تبني كلمات هاركورت من تراجيديا «دي بيلوي»: *كلما رأيتُ المزيد من البلاد الأجنبية، ازداد حنيني للديار*. واسيت نفسي بحقيقة أننا نراها من الجانب المقابل للرياح وأنها ربما تبدو بحلة أزهى من نقطة رؤية أفضل. كانت العديد من السفن الأخرى في مأزق مثلنا، تنتظر بنفاد صبر تغير اتجاه الريح. مهما بدا مظهر الجزيرة، فقاصدوها كثيرون.

جاءتنا سفينة الإرشاد، وهي سفينة قطْر تحمل اسم «تريتون»، بعدما ظللنا ننتظر دورنا مدة طويلة، وقادتنا بين الصخور. كان الميناء حوضًا طبيعيًّا، تمتد بحيرة بين جرفين ناتئين، مياهها صافية إلى درجة أن القاع الرملي بدا لنا قريبًا بما يكفي للمسه، رغم هذا كان العمق كافيًا ليتيح لنا المرور، واجتزنا ببطء عددًا من السفن التي ترفع جميع الأعلام التي يمكن تخيُّلها.

عند نهاية الخليج تقع بلدة غوستافيا، التي نالت اسمها تكريمًا لمؤسس المستعمرة الملك الراحل غوستاف، كما أُطلق اسم غوستاف الثالث على حصن يتصدر التل المطل على البلدة، ونُصبت مدافع الحصن لتحمي مدخل الميناء، وكل صباح تحيي الفجر بدوِيٍّ. ومع اقترابنا رُفع علم على الرصيف لتحيتنا وردَّ قبطاننا بالأسلوب نفسه، ثم وُجِّهنا إلى مرسانا، وبعد ساعة أخرى تمكنت مع يوهان آكسل من الهبوط إلى قارب حملنا إلى أول أرض جافة أحست بها أقدامنا منذ أسابيع طويلة.

البلدة نفسها لم تكمل عامها العاشر، ورغم أنها تقع على الجانب الآخر من العالم، فهي سويدية وصارت تُعد ضمن الأكثر كثافة سكانية في البلاد. وقفنا عند طرف الرصيف مدة طويلة، محاولين استيعاب كل ما نراه من جديد، كل الأماكن نابضة بالحركة والحياة، تُنقل البراميل إلى الشاطئ وتصل قوارب صغيرة محمَّلة بفواكه وأسماك لم نرها من قبل. المنازل الأفضل حالًا مشيَّدة فوق أساسات حجرية وجدرانها وأسقفها من الخشب، بعضها محاط بما يشبه حدائق تناضل بلا جدوى الشمس التي تصب حممها علينا وتجعلنا ننضح عرقًا تحت ملابسنا الراقية التي توشحنا بها لخلق أفضل انطباع عنا. وفي كل مكان رأينا رجالًا ذوي بشرة داكنة، لم أرهم حتذاك إلا في الرسوم التوضيحية التي لم تفِهم حقهم، كانوا يعملون شبه عراة، وكذلك النساء. كما رأينا البِيض بأعداد كبيرة، يرتدون بناطيل وقمصان ذات ألوان فاتحة وقبعات تظلل وجوههم. وسرعان ما أدركنا أن ملابسنا تشي بوضوح بأننا أجنبيان، لذا ترددنا ونحن نشق طريقنا عبر الشوارع المغبرة. اتضح لنا أن الرجال الذين سألناهم عن اتجاه منزل الحاكم جميعهم فرنسيون، ورغم أن كلينا معتادان اللغة، كان نطقهم غريبًا ووجدنا صعوبة في فهمهم. سرنا مجتازين منازل تزداد تواضعًا كلما ابتعدنا عن الكاريناج، وهو اسم الميناء. وسرعان ما لم نعد نرى سوى أكواخ ذات أرضيات ترابية ومرقعة بألواح الخشب، وهذا لا يمنع قاطنيها من ممارسة شتى ضروب التجارة. ألفينا نفسينا في متاهة شوارع ما من علامة تميزها عن بعضها، وفي هذا المكان المتشابك وجدنا المزاج العام مختلفًا، مشبعًا بالعدائية، يترنح السكارى في الأرجاء، مرغِمين إيانا على إفساح الطريق لهم وهم يكيلون لنا السباب بالفرنسية والإنجليزية، ورأينا نساء عجائز يجلسن تحت مظلات مصنوعة من سعف النخيل ويزعقن بأسعار خدماتهن، وعندما

أدرنا لهن ظهرينا شكَّكن في رجولتنا. ولم يكن الرجال أفضل حالًا، إذ عرضوا علينا الرَّم ووجوههم تعلوها تعابير وقحة، واكتوت آذاننا بتعليقاتهم الازدرائية ونحن نهرع مبتعدين. تعقبنا أطفالٌ عراة من على البعد ليحدقوا إلى بنطالينا القصيرين وجواربنا الحريرية وسترتينا المزخرفتين.

وجدنا مقر الحاكم بعد لأي، أعلنَّا عن نفسينا عند الباب الأمامي، وأُدخِلنا إلى صالة جلوس أثاثها مزيج غريب من القطع المخيطة بلا عناية وأشياء جميلة لا بد أنها نُقلت من السويد، ثم قُدِّمت لنا جعة فاترة، وفي النهاية لوَّح لنا خادم لا يرتدي زيًّا مميزًا بالدخول إلى جزء داخلي من المنزل.

وجدنا الحاكم باجيه نفسه، وهو رجل بدين بين الأربعين والخمسين من عمره، قاعدًا إلى مكتبه مرتديًا قميصًا دون سترة، وتحت إبطيه بقع عرق كبيرة كأغطية البراميل، وعندما انحنينا له مسح وجهه المتورد بمنديل وحيانا بإيماءة وهو ينقِّب بين كومة أوراق ليخرِج رسالة كتبها أبي.

قال: «السيدان الورود الثلاث واسكيلدت، كنا نتوقع وصولكما قبل بضعة أسابيع، لكن مسار الرحلة غير متوقع دومًا بالطبع، ولا بد لي من الاعتراف بأنني ظننت أنكما ضِعتما قبل مدة طويلة. كما تريان أنني أستقبلكما بدرجة ملحوظة من العفوية، وفي المستقبل لن أطلب منكما أن ترتديا سوى الملابس الضرورية، فمثل هذه المناطق الاستوائية تتطلب منا أن نكون عمليين أكثر مما نحن عليه في الديار، ويجدر بكما أن تتكيفا مع تقاليدنا».

صب لنفسه كأسًا من إبريق زجاجي يحوي سائلًا داكنًا ذا رائحة غنية، وشربه بنهم.

وأكمل: «عددنا لا يكفي المهامَ التي عُهدت إلينا، ولدي دومًا مناصب شاغرة، سنرى عما قريب الوظائف التي تناسبكما، لكن هذا يمكن إرجاؤه، اسمحا لي بإخباركما القليل عن مستقبلكما المنظور، وإذا وجدتماني صريحًا جدًّا، فنصيحتي لكما هي أن تعتادا أسلوبي. جميع القادمين الجدد إلى سان بارثيلمي يصابون بالحمى سريعًا، ويدوم المرض قرابة أسبوعين، جميعنا حاولنا تجنبه، ولم ينجح أحد، فالمرض كامن في الهواء الذي نتنفسه، أو في الماء الذي نشربه،

أو في الطعام الذي نأكله. لكن معظم الناس يتعافون، وبعدها لا يصابون به. لكن ليس الجميع، فالضعفاء لا ينجون، كما هو الحال في كل مكان. لا شك لدي في أنكما ستوافقانني في عدم إهدار أي وقت حتى أعرف ما سيحدث معكما، لذا فإن أول أمر مني لكما هو التالي: عودا إلى الكاريناج واسألا عن منشأة أليكس ديفيز، واستأجرا غرفة، ثم امضيا الوقت القصير المتاح لكما قبل مداهمة الحمى في التعرف على غوستافيا أفضل معرفة ممكنة، وإذا أمكنكما اعثرا على فاهلبيرغ، وهو طبيبنا المحلي، ظل في المستعمرة منذ البداية، مثلي، وما لا يعرفه هو عن بارثيلمي لا أظنه يستحق المعرفة. أخبرا ديفيز بأنني أود العناية بكما في دور نقاهتكما. وما لم يخبئ القدر لكما أمرًا آخر، سوف أراكما هنا مرة أخرى حالما تستعيدان صحتكما. وفي هذه الأثناء قد تفيدكما معرفة أننا رسميًّا نخضع للقانون السويدي، لكننا نواجه مصاعب جمة في تطبيقه لأن الحامية صغيرة والخطايا كثيرة. توخيا الحذر، القوة تصنع الحق، ومن لا يملك القوة يجدر به تدبر أموره بحذر. حظًّا موفقًا أيها السيدان».

صَرَفَنا بتلويحة من يده وأعاد تركيزه على أوراقه، وانحنينا له وانسحبنا عائدين أدراجنا إلى الميناء. مادت بنا الأرض، ليس لأن جسدينا لم ينسيا تمايل سطح السفينة المستمر فحسب، بل وأيضًا بسبب قلقنا من كلمات الحاكم المنذرة بالسوء.

وفي طريق عودتنا إلى الشاطئ شهدنا أمرًا عجيبًا، رأينا رجلًا أسود متجهًا نحونا، شاقًّا طريقه معتمدًا على عصا تحت إحدى ذراعيه، فظننا في بادئ الأمر أنه ذو ساق واحدة، لكن عندما ألقينا نظرة من كثب رأينا أن الأمر ليس كذلك، فحول عنقه طوق حديدي مثبت به سلسلة تمتد حلقاتها على ظهره وتطوي ساقه اليمنى بشدة حتى تلامس قدمه أسفل ظهره، وعلى عنقه وكاحله أحدث المعدن جرحًا عميقًا نازفًا، ومع كل خطوة تند عنه أنَّة. وبعدما تجاوزَنا ببطء، شيعناه بنظراتنا محدقين ورأينا ظهره يحمل جراحًا على شكل خطوط متقاطعة. لم ندر ما خطبه.

التفتُّ إلى يوهان آكسل وقلت: «هل يكفِّر هذا الرجل عن ذنبٍ ما؟».

يوهان آكسل الذي ظل منذ وصولنا متحفظًا لا يفصح عن أفكاره كثيرًا، هز رأسه ساهمًا، وتشبث بصمته.

الفصل الثامن

كان أليكساندر ديفيز، ويُدعى أليكس، رجلًا إنجليزيًّا رشيقًا متين البنية يعيل نفسه بقدر مستطاعه، ينال دخله جزئيًّا من أحد حقول القطن المتواضعة في الجزيرة، لكن معظم اعتماده على النُّزُل والحانة اللذين يتولى إدارتهما، ويبدو على منشأته أنها ذات شعبية من عدة نواحٍ، فكل شيء مهترئ، وُضعت براميل السنديان في صفوف طويلة بوصفها طاولات للضيوف، وديفيز نفسه يغدو ويروح، متجاذبًا أطراف الحديث مع شتى الناس، حريصًا على ألا يعطش أي أحد، وطوال الوقت يتابع بدقة اللوح الذي يدوِّن فيه حسابات الزبائن.

ألقى علينا نظرة غير عابئة عندما وصلنا، وبلهجة الجزيرة حيث تمثل الكلمات السويدية والإنجليزية العمود الفقري للغة فرنسية بسيطة، زمجر لنا بأن غرفَه مليئة، لكنه رضي لنفسه بأن يُقنَع بتدبر غرفة مؤقتة لنا ما دمنا مستعدين لدفع مبلغ إضافي مقابل أتعابه. لم يقدِّم لنا خيارات كثيرة، وبسرعة ردد على مسامعنا الخدمات التي يمكننا تلقيها عندما تضربنا الحمى، ماء وقطعة صابون صغيرة ورَم ومساعدة من خادمة فيما يتعلق بالضروريات. ثم صب لنا قليلًا من الرَّم لتأكيد الاتفاق، ولم أقدر على الرفض، في البداية وجدت المشروب مريعًا، لكن بعد الحسوات الأولى ذات المفعول المخدر، تذوقت المولاس واليانسون، فلم يبدُ لي مقيتًا، وبخاصة عندما خفَّفته بقليل من الماء، كما ساعدني على تبديد التوتر الذي اعتراني منذ وصولنا إلى سان بارثيلمي وكل ما حولي يبدو غريبًا وينذر بالخطر. أوقات الغسق والفجر وجيزة جدًّا في هذه البقاع، إذ يهرع الليل بسرعة مفاجئة ويشتد حِلكةً إلى درجة لا يتخيلها أحد نظرًا إلى مدى سطوع الشمس بالنهار. في

هذا المساء الأول لنا في بارثيلمي ظننا أن أمامنا متسعًا من الوقت لنفرغ حقائبنا ونستكشف غوستافيا مزيدًا من الاستكشاف، مع اعتيادنا ساعات الضوء في الصيف السويدي، بيد أننا كنا مخطئين، وخارج الباب ارتطمنا بظلام كثيف أعجَزَنا عن رؤية أيدينا أمامنا.

وبالتالي صرنا عالقين في حانة ديفيز، وسرنا إلى الصالة العامة بحثًا عن وجبة مسائية حيث وجدنا أحداثًا غير معتادة، أُخليت دائرة في منتصف الصالة المفروشة بالرمال، ورأينا الناس يتدفقون من الشارع، بعضهم يحمل أقفاصًا، ومع تزايد الحشد، قُدِّم لنا خبز ولحم، وفي كل ركن من الصالة بدأت الأموال تنتقل من يد إلى أخرى في هيئة تذاكر صغيرة تُوزَّع، وسرعان ما أُطلِق ديكان في الحلبة ودُفعًا قريبًا من بعضهما إلى درجة لا يطيقها كلاهما حتى بدءا الهجوم وقد رُبطت شفرات صغيرة في أقدامهما، ووجدا تشجيعًا جامحًا من الحضور، وفي غضون بضع لحظات، بقر أحدهما بطن الآخر حتى اندلقت أحشاؤه، وبينما كان الحيوان المهزوم مستلقيًا على ظهره وساقاه ترتعشان، قبض الذين راهنوا بحكمة أموالهم. ثم استمرت الرهانات، وكومة أشلاء الديوك تنامت ببطء جوار الجدار.

صارت الصالة مليئة عندئذٍ لدرجة أننا لم نقدر على التحرك بسهولة، ورأينا أن الحكمة تقتضي أن نظل واقفين بدلًا من شق طريقنا بالتدافع، فصرنا شاهدين على مشاحنة مستعرة، كان رجل بادٍ عليه أنه أفرط في الشراب يطالب بإعادة نقوده من الرجل الذي أخبره بفرص الفوز، وسرعان ما ظهر بلطجي بينهما، وهو يعمل لحساب الأخير على ما يبدو، ولا يقل عن الآخر سُكرًا، لكن سكره لم يهم نظرًا إلى تفوقه الجسماني ومهارته، تلقى المُتظلِّم بضع لكمات قبل أن يشهِر خنجرًا طويلًا من حذائه ويطعن الرجل الضخم في خاصرته، فثارت ثائرة البلطجي، وجرَّد الرجل من سلاحه بركلة وأسقطه على الأرض بضربة على صدغه، وبعدها انهال بقدمه على حلقه ووجهه حتى تناثرت الدماء في كل مكان.

وعندئذٍ ربَّت سيده على كتفه إشارةً إلى أن ما حدث يكفي، فارعوى وسار مبتعدًا ليضمد جراحه، فحجب ظهره العريض عنا رؤية الرجل الممدد على الأرض، لكن بعدها رأينا أن وجهه شوِّه بحيث يتعذر التعرف عليه، محجرا عينيه صارا بركتين حمراوين، وفكه متدلٍّ إلى جانب، وحيث كان أنفه ما من شيء

سوى فوهة عليها شظايا عظام. شق ديفيز طريقه بمرفقه إلى الرجل الممدد واستمع إلى أنفاسه المتحشرجة، ثم هز كتفيه، وألقى نظرات ذات مغزى لأقرب الواقفين جواره، فاستداروا جميعهم بينما وضع صاحب الحانة يده على فم وأنف الرجل الصريع، الذي كان واعيًا بالكاد وبدرت عنه بضع محاولات مقاومة، لكن ديفيز أخرسه حتى توقف كاحلاه عن التخبط على الأرضية وانقطع تنفسه.

وفي أثناء حملِ الجثة إلى جانب ووضعِها جوار الديوك الميتة، زمجر ديفيز: «مرحبًا بكم في بارثيلمي يا فتيان، إذا أعجبكما عرض الليلة، فلدينا قتال كلاب هنا كل أسبوعين، وقتال زنوج كل ثلاثة أسابيع».

وقبل أن تتسنى لنا فرصة الهروب، رأينا فتى يستخدم مديته لانتزاع سن ذهبية غير ثابتة من فك الرجل الميت، ولم يجد اعتراضًا من أحد.

اضجعت مستيقظًا مدة طويلة في تلك الليلة، بسبب الحر ووجود كثير من الحشرات غير المرئية، التي بعضها مجنح وبعضها بأرجل عديدة، التي تعج بها غرفتنا وتبدو كأنها لا تحب شيئًا بقدر حبها الزحف على جلدي. وفي هذه البلدة الغريبة التي صارت دياري الآن، أحسست بشوقي للنيا شارلوتا جارفًا كما لم أعهده من قبل.

خرجنا في اليوم التالي لنبحث عن ساموئيل فاهلبيرغ، وجدناه في منزله، رجل يفيض صحةً وحيوية، بين الثلاثين والأربعين من عمره لكنه يتسم بعقلية شبابية. كان قد أنهى للتو وجبته الصباحية ودعانا لتناول القهوة معه. كان على وشك الخروج لزيارة أحد المرضى الذين يعتني بهم، لكننا اكتشفنا أن الجراحة ليست سوى إحدى مواهبه، فهو ذو معرفة واسعة بالجزيرة والبلدة، وأخبرنا بأنه قسَّم الأراضي ووضع تصميم الشوارع عندما وصل على متن *اسبرِنغتبورتن*، أول سفينة سويدية تستولي على الجزيرة.

قال: «ليس أمرًا أفخر به، إذ تريان النتائج بنفسيكما، توجد هنا عوامل مؤثرة لا تبالي بأي خط رأسي أو مسطرة».

أخبرت فاهلبيرغ عن المشهد الذي شهدناه في حانة ديفيز الليلة السابقة.

أبدى أقل قدر من الدهشة، ثم قال: «عندما وصلنا في البداية كانت بارثيلمي شحيحة السكان، وبحاجة إلى الناس كي نحصل على أي دخل من الضرائب، فبُث خبر أن الجزيرة صارت تحت الحكم السويدي، ولا تسري فيها سوى القوانين السويدية، ورأى كل محتال في منطقة الكاريبي أن هذه فرصة لبدء حياة عملية جديدة، وهاجروا أفواجًا، لصوص وقراصنة وقتلة، هؤلاء هم العيب الخفي الذي يقف عليه هذا العملاق. إنها معجزة صغيرة أن يتوفر عمل هنا لامرئ يعرف كيفية تضميد الجراح».

ذكرت لفاهلبيرغ أنني سمعت اسمه من قبل، من معلِّمي لندستروم في «الورود الثلاث»، فانتهز الطبيب كلامي فرصة سانحة للإسهاب في الحديث عن عدة مسائل ذات طبيعة علمية عن الجزيرة، من تضاريسها إلى حياتها النباتية. وعندئذ سرنا مجتازين امرأة تحمل سلة فواكه على رأسها، بشرتها فاتحة نسبيًّا، فسارع فاهلبيرغ إلى تلقُّف سؤالنا الذي لم نطرحه ونحن نتابعها بنظراتنا.

قال: «معظم الرجال في هذه الأنحاء يتخذون عشيقات ذوات بشرة داكنة، لم تصبح بارثيلمي سويدية منذ أكثر من عقد، لكن الإنجليز والهولنديين كانوا هنا منذ قرون وقد تكاثروا دون أن يردعهم رادع».

وتابع كلامه مُعدِّدًا جميع أنظمة التسمية العديدة التي يعرفها.

تجهمت تعابير يوهان آكسل وهو يطرح سؤاله بحزم: «لا أرى الكثير من الأراضي الخصبة هنا، وأحواض الملح قرب الشاطئ لا أظنها تدر ثروة، فعلامَ إذن يقوم اقتصاد هذه الجزيرة؟».

رمقه فاهلبيرغ بنظرة طويلة وقال: «إذا لم يُطلِعكما الحاكم على هذا الأمر، فمن المستحسن انتظار تفسيره، عليكما بالصبر حتذاك».

ثم تمنى لنا يومًا طيبًا ووعد بزيارتنا في حانة ديفيز حالما تصيبنا الحمى.

داهمتنا الرعشات في ذلك المساء نفسه، جاءت ليوهان آكسل أولًا، الذي بدأ يرتعش من البرد على الرغم من الحر، وجاءتني أيضًا بعد بضع ساعات فحسب.

الفصل التاسع

ذكرياتي عن الأيام التالية ضبابية، كنا طريحي الفراش، تُصلينا الحرارة حينًا ونرتجف من البرد حينًا آخر، وكانت إحدى خادمات ديفيز تجلب لنا المرق من وقت لآخر، وتغمس فيه قطع الخبز وتُلقمنا إياها، والقليل الذي أتمكن من ازدراده نادرًا ما أقدر على إبقائه في جوفي، كثيرًا ما كنت أتحسس مبولة الغرفة لأتقيأ، لكن التشنجات تباغتني فيندلق القيء على الأرض، فتتجمع خنافس وحشرات أخرى حول وليمتها. تعاقبت وجوه متذبذبة أمام ناظريَّ، الخادمة، وفاهلبيرغ، وديفيز، ويوهان آكسل ممتقعًا خائفًا في اللحظات التي تتمكن ساقاه من حمل وزنه. لم أعد بمقدوري التفريق بين الليل والنهار.

وعندما اشتدت الحمى عليَّ تصالحتُ مع فكرة أنني ألفظ آخر أنفاسي، وصار يوهان يهذي في السرير الذي جواري دون أن يقدر على بث القوة في كلماته، ثم بدأت أهلوس، ولم أعد قادرًا على تمييز الواقع عن الأحلام، تتابعت مشاهد عشوائية من حياتي أمامي، تنتهي إلى صورة واحدة لا تبرح خيالي: قُبلتها، قبلة لنيا شارلوتا التي صارت محور حياتي القصيرة، كل ما عشته بهت جوار هذه الذكرى، وبكل إرادة الحياة التي بقيت بداخلي أقسمت على بذل كل ما بوسعي من أجل عيش تلك اللحظة مرة أخرى.

ما أتذكره بعد ذلك كان ضوءًا يغشى الأبصار ونسمة مفاجئة، وعندما فتحت عينيَّ رأيت ساموبل فاهلبيرغ يقف جواري وعلى محياه علامات الرضا، والنافذة خلفه مفتوحة لتهوية الغرفة.

قال: «انقشعت الحمى يا إريك، مرحبًا بك في أرض الأحياء».

أدرتُ رأسي ووجدت السرير الذي جواري خاليًا، فقلت: «أين يوهان آكسل؟ هل...؟».

هز فاهلبيرغ رأسه وقال: «من بينكما أنتما الاثنين، السيد سكيلدت الصغير هو الذي أُنعِم عليه بالقدرة على المقاومة، وقد بلغ تمام الصحة قبل أربعة أيام والآن يؤدي المهام التي يكلفه بها الحاكم، ستبدأ العمل أنت أيضًا في غضون يوم أو يومين، احرص على تناول الطعام الكافي، نقص وزنك كثيرًا، وقد كنتَ سلفًا جلدًا على عظم».

بحلول العصر صرت قادرًا على الوقوف، لكن بشيء من الصعوبة، للمرة الأولى منذ أسبوعين طويلين حسبما سمعت. سرت مترنحًا إلى الشاطئ، واقتعدتُ الرمال الدافئة واضعًا بطانية على كتفيَّ.

وبينما كنت ساهمًا وأصابعي تنبش الرمال إلى جانبي، صادفت شيئًا غريبًا، وعندما رفعته وجدته حجرًا من نوع لم أره من قبل، يكاد يشبه غصنًا، أبيض وغشيته ثقوب دقيقة، لم أستطع تبيُّن طبيعته، لكن راودني إحساس مريح من ملامسته، وتذكرت وعدي الذي قطعته للندستروم بأن أجمع له بعض العينات. وعندما جاء يوهان آكسل بعد ذلك بقليل، دسست الحجر في جيبي.

غدوت بعد يومين مستعدًّا للعمل، ومثلتُ أمام باجيه طاهرًا من عرق الحمى ومرتديًا ملابس غُسلت للتو.

هنأني على شفائي وقال: «إذا تبيَّن أنك حاضر البداهة مثل ابن عمك، فستكون إضافة قيِّمة للجزيرة».

عُيِّن يوهان آكسل موثق عقود، لكن بسبب صغر سني لم يرغب الحاكم في اتخاذ قرار عاجل بشأني، مفضلًا اختبار قدراتي على أداء مهام عديدة، هممت بالاعتراض، بوقاحة بعض الشيء، على أن يوهان آكسل يكبرني بعام واحد

فقط، وأنني ينبغي ألا أُعاقَب لأنني بنيتي الجسمانية ضئيلة قليلًا وأبدو أصغر من سني، لكنني أمسكت لساني.

قال: «في البداية سترافق سكيلدت وتفتش الشحنات التي على متن السفن القادمة للتو، إنه يعرف التفاصيل».

التغير المفاجئ في مكانتينا تسبب في حرج لي وليوهان آكسل ونحن نسير إلى الكاريناج، وبدا أكثر انزعاجًا مني.

وانتحى بي جانبًا قبيل ركوبنا القارب الذي سيجدف بنا إلى السفينة الراسية وقال: «إريك، عرفتُ الكثير عن المستعمرة في الأيام القليلة الماضية، زرت سفينة مشابهة في وقت سابق من الأسبوع عندما كنتَ ما تزال طريح الفراش، من الأفضل لك أن ترى بنفسك لأنني لا أظنني قادرًا على التعبير بالكلمات المناسبة، لكنني أنصحك بالسيطرة على نفسك، أتعِدني بهذا؟».

دون أن أفهم السبب أومأتُ كاسف البال إثر سماعي هذه الكلمات التي جعلتني أشعر -للمرة الثانية في ذلك اليوم- بأنني طفل معاقَب.

جلسنا صامتين عند مؤخرة القارب وانطلق بنا المجدفون بإيقاع ثابت، كان الموج عنيفًا قرب الشاطئ فجعل منكبينا يرتطمان ببعضهما مرارًا كأنه يرغمنا على الانسجام مرة أخرى، لكن هدأت المياه مع ابتعادنا عن البر، وحالما انعطفنا عند النتوء رأيت السفينة، ومع اقترابنا اشتممت رائحة زنخة تتخلل الهواء فوق الأمواج، فرأيت يوهان آكسل قد ضغط مسبقًا منديلًا على أنفه، واضطررت إلى التنفس عبر فمي، بينما لم يطرف للمجدفين جفن. وعندما توقف قاربنا أخيرًا جوار سلم الحبال الذي أُنزل، تبددت شكوكي، هذه الروائح الكريهة قادمة من السفينة نفسها، وتساءلت عن الشحنة التي تحملها.

رحب بنا القبطان على سطح السفينة وعرَّفنا باسمه، جونز، نسيت اسمه الأول، ثم دار النقاش بالإنجليزية، ودوَّن يوهان آكسل ملاحظات في جدول

بيان. وردًّا على سؤال عما إذا كنا نريد أن نفتش الشحنة عن قرب، أجاب ابن عمي بالإيجاب، ملوِّحًا بأن أتقدمه ونحن نهبط إلى أسفل سطح السفينة.

وعندما مررت جواره مال مقتربًا وهمس في أذني: «تحلَّ بالهدوء، من أجلنا معًا».

اشتدت النتانة عندئذ لدرجة أنها بدت لي كأنها اتخذت شكلًا ملموسًا، فحركتُ ذراعيَّ حولي كأنني أبعد دخانًا أو ضبابًا. كان جوف السفينة مظلمًا، فأنار بحَّارٌ طريقنا بفانوس وواصل اقتيادنا إلى الأسفل، وأخيرًا توقف عند سلم شديد الانحدار ورفع شعلته ليضيء الظلام في الفراغ المنخفض الذي انفتح أمامنا، لم أر شيئًا في بادئ الأمر، ثم ظهرت مئات الأعين الوامضة، جميعها مصوَّبة نحونا. لا أدري ما التوقعات التي أثارتها بداخلي تحذيرات يوهان آكسل، لكنني لما تخيلت قط أن الجحيم نفسه جيء به عبر البحر.

كانوا جميعهم ممددين، عراةً في صفوف طويلة، كل واحد منهم مقيد بسلسلة إلى الآخر، والمزيد منهم بين الصفوف، وُضعوا بزوايا حتى يستغلوا كل شبر من الأرضية، رجال، ونساء، وأطفال، مكدَّسين في مساحة لا يزيد ارتفاعها على متر، يرقدون على فضلاتهم، بين البراز والقيء الدامي وبِرك البول التي تتأرجح مع الموج، وفي وسطهم تتمدد جثتان مقلوبتان ووجهاهما منكفئان على القذارة. وفي المكان طنين الذباب عالٍ إلى درجة أن أنينهم يكاد لا يُسمع إلا نادرًا. لن أنسى أعينهم ما حييت، أعينٌ تطفح غضبًا مستعرًّا إذ شهدت كل الضرب والإذلال الذي تعرضوا له، وأعينٌ -أسوأ بكثير- خاوية مجردة من التعابير مثل أعين الماشية، كأن دواخلهم ماتت منذ أمد بعيد.

وتحت هذا السطح سطحٌ آخر، مطابق له، ثم آخر، وآخر، لم نذهب أبعد من هذا. ومن عمق سحيق، حيث لا بد أن كل الفضلات وسوائل الجسد قد تجمعت، تصاعدت جوقة أصوات نواح بلغات أجنبية.

وبينما أتشبث بحبل حتى لا تخور رُكبتاي، أوضح البحار: «كل زنجي بالغ يشغل مساحة طولها ستة أقدام وعرضها قدم ونصف، والنساء أصغر قليلًا، وكل طفل يشغل مساحة طولها خمسة أقدام وعرضها قدم، هكذا يمكننا حمل قرابة خمسمئة عبد. بنو جلدتهم يبيعونهم لنا مقابل قطع رخام زجاجي».

استدرت وركضت إلى سطح السفينة، فقهقه جونز عندما رأى وجهي الممتقع، ثم تبعني يوهان آكسل إلى الأعلى.

والتفت القبطان إليه مجددًا، ثم قال: «طيب، كيف هي أحوال السوق حاليًّا؟ وماذا عن السعر؟».

أعطاه يوهان آكسل بعض الأرقام فتحركت شفتا جونز حركة صامتة وهو يجري حساباته الذهنية، وأخيرًا ابتسم ابتسامة رضا واسعة. عصفت أفكاري في رأسي حتى لم يعد بمستطاعي السيطرة على نفسي، وركضت إلى حاجز السفينة حيث أفرغت معدتي وكادت محتوياتها أن تنهمر على وسيلة عودتنا إلى الشاطئ.

والتمس يوهان آكسل لي الأعذار. قال: «كان ابن عمي مريضًا بالحمى ولم يستعِد قواه بعد».

وفي أثناء عودتنا أحاطني بذراعه وأنا جالس أرتجف تحت الشمس الحارقة.

قال: «أبليتَ بلاءً أحسن مني يا إريك، عندما رأيتُ هذا أول مرة أُغمي علي، وسارع باجيه بإلقاء اللوم على ضربة الشمس».

عبَّ نفسًا عميقًا من النسيم المنعش، ثم تابع: «هذا هو سر بارثيلمي يا إريك، صرت أعرفه منذ بضعة أيام، أكبر سوق رقيق في جزر الأنتيل تقع على أرض سويدية. لدينا ميناء حر هنا، لا يفرض رسومًا على البائع، ولا يفرض على المشتري سوى رسوم تصدير بسيطة. ظروفنا مواتية للغاية، الإنجليز -المتحالفون مع الهولنديين- أعلنوا الحرب على الفرنسيين، لذا نحن الميناء المحايد الوحيد في جزر الهند الغربية، وتجار الرقيق المتجهون غربًا ليس لهم مكان آخر يمكنهم الذهاب إليه».



الفصل العاشر

هكذا كانت أول نظرة ألقيها على قلب سان بارثيلمي المتعفن، ربما كان ينبغي أن أفطن إلى حقيقة الأشياء في وقت أبكر، لكن هذه قطعًا ليست أول مرة أستغرق فيها وقتًا أطول من الآخرين لأستوعب الحقيقة، لا أشك في أن يوهان آكسل راودته الشكوك قبلي بكثير، لذا كان على الأرجح أكثر استعدادًا للتكيف مع النظام الذي يسود الجزيرة. وبالنسبة إليَّ كانت تجربة لا تُطاق، وأصعب شيء كان النظر في أعين سكان غوستافيا السود، قِلةٌ منهم اشتروا حريتهم ويستمتعون بدرجة من الحرية، لكن غالبيتهم أرِقّاء يملكهم رجلٌ أبيض ما، قرأت في أعينهم المشاعر التي لا بد أنهم يضمرونها تجاه كل من يحمل لون بشرتي، وما من سبب يدفعهم لتمييزي عنهم، مشاعر الخوف والكراهية محجوبة بغلالة من الخضوع.

وفي قصر الحاكم سرعان ما وُجد أنني لا أصلح لمعظم المهام، لم أتفاجأ بأنني غير بارع مع الأرقام، لكن بدا لي كأن الجزيرة سلبتني مواهبي الأخرى. لم أكن أجيد التمثيل طوال حياتي، ولم يستغرق باجيه وجلاوزته وقتًا طويلًا ليتثبَّتوا من ميولي التعاطفية، فعدُّوني حساسًا، وبالتالي غير جدير بالثقة، فبدؤوا ينبذونني، ويغلقون الأبواب في وجهي، وينهون نقاشاتهم إذا ما اقتربت منهم. وبذريعة شد عودي وجدوا لي عملًا ملائمًا، وهو المساعدة في حفظ السجلات في النظام القضائي بالجزيرة.

أطلق باجيه ضحكة جافة عندما أبلغني بتعليماتي: «رغم أنك غير معروف بمهارتك في الحساب، لا أظنك ستفشل في رسم خطوط على ورقة».

دون أن أدري المدى الكامل لما ينتظرني، أخذت حقيبة أدوات كتابتي، ووضعت صفحات أوراق تحت ذراعي، وانطلقت إلى الحصن الذي بجانب التل شمال الخليج، وصلت متأخرًا، ووجدتهم في انتظاري بصبر نافد عند الحافة الصخرية حيث نُصبت المدافع لتأمين مدخل الميناء. كان المشهد مذهلًا، ومن بعيد بدت غوستافيا بلدة جميلة. وجدت مجموعة صغيرة، بينهم بضعة جنود من الحصن يرتدون أزياء ذهبت الشمس بألوانها، ولم يُخفِ الضابط المسؤول نظراته إلى ساعة جيبه توبيخًا لي على وصولي المتأخر، لكنه سرعان ما أدار ظهره لي ليبدأ العمل، كان جنديان يمسكان بامرأة سوداء بينهما، لا ترتدي سوى أسمال، وهزيلة إلى درجة بروز جميع أضلاعها، ولاحظتُ مرعوبًا أنها حامل، وبالنظر إلى حجم بطنها بدت في شهورها الأخيرة. وعلى الأرض أمامنا رأيت أربطة جلدية مثبتة بعجلات حامل المدفع، وخلفها إلى الوراء قليلًا عمودان مثبتان على الأرض.

وعندما اقتاد الجنديان المرأة إلى هذه التجهيزات المرتجلة، انبرى رجلٌ أبيض ونشب جدال بأصوات خشنة ولغة فرنسية استعصى عليَّ فهم معظمها، فهمت منها ما يكفي لأدرك أن الرجل هو مالك المرأة المُسترقَّة، وافترضتُ أنه يطلب الرأفة نظرًا إلى حالتها، لكن النقاش انتهى بإشارة من الضابط للجنديين، اللذين تقدما وشرعا في حفر حفرة في الرمل بين العمودين والمدفع. لم أفهم شيئًا.

قرأ مالك المرأة تعابير التشوش على وجهي، فتقدم وعرَّف بنفسه: «اسمي ديورات، أعتذر عن التأخير».

سألته بفرنسيتي المتعثرة عما يجري، فأطلق ضحكة من أعماق قلبه وربَّت على كتفي بقوة كما لو أنه يؤكد صغر سني وسذاجتي.

قال: «إنك جديد هنا، إليك طبيعة الأمور: تتباين أسعار العبيد تباينًا كبيرًا، القادمون من ساحل غينيا هم الأدنى قيمة، فهم لا يتكلمون لغتنا ونضطر إلى تعليمهم كل شيء، وإذا ساءت الأمور يميلون إلى العصيان مستلهِمين ذكريات حيواتهم التي كانوا يعيشونها ذات يوم. والأعلى ثمنًا هم عبيدنا الكريوليون، الذين وُلدوا هنا ورضعوا عبوديتهم مع لبن أمهاتهم، مطيعون وأقوياء وفطِنون».

هززت رأسي دلالةً على أنني ما زلت لا أستوعب كل شيء.

فقال: «ألا تفهم؟ إنها تحمل في بطنها عشرين مويت من الربح الصافي لي، ضعفا سعر العبيد الجدد، لذا أحرصُ على ألا يمسها أذى، والحفرة التي في الرمل من أجل بطنها».

اقتادوا المرأة على مرأى مني، ونزعوا الأسمال القليلة التي ترتديها، ثم أرغموها على الجثو على ركبتيها وتأكدوا من وضع بطنها في الحفرة، وربطوا يديها بعجلتي المدفع وساقيها بالعمودين، كانت تبكي بصمت.

ثم تلا الضابط عقوبتها: «ضُبطت الأَمَة أنطوانيت ثلاث مرات وهي تبيع البضائع بعد هبوط الظلام، مدركةً تمامًا أن هذا ممنوع. ثلاثون جلدة أمام الحرس».

نزع الجلَّاد قميصه وتركه متدليًا من خصره، سوطه بطول اثني عشر قدمًا، جديلة داكنة من الجلد المضفور. تراجعنا مبتعدين عندما بدأ، كان ماهرًا بحيث يضرب الجسد بطرف السوط كل مرة، ويجعل السوط يفرقع كطلق ناري يتردد صداه بين جدران الحصن، ممزِّقًا الجلد واللحم، مع تواصل الصراخ المرعب من الضحية، التي فقدت سيطرتها على مثانتها، فانساب ماؤها بخرير خافت إلى الحفرة التي فيها بطنها. لم أتخيل قط أن تكون ثلاثون جلدة بهذه الكثرة، أو أن يكون الزمن اللازم لإيقاعها بهذا الطول.

وعند الجلدة التاسعة عشرة، رفعت يدي وصحت: «ثلاثون!». بصوت بدا واهنًا مقارنة بفرقعة السوط.

لم يشكك أحد في حسابي، وحلَّ أحد الجنود الأربطة، وحمل مسترقَّان أختهما -التي بدت فاقدة الوعي لكن جسدها ما يزال يختلج بارتعاشات قوية- إلى نقالة وذهبا بها. تبعهم ديورات، ورمقني بنظرة أحدَّ من التي رمقني بها في أثناء حوارنا الأول.

مذهولًا بما رأيته عدت أدراجي سريعًا إلى غوستافيا. كان الاتجار بالبشر يُرى في كل مكان، عند الكاريناج يوجد سوق النخاسة، حيث تُقام المزادات كل يومين، وتُدَّخر أفضل البضائع ليوم الجمعة حينما تحتشد أعداد كبيرة من المشترين من الجزر المجاورة. كانت السفن تصل يوميًّا بشحنات جديدة. وجوار الأرصفة في حانة ديفيز وجدت الناس يتبادلون حكايات رعب، وفي

أثناء تناول عشائي جلست على مقربة من مجموعة فسمعت قبطانًا أخذ السُّكر منه كل مأخذ يشكو سوء حظه، كان قد أنهى رحلة عبر الأطلسي عائدًا إلى هولندا بشحنة سكر، واشترى كميات ضخمة من نوع الحُلي ذات القيمة لدى الأفارقة، وأبحر جنوبًا إلى غينيا، وهناك اشترى من الرقيق عددًا جعل هيكل سفينته يئن، وفي طريق عودته إلى جزر الهند الغربية، توقفت سفينته بسبب انعدام الرياح في منطقة الركود الاستوائي، انقضت أسابيع وهو عالق في البحر الساكن، حتى نقص مخزون الماء والطعام لديه، وعندئذ فعل الأمر الوحيد الذي يمكنه فعله في ظل تلك الظروف: اقتيد الأرقاء إلى سطح السفينة، جميعهم مقيدون بالسلسلة الثقيلة نفسها، ودُفع الذين عند الطرف إلى الماء، واستمر دفعهم الواحد تلو الآخر مدة طويلة حتى ازداد وزن السلسلة والأجساد التي سقطت في الماء، فسُحِب خلفهم الذين ما زالوا على سطح السفينة. بضحكة مرحة شبَّههم القبطان بدودة أم أربعة وأربعين سوداء طويلة تركت لطخات دموية إثر تهشم سيقان الأرقاء على السلالم والحواف، وسقط حاجز السفينة خلفهم على هيئة وابل من شظايا الخشب، واستمر تساقطهم في البحر حتى آخر واحد منهم، فصاروا وليمة لأسماك القرش التي صعدت من الأعماق. بصق القبطان على الأرض، ثروته بأكملها تلاشت في غضون لحظات! ثروته التي عمل عليها لأكثر من عام، وسيضطر إلى البدء من جديد! قال إن لطخات الدماء تعذَّر غسلها عن خشب السفينة، وظل يراها كل يوم بوصفها تذكيرًا بحظه العاثر.

أُرسِل إليَّ في وقت لاحق من ذلك العصر لأمثُل أمام الحاكم، الذي أفصح لون وجهه عن غضبه.

قال: «جاء فرانسوا ديورات في وقت سابق اليوم ليقدم شكوى، قال إنه أحصى الجلدات بنفسه، العقوبة كانت ثلاثين، ووفقًا لحسابك أعفيت المرأة من عشرة على الأقل. سؤالي لك يا إريك الورود الثلاث -وأنصحك بأن تزِن إجابتك بعناية- هو التالي: هل أنت مغفل؟ أم فعلتَ هذا متعمدًا؟».

طأطأتُ رأسي حتى لا أرى ردة فعله، وقلت: «ربما لا أجيد الحساب، لكنني لست سيئًا إلى هذه الدرجة».

هوى بقبضته على المكتب بعنف جعل المحبرة تتراقص، ثم قال: «اسمعني يا إريك، من المهم جدًّا أن نحرص على تنفيذ أي إجراء تأديبي تنفيذًا تامًّا. نشبت ثورة في هيسبانيولا، إذ ازداد عدد الرجال المحررين إلى درجة أغرت الذين ما زالوا مستعبَدين بأن يثوروا، لذا توجد مناطق كبيرة من الجزيرة خارج السيطرة ويبدو أنها فُقِدت تمامًا. وهنا أيضًا يفوقنا العبيد عددًا يا إريك، علينا ألا نبدي لهم أي سبب يجعلهم يشكون في قوتنا. أتعتقد أن المعروف الذي أسديته لها سيغير نظرتها إليك بأقل قدر؟ إذا كنت معها في غرفة وحدكما تحت حماية أي جدران أو أبواب، ومعها سكين، فستلفظ آخر أنفاسك في لمح البصر. لا شيء سوى تهديد السوط يضمن لنا الطاعة من بني جنسها، إنهم لا يتكلمون لغة سوى العنف. غدًا ستُجلَد المرأة الجلدات الناقصة، وإذا ظهر أي شك في الحساب عندئذٍ، فسيتوخى الجلاد الحذر في ألا يكون العدد ناقصًا».

انتصب واقفًا وتابع: «لكنك لن تتولى الحساب يا إريك، لقد فقدتَ ثقتي. ولا بد لي من الاعتراف بأن إيجاد أي عمل مناسب لك في هذه الجزيرة صار يمثِّل تحديًا لي، في الوقت الراهن سترافق ابن عمك وتساعده في أنشطته. غدًا ستذهبان في مهمة إلى الجزء الداخلي من الجزيرة، حتى أنت لن تستطيع التسبب في أي متاعب. إذا اضطررتُ إلى استدعائك إلى هنا لأي سبب مشابه، فسوف تكون العواقب وخيمة».

أحسست بتغيرٍ في مزاجه وهو يدفع رسالة على مكتبه نحوي.

قال: «ما فعلتَه يمثل جنحة جنائية يا إريك، ينبغي أن أعاقبك عليها عقابًا قاسيًا، تراودني رغبة قوية في حبسك أو جلدك الجلدات التي تجاهلتها، وسبب تساهلي معك هو رسالة وصلت في وقت سابق اليوم من غوتنبيرغ، إنها من والدك، وقد كتب إليَّ أيضًا، لذا أنا متأكد من فحوى رسالتك وأود أن أكون أول من يعزيك، تعرض شقيقك لحادث، سقط عن حصانه، لكنه لم ينجُ».

كانت الليالي في بارثيلمي مليئة بأصوات غريبة، في البلدة توقَد المشاعل، ويُسمع الزعيق والخوار من جميع الحانات، وبدا لي أن كل مبنى به حانة واحدة على الأقل، وتصدر حشرات غير مرئية إيقاعًا ثابتًا فتضفي على الظلام نبضًا. لم يكن مسموحًا للأرقاء بمغادرة أسِرَّتهم بعد هبوط الظلام، لكن كثيرين كانوا يعصون هذا الأمر، دون أي مخاطرة في معظم الأحيان نظرًا إلى تعذر الرؤية، ما داموا يتجنبون الشوارع التي يجوب فيها المراقبون الليليون، وحتى الذين يلزمون منازلهم عادةً ما يظلون مستيقظين ويغنون، فتنتقل الألحان نفسها من منزل إلى آخر، أغانٍ حزينة بلُغات حتى فاهلبيرغ لم يستطع فك شفرتها، أغانٍ أيقظت توقًا بداخلي أيضًا، ذكريات عن شقيقي، الذي كان يكبرني بعدة سنوات ولم نكن مقربَين يومًا، ثم حلَّت محل ذكريات شقيقي صورةُ لنيا شارلوتا، فأحسست بخزي لكنه لا يضاهي قوة رغبتي.

الفصل الحادي عشر

استيقظت غوستافيا إثر صوت انفجار قادم من الحصن، معلنًا حلول الخامسة فجرًا، فسارع يوهان آكسل بالنهوض على قدميه، وهزَّني حتى استيقظت، وحالما فرغنا من أنشطتنا الصباحية، خرجنا لنُسرج الحصانين اللذين جهزهما من الإسطبل في اليوم السابق، ووجدنا جميع الأرقاء يعملون بجد منذ بزوغ الفجر، وكثيرون منهم يتناولون إفطارهم في أثناء عملهم، أحسست بالذنب بشأن الوجبة التي استمتعنا بها للتو عندما رأيت ما يأكلونه، فبينما تناولنا رغيفًا خُبِز للتو وفواكه طازجة مع القهوة، تناولوا الوجبة نفسها التي تقدَّم لهم كل يوم: سمك رنجة مملح من السويد، يؤتى به عبر نصف العالم لكنه ما يزال أرخص طعام متوفر، وكانوا يأكلون بأصابعهم من أوعية القرع، وعلى العشاء رأيتهم يتناولون حساء مكونًا من الدقيق الممزوج بالماء، فلم يكن طعامهم يناسب مجهود عملهم الذي يمتص الحياة منهم.

وعند الرصيف كان التفريغ يجري على قدم وساق، عناقيد الموز والتبغ وجِرار الرم وبراميل المياه العذبة، التي لما وجدنا منها شيئًا في بارثيلمي إذا لم تهبط علينا كنعمة من السماء.

سرنا في الطريق صاعدين التل عبر غوستافيا، وسرعان ما وجدنا نفسينا وراء آخر المنازل في منطقة أراها من كثب لأول مرة، أحراش لا نهاية لها، كثيفة وشائكة بحيث يتعذر على أي أحد عبورها، وللأعلى أمامنا وجدنا الأرض جرداء يتخللها الحصى والصخر، مكانٌ مقفر بحق.

لا أظن أن يوهان آكسل لم يعرف بأمر التوبيخ الذي تلقيته من الحاكم، إذ لم يتساءل بشأن وجودي في مهمته، ورغم هذا بدا مُصِرًّا على أن يدعني أبتدر الكلام في الموضوع، وأنا من جانبي أحسست بحاجة إلى تنقية الأجواء:

قلت: «يبدو لي أنك سمعت».

أومأ.

فقلت: «أترى أنني أخطأت؟».

نظر إليَّ وفي عينيه شيء مبهم وقال: «لا، ونعم».

- تكلم بوضوح.

- يا إريك، إن ما نراه في هذه الجزيرة يثير تقززي بقدر ما يثير تقززك، يعتصرني الندم على أننا وطئنا أرض بارثيلمي وأترقب اليوم الذي نغادر فيه هذا المكان المريع. خفَّفتَ عقوبة غير عادلة ولا يمكنني لومك على هذا، لكنني أرجو أن تفكر بشأن عواقب أفعالك، فما فعلتَه كان واضحًا للجميع. الأَمَة التي خففت عنها ستُعاقب الآن عقابًا أغلظ، والموقف الواضح الذي اتخذتَه لن يُنسى، إذ لن تُعيَّن أبدًا في منصب يمكِّنك من فعل أي خير.

أحسست بالخزي من الحقيقة التي تنطوي عليها كلماته.

قلت: «أجل، إنك محق، إنك محق بالطبع، ورغم هذا ليس بيدي حيلة».

ابتسم يوهان آكسل وهز رأسه، وعندئذ كان قد اقترب مني بحيث أمكنه وضع يده على كتفي مواسيًا، ثم قال: «لو كنتَ مختلفًا عما أنت عليه لما كنت عزيزًا عليَّ إلى هذه الدرجة».

- أما من شيء بوسعنا فعله إذن؟

وضع ابن عمي إبهامه في زاوية فمه وراح يمضغ ظفره مستغرقًا في التفكير كدأبه دومًا عندما يقلب في رأسه أمرًا يمثِّل تحديًا.

قال: «لا يمكنني الجزم يا إريك، فلنصبر، ربما يحين الوقت، فوحدنا دون مساعدة لا يمكننا فعل شيء يُذكَر».

ظللنا صامتين برهة حتى سألته عن مهمتنا.

فقال: «إننا في طريقنا إلى إحدى الأراضي في أبعد مكان في الجزيرة، مزرعة قطن يملكها رجل يدعى تايشو سيتون، وهو سويدي يملك أرضًا هنا منذ عام أو عامين ويبدو غريب الأطوار».

- وما الغرض من ذهابنا إليه؟
- جميع العبيد الذين يعملون في الجزيرة ينتظمون أحيانًا في خدمة التاج وفقًا لجدول زمني منتظم، ليؤدوا مهامًا لصالح الجزيرة عمومًا، مثل صيانة الشوارع وتشييد المباني العامة وما إلى ذلك. تُبيِّن مستنداتنا أن سيتون اشترى عددًا ليس قليلًا من العبيد، لكن أيًّا منهم لم يشارك في عمل لصالح الحاكم، وأُرسِلنا لنتحقق من السبب ولنذكِّر سيتون بالواجبات المفروضة على جميع مُلاك الأراضي.

جزيرة سان بارثيلمي ليست كبيرة، يبلغ أقصى طول لها ستة أميال وأقصى عرض ثلاثة أميال ونصف، رغم هذا كانت رحلتنا إلى الجزء الداخلي منها طويلة، نظرًا إلى حالة الطُّرق وطبيعة الأرض الصخرية، سلكنا طريقًا متعرجًا عبر الأحراش إلى أرض مرتفعة، تربتها كبريتية ذات بقع سوداء وحمراء مثل خبث متناثر حول فرن صهر. ارتفعت الحرارة واستغل الذباب الصغير الفرصة لينهش كل جلد مكشوف. لم نتمكن من حث الحصانين على السير بسرعة لا توافق هواهما، وانقضت عدة ساعات قبل أن ننعطف عند منحنى، وأشار يوهان آكسل إلى مجموعة مبانٍ على مبعدة.

قال: «هناك، أراني فاهلبيرغ الموقع على الخريطة، الفرنسيون يطلقون على هذا الوادي اسم «كارتيير دو غراند كُل دو ساك»».

تحركت شفتاي وانا أترجم العبارة في ذهني.

قلت: «الطريق المسدود؟».

أومأ يوهان آكسل، وتابعنا السير.

وجدنا البيت الرئيسي قديمًا لكنه بحالة جيدة، وعلى مبعدة قليلًا بيت طويل مشيَّد حديثًا به حظائر دون نوافذ، ومبانٍ صغيرة أخرى منتظمة حول

باحة. وكان قاع الوادي مغمورًا برائحة كريهة أشعرتني بالغثيان لكنني سرعان ما وجدت نفسي قادرًا على تجاهلها.

رأينا رجلًا جالسًا في الظل تحت سقف بارز، يشاهد تقدُّمنا نحوه، إذ كنا باديين للعيان من المنزل منذ نصف ساعة، وعندما توقفنا عند الباحة النظيفة، وقعت عيناي على تايشو سيتون لأول مرة، طوله أقصر قليلًا من الطول المتوسط، لم يبلغ الثلاثين بعد على الأرجح، ما يزال مظهره شابًّا، يرتدي ملابس مهندمة ويضع قبعة ثلاثية الزوايا ذات حواف عريضة، وشعره معقود عند عنقه ذو لون أشقر من النوع الذي لا يمكن الجزم بأن له لونًا، وجهه متناسق ذو عظام وجنتين مرتفعتين وعينين يقظتين لونهما يميل إلى البنفسجي. لأمكن وصف سيتون بالوسيم لولا حقيقة أن ملامحه مشوهة بندبة غير معتادة، جرح عميق لم يندمل كما ينبغي ممتد من زاوية فمه راسمًا قوسًا متعرجًا نهايته عند أعلى خده، العضلات التي مُزِّقت التأمت بشكل مشوَّه، وكان من الواضح أن الجرح ما زال يزعجه، إذ ما زال يفرز صديدًا حيث يلتقي بفمه، مرغِمًا إياه على مسحه بمنديل من حين لآخر. وبالإضافة إلى الجرح الذي يخل بتناظر قسمات وجهه، أدركت سريعًا أثره الآخر، وهو خلق وهم في عين الرائي، إذ أثَّرت الإصابة في تعابيره فصارت تترك انطباع ابتسامة دائمة، وإن كانت ابتسامة بغيضة، كما لم يكن من السهل تمييز جدية كلام سيتون عن مزاحه.

رفع سيتون قبعته محيِّيًا وتكلم معنا بتهذيب بالفرنسية، لكنه رفع حاجبيه دهشةً عندما رد يوهان آكسل عليه بلغتنا الأم.

قال: «سويديان؟ حسنًا، من كان ليدري؟ مرحبًا بكما في «كل دو ساك»، نادرًا ما نحظى بشرف استقبال الضيوف».

اقترب منا رجل ضخم سفعته الشمس وذو أسنان قبيحة وأمسك بعنانَي حصانينا، كان هائلًا وذا عضلات كأنها حبال سفينة.

- هذا لويس جاريك، رئيس عمالي، إنه يطلب القليل ونادرًا ما يتكلم، يصلح مستودعًا للأسرار. *أليس كذلك يا لويس؟*

خاطبه سيتون بالفرنسية، وألقى جاريك عليه نظرة ناقمة.

دعانا سيتون للجلوس إلى طاولة على الأرضية الخشبية تحت المظلة، وقد أعدها سلفًا بثلاث كؤوس وخبز، ثم قدم لنا الرم لنخمد عطشنا، لكنه اختار لنفسه ماء نُقِعت فيه فواكه، شربنا ممتنين، وسرعان ما اتضح لنا أنه مضياف مهذب ومثقف، متلهف لسماع أخبار السويد، كما سألنا كثيرًا عن نفسينا، وكان يعيد ملء كأسينا متى ما أفرغناهما. وجدت نفسي سعيدًا بالحديث بعفوية مع شخص غير يوهان آكسل، فأخبرته عن «الورود الثلاث» وعائلتي ورحلتنا الشاقة عبر البحر، كان يصغي باهتمام ويدلي بتعليقات ليحثني على متابعة الكلام. ثم بدأ رأسي يدور من كثرة الكحول، وفي لحظةٍ ما تاهت كلماتي فلذت بالصمت، وابتسم سيتون لي ابتسامة دافئة.

قال: «من عاداتنا الخلود إلى الراحة في أحر أوقات النهار، وأنا متأكد أنك أيضًا تريد الاغتسال بعد رحلتكم، لويس سيرشدك إلى الداخل، وبعدما تستعيد نشاطك أود أن أريك الأرض».

وتبادل نظرة جادة مع يوهان آكسل، الذي أومأ.

استيقظت شاعرًا بصداع نابض في صدغَيَّ، ولوهلة فقدت إحساسي بالزمان والمكان، وأحسست بلساني متورمًا في فمي، وكنت وحدي في الحجرة التي اصطُحِبنا إليها، حيث أُفردت أريكة لكل منا ووعاء ماء معطَّر. وحالما خرجت مترنحًا، وجدت يوهان آكسل وسيتون يتناقشان في الباحة، والتفت الأخير نحوي بتعابير مبتهجة.

قال: «آه! كنتُ قلقًا من أن صديقنا الشاب سيحتاج إلى وقت إضافي حتى يتعافى، أهنئك على صحتك الجسدية الممتازة. إننا على وشك البدء».

شابك يديه خلف ظهره وتقدَّمَنا، وطوال الوقت راح يصف لنا ما ننظر إليه ويشير إلى تفاصيل عندما تقتضي الحاجة مزيدًا من الشرح. سرنا حول البيت، واجتزنا صف حظائر ونظرنا إلى حقول القطن، فلم نر شجيرة واحدة لم تجف وتذبل، كان الزرع مهمَلًا، والتربة جافة كالرماد، ولاحظ سيتون دهشتنا وبسط ذراعيه.

قال: «تخلى عني الحظ فيما يتعلق بالزراعة».

تنحنح يوهان آكسل على استحياء وقال: «أين جميع عبيدك يا سيد سيتون؟ وفقًا لسجلاتنا ينبغي أن يكون هنا ثلاثة وعشرون، اثنا عشر رجلًا وثمانية نساء وثلاثة أطفال».

- انتهى عمل اليوم وذهبوا للراحة.
- في هذا الوقت المبكر؟
- ها أنت ترى بنفسك حالة الحقول، لا يطاوعني قلبي على جعلهم يكدحون طوال اليوم دون طائل.

التفت يوهان آكسل نحو الحظائر التي بلا نوافذ وقال: «أود أن أراهم حتى أحصي كل واحد منهم من أجل سجلات الحاكم».

هز سيتون رأسه وقال: «لا أريد إزعاجهم خلال الوقت القصير الذي يرتاحون فيه».

- أخشى أنه لا بد لي من الإصرار.
- أيمكنك تخيل عناء العمل تحت الشمس كل يوم؟ أؤكد لك أنه أشق من عد الرؤوس. أحاول بقدر مستطاعي أن أجعل حياتهم هنا محتمَلة. سمعتَ ردي والآن قدمتُ لك التبرير، أظن هذا كافيًا لإرضائك.

وقفا ساكنين يحدقان إلى بعضهما لوهلة، قبل أن يرضخ يوهان آكسل ويشيح برأسه ويقول: «كما تشاء».

ابتسم سيتون، وحِدَّة طبعه التي أظهرها لوهلة تلاشت على الفور. سار بنا حتى انعطفنا عند زاوية وفجأة وجدنا أنفسنا أمام رابية ضخمة تنمو عليها مئات الزهور.

أومأ سيتون نحو المنطقة وقال: «جهودي في البستنة هنا كُلِّلت بالنجاح. إليكما زهرة فرانجيباني، اسمها العلمي بلومريا أوبتوسا، مصدر فخري».

وما كدت أستوعب هذا المنظر البديع وسط الأرض القاحلة حتى هب نسيم من الاتجاه نفسه حاملًا رائحة كريهة قوية نحونا.

وضع سيتون منديلًا على وجهه وأتى بحركة اعتذار وقال: «هناك أعشاب بحر متعفنة عند طرف المياه، وهي تمثل إزعاجًا لكل من يملك أرضًا قريبة

من الشاطئ، الرياح والتيارات تجرف شتى أنواع الحطام إلى هنا في ساحل بارثيلمي الشرقي».

ثم التفت إلى حوض زهوره وتابع: «في المساء تفتح الزهور بتلاتها فيملأ عبيرها الوادي، وهكذا نتجنب الرائحة النتنة في الليل على الأقل، وهذا ما ستلاحظانه إذا بقيتما مستيقظين مدة أطول. لا بد أنكما تفهمان أن الوقت قد تأخر ولا يمكنكما العودة الليلة، أدعوكما لتناول العشاء معي، إذ ما من شيء أتمناه أكثر من رفقة أبناء موطني».

الفصل الثاني عشر

اشتملت الوجبة المسائية على حساء أعقبه حمام مشوي إلى جانب خضراوات جذرية حلوة طُهيت على الفحم، فعددتها ضمن أفضل الوجبات التي قُدمت لنا في الجزيرة، وإن كانت لا شيء يُذكر مقارنة بالطعام الذي اعتدنا تناوله في الديار. وكان النبيذ قصة أخرى، إذ كان لدى سيتون قبو نبيذ ممتاز ويعرف كيف يحسِّن أي وجبة بسيطة باختياراته. حجرة الطعام متواضعة، كبقية المنزل، لكنها غنية الزينة بأشياء جميلة، ثريا معلقة من السقف، تشتِّت حوافها ضوء الشموع فيما حولنا، وشمعدانات مثبتة بالجدران المكسوة بورق حائط، وسجادة تركية منبسطة تحت أقدامنا. وبعدما تناولنا بضع كؤوس، لم يعد يذكِّرنا شيء بمدى بُعدنا عن ديارنا سوى الحرارة والبعوض الذي ينجذب إلى اللهب.

شارك سيتون بمعظم النقاش، وكان يوهان آكسل متحفظًا قليلًا، اقتصر نقاشنا على مسائل غير مهمة، مثل إنتاج الملح السنوي من الأحواض العديدة في الجزيرة، وضرورة بناء المزيد من الصهاريج لجمع مياه الأمطار، وأثر الحرب الفرنسية في التجارة. بدا سيتون واسع الاطلاع في معظم المواضيع، وبذلت ما بوسعي لأجاري ملاحظاته لكنني خشيت أن أترك انطباعًا سلبيًّا. أحسست بأثر النبيذ وإرهاق اليوم الطويل، فساعدني يوهان آكسل في الوصول إلى فراشي الذي أُعد لي. خلودي إلى النوم مبكرًا نفعني حتى إنني استيقظت نشيطًا فوجدت أن الوقت ما يزال ليلًا، فتلوَّيت وتقلبت حتى أجد وضعية تعينني على النوم، لكنني قررت أخيرًا التخلي عن هذه المحاولات العقيمة، وسرت إلى الخارج لأعرف ما إذا كانت رائحة زهور سيتون أفضل في الليل.

رأيت مجموعة نجوم تحبس الأنفاس تتلألأ فوقي على ستارة من المخمل الأسود، بأشكال غريبة لم يتسن لي الوقت لأعتادها، ورغم أن القمر قد غاص تحت خط الأفق، كانت الإضاءة كافية لي حتى أرى موطئ قدمي، وشرعت في السير في الاتجاه الذي ظننته صحيحًا، وسرعان ما أدركت خطئي عندما وجدت نفسي أمام المبنى الواطئ الذي خصصه سيتون لأرقائه، كان الباب الثقيل موصدًا بمزلاج حديدي وقفل، فأتاح لي اكتشافي أن أغير مساري وبحس المكان الذي اكتسبته للتو لم أواجه صعوبة في الاهتداء إلى حوض الزهور، حيث وجدت أن مضيفي لم يكن يبالغ، إذ كانت زهور الفرانجيباني تعبق الهواء بشذى مُسكِرٍ جميل، كل زهرة متفتحة وترنو إلى السماء، وتحت النجوم فقدت البتلات ألوانها. بدت كأنها ليست من هذا العالم، إنما أقرب إلى رؤيا شبحية، أو مشهد من الحقول الفردوسية. وفوقها أعداد ضخمة من العث ترفرف فوق الشجيرات وتملأ الظلام بجوقة أصواتها المكتومة.

وفي طريق عودتي رأيت بطرف عيني وميض ضوء، وعندما اقتربت أدركت أنه سيتون نفسه، جاء إلى الخارج ومعه غليونه، الذي يضيء وجهه مع كل نفَس. ابتسم لي، وتراقصت الظلال على ندبته فارتعدتُ.

قال: «ماذا وجدت؟».

- كما قلتَ يا سيد سيتون، إنها بهية.

- خاطبني بتايشو من فضلك، أتود شيئًا من التبغ؟

هززت رأسي، فسألني: «هلَّا جلست معي قليلًا على أي حال؟ أجد ساعة منتصف الليل أبهج وقت من يومنا الاستوائي».

جلست على كرسي قبالته ووجدنا نفسينا نتكلم بأريحية، طرح عليَّ أسئلة كثيرة عن «الورود الثلاث» وعائلتي، ولسببٍ ما أحسست بأن الحديث عن موت شقيقي مع هذا الغريب أسهل من الحديث مع ابن عمي.

أعرب سيتون عن تعازيه وقال: «أهو شقيقك الوحيد؟».

- نعم.

- أنا أيضًا شعرت بألم موت أحد أفراد الأسرة، رغم أنني طفل وحيد. رحل أبي، والتحقت أمي بدير راهبات، كلاهما تركا مهمة تنشئتي وتعليمي لشقيق أبي.

تكلمنا لمدة عن طبيعة الحياة الفانية، ولم ينقضِ وقت طويل قبل أن أبوح له بأمر لنيا وسبب نفيي، فسألني عنها عدة أسئلة. من بين جميع الذين قابلتهم خلال الشهور التي مضت منذ الصيف السابق، كان هذا الرجل الغريب أول من يأخذ مشاعري على محمل الجد، والوحيد الذي استمع إلى قصتي كأنها ليست مجرد طيش شاب.

أومأ عندما أنهيت كلامي وقال: «ربما ترى أن قدرك قاسٍ الآن، لكن فكر في عدد الذين يعيشون حيواتهم دون أن يُكِنُّوا مثل هذه المشاعر لأحد آخر. إننا متشابهان، وستُدهش إذا أخبرتك بمدى الشبه بين أسباب هجرتي وأسباب هجرتك، أنا أيضًا أضمرت رغبات لم يكن بمقدور مجتمعي فهمها».

غاص في الصمت ووضع غليونه على مسند ذراعه، ثم قال: «يسمونه «عصر المنطق»، كل الذين لا يستوعبون أن الإنسان تدفعه قوى أعمق من المنطق، وأن كل ما يفوق قدرة الإنسان على الفهم عادةً ما يُجابَه بمقاومة، وبدلًا من محاولة فهم الشيء، يختار الناس التخلص منه. لكن لنتوخى الإنصاف، نحن الذين ندين لهم بتعاطفنا، لأولئك المخلوقات البائسة التي لم تعرف معنى الشغف يومًا. لكن رغم هذا فهم يحكمون العالم، رغم عدم جدارتهم. وها نحن نرى العواقب من حولنا، خُلق الإنسان ليكون حُرًّا، لكنه يرسف في الأغلال في كل مكان».

لم يسبق لي أن سمعت كلمات أكثر إثارة للإعجاب على لسان مالك رقيق، وصمتي وشى بي. نظر سيتون فيما حوله بحذر، رغم أنه لا أحد كان يسمعنا.

ومال نحوي وخفض صوته حتى صار همسًا: «لستُ ما أبدو عليه يا إريك، تذكر هذا، آمل أن يأتي يوم أستطيع فيه أن أشرح لك كل شيء، لكن حتى ذلك الحين أطلب منك أن تثق بكلامي».

ظل جالسًا محدقًا إلى الظلام لمدة، قبل أن ينتشل نفسه من شروده ويلتفت إلي ويقول: «كم تبلغ من العمر يا إريك؟».

- سأبلغ الخامسة عشرة في ديسمبر القادم.

- تمر الأعوام سريعًا، كما سترى. قريبًا ستفعل ما يحلو لك. أتحب إقامتك هنا حتى الآن؟

رغم جهلي بحقيقة الأشياء عندئذٍ، بذلت ما بوسعي كي لا أجرح مشاعره فحاولت حجب مشاعري خلف كلمات مضللة: «تبدو بارثيلمي أحيانًا كأنها مكان تخلى الله عنه».

ساهمًا نفث حلقة دخان تلاشت مبتعدة في ظلام الليل.

قال: «هل أنت مؤمن؟».

أومأت، لكن بشيء من التردد، وقد فوجئت بسؤال لم يُطرح عليَّ قط، سؤال يلمِّح إلى حرية الاختيار التي لم يخطر لي وجودها.

تابع كلامه بعد نفثتين من غليونه: «أنا عن نفسي أجد صعوبة في الإيمان بإله يبدو في كل موقف يمكن تخيله أنه يقف بجانب الخُطاة ويعيق طريق الصالحين المطيعين».

تذكرت ردًّا من كتاب قرأته من قبل، من كتب أمي، كتبه فرنسي كان اسمه يجعل أبي ينخر كأن الرجل هو الشيطان نفسه.

قلت: «بلا شك أن الله ليس مسؤولًا عن كل الشرور التي في العالم، إنما نحن البشر نسينا فطرتنا الأصلية وبنينا مجتمعًا يتجاهل تعاليم الله».

مال نحوي وصار وجهه قريبًا من وجهي وقال: «لكل منا معتقده، لكن فساد المجتمع لا بد أنه بادٍ للجميع. ربما ينبغي ألا توجد تشريعات تقيد الإنسان عدا التي أصلها من الطبيعة. ما مقدار ما لم ينجزه أمثالي وأمثالك مع وجود قيود كهذه؟ ألن تكون هذه هي الحرية الحقيقية يا إريك؟».

اعتدل في جلسته وأخذ نفسًا عميقًا من غليونه ورنا ببصره إلى النجوم، ثم أردف: «ربما ينبغي أن يكون القانون بأكمله هو أن تفعل ما يمكنك فعله».

كنت جالسًا إلى يساره، وعندما حاولت اختراق الظلام بعيني لأقرأ تعابير وجهه، لم أر سوى جانبه المجروح ولم أعرف على وجه التأكيد ما إذا كان يبتسم أم لا.

لاحظ تعابير الحيرة على وجهي فضحك قائلًا: «اعذرني، حس دعابتي لا يروق للجميع، وإذا أظهرته لك مبكرًا فلأنني نادرًا ما أشعر بأواصر القربى تنمو سريعًا بيني وبين شخص آخر».

ضرب غليونه بحذائه ليفرغه من الرماد، ونهضنا لنتمنى لبعضنا ليلة طيبة.

قال: «أعرف أن كثيرين في غوستافيا لا يرغبون في شيء بقدر رغبتهم في الحديث عني بالسوء مع كل من يسأل عني. يسعدني أنني وأنت نفهم بعضنا، وآمل أن تتمكن من إحسان الظن بي رغم أولئك الماكرين وحكاياتهم الوهمية».

أومأتُ له إيماءة صامتة ولم أحر ردًّا، لكن إيماءتي كانت كافية لتهلُّل أساريره، وأوشك أن يضع يده على كتفي.

قال: «لا أعرف عن والدك غير ما أخبرتني بي، لكن رجلًا ينبذ ابنًا مثلك ليس سوى أحمق. يجدر بك أن تعرف أنك مُرحَّبٌ بك هنا في «كل دو ساك» إذا احتجتَ إليَّ أو سنحت لك الفرصة، سأطلب من جاريك الاعتناء بحجرتك من الآن فصاعدًا، وسوف أتشرف إذا شعرتَ بأن بيتي بيتك. طابت ليلتك».

الفصل الثالث عشر

في الصباح، عندما هزني يوهان آكسل فأعاد لي وعيي بالعالم، أحسست بأن نومنا طال أكثر مما ينبغي، ورغم هذا وجدنا سيتون في انتظارنا عند مائدة إفطار ودعانا للانضمام إليه. كان على المائدة قهوة في إناء فضي يتصاعد منه البخار وخبز وسمك رنجة. وبعدما فرغنا من الأكل، بدأ سيتون يحصي نقودًا على الطاولة.

قال: «حاولت تقدير المبلغ الذي تكفَّل التاج به مقابل كل العمل الذي لم يؤدِّه عبيدي، هلا تلطفت بمراجعة حساباتي يا سيد سكيلدت؟ لدي مِعداد هنا إذا احتجتَ إليه».

بسط ورقة مليئة بأرقام أمام يوهان آكسل، الذي رفض المعداد بهزة من رأسه، ثم أجابه بعدما تتبع الأرقام بسبابته: «يبدو الحساب صحيحًا، لكن المبلغ الإجمالي أكثر مما ينبغي».

- ارتأيت أن الحاكم باجيه يمكنه أن يعد المبلغ الإضافي تعويضًا شخصيًّا عن المتاعب التي سببتُها أو... إذا شاء الحاكم، دفعًا مقدمًا مقابل أي تقصير مشابه مستقبلًا.

عبس يوهان آكسل وقال: «لا أظن أن مكتب الحاكم عادةً ما يسيِّر شؤونه بهذه الطريقة».

نظر سيتون إلى ابن عمي مبتهجًا، والابتسامة التي ظننت ذات مرة أنني رأيتها على شفتيه كانت ابتسامة المخضرم المتسامح مع براءة الشباب.

قال: «إذا لم تعاشر حتى الآن سوى أناس يرفضون المال الذي يُمنح لهم دون شروط، فإما أنك ترعرعت بين قديسين وإما أنك لم تكن منتبهًا الانتباه

الكافي لما يجري حولك. لكن هلَّا تركنا كل هذه الاعتبارات للحاكم نفسه؟ ضع ردِّي بين يدي نيافته، كارل فريدريك باجيه، الرسالة معي هنا. وهلا كتبت لي إيصالًا بالمبلغ الذي استلمتَه؟».

وبحركة رشيقة مد سيتون ريشة مأخوذة من طائر استوائي ما، ثم جلب حبرًا وورقة وقَّعها يوهان آكسل على الفور.

وفي الباحة بالخارج، وجدنا جاريك مع حصانينا وقد سُقِيا للتو وجاهزان. لوَّح سيتون لنا مودعًا من ظل شرفته المسقوفة، وانطلقنا تحت الشمس اللاهبة. انقضت مدة قبل أن يتكلم أحدنا، وكان توتر ابن عمي باديًا من وضعية كتفيه، لذا بددتُ حاجز الصمت عندما نفد صبري.

قلت: «ما الذي يُثقِل كاهلك يا يوهان آكسل؟».

أبطأ ابن عمي حصانه حتى نسير جوار بعضنا، ثم قال: «لا يوجد عبيد في تلك المزرعة، رغم أنه ينبغي أن يوجد أكثر من عشرين، والحقول ذابلة وما من أثر لأي عمل أُنجَز. عندما خلدتَ إلى النوم، ظللتُ مستيقظًا وتحدثت مع تايشو سيتون مدة طويلة، وبعدما سألني عدة أسئلة عن رأيي في شؤون التاج السويدي في بارثيلمي، قدم لي تفسيرًا في نهاية المطاف».

- طيب، وماذا قال؟

قضم يوهان آكسل أحد أظفاره ساهمًا، وبصقه على جانب الطريق وراح يسوِّي طرف الظفر المثلم بأسنانه، وقد شهدت عادته السيئة هذه عدة مرات من قبل.

قال: «تفسير أود أن أصدِّقه. قال إنه ممتعض مثلي ومثلك من العمل الذي يجري في بارثيلمي».

أومأت متلهفًا وقلت: «أنا أيضًا تحدثت معه على انفراد، وقال لي الأمر نفسه».

إثر كلماتي اعتكر وجه يوهان آكسل بالقلق وأوقف حصانه وقال: «متى تكلمت معه؟».

- خرجت لأتشمم زهوره، وكان ما يزال مستيقظًا.

- لا أريدك أن تقابله وحدك يا إريك، حتى أتحقق مما قاله، أتعدني بهذا؟

تزايد ضيقي حتى استحال سخطًا شديدًا وقلت: «وهل ستعاملني دومًا كأنني طفل؟».

ألقى عليَّ نظرة مشبعة بالتعاطف إلى درجة آلمتني، كأنني لم أصبح واعيًا بما يكفي لاتخاذ القرارات التي تصب في مصلحتي.

قال: «لم تنضج بعد يا إريك، وتتسرع في إحسان الظن بالناس، حتى إذا لم يبدر منهم سوى القليل لينالوا ثقتك، وهذا ليس أمرًا تخجل منه، إنما العكس تمامًا. لكن مشاعرك بادية للجميع، مما يجعلك عُرضة للاستغلال. لن أخفيك شيئًا، لكنني أريد أولًا أن أتحقق من أمر المزرعة، هل تعدني بالابتعاد عن «كل دو ساك» حتى أتيقن من الأمر؟».

ربما كان عطشي والحرارة هما ما جعلاني نكِدًا على غير عادتي، لكن نبرة كلامه الحانية أججت غضبي. تحدث سيتون معي بوصفي نِدًّا له، وهو أول من يعاملني هكذا في بارثيلمي، لكنني ما كدت أبتعد عنه أكثر من ميل أو نحوه حتى عومِلتُ بتعالٍ مجددًا.

قلت: «لأن إريك الورود الثلاث الصغير لا يمكنه الاعتناء بنفسه، صحيح؟ إنه ليس سوى ابن عمك غريب الأطوار، لا فائدة منه وخطر على نفسه. لا قدَّر الله أن يرى شخصٌ ما فيه شيئًا عدا عن فرصة لتحقيق مصلحة شخصية! لكن فلتعلم يا يوهان، إننا نعرف بعضنا كما نعرف أنفسنا».

اكفهرت نظراته وقال: «ما الذي تعنيه يا إريك؟».

- قلتها بنفسك، دفع أبي تكاليف رحلتك حتى تلعب دور جليسة أطفال وتراقب كل ما أفعله. من الآن فصاعدًا سأختار أصدقائي بنفسي.

قلت هذه الكلمات لأجرحه فحسب وسأندم عليها عما قريب، لكن في لحظتها كانت الدماء تغلي في عروقي، ودون أن أنتظر منه ردًّا لكزتُ خاصرتَي حصاني بكعبَي حذائي، فنخر الحيوان متفاجئًا وركض بأقصى سرعة يقدر عليها، وقد كان حصاني الأسرع من بين الحصانين، فاستحال على يوهان اللحاق بي.

لا بد أنني أخذت منعطفًا خاطئًا عند مفترق طرق فاستغرقت عدة ساعات حتى أجد الطريق إلى غوستافيا، لحسن الحظ الطرق ليست كثيرة، والجزيرة

ليست كبيرة بما يكفي ليتوه المرء فيها. وعندما تركت حصاني في الإسطبلات وعدت إلى نُزل ديفيز، كان المساء قد حل، لكنني لم أجد يوهان آكسل في حجرتنا ولا في الأماكن العامة، وسعدت بلقاء ساموبل فاهلبيرغ، الذي أشفق عليَّ وطلب مني الجلوس إلى طاولته.

قال: «لم أر أثرًا لك أو لاسكيلدت بالأمس».

أخبرته بإيجاز عن مهمتنا فقال: «تايشو سيتون؟ لم أقابله قط، لكنني أتذكر إقامته القصيرة في هذه البلدة قبل أن يشتري أرضًا على الجانب الآخر من الجزيرة. استُدعي أحد زملائي إلى أحد المواخير في غوستافيا لعلاج الإصابات التي سبَّبها سيتون، ولم يمض وقت طويل قبل أن يجعل من نفسه شخصية غير مرغوب فيها في كل مكان. كيف وجدتَه؟».

تذكرت تحذير سيتون بشأن الشائعات التي نُسجت حوله.

قلت: «مُضيف رائع، خضنا نقاشًا طويلًا سعدت به، لم يكن من الصعب عليه أن يلاحظ أنني أواجه مصاعب في الاستقرار هنا في بارثيلمي فأبدى تعاطفه معي».

تفرَّسني فاهلبيرغ هنيهة، غارقًا في التفكير، ثم غيَّر مجرى الحديث: «سأخبرك عن مخلوق عجيب وجدته هنا في الجزيرة ذي صلة بأبحاثي العلمية، إنه وحش غريب يبدو من الوهلة الأولى كأنه عنكبوت مفرط النمو، ويتسم بالعديد من خصائص تلك الحشرة المميِّزة لها، لكن بعد فحص دقيق وجدت أنه ليس عنكبوتًا على الإطلاق، إنما ينتمي إلى عائلة العقارب، فدُهشت، لكن بمرور الوقت تسنت لي فرصة مراقبة سبب اللغز، هذا العقرب، الذي ليس له ذيل وزباني ظاهرة، يفترس العناكب الأخرى التي تخطئ معرفة طبيعة عدوها فتسمح له بالاقتراب حتى يتمكن من الهجوم دون خوف من الفشل».

أنهى فاهلبيرغ كلامه وأسند مرفقيه على الطاولة أمامه، مائلًا إلى الأمام وناظرًا إلى عينَيَّ فوق إطار نظارته المشققة.

قال: «هل تفهم ما أحاول إخبارك به يا إريك؟».

لم أدرك المغزى من كلامه لكنني أومأت على أي حال، مترددًا، وبعدها بوقت قصير تمنينا لبعضنا ليلة طيبة.

وبالأعلى في الغرفة، كنت آمل أن أرى يوهان آكسل، وإذا لم أتراجع عما قلته، فعلى الأقل أوضح له مشاعري على نحو أفضل. لكن وجدت الغرفة خالية، وعندما نظرت في أرجائها رأيت أن العديد من أغراض ابن عمي لم تعد موجودة، رغم أنه بدا كأنه حزم أغراضه بعناية حتى لا يُظهِر أنه يخطط لقضاء الليلة في مكان آخر. انتابتني رغبة مفاجئة في تفقد أغراضي، واكتشفت أن المسدس الذي أعطاه لي أبي لم يعد موجودًا في صندوقه.

الفصل الرابع عشر

قصدتُ قصر الحاكم في وقت مبكر من اليوم التالي لأسأل عن يوهان آكسل، وفي البداية تجاهلني السكرتير، لكن باجيه نفسه لمحني وهو يغادر مكتبه حيث كنت أقف لا أدري ما ينبغي لي فعله.

قال: «الورود الثلاث، ابن عمك مزاجي حساس، لم أظنه هكذا. أتعرف إلى أين ذهب بحق الجحيم؟ لدينا حسابات هنا بحاجة إلى تسوية».

أجبته بأنني لا أعرف مكانه وقد جئت لأسأل السؤال نفسه. متضايقًا فرك باجيه طبقات الشحم في عنقه حيث نال البعوض كفايته من الدماء.

وتابع: «تشاجرنا بالأمس، أصر اسكيلدت على العودة إلى «كل دو ساك» رغم أنني قررت أن عملنا هناك انتهى، يوجد الكثير من الأمور المهمة هنا لن تحتمل تخيلاته غير الواقعية. ورغم أنني لا يمكن أن أُحاسَب على عدم اللباقة مع الموظفين، أُقِر بأنني تماديت قليلًا».

أتي باجيه بحركة من ذراعيه وأكمل: «لكن كل ذلك كان من أجل مصلحته. لم أوبخه إلا لأنني لمست فيه مقدرات كامنة ورأيت أنه يستحق العناء، خلافًا لـ... حسنًا، لك أنت يا الورود الثلاث، لأكون صريحًا».

بدا الحاكم محرَجًا قليلًا من استعجاله في كلامه وأدركت أنه ثمل إلى حدٍّ ما، وغيَّر مجرى الحديث: «ما هو انطباعك عن تايشو سيتون؟ بدا اسكيلدت متحفظًا بشأنه، رغم أن الرجل دفع للتو المبلغ المطلوب منه وكلَّف نفسه عناء كتابة تفسير معقول لي».

لوَّح بيده ليسكتني عندما بدأت أتلعثم بإجابة، وقال: «انس الأمر. عندما تقابِل اسكيلدت أخبره بأننا سنفتح صفحة جديدة، وإذا جُرِحت كبرياؤه قل

له إنني لم أقصد تأنيبه لأنه قلِق على ابن عمه، بصرف النظر عن مدى تفاهة ابن العم المعني، وأنني كنتُ تحت تأثير النبيذ، ومستقبلًا ينبغي أن يحذر الجدال معي في وقت متأخر من اليوم. هيا الآن يا الورود الثلاث، اغرب عن وجهي».

وتركني في مكاني دون أن أفهم شيئًا.

وجدت معلومة عند عمال الإسطبلات التي استأجرنا منها حصانينا. أخذ يوهان آكسل نفس الحصان الذي ركبه المرة الماضية وانطلق إلى الجزء الداخلي من الجزيرة مع بزوغ الفجر.

نبش رئيس العمال الضخم أنفه وتفحَّص محصِّلته باهتمام وهو ينخر ويقول: «كما أخذ معه مجرفة».

لم أعرف مأخذ يوهان آكسل على سيتون ولا غرضه من العودة إلى «كل دو ساك» دون موافقة الحاكم. استشعرت خطبًا، لكن يوهان آكسل لطالما كان راجح العقل وقادرًا على الاعتناء بنفسه، ولمستُ هاتين الصفتين لدى سيتون أيضًا. وعليه رأيت أن المحصلة الطبيعية للمسألة برمتها ستكون أن الاثنين سيزيلان أي سوء تفاهم ويتصالحان، وقررت الانتظار.

في غياب يوهان آكسل وجدت نفسي بلا شيء أفعله، لم يكن أحد بحاجة إليَّ، ووقتي لي وحدي. شققت طريقي نحو البحر لأتمشى بمحاذاة الشاطئ، وسرت حتى اعترضتْ طريقي أشواكٌ تمتد حتى طرف المياه. ومن حين لآخر كنت أسير مبتعدًا نحو الأحواض التي تحجز مياه البحر عند المد فتبخِّرها حتى يبقى الملح الذي يجمعه الأرقاء بالمجارف في أكوام بيضاء شاحبة. ذكَّرني شيءٌ بالحجر الغريب الذي وجدته بين الرمال في وقت سابق، وساعدني بحثي عن المزيد على تزجية ساعات عديدة، وكانت محصلتي حفنة من الأشياء المتشابهة التي استعصى عليَّ إدراك طبيعتها الحقيقية، كانت

مليئة بالثقوب وثقيلة في الوقت نفسه، جميعها تحمل الخصائص الغريبة نفسها، بعضها يبدو كشظايا وبعضها متقوِّس ومستدق.

وفي اليوم الثاني من الانتظار، سئمت من وسيلة تسليتي ورحت أذرع شوارع غوستافيا، رأيت أن التجارة هي شريان حياة المستعمرة ومنتشرة في كل مكان، كانت الزوارق الصغيرة والكبيرة تصطف وتفرِغ بضائعها بمحاذاة الرصيف. وكلما وصل تاجر رقيق إلى الميناء، ينزل طاقم سفينته بمجموعة أرقاء مقيدين بسلاسل صدئة، صفوف طويلة منهم تجعل الناس الآخرين يمسكون بأنوفهم ويشيحون بوجوههم، حتى يُقتاد الأرقاء إلى الشاطئ لغسل قشور القذارة عنهم، ومن هناك يُقتادون إلى السوق لعرضهم في المزاد، كان كثيرون منهم تبدو عليهم أمارات الجنون بعد رحلتهم الطويلة: أعينهم تحدق بوحشية، وأفواههم تزبد، وفكوكهم تمضغ اللاشيء.

كان كثيرون من القباطنة يحرصون على عدم خسارة أرباحهم بلا داع، فيستدعون فاهلبيرغ، الذي رأيته بين الحشود، تبعته لمدة وهو يسير من مُسترَق إلى آخر معلنًا تشخيصًا مقتضبًا: «إسقربوط. إسقربوط. حمى. إسقربوط». لم يبدُ أنه يحاول تحاشي مرافقتي، وربما مثَّلتُ له إلهاءً بسيطًا عن مهمته المقيتة.

قال: «معظم الذين نفحصهم يحملون أعراضًا من النوع الذي يتوقعه المرء عند كل من قطع رحلة مشابهة، لكن هنا في الجزيرة توجد أيضًا حالات تمثِّل تحديًا».

توقف وأشار مشمئزًا إلى أنه يود رؤية أسنان الرجل الذي أمامه.

تابع: «نسميه مرض الحنين، وهو بلاء يصيب كثيرًا من العبيد القادمين حديثًا، أرى أنه هوس بذكرى موطنهم الأصلي الذي حُرموا منه، توقٌ شديد إلى درجة أنه يظهر على شكل أعراض جسدية، الأنفاس تصبح قصيرة متلاحقة، وتتباطأ نبضات القلب، لا يتناولون طعامًا ولا شرابًا، والذين تستمر أعراضهم مدة طويلة لا ينجون».

- ألا يوجد علاج؟

التفت فاهلبيرغ إلى الرجل التالي في الصف وألقى عليَّ نظرة رافعًا أحد حاجبيه.

قال: «يوجد علاج يبدو بدهِيًّا».

اجتزت سوق النخاسة عائدًا إلى النُّزل، ورغم أنني كنت أسير مُكِبًّا على وجهي إذ رأيت من الفظاعات ما يكفيني لبقية اليوم، استرعى انتباهي أحد الأرقاء المكبلين في انتظار نقله إلى حقل سكرٍ ما في أحد أقاصي الدنيا، لم يكن يند عنه سوى النخير وقد وُضع على فمه لجامٌ يثبِّت فمه بوضعية نصف مفتوحة، ويلوح بذراعيه مهتاجًا.

اعتدت حقيقة أن ألوان جلود الأرقاء متباينة الدرجات، لكنني لم أرَ واحدًا كهذا قط، عاريًا كما ولدته أمه، جسده متعرق ومبقع كأنه مصاب بمرض ما، بقع متدرجة من الأسود الداكن إلى درجات أفتح، لم يبق له شعر وعلى فروة رأسه آثار الشفرة التي جزَّته. ووجهه داكن فلا يبدو منه سوى بياض عينيه ويحمل آثار ضرب مبرح، وانثالت دموعه وهو يتوجه إليَّ بعويله، مقتربًا مني بقدر ما تسمح له السلسلة التي حول عنقه. وتسنى لي الوقت لأفكر في أنه على الأرجح أحد الذين بلغوا مرحلة متأخرة من مرض الحنين، قبل أن يحول بيننا رجل إنجليزي خشن المظهر وينهال بعصاه على منفرج المسترق بضربة توحي بالتمرس.

سقط الشاب، وتكور جسده الأرقط من الألم، ثم زمجر الإنجليزي بي: «إنه ينهش ويضرب إذا وجد فرصة. أشعر بأنني خُدعت رغم أنه لم يكلفني مبلغًا يُذكر. ابتعد عنه».

لم أعد أسمع من المسترق سوى نشيجه، وظللت أسمعه مدة طويلة بعدما استأنفت سيري.

الفصل الخامس عشر

الكتابة في الليل مسعى شاق، ولم أنتبه سوى اليوم لتغيُّر الفصول، نُسي الشتاء منذ أمد بعيد، وانقضى الربيع، وسينتهي الصيف عما قريب. ارتطمتُ الليلة بحقيقة أن نافذة غرفتي تُركت مفتوحة فلاحظت فورًا أنني أحس بالبرد، واشتممت رائحة أوراق الأشجار الرطبة.

الأمر سيان عندي. أمضي أيامي ذاهلًا عما حولي بسبب عقار الثيبايكا الذي أتعاطاه، وساعات النهار لم تعد سوى حلم يرفض الرسوخ في ذهني. يحرصون على أن أشرب، ويختبرون دمي، ويقلبونني في فراشي. لا أستيقظ تمام الاستيقاظ إلا مع حلول الشفق، في الساعات القليلة بين منتصف الليل والفجر عندما لا يأتي أحد لمنحي الجرعة. أمضي هذه اللحظات العصيبة بريشة إوز، وأتوق إلى شروق الشمس.

في وقت سابق اليوم أفقت مدركًا ما حولي وعرفت السبب سريعًا، رأيت زائرَين في غرفتي، ومن سلوكهما استنتجت أنهما ظلا يحاولان منذ مدة طويلة أن يستخلصا مني إجابات، ولا أتذكر إذا ما أجبتهما أم لا. أحدهما كان ضخمًا ذا هيئة مخيفة، والآخر على النقيض منه، نحيل شاحب ويتكلم بصوت خافت. بذلت كل ما بوسعي لأهرب من زائرَيَّ الفضوليَّين إلى خَدَري وذهولي، لكن انسحابي لم يحدث سريعًا بما يكفي، وسرعان ما أتاحت لي أسئلتهما التكهن بغرضهما، جاءا ليحققا العدالة، التي لا بد أنهما ظلا يبحثان عنها منذ مدة طويلة كي يُنزلا بي عقابي الذي أستحقه. جزء مني تمنى لو استطعت الارتماء

عند أقدامهما والاعتراف بجريمتي، لكن الخوف والمخدِّر شلَّاني، ورغم أنني تمكنت من سماع بعض كلماتهما، لا أظنني أظهرت أي ردة فعل.

وبإحباط متزايد حاولا حثي على الإجابة، لكن اتضح لهما عقم مسعاهما، كاد الضخم أن يفقد أعصابه، وفي محاولة منه ليستعيد سيطرته على نفسه، ضرب إطار الباب بقبضته اليسرى، فنبهني صوت الارتطام إلى حقيقة أنه يعاني خطبًا ما، وهو أن يده مفقودة، وقد حلت محلها كتلة خشب منحوتة. ما زلت أتذكر اسم النحيل لأن الضخم ناداه به، كان اسمه وِينيه.

ربما يؤذِن ظهورهما بنهاية فترة وجودي هنا، فلا بد أن أسرع إذا أردت أن أكتب كل ما لدي قبل أن يستدعيني القدر.

الفصل السادس عشر

بدا الوقت الذي خصصته للانتظار كأنه بلا نهاية، إذ لم أحس بعزلتي كما أحسست بها بين حشود غوستافيا التي تضم البحارة والأرقاء وشتى الوضيعين. استيقظت مبكرًا في صباح اليوم الثاني، ودفعت الأجرة مقدمًا لرئيس العمال في الإسطبل الذي توطدت معرفته بي حتى صار يخاطبني باسمي الأول، ثم انطلقت. كانت هذه هي المرة الثالثة التي أسلك فيها الطريق الذي يصل بين غوستافيا و «كل دو ساك»، لذا سهُل عليَّ شق طريقي، وعندما توقفت لأول مرة عند مفترق طرق حتى أختار بين اليمين واليسار، سمعت صوت حصان يقترب خلفي، ومن خلف منعطف هناك ظهر جاريك، رجل سيتون، حياني وهو مرتبك قليلًا.

لم يحدث أن وجدت نفسي وحدي برفقته، وهو لم يبدُ رجلًا اجتماعيًّا أنيسًا. راح يوجهني إلى الدرب الصحيح، وظل يرافقني قرابة ميل. كان يعاني بشدة آثار بعد ثمالة لم يحاول إخفاءها، وفي فترات منتظمة يخفف عطشه بجرعات نِهمة من القنينة التي يحملها في جيب سترته. وبفرنسيته الخرقاء قال إنه ذهب إلى غوستافيا نيابة عن سيده، ليوصل بعض البضائع، وقاطع نفسه بضحكة خافتة مفاجئة لم أفهمها، لكن كلامه لم يكن من السهل دومًا استيعابه، وبما أنه على الأرجح كان يحاول إبداء حس دعابته، ضحكت معه بداعي التهذيب، فازدادت بهجته. كان حصانه أسرع من حصاني بكثير، فاستأذن مني بعدما تأكد من أنني أعرف طريقي، وانطلق مبتعدًا.

وعندما دخلت الوادي، رأيت تايشو سيتون من بعيد جالسًا في شرفته المسقوفة وفي يده كأس، وحالما بلغت الباحة سار مقتربًا مني، ورحب بي بلباقته المعهودة، لكنه عجز عن إخفاء حقيقة أن اللحظة مشبعة بالتوتر، لأسباب لم أفهمها.

قال: «تعال معي يا إريك، أمامنا الكثير مما سنناقشه».

دُهشت عندما لوَّح لي لأتبعه إلى مسكن الأرقاء، الذي لم يكن موصدًا، ومفتوحًا على مصراعيه. انتحى جانبًا ودعاني للدخول، فارتعدت إثر فكرة مواجهة منظر مشابه لما رأيته تحت السطح الملطخ بالدماء في سفينة القبطان جونز، لكن ما إن تكيفت عيناي مع الظلام وجدت أنني قلقت بلا داع، فجميع الحجرات خالية.

والتفتُّ إلى سيتون متفاجئًا، فأجابني مغتمًّا: «سبب عدم رؤيتك أنت وابن عمك لأي عبد هنا هو أنهم جميعهم رجال أحرار الآن، لست مهتمًّا باستعباد الناس وهذه الجزيرة تثير اشمئزازي. يوجد قليلون ممن يشاطروننا الرأي وقد عقدت اتفاقًا مع أحدهم، وهو ملَّاح سفن إنجليزي، أشتري العبيد من السوق وأوفر لهم مسكنًا هنا في انتظار وصوله، وهو يعرف جميع مواقع المياه الضحلة والشعاب البحرية بمحاذاة الساحل الشرقي، وفي فترات منتظمة يلقي مرساته ويرسل قاربًا لنقل العبيد، ثم يتجه إلى هيسبانيولا ويرسلهم إلى الشاطئ بين إخوتهم، المتمردين، حيث يمكنهم تعزيز النضال في سبيل بناء أمة مستقلة، لا اضطهاد فيها».

اقتادني سيتون إلى الخارج وأرسل بصره إلى البحر واضعًا يده فوق حاجبيه، ثم استدار ونظر إلى عينيَّ نظرة مباشرة.

قال: «اسكيلدت جاء إليَّ قبل ثلاثة أيام، وطالبني بالإجابة عن جميع أسئلته، ورغم أنه رجل باجيه، ظاهريًّا على الأقل، لم أجد خيارًا سوى كشف أوراقي على الطاولة. لا أتحلى بموهبة القدرة على تضليل رجل متقد الذهن مثله، لذا آثرت وضع نفسي تحت رحمته، فأفشيت سرِّي، ورجوت أن يتفهمني».

مال سيتون مقتربًا مني وأكمل: «وتجاوب اسكيلدت معي، من كل قلبه، إنه يبغض العبودية بقدر ما أبغضها، ولم يتردد لحظة قبل أن يقرر الانضمام إلى قضيتنا».

- لكن أين يوهان آكسل الآن؟

- استقل السفينة إلى هيسبانيولا ليحرص على وصول آخر حمولة إلى وجهتها بسلام وليرى ما إذا سيتمكن من التعرف إلى أناس من شأنهم أن يخدموا نضالنا، فأمثالنا الذين اتحدوا ظلوا يبحثون منذ مدة عن

رجل مثل اسكيلدت، يمكنه التحدث نيابةً عنا على الشاطئ الآخر، وقيمة مساهمته لا يستهان بها. تحركوا بالأمس مع المد.

أطرق سيتون حتى أستوعب ما قاله لي، واستدعى جاريك بإشارة.

ثم قال: «ترك اسكيلدت لك رسالة».

ناولني صفحة واحدة مطوية ومختومة بخاتم يوهان آكسل. كسرتُ الشمع ووجدت الرسالة موجزة، لا تتضمن سوى بضع جمل مكتوبة بعجالة، وخط يده لا لبس فيه. وفوق اسمه كتب لي وداعًا حارًّا.

- كان الوقت ضيقًا، وإلَّا لكتب لك المزيد بلا شك. اتخذ بسرعة قراره بمرافقة العبيد المحررين، كان قرارًا نابعًا من القلب، وكانت العجلة ضرورية لأن المد لا ينتظر أحدًا.

ثم ألقى بيديه في الهواء وتابع: «والآن صار كل شيء منوطًا بك يا إريك، قدَرنا بين يديك».

- ماذا تعني؟

- اطَّلعتَ على جميع أسراري، كما اطَّلع عليها ابن عمك. إذا اخترت العودة إلى نيافته، الحاكم باجيه، وإخباره بكل شيء، فلن أقدر على إيقافك. لا ريب أنه سيكافئك مكافأة سخية على ولائك، وستُهدَر حياتي. إنني أقف أمامك خاشعًا في انتظار حُكمك.

خرَّ على ركبتيه أمامي فذُهِلت غاية الذهول، وأُرتِج عليَّ. لكن سيتون قرأ صمتي قراءة صحيحة، إذ رأيت الامتنان في ابتسامته المهترئة.

قال: «سوف نحتاج إلى مساعدتك، أنا واسكيلدت».

بقيت في «كل دو ساك» حتى استطالت الظلال، وتحدثنا حديثًا مطولًا عن الدرب الذي عليَّ السير فيه بحذر قبل مغادرتي. وقُبيل هبوط الظلام لمحت ضوء النيران في غوستافيا وتمكنت من الخروج ظافرًا من سباقي مع الظلام. وفي فراشي في نُزل ديفيز، قرأت رسالة يوهان آكسل مرارًا وتكرارًا، متأثرًا بخاطر أن الوداع سبَّب له ألمًا شديدًا، إذ كانت الورقة ملطخة بالدموع.

الفصل السابع عشر

اختلقتُ الأعذار ليوهان آكسل أمام باجيه، وسردت له الحكاية التي نسجها سيتون لي بعدما أخبرته عن لقائي الأخير مع الحاكم، لمَّحت إلى أن يوهان آكسل تأثر بشدة بجدالهما الأخير وأحس بأنه مرغم على الصعود على متن أول سفينة مغادرة، يملكها فرنسي في طريقه إلى «لو هافر».

بصق باجيه على الحصى ووجهه محتقن بالدماء، وحدجني بنظرة ازدراء سافر وقال: «اللعنة يا الورود الثلاث! أرسلوا لي شابين، أحدهما مغفل والآخر ذكي، ومع هذا يتضح أن الذي تُرجى منه فائدة هو الأسوأ من بين الاثنين. فليذهب كلاكما إلى الجحيم. اغرب عن وجهي!».

تعاقبت الأسابيع، وكنت أزور «كل دو ساك» زيارات منتظمة، راجيًا في كل مرة أن أجده هناك في انتظاري بعدما عاد من هيسبانيولا البعيدة بأخبار عن مساعيه الحميدة، وأن تكون بهجتنا معًا بلم شملنا كفيلة بتبديد الغيوم التي اكتنفت صداقتنا في الآونة الأخيرة. لكن تعيَّن عليَّ الرضا بحفنة رسائل أرسلها إلى «كل دو ساك»، رسائل موجزة أغفلت الكثير من التفاصيل، وفحواها الأساسي مدى مشقة عمله، لكنه بدا في صحة جيدة، وموقنًا من أنه قد اتخذ القرار الصحيح. وللأسف لم تكن أحوال يوهان آكسل هي الأخبار الوحيدة التي بلغتني، فذات يوم عندما عدت إلى غرفتي، استدعاني ديفيز وناولني رسالة وصلت للتو من الديار، أرسلها والد يوهان آكسل، يخبرني فيها بأن أبي مريض، وقد بذل مجهودًا لكي يكون لبقًا، لكنه كان أيضًا صريحًا بما

يكفي لرسم صورة واضحة لي. منذ حادثة شقيقي نادرًا ما كان أبي يُرى في حالة عدم ثمالة، وانهار ذات يوم مصابًا بحمى، وحينما أُعين على الوصول إلى الفراش، اكتُشف أن ساقيه تغطيهما جروح متقيحة كان يخفيها وصارت عندئذ تنز صديدًا غزيرًا. خمن عمي أن أبي أصيب بهذه الجروح من تجواله في أرجاء المنزل في الليل وارتطامه بالأثاث بسبب سُكره. لم تُظهر حالته أي إشارة تحسن، ووعدني عمي بإرسال المزيد من الأخبار عندما يطرأ جديد. وجاء خبر موت أبي بعد وقت قصير مع حزمة البريد التالية. لم يبق لي أحد ألجأ إليه سوى سيتون، الذي علمت سابقًا أنه لا يحبِّذ التلامس الجسدي مع الآخرين، لذا ازداد تقديري له عندما عانقني، بللتُ قميصه بدموعي، وبعدما هدَّأت نفسي أعطاني منديلي لأجفف وجهي.

وقال ببطء: «أتساءل عما إذا كان من الأفضل لك أن تأتي وتقيم هنا في «كل دو ساك»».

بدت الفكرة لنا بدَهيَّة للغاية، حتى إننا دُهِشنا لأنها لم تخطر لنا من قبل. تولينا المسائل العملية على وجه السرعة: بمساعدة من جاريك حملت صندوق سفري إلى عربته، ووضعت المبلغ الذي أدين به لأليكس ديفيز في راحة يده الخشنة، ثم أدرت ظهري لغوستافيا دون مثقال ذرة من ندم.

رغم أن «كل دو ساك» لم يكن فيها الكثير من وسائل الترفيه، كانت أعز عندي بكثير من غوستافيا، يسود الهدوء الليل، وسرعان ما اقتنعت بحكمة تقسيم اليوم مثل مضيفي، كنا نستريح بعد الظهر وبالمقابل نتمكن من قضاء ساعات عديدة في طقس الليل المعتدل في الحديث جوار زهور الفرانجيباني المتفتحة. لكن رغم كل ما فعله سيتون في سبيل إلهائي، افتقدت رفقة شخص في مثل سني، وازداد انشغال بالي بلنِيا، التي في خضم كآبتي شغلت نفسي بكتابة رسائل مسهبة لها، حاولت فيها على نحو أخرق أن أغلف مشاعري بالكلمات. وهيامي هذا هو ما تسبب في إحدى الوقائع القليلة في «كل دو ساك» التي عكرت صفونا، إذ بدأ جاريك -رغبةً منه في استهلال صداقة ربما- يسألني بفرنسيته عن المحبوبة التي رآني كثيرًا أتنهد شوقًا إليها.

قال: «*هذا هو الحب، صحيح؟*».

وأجبته بقدر مستطاعي باللغة التي أجيد قراءتها أفضل من التحدث بها رغم كل الدروس، فطلب مني أن أصفها، وبعدما وصفتها له أفضل وصف قدرت عليه، تقززت من رؤيته يداعب منفرجه ليريح انتفاخه، وعلى سبيل الاعتذار اكتفى بابتسامة واسعة، كاشفًا عن أسنانه البنية، فأحسست بدمي يغلي، كما في المرة الماضية في غرفتي بمنزلنا بعد قرار أبي وكما حدث في السفينة مع يوهان آكسل، اصطبغ العالم أمام عيني بالحُمرة، وحينما استعدت وعيي وجدت نفسي عالقًا بين ذراعي جاريك، محدقًا إلى وجهه الذي صار يحمل آثار أظفاري وقد بدأت كدمة داكنة تتكون حول عينه.

ظل ممسكًا بي حتى انتظمت أنفاسي، فأفلتني مرتاعًا بعض الشيء، ولاحظت وجود سيتون، الذي كان يراقب المشهد من ظل الشرفة المسقوفة وغليونه المعقوف بين شفتيه، وأشار لجاريك بالتنحي جانبًا ودعاني إلى الجلوس على كرسي جوار كرسيه.

قال: «ما هذا يا إريك؟ لما تخيلت أن يبدر هذا منك. لم أر اهتياجًا مثل هذا إلا نادرًا».

طأطأت رأسي لأخفي دموع الخزي. وبدأ سيتون يطرح عليَّ الأسئلة بلطف، والقلق بادٍ على وجهه: «هل انتابتك نوبات غضب كهذه من قبل؟ وبعدها لا تتذكر شيئًا؟».

شرحت له بقدر مستطاعي، وكلما بُحت له بما في نفسي، ازدادت سلاسة تدفق الكلمات مني. غمرني الارتياح بتخفيف عبء صدري، إذ إن هذا الغضب بدا لي دلالة على ظلام بداخلي لا أقدر على تفسيره.

استمع سيتون إليَّ دون مقاطعة، وعندما صمتُّ أخيرًا، استغرق هنيهة في تفكير عميق، ثم قال: «هذه تبدو مسألة بسيطة يا إريك، لستَ إنسانًا كاملًا، ولا يمكن أن يُتوقَّع منك سلوك الكاملين، لقد منحتَ قلبك لشخص آخر».

- وماذا عساي أن أفعل؟

وضع غليونه جانبًا وشابك أصابعه معًا وقال: «إذا رغبتَ في مساعدة مني، فسأبذل كل ما بوسعي لإيجاد الحل، وبما أنك دون أب أو أخ، أود كثيرًا منك أن تعدَّني نصف كل منهما من الآن فصاعدًا. وكل ما أطلبه منك بالمقابل هو صبرك».

إذا ترددت قبل أن أعرب عن امتناني متلعثمًا، فلأنني لم أشعر ببهجة كهذه منذ أن وطئت قدماي هذه الجزيرة النائية.

لاحظت مع مرور أيام الأسبوع أن سيتون بدأ يعاني قلقًا متعاظمًا، كان كثيرًا ما يقف ناظرًا إلى الأفق الريفي مترقبًا وصول البريد، أو إلى البحر راجيًا ظهور سفينة، لكن بلا طائل في كلتا الحالتين. وبدا غير راغب في مقاسمتي شواغله، لكنه في النهاية عجز عن تمالك نفسه.

قال: «الأمر متعلق باسكيلدت، لم يراسلني كالمعتاد، أستميحك عذرًا لأنني لم أريك هذه من قبل، لكن هذه هي رسالته الأخيرة، وقد وجهها لي وحدي».

أخذت الرسالة هلِعًا، ووجدتها أقصر من المعتاد، فحواها تحذير من خطر.

قال: «اتفقنا على هذه الكلمات تحديدًا قبل أن يغادر، وما كان اسكيلدت ليكتبها إذا لم يخش وقوعه في أيدي أعدائه. ليس بوسعنا معرفة إذا ما حدث هذا فعلًا أم لا، لكنها مخاطرة لا يمكننا تحملها. يجب أن نهرب يا إريك. لديهم أساليب تحمِل أشجع الرجال على الاعتراف. لم تعد «كل دو ساك» مكانًا آمنًا».

أعطاني توجيهات بسرعة، وقبل مضي ساعة وجدت نفسي على حصان جاريك قاصدًا غوستافيا لأعطي ديفيز رسالة إلى يوهان آكسل، إذ لا بد أن يمر بنُزل ديفيز إذا عاد ووجد «كل دو ساك» مهجورة. كانت الرحلة التي أمامي أطول من أن تُقطع مرتين قبل هبوط الظلام، وعندما عدت في وقت العشاء في اليوم التالي، رأيت عمود دخان فوق المزرعة من مسافة بعيدة، فغرست كاحلَي في خاصرتي الحصان لأحثه على الإسراع، وخشيت الأسوأ.

كان مسكن الأرقاء هو الذي يحترق، وحينما عبرت الباحة راكبًا، رأيت أنه لم يبق من المساكن سوى وهدة يتصاعد منها الدخان، يراقبها جاريك بحرص حاملًا دلوًا ووشاحًا مبتلًا لإخماد الشرارات المتطايرة.

ثم رأيت سيتون يقف على مبعدة عاقدًا ذراعيه وقال: «حتى إذا افتقد المالك القادم هذه المساكن، فلن تُستخدم أبدًا لسجن الذين ينبغي أن يكونوا أحرارًا. والآن احزم صندوقك».

- إلى أين سنذهب؟

دعاني بإيماءة إلى المشي بجانبه وقال: «كنت أفكر فيما أخبرتني به يا إريك، وانتهيت إلى اقتراح لك. ربما لم تبلغ سن الرشد بعد، لكن الوصي عليك يمكنه التصرف كأن له سلطة والدك، حتى إنه يمكنه مباركة زواجك».

بلغ قلبي حنجرتي، لكنه همد بنفس السرعة. لم يبق أحد من أسرتي ولم يسعني سوى هز رأسي.

قلت: «لكن من عساه يكون؟».

أوقفني سيتون وأمسك بكتفَيَّ وقال: «هلَّا منحتني الشرف؟».

أحطته بذراعَيَّ. وصاح: «إلى السويد إذن! وإلى لنيا شارلوتا!».

في خضم بهجتي العارمة إزاء هذا المستقبل الذي بدا بعيد المنال منذ لحظة، نسيت فجأة كل ما أعرفه عن العالم، ثم غمرني إحساس بالخزي إزاء العطف الذي أعامَل به. كيف يمكن أن أستحق -أنا عديم النفع طوال حياتي- مساعدة سيتون؟

فقلت: «لماذا تفعل كل هذا وتبذل التضحيات من أجلي؟».

لا بد أنه أساء فهم سؤالي فسمع في طياته ارتيابًا واتهامًا مبطنًا، إذ بدا حائرًا، ومبلبل الخاطر إذا لم تخدعني عيناي. نزع قبعته عن رأسه كأنه بائس يستعد للاعتراف بخطاياه أمام القاضي.

قال: «أتمنى لو كنت رجلًا أفضل يا إريك، أتمنى لو كانت دوافعي الوحيدة هي طيبة قلبي. لكن هذه ليست الحقيقة كلها، لم أجرؤ على تحميلك عبء هذا السر يا إريك، لكن المساعدة التي أقدمها لك تتضمن محاولة لمساعدة نفسي. كنت ذات يوم أنتمي إلى تنظيم مبجَّل، لكنني لم أفارق إخوتي ونحن على صفاء، الحقيقة هي أن نزاعنا أفضى بي إلى المنفى، لكنهم سوف يقيمون لك وزنًا كبيرًا يا إريك، وإذا عدتُ معك بوصفك عضوًا مستقبليًّا، فأنا متأكد أنهم سيميلون إلى النظر إليَّ بعين الرأفة. فهلَّا أسديتني هذا المعروف؟».

وما إن هممت بالرد، حانت مني نظرة فوق كتفه وصِحت مرتبكًا، إذ رأيت جميع زهور الفرانجيباني الجميلة اقتُلعت، وصارت بنية وذابلة تحت الشمس التي لا ترحم. والمكان الذي كانت نامية فيه لم يعد سوى خندق عريض،

حفرة يشهد عمقها على المجهود الذي بذله الحفار في سبيل عدم ترك أي جذر في التربة.

تابع سيتون نظراتي وهز رأسه متجهمًا وقال: «عليَّ اللعنة إذا تركت زهورًا جميلة كتلك لتاجر العبيد الذي سوف يمتلك «كل دو ساك» حالما نذهب».

الفصل الثامن عشر

لم تُلقِ بارثيلمي بالًا لتحضيرات رحيلنا، ظلت المستعمرة تموج بالحركة كعهدي بها. لم يستغرق جاريك وقتًا طويلًا لاجتلاب مشترٍ لـ «كل دو ساك». كانت فكرة وقوع يوهان آكسل في الأسر كآفة في قلبي، لكن سيتون بذل ما بوسعه لمواساتي.

قال: «ابن عمك رجل ذكي يا إريك، يفوقنا حكمة نحن الاثنين. اترك له رسالة أخرى مع ديفيز، واجعلها دعوة زفاف! إذا حالفنا الحظ سوف ينضم إلينا في المنزل بالسويد في اليوم الذي ستصبح فيه لنيا شارلوتا زوجتك. من سيكون أفضل خيار ليأخذ مكان والدك جوارك عند المذبح؟».

رُتِّبت رحلتنا إلى الديار، وذات صباح غائم كئيب وقفنا أمام السفينة، التي انشغل طاقمها بحل أشرعتها. بدا لي أنه لم يبق أحد في بارثيلمي ينبغي لي توديعه، لكن في أثناء وقوفي في الكاريناج منتظرًا دوري في الصعود، وقع بصري على فاهلبيرغ، ورآني في الوقت نفسه، فسرنا نحو بعضنا وتصافحنا.

قال: «إذن سيغادرنا إريك الشاب بهذه السرعة».

- أنت على الأقل أودعك متمنيًا لك أطيب الأمنيات يا دكتور.

تحدثنا قليلًا لنبدد الوحشة التي نشعر بها. ثم أدخلت يدَيَّ في جيبي مشتت الفكر، فوجدت أحد الحجارة الغريبة التي جمعتها، فأخرجته وأريته لفاهلبيرغ.

قلت: «هل تعرف ما هذا؟».

مددته له، لكنه لم يأتِ بأي حركة لأخذه مني، وأومأ بالإيجاب: «نعم، لكن أرى أن من الأفضل لك ربما ألا تعرف الإجابة يا إريك، إنك أحد أبناء جان جاك روسو وبلا شك مؤيِّد لمبدأ الهمجي النبيل».

أصررت، فهز كتفيه وقال: «أمضيت سنوات عديدة هنا في بارثيلمي، وأنا أيضًا جمعت نصيبي من الأشياء الغريبة. عادةً ما يجد المرء هذه الأشياء على الشاطئ هنا جوار الكاريناج، وقد عرضتها على كبار السن في الجزر المجاورة، وقدموا لي إجابة».

أطلق زفرة حرَّى قبل أن يتابع: «قبل مئات السنوات كانت هذه الجزيرة موطنًا لشعب يسمون أنفسهم الأرَواك. وذات يوم جاءت قبيلة أخرى على متن زوارق من جهة الغرب، كانوا يتضورون جوعًا بعد رحلتهم الطويلة، فجلبوا جميع رجال الأرَواك وصبيانهم إلى الشاطئ حيث اتخذوا منهم وجبة، واحتفظوا بمؤونتهم من النساء والفتيات. شوَوا الأجساد في حُفر مليئة بجمرات حمراء. الحجارة التي جمعتَها هي عظامهم المكسرة وقد تحولت إلى حجارة بمرور الزمن، وآثار الخدوش التي تحملها تركتها الأسنان التي نهشت اللحم عنها».

في البداية لم أدر ما ينبغي لي قوله، وظللت واقفًا والحجر الصغير في يدي، هذا الشيء البريء الذي اتخذت طبيعته معنى مغايرًا فجأة، ثم داهمتني فكرة أمدَّتني بالعزاء للحظات قلائل.

قلت: «ألسنا أفضل من هذا إذن يا دكتور؟ ربما نكون تجار عبيد، لكننا لسنا أكلة لحوم بشر».

ابتسم ابتسامة حزينة وهز رأسه وقال: «لم تزُر حقول السكر يا إريك، جزر الأنتيل مسلخ كبير، مسلخ لما أمكن وجوده دون مساعدتنا، أرباحه هائلة والعبيد رخيصون إلى درجة أن كثيرين يختارون تركهم يتضورون جوعًا، وعندما يموتون يشترون آخرين جددًا، يُستقبَلون بمجارف يتعين عليهم استخدامها لدفن الذين حلُّوا محلهم، رجال ونساء وأطفال، يحتشدون في مستنقع من اللحم المتفسخ ليهيئوا المكان للآخرين عندما يُفتح القبر في المرة التالية».

استدار بعيدًا ورفع يده إلى وجهه متأثرًا أيما تأثُّر، ثم تابع: «ربما لم يكن الهمج البدائيون نبلاء قط. ربما كان الجنس البشري منكوبًا منذ بدايته، ربما يتقدم العالم في العمر لكنه لا يغدو أفضل أبدًا، ربما لا يتيح لنا كل التقدم -الذي نسميه حضارة- سوى ممارسة شرورنا على نطاق غير مسبوق. في كل مكان من هذه الجزر ينمو قصب السكر مزدهرًا جوار مدافن الأموات، ونستعمله لتحلية طعامنا. فليكن الله في عوننا يا إريك، ألن نكون أكثر رحمة إذا ذهبنا مباشرة إلى إفريقيا وأكلنا الزنوج؟».

الفصل التاسع عشر

استطالت رحلتي إلى بارثيلمي بشوقي إلى لنيا شارلوتا، لكن تلهفي للم شملي بها جعل رحلة العودة أبدية، كانت السفينة التي حملتني إلى الديار شبيهة جدًّا بالتي غرَّبتني إلى درجة أنني وجدت صعوبة في التمييز بينهما ذهنيًّا. علمني سيتون عددًا من ألعاب الورق، وأمضينا ساعات لا تُحصى في تجاذب أطراف الحديث، وأحسست بالإطراء من فضوله الحثيث واهتمامه الجليّ بسعادتي، وكدت لا ألاحظ وجود جاريك الحاضر دومًا، وهذه كانت معجزة نظرًا إلى حجمه وضيق أبعاد السفينة. لم يكن يرافقنا ركاب آخرون وطاقم السفينة فضَّل عدم الاختلاط بنا. سمح سيتون لي بتفقد مكتبته الصغيرة المحمولة، ولتزجية الوقت اخترت كتاب *ألف ليلة وليلة* لغالان، علاوة على كتاب بالفرنسية ترجمتُ عنوانه المثير للفضول بـــ «*فواجع الفضيلة*»، الذي رغم أن قصوري في اللغة أثر في فهمي له على الأرجح، لا ريب أن نيات كاتبه لم تكن ما فهمتُه.

عبور الأطلسي ترك أثره في السفينة، وفي ساوثامبتون أُرغمنا على الرسو وإعادة التجهيز، كانت الأشرعة بحاجة إلى تجديد والحبال الممزقة إلى استبدال، فتعيَّن عليَّ التحلي بالصبر، متلهفًا ولا حيلة لي، بينما أمضى أفراد الطاقم أيامًا يجدلون الحبال جالسين مصالبين سيقانهم على سطح السفينة. كنت آمل أن أبلِغ خبري للنيا شارلوتا شخصيًّا، لكنني كتبت رسالة وأرسلتها مع تاجر في طريقه إلى غوتنبيرغ، طالبًا منها أن ترسل لي ردًّا أجده في انتظاري بالميناء في حال تأخري أيامًا أخرى هناك. عانيت في إيجاد أفضل طريقة أعبر بها عن نفسي، وعجز سيتون عن إخفاء تسلِّيه عندما رأى كثرة الأوراق المجعدة التي تراكمت تحت طاولتي. وأخيرًا تخليت عن محاولات

صياغة تعبيرات منمقة وكتبت من قلبي دون تحفظ، وقد كان ارتعاش يدي جليًّا في كل حرف: «*نيا، أحبك أكثر من أي وقت مضى. إذا رغبتِ في أن تكوني لي، فاطلبي من والدك أن يبارك زواجنا*». وأرفقت رسالة منفصلة إلى والدها بنفس المضمون لكن بأسلوب رسمي، وتركت للنيا قرار توصيلها إليه أو التخلص منها. وجدت كلا الردَّين بانتظاري في صندوق البريد بمكتب جمارك غوتنبيرغ، أعربت لنيا شارلوتا لي عن موافقة مبتهجة، أبلغ من عرض زواجي الأخرق، وجاء رد والدها يحمل نبرة متحفظة، لكنني تخيلت أن المرء يمكنه قراءة البهجة بين سطوره.

لأول مرة لم يراودني شك في ابتسامة سيتون، وتأثرت برؤية مشاعره.

قال: «حسنًا إذن يا إريك، سوف نرتِّب للزفاف».

ومن غوتنبيرغ كتب سيتون عددًا من الرسائل وأرسلها بينما كنا نواصل الإبحار عبر كاتيغات ثم بمحاذاة الساحل نحو استوكهولم.

وهكذا، بعد عدة أميال طويلة في البحر وعلى متن عربة، عانقت عيناي أخيرًا منزل طفولتي مرة أخرى. وللمرة الأولى منذ أجيال تعرَّض منزل أسلافنا للإهمال. لم يحدث من قبل أن وقفت وحدي في مكتبة أبي، حيث تتناثر أوراقه المهمَلة والمنسية. وجدت ديونًا ينبغي سدادها وأخرى ينبغي تحصيلها. لضعت بلا شك لولا وجود سيتون، الذي، بوصفه وصيًّا عليَّ، تولى مسؤوليته الجديدة بالجدية التي تتطلبها، فعكف على مكتب أبي ليراجع الحسابات، وبعدها قال إنه بحاجة إلى العودة إلى استوكهولم، من نفس الطريق الذي جئنا منه، ليشتري جميع المستلزمات التي رآها ضرورية للزفاف، وليسلم للمحكمة الوثيقة المطلوبة لجعل الزواج قانونيًّا رغم أنني قاصر. تململتُ متوترًا، وقد وجدت نفسي في نهاية الرحلة مفتقرًا إلى الشجاعة اللازمة لخطوتها الأخيرة. استوى سيتون على السرج وشد العنان ليجس مزاج الحصان الذي كان حصان أخي ذات يوم.

قال: «دع لي المسائل العملية، اذهب إليها الآن! لقد تلكأتَ بما فيه الكفاية».

وانطلق مبتعدًا.

اتجهت أولًا نحو كنيستنا لأؤدي واجبي نحو أبي، الذي أُودِع مرقده الأخير تحت لوحته التذكارية، تتبعت بأصابعي الأحرف التي تكوِّن اسمه، دعوت له أن يُبارَك بعث روحه، وقدمت له اعتذارًا، لعله يسامحني على خيبة الأمل التي سببتها له طوال السنوات التي أمضيناها تحت سقف واحد، ورجوته أن يبارك الزواج الذي بذل ما بوسعه للحيلولة دونه.

كان الجو دافئًا بالخارج، لكنني ارتجفت وأنا أجثو على أرضية الكنيسة. وكان الحجر باردًا. حزني على رحيل أبي شابته ذكريات مريرة وأعقبه إدراك أنني غدوت وحيدًا في العالم، لكن من بين أصدقائي بقي لي واحد، وستكون لنيا شارلوتا لي، من عساه أن يطلب المزيد؟ وبقلب خافق سلكت الدرب عبر الحقول بين الأشجار التي عشت فيها بهجة غامرة خلال فصول الصيف في طفولتي.

الفصل العشرون

سلكت قدماي الدروب القديمة من تلقاء نفسها، ولم تحملاني إلى بيت مزرعة كولينغ، إنما إلى التل حيث البحيرة الجبلية، ذلك المرج الصيفي الذي جلست فيه مع لنيا مرات عديدة، في الصباحات نراقب غوص العقاب النساري في الماء، وفي المساءات نحاول أن نلمح قرون ذكر الإلكة وهو يسير بين الأشجار آكلًا أوراق النَّيلوفر، وفي الليالي نرنو إلى السماوات المرصعة بالنجوم. استطال العشب والزهر، فلم أرها حتى صرت قريبًا جدًّا منها، لاح لي فستان أبيض براق بين كل الألوان المحيطة كأن القدر نفسه يعجِّل بلم شملنا، كانت تجلس مولية ظهرها لي، وذراعاها حول ركبتيها، لكنها نهضت حالما سمعت تكسُّر الأغصان تحت قدمي، ثم وقفنا وجهًا لوجه، متفاجئان بالقدْر نفسه، وأدركتُ لأول مرة حقيقة أن عامًا انقضى منذ افتراقنا.

وجدتها تغيرت، صارت أطول وأنحف، اتسع خداها فكشفا عن عظمتي وجنتيها المرتفعتين. تركتُ فتاة، والآن وجدت امرأة، لكن شعرها الأحمر ظل كما أتذكره، مجدولًا بالشكل نفسه، ونمشها أكثر من النجوم في الليل. أيٌّ من التغيرات التي اعترتها لم تمس شيئًا من جمالها، بل العكس، الكنز الذي أُرغمتُ على تركه صار أثمن بمرور عام.

لم يسعني إخفاء ابتسامتي، لكنها تجمدت إثر قلق مفاجئ اعتصر أحشائي. ماذا عني؟ كيف تغيرتُ بعد كل ما مررت به؟ ما الذي تراه هذه الفتاة التي تتفحصني بعينيها الخضراوين كأنني غريب؟ داهمتني ذكرى قُبح بارثيلمي، كيف يمكن لأي أحد أن يمر بمثل ذلك المكان دون أن يحمل لطخته لبقية حياته؟ لكنها اقتربت مني، حتى شعرتُ بأنفاسها المتسارعة

على جلدي، ولامست خدي بيدها المرتعشة، كما كنتُ أرتعش أنا، كأن جسدينا مقطوعة موسيقية تتردد بإيقاع واحد.

ثم قالت بصوت تهدج حتى صار همسًا: «أهذا أنت يا إريك؟ أهذا أنت حقًّا؟».

لم أُحر جوابًا، وأومأت، مبلِّلا يدها الدافئة التي تلاطفني، وعندئذٍ طفرت الدموع من عينيها أيضًا، وبصوتي المشروخ بعواطفي طرحت عليها السؤال الذي لم يعد بمقدوري إرجاؤه: «الآن وقد رأيتِني يا لنيا، أما زلتِ تريدينني؟».

أسندتْ جبينها بجبيني، وفتحت جفنَيَّ اللذين أغمضتهما دموعها حتى اصطبغ عالمي بأكمله بلون عينيها.

قالت: «نعم، وألف نعم».

جلسنا على الأرض قريبين من بعضنا، كأنما تعجز الشمس عن مدنا بالدفء، وتحدثنا عن السنة التي مرت، ثم استطالت الظلال وتخضَّبت السماء بحُمرة الشفق، وسرنا عائدين بيدين متشابكتين عبر الغابة التي احتضنها الظلام قبل كل ما حولها، اصطحبتها إلى منزلهم، وحيَّاني والدها ووالدتها، في البداية بالاحترام الذي يليق بمالك «الورود الثلاث»، لكن مع تلاشي الضوء عن قمم الأشجار واضطراري إلى توديع محبوبتي، تبعتني والدتها إلى الخارج، وأمسكت بيديَّ كلتيهما ومالت مقتربة مني.

قالت: «في غيابك بدا لنا أنها تخلَّت عن الحياة، في البداية كانت تستلقي في سريرها مواجهة الحائط لأيام متواصلة. والكلمات التي جرت على لسانها الليلة أكثر من كل كلامها منذ الصيف الماضي. شكرًا لك يا إريك، شكرًا لك على إعادة ابنتنا إلينا».

طبعتْ قبلة على خدي وهرعت إلى الداخل، وكان واضحًا أنها تأثرت باللحظة.

الفصل الحادي والعشرون

قُرئت نذور زواجنا في الكنيسة دون اعتراض، وحُدد تاريخ الزفاف. لم يعرف سيتون الكلل أو الملل في خضم حماسته، مترددًا على استوكهولم ليقف بنفسه على جميع الترتيبات، ولا يرضى بشيء دون الكمال، وكنتُ ساهيًا جاحدًا فلم ألاحظ وجوده لأنني لم أكن أفارق لنيا. دُهشت في البداية من الاختلاف الذي بدا على كل شيء، لكنني سرعان ما أدركت أن أراضي «الورود الثلاث» كانت هي نفسها لم تتغير، وأننا الذين تغيرنا، فبيننا وعد بأن نعيش مستقبلنا معًا، وهذا كان أمرًا مغريًا ومخيفًا، وجعلني مغتبطًا وقلِقًا في آن واحد. كما أحسست بخوالج من نوعٍ لا نحب تسميته، لاحظتها حتى لدى لنيا، وإذا لم أكن أعرف سلفًا أهمية السيطرة على هذه الرغبات في آخر أيام عزوبيتي، فقد نبهني سيتون إليها عندما انتحى بي جانبًا.

قال: «لا يليق بمخطوبَين أن يتراكضا في الغابة وحدهما يا إريك، لا أظنك تريد أن ترافق زوجتك أمام القس وهي تلاحقها إشاعات الفسوق، يجدر بكما أن تتجولا حيث يراكما الناس، حتى تكون ليلة زفافكما ليلة لا تُنسى».

جعلتني كلماته أحمر خجلًا لكنه كان مصيبًا في نصيحته، وسرعان ما وجدت أن رفقة الآخرين خففت التوتر بيننا. ورغم أننا كنا نحرص على البقاء في مرمى أبصار الناس، كنا نبتعد عن مسامعهم، فتحدثنا بأريحية عن مستقبلنا، كنت أعرف رغباتها، ورأيت أن العقارات التي ورثتُها قد صارت عبئًا ثقيلًا على كاهلينا.

قلت: «لنيا، برأيك هل سيوافق والدك على إدارة جميع الأراضي؟ هذا سيتيح لنا حرية أن نفعل ما يحلو لنا، يمكننا رؤية استوكهولم، أو حتى السفر إلى مكان أبعد جنوبًا».

قطبت حاجبيها في البداية وشددت قبضتها على يدي وقالت: «شريطة أن تكون هذه رغبتك يا إريك، لا أريد إرغامك على ترك منزلك تلبيةً لنزواتي، إذا فضَّلتَ البقاء، فسأطلب من شقيقاتي تعليمي كل ما يعرفنه عن النميمة والتطريز حتى أصير لك زوجة مروَّضة بقدر مستطاعي».

ضحكتُ لأنني كنت أعرف أحلامها المختبئة خلف كلماتها الجميلة.

قلت: «سأحظى بك جامحة دومًا. إذن فلنترك «الورود الثلاث» تحت رعاية إسكل كولينغ، ليس لي ذكريات سعيدة هنا سواكِ».

جذبتْ يدي إلى شفتيها وقبلتها مدة طويلة.

انتظرت بصبر نافد اليوم الذي كنت أترقب أن يكون أسعد أيام حياتي. ورغم أن الشمس نفسها بدت كأنها تريد تمديد أيام عزوبيتي بإبطاء حركتها، حل صباح اليوم الموعود، فأُوقِظت في ساعة مبكرة، ودفِّئت المياه في الموقد، وفُرك جسدي وعُطِّر، ثم ألبسوني ملابس الكنيسة، ملابس جديدة، لم تُلبس من قبل، بهية، معطرة بأغصان الخزامى التي وُضعت في صندوق الملابس، وسيتون بنفسه تفحصني بعين متذوق خبير.

قال: «الكثير من ضيوف زفافك ينتمون إلى التنظيم الذي ذكرته لك، وهم رجال ذوو مكانة وعركوا الحياة يا إريك، ورغم أنني أعرف أنهم سوف يقدِّرون طبيعتك، أنصحك بأن تسلك سلوكًا يليق بالنبلاء، لا تتجاهلهم، حتى إذا وجدت صعوبة في إبعاد ناظريك عن عروسك. ما زالت أمامي مهام عديدة، فلن أرافقك إلى الكنيسة، لكن سأكون إلى جوارك في المساء».

شكرته جزيل الشكر، مدركًا أن ما من كلمات يمكن أن تخطر على بالي من شأنها أن تفي أياديه البيضاء حقها.

وجدت عربة مزينة بأكاليل الزهور بانتظاري بالخارج، ورأيت جاريك جالسًا على مقعد الحوذي، مرتديًا زيًّا خاصًّا على شرف المناسبة وعلى وجهه تعبير غير مألوف لاح لي كابتسامة، وهكذا ذهبوا بي أمام القس، وسلَّمني إسكل كولينغ بنفسه يدَ ابنته، وفي أثناء سيرنا في الممشى داعبت حاشيةُ

فستانها الحجرَ الذي يحمل اسم أبي، وفي هذه الحركة رأيت التصالح. ردَّدت الكلمات وراء القس مذهولًا، ثم وقفنا وحدنا أمام المذبح، أنا وشارلوتا، في عالمنا الخاص، لا نعي الجلبة التي حولنا إلا وعيًا ضبابيًّا. كانت المقاعد مليئة بسادة متأنقين، ويهتفون هتافات مرحة. تبادلنا الخاتمين، وحملَنا الناس إلى الخارج حيث دفء الصيف، ثم إلى الاحتفالات في «الورود الثلاث». قدموا لنا كأسين، وشربتُ، وأنا منتشٍ سلفًا بالحبور. أول قبلة لنا بوصفنا زوجًا وزوجة لم تكن ما تطلعت إليه، مجرد ملامسة عفيفة من أجل أنظار المتفرجين، لكنني رأيت رغبتي منعكسة في عيني لنيا. قريبًا! قريبًا.

بدأت الاحتفالات، وكانت لنيا شارلوتا إلى يميني عند طاولة الشرف، وذراعانا متشابكتان، تتابعت أطباق الطعام دون أن أتذوق منها لقمة نظرًا إلى تشبُّعي بالمشاعر، وتعاقب الناس على إلقاء كلماتهم، التي لم أسمع منها حرفًا، وكان جميع المتحدثين معارف تعرفت إليهم قبل لحظات، كانوا جمعًا غير معتاد، أرفع مقامًا من أي رفقة حظيت بها من قبل، يضعون الحلي الذهبية ويرتدون أفخم الملابس، أنيقين في كلامهم وسلوكهم. تأثرت بالبهجة التي أظهروها حيالي واللطف الذي عاملوني به، ودُهشت بمدى سهولة نمو أواصر الصداقة بيني وبينهم، فكانوا لا ينفكون عن الضغط على يدي، وصار كتفي بضًّا من كثرة تربيتهم عليه. لم يُسمح لي قط برؤية قعر كأسي، إذ يُصب فيه نبيذ جديد بعد كل نخب، وسرعان ما بدأ رأسي يطن من ثمالتي الرائعة التي ألهبت حبوري، وعندما بدا أن سُكري سيذهب بعقلي، جاءني سيتون ونشَّطني بأقراص مُتبَّلة باليانسون. سُحبت الطاولات إلى الخلف وأُخليت ألواح الأرضية للرقص، والموسيقيون الذين جُلبوا من المدينة ضبطوا آلاتهم ثم بدؤوا، وهبَّت عاصفة من رقصات البولونيز والمينويت، ولاح لي وجه لنيا شارلوتا المتورد ووراءه خلفية ضبابية، أراد الجميع الرقص مع عروس مثلها. أتذكر أنني كنت أضحك عدة مرات بصوت عال دون أي سبب، انضم الجيران إلى الحفل، ومع اقتراب المساء تلاشت كل الذكريات، رغم أقراص سيتون المنعشة، ونال مني إرهاق اليوم، كما نال مني النبيذ.

الفصل الثاني والعشرون

أجفلت مستيقظًا، وأول ما خطر لي هو الصورة المخيِّبة التي لا بد أنني رسمتها لنفسي في ليلتنا الأولى معًا، وسرعان ما أدركت مغتبطًا أن هذه الليلة ليست سوى الأولى من ليالٍ كثيرة قادمة.

رأيت ما ظننته في بادئ الأمر بتلات ورود منثورة في جميع أرجاء الغرفة تهنئةً لنا، داكنة الحمرة، وعندما مددت يدي متكاسلًا نحو إحداها، لم أمسك شيئًا، ورفعت يدي إلى وجهي، فرأيت أصابعي تحمل اللون الأحمر نفسه، وجسدي العاري ملطخ ومبقع. نهضت وألقيت الأغطية من الفراش، فكشفت عن جثتها، كان جلدها أبيض كالملاءات، ووجهها لم يعد موجودًا، استحالت شفتاها مُزعًا فوق فم فاغر حيث يتدلى الفك مكسورًا، ومن هذه الصرخة الصامتة يتدلى اللسان متورمًا مزرقًّا، وعيناها اللتان لا تريان تحملان نظرة تشهد على رعب لحظاتها الأخيرة، ذراعاها وساقاها مكسورة، الجسد الذي كان حيًّا منذ ساعات لم يعد سوى دمية قماش مهترئة، رأيت مُزقًا منها في كل مكان: خصلات شعر ملتصقة بأعمدة السرير، ودماء على السجادة وورق الحائط، ولطخات على السقف. وعلى جسدها كله غشاء مشقق مصفر ذو رائحة لاذعة، كأنها طُليت بدهان بدأ يجف. صرختُ بأعلى صوتي مدة بدت

لي دهرًا، محاولًا بلا جدوى إعادة الحياة إليها بهزها، وتأرجح رأسها بقوة فوق عنقها المكسور، وبعناقي حاولت أن أعيد إليها الدفء الذي سلبه الموت.

كان جاريك هو من انتزع ذراعَيَّ المرتعشتين وأمسك بكتفَيَّ بقبضة حديدية، وخلفه رأيت تايشو سيتون وقد اعترته تعابير الصدمة وعدم التصديق وهو يهمس يائسًا: «إريك، إريك، ما الذي فعلته؟».

الفصل الثالث والعشرون

لم أكف عن الصراخ قط، وكان لساني وحده هو الذي صمت، وذلك الصوت المشدوخ نفسه ظل يتردد في رأسي منذ تلك اللحظة، بلا انقطاع.

تولى سيتون أمر كل شيء، وسلمته زمام أمري منصاعًا. هو وجاريك أنهضاني، وأخذاني من حجرة النوم التي جعلتها حجرة موت، ووضعاني في حوض الاستحمام وجلبا الصابون والماء. اكتشفت أنني أُصِبت في معمعة الليلة، إصابة جعلتني لا أقدر على تسوية جذعي إلا بصعوبة، وأحسست بألم حاد في مؤخرتي، ولاحقًا وجدت أن النزيف جعل مياه الحوض تحمر، رغم أنني لم أر جرحًا ظاهرًا، وبمرور الوقت انحسر الألم حتى صار نبضًا خافتًا، لكنني أحس به حتى اليوم وأنا أكتب هذه الكلمات، وأعاني أيما معاناة كلما دخلت المرحاض، ما زلت أنزف. لا بد أنها قاومتني بطريقة ما، لكن ليس بما يكفي. لا أطيق ما حدث، لا أطيقه.

جلست في حوض الاستحمام طوال اليوم، وبدا جسدي كأنه غُمس في مخاط ثم جف، أبيض لكنه مصفر، تتساقط من جلدي ندف إثر أي لمسة، وفركه آخرون حتى صرت نظيفًا، وكانوا من حين إلى آخر يأتون بمزيد من الماء الساخن ويفركون شعري بالصابون. وكان جاريك في مثل هذه المهام يبدي نشاطًا يشوبه التحفُّظ، دون أي كلمة كشط التراكمات الحمراء من تحت أظفار أصابعي، ومشط الكتل المتخثرة من شعري. عاد سيتون في المساء،

ودثَّراني بملاءة واقتاداني إلى الفراش الذي كان فراش أبي. لم أكن على طبيعتي، وبدت جميع أفكاري ضبابية.

جلس سيتون إلى جانبي، وبعد ساعتين من النوم المضطرب استعدت ما يكفي من الوعي لمخاطبته: «ما الذي ألمَّ بي؟ قل لي إنه كان كابوسًا».

وضع الكتاب الذي كان يقرؤه وقال: «توليت أمر كل شيء، لا تقلق، انصرف جميع الضيوف وهم لا يعون شيئًا من شدة ثمالتهم. الحجرة نظِّفت وملاءات السرير أُحرقت».

لم أكن بحاجة إلى طرح سؤالي.

قال: «إنها ممدة في القبو، ملفوفة بملاءتها. إنها بمأمن هناك يا إريك، حتى يحين موعد دفنها. أوصد لويس الباب بسلسلة. لم يرها أحد، والذين غادروا يظنون أنها ما تزال نائمة، وقد أعجزها إرهاق الليلة عن توديعهم».

لم يسعني سوى النشيج، وتكرار سؤالي كأنني طفل صغير: «ماذا حدث؟».

- استعلمتُ متوخيًا السرية بقدر مستطاعي، ووجدت أحدهم يقول إنه سمع شجاركما مرة أخرى، حاولت لنيا شارلوتا إخبارك عن شخص آخر كانت تُكِن له مشاعر في غيابك، وفقدتَ أعصابك. حدث هذا من قبل، أليس كذلك؟ أعرف بالطبع أمر نوبات غضبك، لكنني لما تخيلت قط أن...

صمت حتى ترسخ الكلمات في ذهني ثم تابع: «لستَ على ما يرام يا إريك، لا تلُم نفسك، السبب هو عِلَّة من نوعٍ ما، اضطراب في العقل لا تتحمل مسؤوليته. أعرف أناسًا يمكنهم مساعدتك، أرسلتُ إليهم سلفًا. سنغادر غدًا».

- إلى أين؟

- إلى استوكهولم، ثم خليج الدنمارك، إنه المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه عونًا.

- إلى المأوى؟

هز رأسه وقال: «لا، إلى المستشفى. لا يدخِلون أحدًا في المأوى سوى الذين لا أمل في شفائهم».

سأفرغ عما قريب من كتابة كل ما أريد سرده. الأدوية التي قُدمت لي لم تمنحني سوى لحظات من الاسترخاء، ولمدة طويلة ظننت أن كلام سيتون معي قبل مغادرتنا «الورود الثلاث» لم يكن سوى أمل ساذج، وأن شفاء حالتي يعجز عنه كل إنسان، ازدادت الكوابيس سوءًا، تراءت لي أعمدة السرير المنحوتة كأنها وجه لنيا، وكنت أبلل فراشي أكثر مما كنت أستيقظ فأجده جافًا، وكانت ملاءات الفراش تُغيَّر، لكن الفراش نفسه يظل رطبًا فيتعفن في غياب بديل له.

ثم جاءني سيتون اليوم، حاملًا تحت ذراعه صندوقًا خشبيًّا، وضعه عند قدميه عندما جلس.

قال: «سمعت أن ضيفين زاراك هنا يا إريك، قبل بضعة أيام، وأنهما طرحا عليك أسئلة كثيرة».

أومأت مؤكدًا، وكنت صافي الذهن بما أنه لا أحد أعطاني عقار الثيباكا منذ بداية الأسبوع، ورأيت القلق يعتري تعابير سيتون.

قال: «بدأ الوقت ينفد منا، في أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن يأخذك هذان الرجلان بعيدًا عن هنا، ولن أتمكن من فعل ما هو في مصلحتك».

- إذا كانا في خدمة العدالة، أفلا أستحق العقاب الذي قد يحكمان به عليَّ؟

هز سيتون رأسه بشدة لم أعهدها وقال: «لا يا إريك، لا تقل هذا أبدًا، لستَ الملام على ما حدث، مرضك هو ما أودى بحياة لنيا، إذا وقعت في أيدي الشرطة فلن يكترثوا، فهم لا يريدون سوى إنفاذ القانون. لكن يمكننا عقاب عِلَّتك يا إريك، بعلاجها».

تنحنح ورفع الصندوق الخشبي إلى حجره وقال: «جميع أطبائك نفضوا أيديهم عنك يا إريك، لكنني ما زلت متمسكًا بالأمل، لذا وجَّهت أنظاري إلى خارج حدود بلادنا، وجدت رجلًا يعمل في خدمة فرانسس الثاني، وهو طبيب عظيم ذو خبرات لا تُضاهى، خبرات تتضمن بضع حالات مشابهة لحالتك».

تردد لوهلة قبل أن يتابع، ماسحًا براحة يده على غطاء الصندوق المرصع: «لا بد أن تفهم يا إريك أن العلاج المتبقي متطرف في طبيعته، ومع هذا أرى أنه أملنا الوحيد في أي راحة لك».

هززت رأسي هزة واهنة، متوقعًا محلولًا مُرًّا آخر دون فعالية. اقترب سيتون وجذب مشبك الصندوق ورفع غطاءه.

رأيت الجزء الداخلي من الصندوق مبطنًا بمخمل أزرق داكن، وفيه يقبع عدد من الأدوات اللامعة، لكل منها مكانها المخصص، صقيلة كالمرآة ومثبتة بأربطة.

أشار سيتون إلى إحداها وقال: «بهذه سوف نُحدث ثقبًا في الجمجمة، فوق خط الشعر ببضع بوصات».

رفع الأداة من مكانها المخصص في القماش وناولني إياها، فأخذت الأداة، مصعوقًا، ورفعتها نحو الضوء، كان الفولاذ لا تشوبه شائبة وقد شُحِذ للتو.

تابع: «حالما يُخترق العظم، سيظهر الدماغ، وهو موضع العقل، حيث سنجد مصدر عِلَّتك. وسنبعد الدم بالاستعانة بمضخة تجمع الدم المتدفق في وعاء وتتيح للجرَّاح الرؤية».

سمح لي أيضًا بتحسس هذه الأداة العجيبة، مزودة بمضخة وخرطوم جلدي قصير لجمع الدماء والتخلص منها.

قال: «والآن أهم جزء من العملية. يوضع هذا القضيب فوق نار حتى يحمر متوهجًا، ثم يُدخل عبر الثقب، ويكوي موضع العلة فتتخلص من المرض. لكن لا بد لي من تحذيرك يا إريك، هذه العملية محفوفة بالمخاطر، حتى إذا أُجريت على يدي جرَّاح متمكن مثل جرَّاحنا، وهذا قرار لا يمكن لأحد اتخاذه سواك، أنت وحدك. ربما لن تصبح على طبيعتك بعدها. بعد موافقتك سأعود معه غدًا».

تتابع وميض الصور والذكريات في رأسي، رأيت أكلة لحوم البشر في بارثيلمي، ونقاشاتي مع فاهلبيرغ، وليلة زفافي، والأرقاء في أغلالهم، وزهور الفرانجيباني المُقتلَعة. ثم برقت لي: إجابة الأُحجية التي قالها لي توماس المعتوه، الذي زعم ملتاثًا أنه الشيطان. سبب قدرة الشيطان على السير

بجانبي هو أن العالم الذي نعيش فيه هو جزء من الجحيم نفسه، برزخٌ بنيناه بأنفسنا، حيث نُذكي النيران بأكاذيبنا. ما الفرق الذي يحدِثه تمثيل توماس في حين أن الشيطان نفسه لما استطاع البرهنة على حجته بأسلوب أفضل؟ أي شيطان نحتاج إليه ونحن نترصد ببعضنا؟

الظلام يكتنف كل ما حولي، وكل بصيص ضوء صعب المنال. ربما أتاح تايشو سيتون مخرجًا لي، فيم يهم إذا لم أعد كما كنت وأنا ما أنا عليه الآن؟

كانت دموع الامتنان تنثال على خدي عندما أجبته: «نعم، وألف نعم».

قُبلتها. لكم أتمنى لو أمكنني الإحساس بها على شفتَيَّ مرة أخرى! ولو لمرة أخيرة.

الجزء الثاني

ساعة الجيب الضائعة
صيف 1794

أرى الأرض التي نسيتْها الشمس

مختبئة عند الجبال، وقد قصفتها المدافع

مرويَّة بعرق الفلَّاحين

لأن الجشع ترك هذه الهِبة للبَوَار

وأعلى من شأن ورثة الخطاة.

- كارل غوستاف ليوبولد، 1794

الفصل الرابع والعشرون

يفشو همسٌ في الحانات وأركان الشوارع بأن النهاية باتت وشيكة، إذ إن آرمفيلت، وهو صديق وفي للملك الراحل، أُرغم على الفرار إلى المنفى، لكن يقال إنه يستغل وقته في التخطيط لانتقامه، يسافر من أرض إلى أرض، ويلقى الترحيب من الجميع، ويحشد جيشًا في سبيل قضيته، تروج إشاعة مفادها أنه حل ضيفًا على كاثرين إمبراطورة روسيا في بيترسبيرغ، وتحدَّث بفصاحة عن سقوط تاج الملك غوستاف حتى ذرفت الإمبراطورة دموعها. يتهامسون بأن الخلاص قد اقترب، في أي لحظة سيأتي آرمفيلت مبحرًا حول سكيبشولمن وخلفه البحرية الروسية، وسيبلغ الشاطئ دون مقاومة، وعندئذ سوف يستمع الدوق كارل، الوصي على ولي العهد، إلى صوت العقل. لطالما كان عيب الدوق الوحيد هو ضعفه، وسوف يسمح لآرمفيلت بالحكم باسمه، كما كان يفعل البارون ريوترهولم في السنتين السوداوين الماضيتين. في كل حانة تُحكى فيها هذه القصة، تُسمع أصوات أخرى تتمتم باعتراضات تهكمية، عندما تنطفئ أعقاب الشموع وتخفت الأصوات: أجل، بالطبع نتذكر أيام الملك غوستاف، من ذا الذي بكامل قواه العقلية ولا يتمنى عودتها؟ صحيح أننا تضورنا جوعًا وأرسلنا أبناءنا للموت، لكننا شاهدنا على المسارح أفضل المسرحيات، وسمعنا لغة فرنسية لا تشوبها شائبة تجري على الألسن في المحاكم.

بالأعلى في القصر، تُلمح أضواء غريبة جوار النوافذ، يقول بعض الناس إنها أشباح من عالم آخر، وآخرون يرون أنها ليست سوى نيران موقدة تحت زجاج ملون. وتشيع نميمة رجال البلاط: أن البارون يرتعد خوفًا، رغم أنه يمضي أيامه متبطلًا مثل جميع السادة في البلاط، مبهرجًا كالطاووس، تخلى

عن جميع الوسائل ولجأ إلى الكلام مع الموتى، تقام جلسات استحضار الأرواح كل ليلة، يأتي المستبصرون، ومحضِّرو الأرواح، والمعالِجون بالمغناطيس، ويُرحَّب بهم جميعًا في القصر بعد هبوط الليل. يقول كبار السن إن البلاد إذا حُكمت من العالم الآخر، فهلاكنا مؤكد، لأن الموتى يغيرون من الأحياء، ولا يرغبون في شيء بقدر رغبتهم في الاستمتاع برفقتهم.

يقترب منتصف الليل، والمراقب الذي في برج الكنيسة توقف عن إعلان الساعة، والأطفال المشردون الذين احتشدوا تحت السقف الواطئ صار عددهم كبيرًا إلى درجة تُعجِز صاحب الحانة عن طردهم، إذ يعرف أن تجمعهم هنا في هذه الليلة ليس مصادفة، «مدينة ما بين الجسور» تكتم أسرارًا قليلة لا تخرج إلى النور سريعًا، والآن حان وقت كشف سره، فحانته دون حماية، ولن يدافع أحد عن بضائعه، الأطفال -وهم فُرادى- هيُّوبون وتسهل إخافتهم، لكن على المرء توخي الحذر عندما يحتشدون معًا، إذ يستمدون القوة من أعدادهم، وعندما يجتمعون ينتابهم هيجان أشد مما تسبِّبه القناني. يضمرون الأذى، وليس لديهم ما يخشون خسارته، يتجرعون بنهم بقايا كل إبريق وكوب. ويقرر صاحب الحانة -مُلمِّحًا إلى هزيمته- شراء حُسن نيتهم، فيأخذ نقودهم القليلة ويعطيهم إبريقًا ليقتسموه، مدركًا أن ثمن سخائه لم يُحدَّد بعد. بالخارج بدأت تنقشع الحرارة الدبقة التي كانت تملأ الأزقة، التي برَّدها الليل والنسيم المنسحب نحو البحر من الأراضي التي غزتها العتمة. تظل سماء الصيف مضيئة، ولن يبتلعها الظلام إلا قبيل بزوغ الفجر، ويبدو الليل كوهلة خاطفة بين النهارات التي تبدو كأنها تدوم للأبد.

يوجد قلة من الزبائن الآخرين الليلة، فجميعهم ترنحوا عائدين إلى أماكن نومهم عدا الشاربين المخضرمين، والذين يكونون في حالة سيئة وسرعان ما يصيرون هدفًا لمقالب الصِّبية، الذين يرون المراقب الضخم المتكئ على الجدار، المراقب ذا الوجه المتكتل الذي يعرفه الجميع لكنهم لا يجرؤون على النظر إلى عينيه في النهار، الذي يقال إنه لم يعد يثمل بعدما كان يعب الشراب عبًّا لكن لا يبدو أن إقلاعه عن الشراب قد حسَّن حالته، نقص وزنه منذ

الشتاء، خداه غائران، وعيناه كابِيتان. تتفشى العديد من الأقاويل في «مدينة ما بين الجسور»، كل قصة تناقض سابقتها، وليس من السهل تحديد أيها تتضمن الحقيقة، يزعم أناسٌ أنه غارق في الديون، ومستعد لأخذ المال من أي أحد، يكدح طوال ساعات يقظته، ورغم هذا يضطر إلى دفع كل مبلغ يكسبه من أجل صد دائنيه، وهو من جانبه يلزم الصمت، ولا يجرؤ أحد على طرح أي سؤال عليه، اختار الانضمام إلى زمرة الذين لا يحفل أحد بهم، فاستحال مخلوقًا شبحيًّا لا حاضر له ولا مستقبل، ليس له سوى ماضٍ، ويكتوي بالندم والذكريات المؤلمة.

ما زال قادرًا على القتال بلا شك، لكن ليس الليلة. يقترب الصِّبية منه ببطء، ينام نومًا عميقًا، ويشخر شخيرًا ممطوطًا، عاقدًا ذراعيه فوق بطنه، جميع الأطفال يعرفون وضعية النوم هذه، إنه نوم المتضور جوعًا، عندما يسبب الجوع ارتعاش الجسد، رغم الهواء الدافئ، فيضطر المرء إلى ضغط جذعه بذراعيه كي يخدع معدته فتظن أنها ممتلئة.

والآن يجرون رهانًا. قبضة المراقب الخشبية معروفة لدى الجميع ومرهوبة الجانب، من الذي سيتحلى بالشجاعة ويسرقها؟ يرى أحد الصغار الموقف فرصةً لرفع مكانته، فيزحف مقتربًا، وبحذر يبدأ في حل خيوط الكُم الأيسر، تكشف أصابع الصبي الرشيقة عن جلد غشيته الندوب ملفوف بأربطة جلدية، ويشرع حابسًا أنفاسه في فك الإبزيمات، وأخيرًا ينفد صبره فيمسك بالخشب المنثلم ويجذبه بكل ما أوتي من قوة، ويستمر الشد لحظة حتى ينزلق الجلد من الذراع فيسقط الصبي للوراء ممسكًا غنيمته، ثم يركضون نحو الباب رافعين صيدهم الثمين عاليًا، صائحين وضاحكين، وضجيج هروبهم لا يحدِث فرقًا، إذ لا يتزحزح ميكيل كارديل قيد أنملة، يظل نائمًا نومًا مضطربًا ساعة أو ساعتين حتى توقظه تشنجاته وصياح الديوك، ثم يترنح إلى الخارج، متلمِّسًا طريقه بذراعه وطرفه الأبتر عبر متاهة الأزقة إلى الغرفة التي عليه دفع إيجار عدة أسابيع أمضاها فيها.

الفصل الخامس والعشرون

يزداد عنفوان الصيف، وما كان في البداية مجرد طقس ربيعي خفف برودة الشتاء يستحيل حرًّا لاهبًا، ترتفع الحرارة في المنازل، وحتى الليل لا يأتي براحةٍ عندما تصير الجدران الحجرية أفرانًا في النهار، تتعفن مجاري التصريف، وتُبقى النوافذ مغلقة لتُبعد المرض الذي ينتقل عبر الهواء الملوث، تجف الأخشاب الرطبة، فتئن المباني وهي تتقلَّص، يستفحل الخوف من الحرائق، إلى درجة عدم إشعال أي موقد أو فرن صهر حداد، وتبدأ الحرارة في حصد ضحاياها من بين الذين لم يحرصوا على ورود البئر قبل أن تخور قواهم، تتورم القروح وتنزف، ويهلك كبار السن في أفرانهم المستأجرة، إلى جانب الأطفال.

يحاول كارديل الهروب من الصيف بالنوم بقدر مستطاعه، يتعرق كما يتعرق الآخرون، لكن القوة ما تزال في جسده، وعندما يضنيه العطش يشرب ملء بطنه من المضخة، يهدئ النوم جوعه الذي ينهش بطنه، فلا يخمده إلا باللفت الذي يقايضه مع جيرانه مقابل رحلتين إلى البئر مع دلوين على كتفيه. حالته معروفة في الحانات، لم يعد أحد يعرض عليه أي عمل، وهو يتجنب الحانة الوحيدة التي قد ينال فيها عطفًا: حانة «العابث»، حيث يظن أن الفتاة آنا استينا ستتكفل بإطعامه ولو أوشكت على الإفلاس، ويخشى أن المعروف الذي أسداه لها سيتحول إلى دَين، هذا القدر الضئيل من الكرامة يساوي عنده أكثر من أي طعام، وهكذا يلزم فراشه، مواجهًا الجدار، ويحتضن ذراعه التي تؤلمه حتى يغط في النوم.

ينام مرتديًا قميصه بسبب القمل، ويجده رطبًا بالعرق عندما يستيقظ، ينظر عبر النافذة إلى برج كنيسة نيكولاي فيعرف الوقت، تلوح له عقارب الساعة ضبابية إذ يرتعش الهواء فوق الأسقف الحامية. حل المساء، مرحى. مشوشًا يبحث عن الماء، فيطلق سبابًا عندما يجد قارورته الأخيرة مقلوبة وقد انسكبت منها كل قطرة. يرتدي بنطاله الذي يبلغ الركبتين.

السلالم أسوأ من غرفته، حيث استُبدلت بالنوافذ المكسرة الخِرق والألواح، وأُلقي فيها بكل الأزبال التي لم يكلف أحد نفسه عناء التخلص منها كما ينبغي، وتُستعمل أركانها مراحيض لذوي الحاجة المُلِحَّة، يضطر كارديل إلى قرص أنفه في أثناء هبوطه آملًا بلا جدوى في أن يجنِّب حذاءه الأسوأ، تفوح في المكان رائحة قبر مفتوح، ويدرك السبب على الفور. يرى تحته بثلاث درجات شبحًا يقف في طريقه، فتنقطع أنفاسه بغتة كما لو أنه لُكم في بطنه، يتعرف إلى كل شيء: الوجهُ شاحب هزيلٌ كعهده به دومًا، والعينان والشعر كما كانا، والمنديل الدائم لتغطية الفم وإخفاء الدماء التي على الشفتين.

يوهنه الرعب ويقف متسمرًا حتى يوجَّه إليه الكلام: «أأنت جان مايكل كارديل؟».

- وِينيه؟

الصوت مشابه لكنه ليس هو نفسه، وعندما يُبعَد المنديل يلاحظ كارديل اختلافات في الوجه، وهو مشابه إلى درجة قد تختلط على شخص آخر، لكن ليس عليه. وتحت نظرات المراقب الحادة يتململ الغريب الذي يرتدي معطفًا أطرافه مزودة بأهداب.

يقول: «نعم، لكنني لست وِينيه الذي تظنه».

يتمالك كارديل نفسه ويلوِّح لزائره بأن يهبط السلالم، ويخرجان معًا إلى الزقاق.

يقول كارديل: «كدتَ أن تسبب لي سكتة قلبية بحق الجحيم، لماذا اختبأت في السلالم بدلًا من طرق الباب؟».

يشي صوت الغريب بتردده، وبعد جهد تخرج كلماته متلعثمة: «سمعت شخيرًا، واخترت الانتظار بدلًا من إيقاظك».

- طيب، إذا كنت تبحث عن ميكيل كارديل، فها قد وجدتَه الآن.

- اسمي إميل وِينيه، سيسل كان شقيقي.

يجد كارديل صعوبة في انتزاع عينيه من وجه وينيه، وإميل، المتضايق من هذا التحديق، يخفض نظراته إلى الأرض، حتى يبدد كارديل الصمت غير المريح: «فلنتحدث في حانة «الباب البُنِّي»، إنها الحانة الوحيدة التي تسمح لي بالشرب بالدين. أمهلني لحظة حتى أغتسل».

يومئ وينيه، ويستدير كارديل نحو الفناء، حيث يوجد برميل مشقوق به ماء مخصص للدجاج، يبدو نظيفًا بما يكفي، فيشرع في غسل نفسه، يحمل الماء بكفه، آملًا في أن يرى لمحة من انعكاسه، لكنه يجد يده ترتعش بشدة.



الفصل السادس والعشرون

يسيران في شوارع مقفرة، ومن يريان من الناس يلوْحون لهما كظلال رمادية. في نهاية العام أُعلن من منابر الوعظ آخرُ مرسوم أصدره ريوترهولم، وهو قانون اقتصادي لضغط النفقات، لا يتذكر أحدٌ آخرَ قانون مشابه له إلا كبار السن. مُنِعت أقمشة الدانتيل والأقمشة الموشاة والحرير والأقمشة الملونة كي لا تخرج العملة السويدية من البلاد في جيوب التجار الأجانب. فُرض حظر على الألوان في الأزقة.

من يملكوا القليل يسهل حرمانهم، فالأقمشة الملونة التي تستخدمها الخادمات لربط شعرهن -وسيلتهن الوحيدة للتأنُّق- استبدلت بها أقمشة كتانية غير مبيضة، دون نقوش سوى بقع العرق، والملابس المبهرجة التي ورثها أصحاب الحرف تقبع في الخزانات، وليمةً للعث، ومحبو التأنق الذين كانوا يتبخترون بمعاطف وصدريات ذات بهرجة صارخة، لم يعودوا يتجرؤون على ارتدائها إلا عندما يصير الضوء معتمًا. مثل هذه الألوان البراقة صارت حكرًا على أصحاب المناصب الرفيعة الذين بوسعهم احتقار حرس المدينة، صار الوضع كما لو أن جميع سكان المدينة حُرموا من أي رونق كانوا يتسمون به وبدلًا منه تعين عليهم ارتداء لون رمادي موحد، وأطلق أصحاب الألسن السليطة لقبًا على العام 1794: العصر الحديدي.

قِلة من الزبائن موجودة في «الباب البني»، يشير كارديل إلى طاولة ومقعدين، ويحس لوهلة بقلة حيلته عندما تذكِّره نظرة صارمة من الساقي بالدين الذي يجب تسويته قبل أن يتعاظم، ورغم هذا يجلب لهما قدحَي جعة قوية، لكنها مخففة بالماء دون حياء.

يقول وينيه: «أستميحك عذرًا، كان يجدر بي أن أطرق الباب أو على الأقل أعود لاحقًا».

ثم يأخذ جرعات كبيرة ويلاحظ كارديل أن المشروب يهدئ عينيه القلقتين سريعًا، ويبدد تلعثم كلامه ويسوِّي ظهره. ما من شموع موقدة في الحانة، فيتعين عليهم تدبر أمرهم بالضوء الشحيح الذي يشق طريقه عبر الزجاج المكسو بالسخام.

يقول كارديل: «لا تلق بالًا لما حدث، لكن اللعنة، إنكما تبدوان متطابقين في الضوء المعتم، وللحظة ظننت...».

يكبح الكلمات قبل أن ينهي الجملة، ولا يبدو على إميل وينيه أنه لاحظ.

يقول وينيه: «انقضت سنوات عديدة منذ أن رأيت سيسل آخر مرة، لكنني ظللت أسمع طوال حياتي أن كلينا شديد الشبه بوالدتنا».

يأخذ وينيه رشفة أخرى قبل أن يتابع: «كان سيسل يكبرني بعامين. كنتَ تعرفه معرفة وثيقة، بحسب ما سمعتُه. أرسلني شرطيٌّ سألتُه إلى مقهى وجدت فيه رجلًا يدعى بلوم، وهو الذي أعطاني اسمك».

- كنت أعرفه بالطبع، بطريقةٍ ما، لمدة محدودة.

- هل حضرت الجنازة؟

إنها ليست ذكرى محببة إليه، كانت مناسبة كئيبة لم يحضرها سوى هو والقس وبضعة رجال من غرفة الشرطة بوصفهم شهودًا. اضطر سيسل وينيه إلى قضاء بعض الوقت في المشرحة حتى تمكن حفار القبور من اختراق الأرض المتجمدة. يومئ كارديل إيماءة مقتضبة قبل أن يفرغ إبريقه ويلوِّح طالبًا المزيد من المشروب نفسه. ينتظران صامتين إلى أن يُصَب المشروب، ولا يطرح كارديل سؤاله إلا بعدما ينهي مشروبه التالي.

- ما شأنك معي؟

كان إميل وينيه قد رفع كوبه إلى شفتيه ويبدو عازمًا على إبقائه على شفتيه لأطول مدة ممكنة بدلًا من الإجابة، ولا ينزل الكوب إلا عندما يفرغ.

قال: «جئت إلى استوكهولم لأقضي شؤون سيسل، ذهبت إلى الدمَّاك، الذي كان يحتفظ بآخر ممتلكات سيسل، التي لاحظتُ غياب أهمها، وهي ساعة جيب، كانت هدية من والدنا، فوجئت بعدم العثور عليها، إذ كانت قيِّمة لدى سيسل، وليس من شِيمه إضاعتها».

- أتذكَّرها جيدًا.

- أتعرف ما قد يكون قد حدث لها؟

يتمهل كارديل ريثما يزِن إجابته ثم يقول: «كان شقيقك منخرطًا في بعض المسائل الغريبة في نهاية حياته، وحظيت بشرف الوجود إلى جانبه، وفي نهاية المطاف كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامه لإنجاح مساعيه هي رهن الساعة».

يعض إميل وينيه شفته السفلى ساهمًا وهو يفكر فيما سمعه.

يقول: «إذن أعرف أين ينبغي لي البحث، شكرًا لك».

لوهلة يبدو لكارديل أن أسئلة أخرى تحوم في ذهن وينيه، لكن وينيه لا يفصح عنها. يدور رأس كارديل بعدما شرب الكثير بسرعة وهو عطشان، ومرة أخرى يجد نفسه يحدق تحديقًا سافرًا إلى الوجه المألوف والمجهول في آنٍ واحد، فيهز نفسه كأنه ينتشل نفسه من الافتتان.

ويقول: «آسف على التحديق، يصعب عليَّ استيعاب وجود اثنين منكما!».

يرى في حاجبي وينيه المعقودين أن الموضوع يزعجه، يلوِّح وينيه مرة أخيرة للساقي، ويشرب، ويضع نقودًا على الطاولة مقابل الإبريق الأخير ثم ينهض ويقول: «إنما نحن ثلاثة، شقيقتنا جاءت قبلنا، لكن فيما يتعلق بأي شبه، فهو مقصور على المظهر فحسب، أنا وأخي لم تجمعنا الكثير من القواسم المشتركة قط، والذين تعرفوا إليه يخيب ظنهم سريعًا عندما يتعرفون إلي».

يهم بالمغادرة، فيفرغ كارديل إبريقه ويمسح الرغوة من فمه، ويقول: «يمكنني أن أسأل عن الساعة، إذا أردتَ، أين سأجدك إذا سمعتُ ما يستحق إبلاغك به؟».

يعطيه إميل وينيه اسم شارع واسم صاحبة البيت، ثم يخرج إلى الزقاق، ثابت القدمين وفي جوفه ثلاثة أباريق، تاركًا كارديل يقول عبارة وداعه لصالة خالية: «إنك لا تشرب مثل شقيقك، هذا مما لا شك فيه».

يمكث كارديل لحظات بينما يتسلل إليه إحساس بأن شيئًا قد تغير، ويدركه في الحال: طرف ذراعه الأبتر لم يؤلمه خلال الساعة الماضية، أو إذا كان قد آلمه فهو لم يعِره أي انتباه.

الفصل السابع والعشرون

غرفة إميل وينيه إحدى الغرف الأكثر انعزالًا من بين التي تمكَّن من إيجادها، مستأجَرة من أرملة صاحبة منزل ضخم ودون دخل، المبنى عتيق، ذو جدران حجرية سميكة مرتكزة على أساسات معالجة بالحديد، ومزود بفتحتين ضيقتين أو أكثر قليلًا تؤدي دور النوافذ. تُذكِّره بالزنازين الواقعة تحت الأرض في الحكايات الخيالية حيث يهزل البطل النبيل في أحلك لحظات حياته. وهو الوحيد في طابقه، ولا يشغل الغرف الأخرى سوى اللفت والبصل، وجيرانه الوحيدون هم أعوان التاجر الذين يأتون لتخزين البضائع أو حملها، وجرذان تبذل كل ما بوسعها لإحداث الثقوب في الجوالات. من بين جميع الغرف التي اطلع عليها رأى أن هذه هي الأفضل، إذ إنها منزوية بعيدًا عن سكان المدينة وجلبتهم التي لا تنتهي، والتجمعات العامة تثير ضيقه. الباب المفضي إلى السلالم مصنوع من خشب السنديان، ويحس بالهدوء حالما يدير المفتاح في القفل خلفه.

عازمًا على عدم ترك سُكره في حانة «الباب البني» يضيع سدى ويحيد به عن هدفه، ينقب في حزمة الأوراق التي تركها سيسل وينيه، وهي مرتبة بنظام واضح وسهل: قسم يضم المراسلات، وآخر للحسابات، كل قسم مرتب ترتيبًا زمنيًّا. اهتداء شقيقه بالمنطق دومًا يسهِّل عليه العثور على ما يبحث عنه، يجد إيصال مكتب الرهن الأخير في قسمه، وعندما يلقي نظرة سريعة على بقية الإيصالات، يجد إيصال رهن آخر أقدم ببضع سنوات، للساعة نفسها. أن يرهن سيسل ساعته التي من ماركة بيورلينغ وهو يواجه الموت أمرٌ قد يتفهمه إميل، لكن يفاجئه أن يكون قد رهنها مرة سابقة. يأخذ رشفة من القنينة مباشرة،

ومع سريان الدفء في حلقه ينتابه إحساس اللامبالاة إزاء لغز صغير من ألغاز الحياة التي لا أمل في حلها.

تمثِّل «مدينة ما بين الجسور» منطقة مجهولة لإميل وينيه، استوكهولم كانت عالم سيسل. هو عن نفسه يتوق إلى أوبسالا، إلى الغرفة التي أقام فيها منذ أن بدأ دراسته، الغرفة التي لم يدفع إيجارها منذ سنوات لأن صاحبة المنزل عدَّته أحد أفراد العائلة. تذكرة مكتب الرهن لا يوجد ما يشير فيها إلى اسم المكتب أو عنوانه، فيتعين عليه البحث عنه بقدر مستطاعه، يتردد وهو يشرب مرة أخرى، الجرس الصغير في برج سان نيكولاي يرن معلنًا انقضاء نصف ساعة، فيقرر انتظار تمام الساعة التالية، تفرغ القنينة بعد جرعات كبيرة منتظمة، يرن جرس ثلاثة أرباع الساعة، فينتظر ويسير إلى الباب، ويعلِّق يده ساكنةً فوق المقبض وهو ينتظر، ويشاهد شكل المقبض يتخذ شكل ساعة شمسية بالضوء الساقط عليه من أعلى، وتزحف ظلال أصابعه نحو المقبض وهو يحصي الدقائق، وعندئذ يرن الجرس الكبير، ومع تردد رنينه يغمض عينيه، ويفتح الباب ويخطو فوق عتبته.

تثير الشوارع نفوره، فهي شديدة الاختناق فيستحيل عليه تجنب ملامسة أذرع وأكتاف وأوراك الناس الذين يصادفهم في طريقه، مهما بذل في سبيل تجنبهم، وحجارة الرصف غدَّارة، فكلما أغفل النظر أمامه يجد بِركًا بنية رابضة في انتظاره، لا يسير أكثر من مربع واحد قبل أن يطفح حذاؤه بالوحل وينز من مساماته كلما وضع قدمه على الأرض، يبدو جليًّا أنه لا ينتمي إلى هذا المكان، ويستثير عداوة الآخرين كلما أبدى ضعفه بنظرة متشككة أو خطوة مترددة.

- ابتعد عن الطريق، اللعنة!

- تنحَّ جانبًا وإلَّا فستندم.

كل مبنى كأنه «برج بابل»، الصخور مرصوفة فوق بعضها حتى تلامس الغيوم احتفاءً بالجشع، وبين الأسقف لا يلوح سوى شريط ضيق من السماء، وحتى في منتصف النهار يبدو الشفق دائمًا في «مدينة ما بين الجسور».

مكاتب الرهن تعد ولا تحصى، وهي غير محصورة في شارع بعينه أو ساحة، إنما متناثرة في كل الأنحاء تناثرًا يبدو عشوائيًّا تمامًا، يفقد حس

الاتجاهات لديه مرارًا وتكرارًا في متاهة الأزقة، وعندما يجتاز عتبة باب، يلاقي وجهًا صَرَفه قبيل لحظات والآن يعبس له بحنق باد. ساعات الجيب كثيرة، فهي حلية تنتقل من جيب إلى آخر حالما يمر مالكها بوقت عصيب، وعلى وجوه الساعات يقرأ «كوك»، و «هوفِنسكيولد»، و «ليندمارك»، و «إرنست»، وليس من بينها «بيورلينغ». لا أحد يتذكر ساعة شقيقه.

تنفتح صفحة السماء عندما يخرج إلى المنحدر المحيط بالقصر، يُدبِر العصر ويقترب المساء بخطى حثيثة. يطلق إيميل وينيه سبابًا صامتًا إثر إدراكه أنه ضل طريقه مرة أخرى، لكنه يهدأ عندما تنقشع غيومٌ فجأة، ويتنفس الصعداء إذ لم يعد مجال رؤيته مقتصرًا على الأزقة المكتظة. جانب التل يمتد إلى الأسفل نحو المياه، التي يمكن أن تُلمح أمواجها من خلال شبكة الصواري حيث ترسم حبال الأشرعة كتلة من التشابك بحيث تصعِّب تصديق وجود أي نظام فيها على الإطلاق.

يرنو ببصره إلى وجه ساعة الكاتدرائية، فتدور أفكاره عائدةً إلى الساعة التي يبحث عنها، تحفة فنية صنعها يوهان هنريك بيورلينغ، مرصعة بالماس، وعلبتها منقوش عليها طائران على جدار ذي أعمدة دوريكية كل منها متوج بجرة، هدية إلى سيسل في يوم تخرجه، عندما امتلأ والدهم فخرًا حتى كادت أزرار صدريته تنقطع، عجز الرجل في أثناء الاحتفالات عن مقاومة إغراء رسم رحلة صعود ابنه في الحياة: سوف يصبح محاميًا أولًا، ثم قاضيًا ومُشرِّعًا، وبعد ذلك مزيدًا من الارتقاء على أجنحة طبقة النبلاء التي سينضم إليها. وبعدما أنهى والده حديثه، طافت نظراته في أرجاء الصالة، وتعلقت لوهلة وجيزة بإميل، الذي خُيِّل إليه أنه لاحظ ارتعاشة في زاوية فم والده، كأنه ذُكِّر بشيء بغيض في خضم لحظة انتصاره.

تعبُر مجموعة غربان فجأة فوق رأس وينيه فتجعله ظلالها يقفز وَجِلًا إلى جانب، وبينما تلاحقه ضحكات أطفال الشوارع الحادة، يجد مكانًا يستجم فيه جوار جدران القلعة، يسمع أصوات عراك مصدرها شرطيان يسحبان رجلًا إلى أعلى التل على الجانب المقابل، فيخطر له أن هذا المكان لا بد أن يكون «دار إندبتو»، ولا بد أن شقيقه عبَر المساحة التي أمامه مئات المرات. متضايقًا يتململ في مكانه دون أن يجد وضعية مريحة، يحس كأن المبنى

يزداد طولًا بنفس معدل إدراكه لعظمته، والآن يلوح فوقه على نحو يوحي بالوعيد كراحة يد مرفوعة فوق ذبابة زاحفة. هنا كان الرجال يحيُّون شقيقه بإجلال ومهابة قبل وقت قريب لا يتجاوز العام، ومن هو مقارنةً بشقيقه؟ نكرة يكاد لا يستحق حتى ازدراء الناس، مصدر خزي لوالده، ولا يكترث به أي أحد.

ينضح عرق وينيه، فيلسع الملح جروحه التي أحدثتها عضات القمل، وهي أكثر مما هو معتاده. يتساءل عما إذا أصيب بحمى، ويتحسس حاجبه. قنينته التي يثبتها على وركه جافة جفاف حجارة الرُّصُف. ينهض ويعود أدراجه عبر «مدينة ما بين الجسور»، عائدًا إلى غرفته، دون أن يقترب قيد أنملة من الهدف الذي دفعه إلى مغادرتها.

الفصل الثامن والعشرون

يومٌ آخر يعجز كارديل عن تمييزه من بين أيام الأسبوع يقترب من نهايته. يعبر الجسر الأزرق المتحرك عند قنطرة بولهيم، يرى المياه أسفله تجري منخفضة المنسوب، مصدرةً خريرًا تحت قدميه. يسير مسافة صاعدًا التل وينعطف عند أول شارع بين المبنيين الحجريين.

تنبسط مقبرة كنيسة ماريا ساكنةً خلف جدرانها، عدا عن شخير متقطع من الذين لا يؤمنون بالخرافات ولا سقف لديهم يؤويهم وقد اختاروا أن يتخذوا مراقدهم أسفل جدران الكنيسة. يشق البرج السماء وتنسج فروع الأشجار ظلالًا فوق شواهد القبور، لكن هنا لا يحتاج كارديل إلى ضوء، فهو يعرف وجهته.

القبران قريبان جدًّا من بعضهما، كان حفار القبور مراعيًا لطيفًا فنقل الجثة التي منحها سيسل وينج وهو اسمًا في نهاية المطاف، خرجت من الأرض حزمة صغيرة، كأنها رضيع مقمَّط بالتراب، وهكذا، وهما يتشاركان ترابهما، ينتظران يوم الحساب، سيسل وينيه ودانيل ديفال، كلاهما تحت حجر يحمل اسمه.

الرعب الذي يجتاحه كثيرًا، ويعقبه ألم مبرح في ذراعه اليسرى المفقودة، ربما يكون نتاجًا لخياله ويعجز الطب عن مداواته، لكنه يجد راحة هنا، كما لو أن الهواء الذي فوق القبور مشبع بذكريات وكلما تنفسه أمده بالسلوان. وعندما يضجع على الأرض يحس بتغضُّن العشب الجاف، الظامئ إلى الندى الذي لن يأتي. لا يلتمس سوى لحظة استجمام، لكن النوم يأتي بلا دعوة.

تنقضي الساعات، وفيما حوله تستيقظ المدينة، من أفنية المنازل تضبط الديوك آلاتها الأجشة، ويمكن سماع سقاطة المضخة عندما يأتي الأطفال الذين أوقظوا للتو حاملين دلاءهم لجلب الماء، ومن مبعدة تأتي جلبة وصرير قضبان الفولاذ التي تباع وتشترى عند الموازين جوار القنطرة، ومن «الساحة الروسية» صوت التجار الشرقيين وقد بدؤوا الصياح بصفقات اليوم الرابحة. يأتي رجل بخطى متئدة ليقف في مركزه في البرج، ويهز رأسه إثر رؤيته كارديل كما ظل يفعل مرات عديدة كلاهما لا يستطيع تحديد عددها، وبعدها بوقت وجيز يرن الجرس معلنًا ساعة الصباح، وبعيدًا في الأعلى يتجاوب جرس كنيسة كاتارينا، ومن الجانب الآخر من القنطرة ترحب الكنائس الثلاث أيضًا باليوم في «مدينة ما بين الجسور»، وينهض كارديل ويتجه إلى البيت.

أم الأسرة الكبيرة المحشورة في الغرفة المقابلة لغرفة كارديل الضيقة تهتف إليه من السلالم: «لديك زائر».

فتوقِف صعوده، ويخطر له أولًا أن إميل وينيه قد نسي شيئًا لا بد، وتُبرِز جارته أنفها الحاد عبر شق في الباب حتى تُسمَع بوضوح في خضم جلبة أطفالها.

تقول: «سمحتُ لها بالدخول إلى غرفتك في انتظارك؛ لا السلالم ولا الفناء يليقان بسيدة».

يهز كارديل كتفيه ويقول: «إذا كانت لصة فستدرك سريعًا أن احتمال أن يسقط منها شيء ذو قيمة أكبر من احتمال عثورها على شيء يستحق السرقة».

يطرق باب غرفته قبل أن يدخل.

تقول: «أأنت جان مايكل كارديل؟».

- طُرح عليَّ هذا السؤال مرتين في هذا العام، كلتاهما في الأسبوع نفسه.

يخمن أنها تناهز الأربعين من عمرها، ملابسها حسنة الاختيار ولائقة، لكنها مهترئة، من نوع نادرًا ما يُرى في المدينة. يراها جالسة على المقعد، وتبدو كعجوز صغيرة الحجم، لكن عندما تقف يجدها أطول مما توقع، وظهرها مستقيم تمام الاستقامة.

تقول: «اسمي مارغَريتا كولينغ».

لا يملك كارديل ما يقدمه لها، لكنه يفلح في تدبُّر وعاء قهوة محروقة من جارته مقابل تعهُّده بأن تكون هذه هي المرة الأخيرة.

ينفخ كارديل على السطح ويرشف رشفة أولى ويقول: «كنت أمقت هذا المشروب لكن المرء يحبه دون أن يشعر، ولسوء حظي سوف يُمنع عما قريب».

يحس بارتياح عندما لا تمس الكوب الذي قدمه لها، لكن هي نفسها تشعره بعدم الارتياح، وجهها مسطح ذو تعابير جامدة، تحصين من النوع الذي يجعله يتساءل عما إذا كان ما يُخفَى ينبغي ترويضه بدلًا من الدفاع عنه.

تقول: «أتمانع إذا دخلت في صلب الموضوع وأخبرتك بقصتي؟».

يشير كارديل لها بمتابعة كلامها، وفمه ممتلئ.

فتقول: «أنا وزوجي زوَّجنا ابنتنا في الصيف الماضي، كان زواجًا غريبًا من عدة نواحٍ، وقد حضره غرباء. لم نقضِ الليلة حيث أقيم الزفاف، وعندما عدنا في اليوم التالي لنحيِّي المتزوجَين حديثًا ونرى المهر، وجدنا المنزل غارقًا في الحزن، وقيل لنا إن ابنتنا ماتت، تركت فراش زفافها في الليل وخرجت لتتمشى، فهاجمها قطيع ذئاب في الغابة».

تصمت حتى تستقر الكلمات، ويتولد لدى كارديل انطباع بأنها رتبت كلامها بعناية حتى يكون موجزًا بقدر الإمكان كي تحِد من الألم الذي يسببه لها.

تابعت: «في البداية لم يرغبوا في السماح لنا برؤيتها، لكنهم وافقوا على مضض وأرشدوني مع زوجي إلى القبو حيث وضعوها، مسجاة بملاءة بياضها أقل من حمرتها، ورفع كلانا طرفًا منها، وحينما رأيتها خطر لي أن ما قيل لي صحيح تمام الصحة، فمن سوى قطيع ذئاب يمكن أن يسبب لها مثل هذه الإصابات؟».

تطرق مرة أخرى، لمدة أطول تدفع كارديل إلى حثها على مواصلة كلامها: «وماذا بعد؟».

- لم تُر ذئاب في الغابات التي حول «الورود الثلاث» منذ عقود يا سيد كارديل، ناهيك بقطعان منها، ولنيا شارلوتا ظلت تركض في الغابات طوال حياتها. الحقيقة محجوبة عنا.

كارديل مدهوش من تمالكها لنفسها، إذ لا تظهِر أقل قدر من المشاعر، كلماتها واضحة، وصوتها ثابت، ونظراتها قاسية كحجر الصوان.

قال: «ما الذي تريدينه مني يا سيدتي؟».

- لم يرغب أحد في مساعدتي على طرح الأسئلة المتعلقة بموت ابنتي، فجئت إلى استوكهولم ملتمسة العدالة، لكن حتى هنا لم أجد عونًا، قابلت سكرتيرًا يدعى بلوم أعطاني اسمك وقال إنك قدَّمت المساعدة للشرطة من قبل في قضايا تجنبها الآخرون.

- لست ذا مواهب خفية، ما ترينه أمامك ليس تمويهًا لخداع أعدائي حتى يشعروا بأمان زائف، إنني جندي معاق ولا أملك قرشًا واحدًا. القضية التي أشار بلوم إليها تولاها شخص آخر اختلط ترابه بتراب أسلافه.

تومئ مارغريتا كولينغ لنفسها وهي تفكر فيما قيل لها، وتمر هنيهات قبل أن تعاود الكلام: «وأنت ما الذي تراه يا كارديل عندما تنظر إليَّ؟».

لا يدري كارديل ما ينبغي له قوله.

فتقول: «سأخبركَ، ترى زوجة مُزارع طيبة تكدح في الإسطبلات وحظائر الخنازير ولا تأمل أن تجد مقابل عملها شيئًا أفضل من الشفقة. إنك لا تعرف شيئًا عن ماهية أن تكون امرأة يا كارديل، يُتوقع منا أن نُلجِم ما وهبنا الله من عقل ونترك كل شيء للرجال شاغلين أنفسنا بالأمور البسيطة والثرثرة. تظن أن ما من شيء يجري خلف جبين مزين بقلنسوة نسوية، ما من أفكار ذات قيمة تدور في رؤوسنا، ولا أحلام بأي شيء سوى مكان هادئ جوار النار لنطرِّز فيه وجلب أطفال إلى هذا العالم، واحدًا تلو الآخر، ويفضَّل أن يكونوا ذكورًا، حتى يسرق العمر جمالنا فيحرمنا من السِّمة الوحيدة التي نُقيَّم بها. لنيا شارلوتا كانت أصغر بناتي، من نوع مختلف، رأيتُ نفسي فيها، إذ كنت

مثلها قبل رضوخي لواقع العالم، كانت جامحة يا كارديل، ومعتدَّة برأيها، كلما أتى زوجي على ذِكر مسألة الزواج، كنت أهز رأسي: لا يمكنك اقتياد هذه الفتاة إلى حيث تشاء، ستختار طريقها بنفسها. وأردف مع نفسي: *كما كان ينبغي أن أفعل*».

- لماذا تخبرينني بكل هذا؟

- ما أحاول قوله يا سيد كارديل هو أنني أعرف أفضل من أي أحد أن المرء لا يمكنه الحكم على شخص من مظهره وحده.

- وزوجك هذا، أين هو؟

- كانت لنيا شارلوتا تمثِّل الحياة نفسها في عيني والدها، وبعدما خرجنا من ذلك القبو لم أره إلا ثملًا، ولم أستغرق أيامًا عديدة لأدرك ما كان الشراب يساعده على الاستعداد له، وجدته في النُّهير، حيث كان جالسًا، والمياه ليست أعمق مما يمكنه الوقوف فيها، وكان قد ملأ جيوبه بالحجارة. زوجي مات، بناتي الأخريات بالغات، وعاقلات، لذا تركن البيت الذي لا مستقبل له، قبل أن يصيبهن النحس للأبد، وتُركتُ وحدي. لكن لا ترتكب خطأ الظن بأنني ضعيفة، فإذا كنت ضعيفة لاتخذت مكاني إلى جانب إسكل.

تخفض نظراتها أخيرًا، ثم تتابع: «لكن سأكون كاذبة إذا قلت إنك أول من طلبتُ منه المساعدة، فالحقيقة هي أن ما من أحد آخر يمكنني طلب مساعدته».

الفصل التاسع والعشرون

مقهى «البورصة الصغيرة» يعج بكل الذين يظنون أنهم بوسعهم شرب كميات كبيرة من القهوة في الصيف إلى درجة أنهم لن يفتقدوها في الخريف، فالأخبار انتشرت من منابر الوعظ سلفًا في بداية العام، وهي أن القهوة ستُمنع إلى الأبد، وسوف يسري القرار في مطلع أغسطس، السبب المعلَن هو أن الاستيراد يتسبب في إفلاس المملكة، بيد أن قليلين يصدقون هذا التبرير، ويعزون المرسوم إلى طيش ريوترهولم، فالمقاهي تجتذب علية القوم وأرذلهم وجميع من بينهما، الذين يختلطون مع بعضهم ويتبارون في فن السخرية من السلطات، يريد البارون من شعبه أن يكون هادئًا مفعمًا بروح الواجب لذا لا بد أن تختفي القهوة السوداء. في منشأة غوستاف أدولف سُنديبرغ تقليد متبع منذ الربيع يتضمن قراءة مرثيات شعرية تتناول المستقبل المقبل، بأسلوب يجمع بين الفكاهة واليأس.

يشق كارديل طريقه بين الزبائن بمرفقه، لكن ليس بسرعة حتى لا يفوِّت أحاديث النميمة المتداولة في طريقه، جميع الألسن تلوك سيرة ماغدلينا رودينسشولد، عشيقة آرمفيلت، التي ظلت وفية له بعد هروبه من البلاد وتتولى مصالحه بين الغوستافيين، ومنذ العام الجديد ظلت مسجونة في القصر، وعما قريب ستُحاكم بتهمة الخيانة.

توفر الفضيحة كل ما يريده الدهماء نظرًا إلى غزارة تفاصيلها، التي تشمل رسائل ماغدلينا العاطفية، المليئة بازدراء البارون والدوق والوعود الوردية لعشيقها، وهذه الرسائل تدغدغ المشاعر لأن من المعروف أن الدوق كارل ظل عاجزًا لعدة سنوات عن الاقتراب مسافة عشرة أقدام من الآنسة رودينسشولد

دون اختبار خيوط منفرج بنطاله. تُعقد الرهانات حول مصيرها، ما من شك في أن البارون ريوترهولم يريد الإطاحة برأسها، لكن آخرين يبذلون كل ما بوسعهم لتخفيف شدة عقوبتها. ومع هذا يقول آخرون إن العقوبة النهائية لا تهم بما أن ما من سويدي سوف يعيش ليعرفها، إذ باع المزارعون الجشعون جميع المحاصيل الموجودة في المملكة للفرنسيين في كوبنهاجن، وبالتالي حكموا على الشعب بالموت جوعًا عندما يأتي الشتاء.

عندما يراه آيزاك بلوم قادمًا نحوه، يكون الأوان قد فات، يضع كارديل يده الثقيلة على كتف السكرتير الصغير ويضغط عليه معيدًا إياه إلى الكرسي، وتنطلق نظرات ذات مغزى لتذكّر رفاق بلوم بمسائل ملحة في مكان آخر، ثم يقتعد كارديل أحد المقاعد الشاغرة، ويصب كل القهوة المتبقية في كوب واحد، ويجاريه بلوم وهو لا حول له ولا قوة.

يقول بلوم: «ما الأمر يا كارديل؟ مضى زمن طويل منذ لقائنا آخر مرة، آمل أن تكون بصحة جيدة».

يشرب كارديل القهوة الفاترة مجعِّدًا وجهه وقال: «كانت مزحة على حسابي، أليس كذلك يا بلوم؟ فعلتها لتسخر مني».

- ما الذي تقصده؟
- أرسلتَ إليَّ تلك المرأة التي تُدعى كولينغ بوصفها مقلبًا لي، إلى غرفتي النتنة بكحول الخشب وبراز الجرذان، كي تذكرني بمدى ضآلة شأني من دون وينيه.

تعتري وجه بلوم تعابير هي مزيج من الرعب وابتسامة اعتذار، ويوقف كارديل رده بإشارة.

ويكمل: «وإنك محق بالطبع».

تتغير تعابير بلوم إلى الريبة ويقول: «ألا تضمر ضغينة نحوي؟».

- مزحتك الصغيرة ذكّرتني بأنني لم أعاملك دائمًا بالاحترام الذي تستحقه، ربما بالغتُ في ردة فعلي مرة أو مرتين في مواقف سابقة. إذا أمكنك مسامحتي يا بلوم، فهل يمكننا فتح صفحة جديدة؟

يمد كارديل يده فوق الطاولة ويصافح أصابع بلوم المكتنزة، وعندما يرخي بلوم قبضته ليحرر يده، يبقيه بلوم مقيدًا، فيحاول بلوم جذب ذراعه لينهض، لكنه يدرك استحالة محاولته ويظل جالسًا.

يقول كارديل: «الآن وقد سوينا الحسابات القديمة يا أخي بلوم، أود أن أسألك سؤالًا أو سؤالين، تزامنت دراستك الجامعية مع دراسة وينيه، فهل تتذكر شقيقه الأصغر الذي يدعى إميل؟».

- بالتأكيد.

- إذن؟

يهز بلوم كتفيه، وتكف أصابعه عن التلوِّي إثر تخليه عن أي أمل في استعادة يده، فيقول: «نال سيسل شهادته في القانون في نصف الوقت الذي يستغرقه الآخرون لنيلها، لذا كنت ما أزال في مقاعد الدراسة عندما ذهب إلى استوكهولم ليبدأ مسيرته المهنية، ولهذا أتذكر جيدًا اليوم الذي وصل فيه إميل وينيه. ونظرًا إلى شهرة سيسل كان يُتوقع الكثير من إميل، كما كان من المستحيل الخلط بينه وبين أحد آخر نظرًا إلى التشابه الشديد بينهما، وقيل إن الشقيق الأصغر هو الأذكى من بين الاثنين، توقع الجميع منه العظمة. عندما ذهب إلى المكتبة أول مرة، كان حدثًا اجتذب جمهورًا، أخذ كتابًا ما من الرف وأقحم أنفه فيه وقلَّب الصفحات بسرعة بالغة حتى ظن الناس أنه يحسبهم مغفلين. وبمرور الوقت قل عدد الذين يشككون في النقاد، إذ لم يُظهِر إميل وينيه أي نتيجة مبشرة، لم يجلس لامتحاناته، ولم يترك أي انطباع، ثم لم يعد يُرى إلا بالكاد، وعندما يظهر يأتي بسلوكيات تزداد غرابتها، وصار معروفًا بغرابة أطواره. هذه الظاهرة ليست نادرة، كما تعرف، وأنا متأكد أنك رأيت حالات مشابهة في الجيش، يغادر الشبان منازلهم، ويختبرون أجنحتهم، ويكتشفون عجزهم عن التحليق. يقال إن وينيه الكبير أصيب بسكتة قلبية من خيبة أمله في ابنه الأصغر».

يومئ كارديل لما سمعه، غارقًا في التفكير.

يقول بلوم: «هلَّا تلطفت بترك يدي؟».

- أمر آخر يا بلوم، حتى العام الماضي كانت الشرطة تخصص مبلغًا من المال للموظفين المعاونين وهذا الصندوق هو ما مكَّن مدير الشرطة

نورلين من تغطية خدمات سيسل وينيه، ما هو وضع ذلك الصندوق الآن وقد تولى ماغنس أولهولم مقاليد الأمور؟

- كل شيء لم يُبدِ مديرنا الجديد نحوه أي اهتمام ظل دون تغيير.

- هل أنت في منصب يخوِّل لك إدراج اسمي في قائمة الرواتب؟

يصدِر آيزاك بلوم صوتًا كأنه نخرة وضحكة في آنٍ واحد ويقول: «ماذا بحق السماء؟ هل تنوي تولِّي قضية السيدة كولينغ؟ الآن أنت من يعبث معي».

يهز كارديل رأسه ثم يرد: «أنا جاد. كان أولهولم يعرف اسم وينيه لكن لا يعرف اسمي. المبلغ الصغير الذي ستتدبره لي سيمكِّنني على الأقل من إجراء بعض التحريات، إنني لا أطلب الكثير، ولا أحتاج إلى راتب يفوق النفقات التي لا يمكنني تجنبها».

ترتعش أصابع بلوم ارتعاشًا متقطعًا تحت القبضة الشبيهة بالزردية التي يزداد ضغطها، ويجذبه كارديل إليه ويقول: «اسمع يا بلوم، بصرف النظر عن رأيك فيَّ، تعرف أنني لست متسولًا ولا لصًّا. سحقًا، ربما لدي تحفظات بشأنك أنت أيضًا، لكنني أميل إلى الظن بأنك تخفي رجلًا فاضلًا بين طيات لحمك الرخو. قابلتَ مارغريتا كولينغ بنفسك واستمعت إلى قصتها، إذا كانت مساعدتي هي الوحيدة المتاحة، ألا تستحقها؟ أم ينبغي أن تظل أموال الشرطة حيث هي في انتظار اليوم الذي يجد فيه أولهولم أفضل طريقة لاختلاسها؟».

- بدت كولينغ لي امرأة شريفة للغاية وصاحبة قضية تستحق الاهتمام، لكن متاعبها، رغم فظاعتها، بدت لي قضية ميؤوسًا منها.

تمر نصف دقيقة من التفكير قبل أن تلين تعابير وجه بلوم إلى الرضوخ ويقول: «حسنًا إذن يا كارديل، ما دمت تعدني باستغلال كل قطعة نقود الاستغلال الأمثل».

يومئ كارديل له ويضغط اليد البضَّة ضغطة أشد ويقول: «فلنتصافح على اتفاقنا».

يذرع كارديل الأزقة المؤدية إلى الشارع الغربي إلى أن يراهم، مجموعة من أطفال الشوارع الذين تجمعوا في نصف دائرة جوار جدار مبنى، معظمهم لم يبلغوا العاشرة من أعمارهم، لكن أكبرهم قد يكون في الخامسة عشرة، يشمخ فوق رفاقه بوجهه الذي ترتسم عليه الشوائب التي ترافق سنه، ويقبض على أحد أعوانه من ياقته ويكيل له لطمة تلو أخرى.

يمثلون مزيجًا لافتًا، قِلة منهم أطفال لديهم منازل على الأرجح لكن إما أنهم سُمح لهم بالتراكض في الشوارع لأن آباءهم مشغولون بأشياء أهم، وإما أنهم لم يُمنعوا فحسب، وآخرون ينامون في العراء، يتامى، يتبدرون قوت يومهم بالكاد، وسواء كان لديهم آباء أم لا، فإن فقرهم يوحدهم، وقانون الفقر هو القانون الوحيد الذي يعرفونه، أي طفل لديه زوجا حذاء بحالة جيدة وقميص غُسل للتو يجب عليه أن يتنازل عن ممتلكاته للأقوى بينهم، ومن لا يملكون شيئًا ذا قيمة هم الوحيدون الذين لا يتعرضون لأي مضايقة. وذوو الحظ العاثر الذين وُلدوا بملامح تسر النظر ولا يرغبون في جني المال من مظهرهم يلطخون وجوههم دومًا بأقذار مجرى التصريف في بداية اليوم. يسترعي كارديل نظرات زعيمهم ويرفع شلنًا بين إبهامه وسبابته، فيقترب الصبي الطويل كأنه حيوان جَفول يحاذر المفترسين، ويخفض كارديل صوته حتى لا يسمع الآخرون حوارهما.

يقول: «أتعرف من أنا؟».

يومئ الصبي.

فيتابع: «قبل قرابة أسبوع غفوت في الحانة وسُرقت ذراعي الخشبية، وقد أصبحتْ من نصيبك أو نصيب شخص مثلك، لا يهمني كثيرًا. أريد استعادتها».

- النقود أولًا.

يرفع كارديل القطعة المعدنية لكنه يبعدها بسرعة عن متناول الصبي عندما يحاول أخذها ويقول: «ستنالها، لكن إليك تحذيرًا أولًا. كنت نائمًا ولا يمكنني أذية أحد عندما سُرقت الذراع، والآن أنا سريع وخطير. وأعدك بالتالي الآن: إذا أخذت نقودي ولم تسلمني البضاعة، فسوف أجدك، «مدينة ما بين الجسور» صغيرة، ولقاؤنا مرة أخرى مسألة وقت ليس إلا، سوف أمسك بك

من أذنك وأحملك إلى سلالم البورصة، وهناك سوف أطرحك على حجري وأنزِل بنطالك وأجلدك أمام كل من يود المشاهدة».

يزدرد الصبي ريقه ويقول: «احتفظ بشلنك».

- إذا جعلت كلامي يبدو كأنك لديك خيار، فلا بد أنني لم أعبر عن نفسي تعبيرًا واضحًا.

- رأيتهم يلقون ذراعك في «ملتقى الذباب».

من مواضيع النقاش المحبوبة في «مدينة ما بين الجسور» الجدل بشأن العمق الحقيقي لكومة الروث التي جوار رصيف الميناء، الكومة التي يبدو أنها لا تنقص أبدًا، بغض النظر عن العبَّارات التي تنقل بانتظام الكثير منها لدرجة أن أسطحها تغوص تحت خط الماء، تخمينات قليلة تقدِّر عمقها بأربع قامات.

يفكر كارديل قليلًا ويقول: «فلنقل شلنين، سيكفيان لوجبتين كاملتين لكم جميعًا، لكن فليكن الله في عونك إذا سمعتُ أنك لم تجتهد في البحث مثل الآخرين».

الفصل الثلاثون

يطرق كارديل على الباب طرقًا مزعجًا بقبضته اليسرى المستعادة، التي وُضعت جوار بابه في وقت مبكر من صباح اليوم، يحس بوزنها مألوفًا وباعثًا على الراحة، غسلها أطفال الشوارع بسرعة في مجرى التصريف لكن لم يفلحوا في محو صورة القضيب والخصيتين التي نحتها أحدهم على المعصم. ينتظر قبل أن يطرق طرقًا بإيقاع عسكري مرة أخرى، بلا نتيجة، ويلصق أذنه على خشب الباب، فيسمع شخيرًا خافتًا على الجانب الآخر.

يتطلب إقناع الأرملة بيرغمان بعض المجهود قبل أن توافق على فتح قفل الباب بمفتاحها الاحتياطي، لا تجلب حلقة مفاتيحها إلا بعدما يذكر كارديل صلته بالشرطة، وببطء وعناد تجرب كل مفتاح حتى تجد المطلوب.

النتانة التي تستقبله عندما يفتح الباب مألوفة لديه، إذ أمضى ساعات عديدة محاطًا بها، إنها رائحة أسوأ الحانات، التي يبلغ اليأس بأصحابها حد أن يقدموا كؤوسًا مجانية أملًا في تغاضي الزبائن عن حقيقة عدم كنس الأرضية أو غسلها، حيث يمكن لأي أحد أن يفعل ما يحلو له، وفيها تتراكم دفقات ألف إبريق فتبلل نشارة الخشب على الأرضية، والذين تشتد حاجتهم لا يكلفون أنفسهم سوى التراجع قليلًا والتبول على جانب البرميل الذي يؤدي وظيفة طاولة، وفيها كل من أسرف في الشراب يمكنه إفراغ معدته حيثما اتفق. يحجب كارديل المنظر بإغلاق الباب بكتفه، حتى يجنِّب السيدة بيرغمان رؤية حالة مستأجرها.

يقول: «يبدو أن صديقي أسرف في تناول المشروبات المرطبة، دعيني أعتني به وأحرص على أن يعيد ترتيب الغرفة. هل يدين لك بأي شيء؟».

- دُفِع إيجار الغرفة حتى يوم الأحد.

القناني متناثرة في كل مكان، ولا يُسمع صوت سوى تنفس إميل وينيه المجهَد وهو ممدد على الأرضية، ثملًا إلى درجة أنه أخطأ السرير وهو على بعد ذراع منه، لكن هذا من حسن حظه، كما يلاحظ كارديل بعين الخبير، جزئيًّا لأن سقوط إميل جنَّب فراشه كل ما خرج منه وهو غائب عن الوعي، ولأنه سقط على بطنه وتجنب الموت اختناقًا. يرفع كارديل يدًا هامدة ويدعها تسقط على الأرضية دون اعتراض من صاحبها. يعيد القناني الفارغة إلى السلة التي جُلبت فيها، ويحمل مبولة الغرفة الطافحة خارجًا إلى السلالم، حيث توجد نافذة كبيرة تتيح له إفراغ المحتويات، وبعد إزالة الأشياء من الأرضية يدس يده تحت إميل وينيه لينقله إلى سريره، ويجد أن الجهد المطلوب أقل مما كان يخشاه، فإميل وينيه ليس سوى جلد على عظم. يضع كارديل رأس وينيه على الوسادة، وينزع قميصه فوق رأسه بشيء من الصعوبة، ويغمس خرقة في دلو الماء وينظفه من أسوأ أقذاره، ثم يولي الأرضية العناية نفسها. وعندما يغادر الغرفة، يأخذ معه المفتاح من الجانب الداخلي من الباب، وبعدما يعود بعد قرابة ساعة، يطرق باب السيدة بيرغمان، ويضع قطعتي نقود في راحة اليد المعلقة سلفًا في الهواء بينهما، مهتديةً بغريزة لا تخطئ.

ويقول: «يريد صديقي إخبارك بأنه سوف يبقى حتى نهاية الشهر».

وفي الغرفة يضع كارديل كل ما جلبه على الطاولة: قناني وماء وحطب وقش لإشعال النار وعلبة بارود، وخبز وجبن وكتف لحم ضأن مدخن، سيكفي أيامًا. يقترب وقت العشاء. الغرفة مظلمة راكدة الهواء، وزجاج النافذة ليس من النوع الذي يمكن فتحه ولا يسمح بخروج الهواء ولا دخول الضوء.

ينهي كارديل مهامه، ويرتمي على كرسي مهترئ ذي ذراعين ويحل أربطة ذراعه الخشبية، ويملأ تجويف خده بالتبغ وببطء يبدأ طحنه بين أسنانه، وبين الفينة والأخرى يبصق العصير في قارورة فارغة وضعها إلى جانبه، وينتظر

يمضي وقت طويل قبل استيقاظ إميل وينيه، وبصعوبة تنفتح عينان محتقنتان بالدماء، يتبعها أنين عندما تدرك الحواس حالة الجسد. ينهض كارديل ويضع قنينة تحت ذقن وينيه، فيمسكها ويشرب نَهِمًا.

ويجيب كارديل إثر رؤيته تعابير خيبة الأمل قبل أن يُطرح السؤال: «جعة خفيفة، ستطفئ عطشك».

يفرك إميل وينيه عينيه ويعبس مع كل رشفة.

فيقول له: «عُد إلى النوم، إنه أفضل طريقة لتخفيف الألم».

ينتظر كارديل صابرًا، يرسم الضوء مستطيلًا ملتويًا يتسلق الجدار ببطء مع انحدار الشمس، ثم يأتي المساء قبل أن ينهض وينيه مرة أخرى، وينتبه كارديل إلى استيقاظه بتغيُّر تنفسه، لكن وينيه يختار الاضجاع بصمت في الظلام لمدة طويلة قبل أن يقول أي شيء.

ثم يقول: «لماذا أنت هنا؟».

يبصق كارديل منظفًا فمه ويقول: «جئت بحثًا عنك من أجل غاية مختلفة تمام الاختلاف عن غايتي الآن».

يجول وينيه بناظريه في أرجاء الغرفة. ويقول: «لم يكن من الضروري أن تنظف الفوضى التي خلَّفتها أنا».

- كان ينبغي أن ينظفها أحدٌ ما، ويبدو لي أنني كنت المرشح الأقرب. والآن هل حان دوري في طرح الأسئلة؟

يكتسي وجه وينيه بتعابير الخزي ويقول: «تفضَّل».

- هل شربت كل هذه القناني وحدك؟ أم جاء شخص آخر هنا لمساعدتك؟

- يؤسفني أنني شربتها وحدي.

- إذن أتخيل أنك تحس بالعطش الآن.

يتناول كارديل قنينة جعة أخرى ويناولها لوينيه، الذي يحتج: «الجعة لن تفي بالغرض، على الإطلاق، أريد أقوى مشروب كحولي يمكن العثور عليه».

يضع كارديل حشوة تبغ أخرى ويقول: «إنها المتاحة».

ينهض وينيه من الفراش ويتحسس في الأرجاء بحثًا عن قميصه قائلًا: «سأخرج بنفسي إذن».

- ستبقى في مكانك.

يشع الخوف من عيني إميل وينيه عندما تتجهان إلى الباب وتجدان ثقب المفتاح خاليًا.

يربِّت كارديل على جيب صدريته ويقول: «إنه معي هنا، تعال وخذه إذا تجرأت».

لا يخرج صوت وينيه سوى همسة واهنة عندما يجيب: «سأموت».

يميل كارديل إلى الأمام ويقول: «رأيتُ أناسًا مثلك من قبل، في الحرب في فنلندا، أُرسلت إلى لوفيسا بعدما قُطِعت ذراعي، كنا كثيرين في معسكر الخيام، والمسعفون الميدانيون قليلون وعازمون على العودة إلى ديارهم عندئذ وقد حل السلام، وبعد مدة بدأت المشروبات الكحولية تنفد، ووُعدنا بإمداد سريع لكنه لم يأتِ. ظل كثيرون من زملائي يعاقرون الخمر منذ سنوات، فاضطر الذين يقدرون على المشي من الجرحى إلى ترك أسِرَّتهم بسبب العطش، والهيام على وجوههم وسط الغابة أملًا في العثور على مزرعة أو قرية حيث قد يوجد شراب. لم أرهم مرة أخرى قط، لكن لا أشك في أنهم لقوا حتفهم سريعًا في الغابة الفنلندية، طعنًا على أيدي قُطاع طرق في دغلٍ ما أو تجمدًا وقد فوجئوا بأول ليالي الصقيع، وعجز آخرون عن مغادرة أسرَّتهم، وبذلت ما بوسعي في مساعدة المسعفين على تخفيف معاناتهم، كان ألطف فعل يمكنني فعله هو إفقادهم وعيهم بلكمهم. مات بعضهم بلا شك، وتحسنت حالة آخرين. كان لا بد من مضي أسبوع حتى نعرف من نجا ومن هلك. ستجتاز اليوم الأول بالطبع، ثم سيسوء وضعك، لكن إذا نجوت يا إميل وينيه، فسوف تستعيد حياتك، لن تُجدي أحدًا نفعًا إذا كنت ميتًا أو ثملًا طوال الوقت».

الفصل الحادي والثلاثون

عندما يستيقظ إميل وينيه أخيرًا، يحس كأن جسده قد خلا من كل إرهاق
لكن غثيانه يبدو أعنف، كما ينتابه تململ يذكيه خوفٌ مما هو قادم. ويحس
كلما تنفس كأنه يزعج وحشًا هاجعًا في بطنه، فينكزه في خاصرته بقوة
تجعل معدته تتقلص. لا يسعه فعل شيء سوى انتظار نهاية مطاف المراقب
ذي الذراع الواحدة، الذي لا بد أن يغفو في النهاية. يأتي الليل، ويتصنع إميل
النوم مغمضًا عينيه نصف إغماضة حتى يسمع شخيرًا من الجهة الأخرى من
الغرفة، يرفع البطانية ببطء، ويدير ساقيه فوق حافة السرير، مبتهلًا ألا يصدر
إطار السرير الخشبي صوتًا، وينهض ويسير على أمشاط رجليه عابرًا الغرفة
ويرى من كثب تفاصيل ملامح الوجه النائم، ولا يسع وينيه سوى التساؤل عم
فعله المراقب حتى يستحق مظهرًا كهذا، بدايةً الوجه العريض لا ميزة له، ومع
سنِّه ارتسمت عليه تجاعيد عميقة، لكن سمة الوجه الأبرز هي أنه يمثل سجلًا
زمنيًّا للعنف، الأنف كُسر والتأم التئامًا سيئًا، وأحد الحاجبين يكاد أن يكون
أصلع بندبة، وعلى الصدغين والجبهة شبكة من الجروح الملتئمة، بعضها
ممتدة إلى ما وراء خط الشعر، والأذنان تغطيهما كُتل من ضربات قديمة
وعظمتا الوجنتين غير متناسقتين، ورغم هذا فهو وجه يبعث على الخوف بدلًا
من الشفقة. يرتعد وينيه ويمد يده المرتعشة ليفتش جيوب الصدرية، متنفسًا
عبر فمه حتى يظل هادئًا بقدر الإمكان، تجد أطراف أصابعه حديدًا، فيسحب
المفتاح متلهفًا ويهرع إلى الباب.

يستعمل إميل كلتا يديه ليولج المفتاح في الثقب ويديره بحذر، مع ابتهال
صامت بألا يكون الزيت قد جف جفافًا تامًا، ويستجيب القفل، وما يكاد الباب
يُفتح قليلًا حتى يندلع صليل زجاج على الأرضية مبددًا الصمت. تمسك به يد

كارديل الحية من كتفه كأنه آفة، ولا بد أن المراقب نهض بسرعة أكبر مما يوحي به جسده.

ثم يخرج صوته زمجرةً خافتة: «لولا استعجالك في النهاية لرأيتَ أنني أسندت قنينة إلى الباب».

يوصد الباب خلفهما ويتراجع إميل في الغرفة، وينظر كارديل إليه مفكرًا ثم يقول: «لن تقدر على تجريب حيلتك مرة أخرى، فلنجرب هذه بدلًا منها».

يلقي كارديل المفتاح على الأرضية ويركله تحت الباب إلى الخارج، فيتملك الذعر إميل وينيه ويقول: «هل تنوي التسبب في موتنا هنا؟ أنا من العطش وأنت من الجوع؟».

يلوِّح كارديل له بقطعة رغيف كبيرة قائلًا: «سوف أكسر الباب عندما ننتهي هنا، دفعت للأرملة بيرغمان تعويضًا سيكفي لشراء قفل جديد. اضجع الآن، حاول أن تنام، سوف تحتاج إلى كل مثقال ذرة من قوة».

يدرك إميل وينيه برعب متزايد الحقيقةَ الكامنة وراء كلمات كارديل، كان متأكدًا أن المراقب يبالغ، أو أن مدة المرض مرت بأسرع مما هو متوقع بما أن اليوم الأول كان سلفًا أسوأ أيام حياته. ماج رصاصٌ مصهور في بطنه، وجعلته التشنجات ينحني فوق مبولة الغرفة، وعندما خرجت الجعة كلها، أعقبتها العصارة الصفراء حارقةً حلقه. ورغم هذا اليوم التالي أسوأ.

إنه مستعد لفعل أي شيء مقابل مشروب، لكن المراقب لا يستجيب لتهديد أو رجاء أو رشوة أو وعد، وعندما يحل الليل مرة ثانية، يشعل كارديل الفتيل المشمع، ويوقد كل غصن ثم يضعه برفق في حامله حيث يحيط اللهب بالخشب المتفحم.

تملأ رائحة القطران الغرفة، ويرى إميل وينيه شيئًا يترقرق على جلده، يجفل، ويحاول نفضه عنه، وعندما يرفع البطانية عن ساقيه، يرى ديدانًا وخنافس تتراكض بالمئات، ينتفخ جلده ويتورم والحشرات تحفر أنفاقها، وللمرة الأولى يصرخ بصوت عال.

يعصر المراقب على رأس إميل خرقة مبتلة ويقول: «أيًّا كان ما تراه فهو لا يوجد إلا في رأسك».

يغمض وينيه عينيه بكل ما لديه من قوة، ثم يسمع صريرًا وصوت اصطكاك ويدرك أنه يقرقض أسنانه.

تأتي الحمى لاحقًا، ومعها لحظات سكينة وجيزة عندما لا يعود بمقدور وعيه تحمُّل ما يمر به جسده. كارديل بجانبه حاملًا خرقته، يطعمه الخبز المغموس في الجعة الذي لا يستطيع وينيه إبقاءه في بطنه إلا نادرًا.

يقول وينيه: «ما الذي تريده مني؟».

- سألتني مرات عديدة.

- ربما أتذكر الإجابة هذه المرة.

- جئت لأطلب منك المساعدة، آملًا في ألا يقتصر الشبه بينك وبين شقيقك على المظهر الخارجي فحسب، ووجدتك غير قادر على تقديم المساعدة، حتى إذا رغبتَ في تقديمها. إنني أعيد إليك صحتك، وعندما ننتهي هنا وتقلع عن الشراب، يمكنك الاستماع إلى عرضي واتخاذ قرارك، إذا قلت لا، فسوف يمضي كل منا في طريقه.

- إنك تحتجزني هنا دون إرادتي، لماذا أكافئك على هذا بمساعدتي؟

- رأيت الكحول يعمل في خدمة حاصد الأرواح مرات عديدة، إنه ليس منظرًا جميلًا. ونظرًا إلى كيفية شربك، أُقدِّر أن تعيش سنة أخرى، ولا تتجاوز خمس سنوات. إنني أنقذ حياتك، وسأنقذها دون إرادتك إن دعا الأمر.

- لا أعرف شيئًا عن المسائل التي كرَّس شقيقي نفسه لها.

- كان شقيقك أذكى رجل عرفته، إنكما تفاحتان سقطتا من الشجرة نفسها.

يهز وينيه رأسه من جانب إلى آخر ويقول: «تشابهنا يدفعك إلى التفكير وفقًا لأمنياتك، أنا لست شقيقي، وأيًّا كان ما يساعدك بشأنه فهو ليس ضمن مقدراتي».

يتنفس المراقب أنفاسًا ثقيلة ويجلس صامتًا مدة طويلة. يحترق الفتيل المشمع وينطفئ، وظل وينيه مستلقيًا ساكنًا، منتظرًا في أعطاف الظلام، لكن سرعان ما يسمع صوت احتكاك الفولاذ بحجر الصوان وإشعال شمعة جديدة، مضيئةً وجه المراقب، الذي لا يظهِر صوته الخشن أي مشاعر.

ويقول: «طيب، لديك ميزة لم تكن متاحة لشقيقك، وهي أن ما تعانيه يمكن علاجه».

يرتعش إميل، ويجذب البطانية إلى ذقنه. موجات الحر قوية جدًّا ويحس كأنه يُسفع، ويكشف صوته عن خوفه.

يقول: «ماذا بعد؟».

- الرعشات، لكنها لن تأتي قبل ساعات.

ينام إميل وينيه بضع ساعات، وعندما يستيقظ، لا يجد غثيانه قد ازداد سوءًا، لكن نبضات قلبه تتسارع باطراد.

فينادي: «كارديل؟».

يغيِّر المراقب وضعيته على كرسيه، وعلى الأرجح قد أوقِظ من غفوته، تحتك ساقا الكرسي بالأرضية وهو يجذبه مقتربًا من السرير.

يرد: «موجود».

- أنا خائف.

وفي الصمت الذي أعقب عبارته، ينقر وينيه على إطار السرير بإيقاع غريب، ولا يتوقف، فيحاول إيقاف يده بالقوة، لكن بلا جدوى.

يقول: «كارديل!».

- ها قد أتت.

تنقضي الساعات تباعًا، ومرارًا وتكرارًا يقدم كارديل المواساة الهادئة نفسها.

ثم يقول: «انتهى الأسوأ الآن».

تُمثِّل هذه الكلمات حقيقة الوضع عندما يصيح ديكٌ في صباح اليوم السادس.

الفصل الثاني والثلاثون

يقفان في الزقاق، كلاهما، في الظل، يخرِّزان أعينهما من انعكاس شمس الصباح على واجهة المبنى المقابل. لم يسبق لكارديل طوال حياته أن وصف هواء «مدينة ما بين الجسور» الراكد بأنه منعش، لكن الأسبوع الذي أمضاه في غرفة الأرملة بيرغمان كاد أن يحمله على الوصف. يلقي نظرة سريعة على إميل وينيه ويراه يتنفس أنفاسًا عميقة، ازداد وينيه شحوبًا ونحولًا، لكن كارديل يستشعر لديه تغيرًا أعمق، تغيرًا رآه عدة مرات إبان الحرب، يرى على وجهه نظرة امرئ اقترب من الموت وأفلت وهو يعلم أن الوقت ليس سوى قرض ذي فوائد عالية.

يرمش إميل وينيه ويقلِّب طَرْفه فيما حوله، ينظر من أسطح المباني إلى مجاري التصريف حتى يرتعش إثر قشعريرة سرت في جسمه.

يقول: «كل شيء حاد جدًّا».

- أو بالأحرى أن كل شيء كان ضبابيًّا فيما قبل. بم تشعر؟

يأتي بائع متجول ماشيًا في الشارع، منحنيًا تحت حمله، ويقطع كارديل المجاملات اللزجة بإشارة فظة ويتلقى مقابلها سبابًا مكتومًا. وفي مكان أبعد في الزقاق يركض صبي ممسكًا بحبل خنوص، ويعبس وينيه من ضوضاء الشارع.

يقول وينيه: «لا أتذكر الكثير».

- ما الذي تتذكره؟

- أوبسالا، وغرفتي، ونظرات الجميع إليَّ عندما وصلت أول مرة شبيهًا جدًّا بشقيقي، والآمال والتوقعات، والحسد والاحترام. كنا جميعًا

متقاربين في السن، وأفترض أنهم تخرجوا وواصلوا حياتهم، وحل آخرون محلهم، يشبهون بعضهم كثيرًا. والوحيد الذي تقدم في السن كان أنا.

مستغرقًا في أفكاره يبدأ وينيه في قضم ظفره، لكنه يعبس من المذاق ويبصق في التراب. ثم يميل رأسه إلى جانب، كأنما انتبه بضجة مفاجئة، ويتراجع حتى يلامس بظهره جص الجدار الذي وراءه.

يقول: «هل سمعت هذا؟».

جلبة الناس القادمة من رصيف الميناء، ورنين كؤوس يشي باقتراب وصول بائع متجول منعطفًا عند الزاوية، وصرير عجلات ووقع حوافر على الأرض المرصوفة. لا يستطيع كارديل سماع أي أصوات لافتة فيستطيع تمييزها عن ضجيج المدينة الدائم، وتعابيره تجعل تشوشه باديًا، فيهز وينيه رأسه.

ويقول: «أيمكننا الذهاب إلى مكان آخر؟ مكان المباني فيه ليست متقاربة كهذه».

يسيران هابطان التل، حيث تنحدر الأرض نحو الماء وتمتد السماء بالأعلى، وبين السفن الراسية تلتمع المياه تحت الشمس المتلألئة، ويسوِّي إميل وينيه ظهره الذي كان محدودبًا في ظلال الأزقة، يقتاده كارديل نحو الكنيسة حيث تخف الحشود، ويتكئ بظهره على قاعدة حجرية تشغل المساحة المفتوحة.

يقول كارديل: «التمست امرأة مساعدتي في الأسبوع قبل الماضي، اسمها كولينغ، ابنتها ماتت وقيل لها إن الذئاب قتلتها، لكن كولينغ لديها سبب يجعلها تظن أن الذئاب ليست من النوع الذي لديه فرو. لن يساعدها أحد. ومُنحتُ -على مضض- تفويضًا من الشرطة كي أساعد في هذه القضية».

يخفض نظراته قبل أن يتابع: «في الخريف الماضي طلب شقيقك مني المساعدة، كان وحده، يحتضر، واستشعرَ أنني أتحلى بنوع من القوة يفتقر هو إليه. وأظنه عرف على الفور أنني سأوافق، وبما أنه خمن أسبابي، اختار أن يثق بي ثقة تامة. ما زلت محتفظًا بشيء من قوتي، لكنني الآن وحيد كما كان وحيدًا عندئذٍ، وهذه المرة أنا أفتقر إلى ما كان لديه. لا أستطيع فهم دواخلك كما فهمني شقيقك، لكنني أحتاج إلى أن أثق بك كما كان يثق بي».

يخرِج كارديل محفظته من جيب معطفه ويخرِج منها قطعة نقدية، عليها صورة جانبية لولي العهد ناظرًا إلى تاج ما يزال يبعد عنه عامين. يناول النقود لوينيه، الذي يبدو عليه التشوش.

يقول كارديل: «تعرف ما آمله، لكن وقت القوة الغاشمة انتهى، إنني أطلب منك المساعدة، أتيحُ لك فرصة تصويب أمر خاطئ، وما دمت إلى جانبي لن تعتمد على ضميرك كي تبقى بمأمن من الشراب. توجد المزيد من النقود في المصدر الذي جاءت منه هذه، وستنال نصيبك الذي يبلغ النصف، لكن إذا كان تخميني صحيحًا، سيكون المبلغ تعويضًا عادلًا عن أتعابنا. طريقنا طويل ومظلم وعسير، ومن نسعى خلفه مجهول، والمخاطر ليست هينة».

يعلن جرس سان غيرترود انقضاء ثلاثة أرباع الساعة.

يتابع: «اقتربت الساعة العاشرة، قابلني عند الرابعة جوار السلالم التي تُبحر القوارب منها. إذا أردت أن تمضي في سبيلك، فستوصلك النقود إلى ديارك وستكفي لثمالتك حتى تنسى الأسبوع الماضي. اشتر شيئًا تأكله. وتذكر أنك إذا شربت كأسًا واحدة مرة أخرى، فلن تكون ذا نفع لأي أحد، لا سيما نفسك».

يدير كارديل ظهره ويشرع في السير نحو البحر، وعلى مبعدة قليلًا ينعطف يسارًا تحت ممر مقنطر، ومع كل خطوة تقل كثافة المباني الصفراء مفسحةً المجال للبحر والسماء، تسقط أشعة الشمس على عينيه وهو يهيم جنوبًا بمحاذاة رصيف الميناء، مقتربًا من صوت التيار، حيث تتدفق إلى البحر مياهُ البحيرة التي دارت دورتها في الساقية، يعلوها الزبد اغتباطًا بحريتها التي نالتها للتو. يتجاوز كارديل «دار الجمارك» ويقتعد إحدى السلالم الحجرية لينتظر انخفاض الحرارة، تصيح به امرأة على قارب آمرة إياه بإبعاد عجيزته الضخمة إلا إذا أراد أن ينحشر فيها مجداف، فيجيبها كارديل من باب العادة بعبارات مماثلة. تنهش أربطة ذراعه طرفه الأبتر. تتلاشى أصوات الناس وكارديل يستغرق في الذكريات، مدركًا حقيقة أن إميل وينيه لا يحمل بين يديه قدَر شخص واحد، إنما اثنين. تمضي الساعات،

وتميل الشمس ناحية الغرب، حتى يسقط ظلٌّ على عينيه المغمضتين ويقعد شخص جواره، يبقي كارديل عينيه مغمضتين ويظل ساكنًا لوهلة، وعندما يفتح عينيه، يناوله وينيه رغيفًا بيده التي ما تزال ترتعش من جهده والتغيير الذي يمر به ويقول: «ترددتُ كثيرًا».

- ما الذي منعك من الذهاب؟

يتنهد وينيه ويرسل بصره بين صواري السفن ونحو الرصيف حيث يودِّع خليج الملح «مدينة ما بين الجسور».

يقول: «جئت إلى هنا بحثًا عن ساعة شقيقي، وكنت أنوي رهنها لنفسي، لسدَّدتْ لي ثمن جميع القناني التي قد أرغب فيها، وعندما لم أجدها كان عليَّ البحث عنها على أي حال، حتى أرسل إلى شقيقتي وأطلب منها المال لإعادة شرائها إذا وجدت مكتب الرهن الصحيح، وهذا المال أيضًا كان ليخدم الغرض نفسه».

- والآن؟

- إذا ساعدتك أولًا، فهل ستساعدني لاحقًا؟ هل ستساعدني في العثور على بيورلينغ سيسل؟

يتردد كارديل، ويركل صخرة أمامه فوق حافة الرصيف إلى الماء ويقول: «لماذا ما زلت تريد الساعة؟».

- إذا استعدتُ الساعة أعدك بأن أفعل لك ما لم يعد بمقدور شقيقي فعله، فلن أكون قد استعدتُها فحسب، وإنما استحققتها أيضًا. هل يكفيك هذا السبب؟

يومئ كارديل قائلًا: «نعم. أعدك، ساعدني وسوف أساعدك».

يفرك إميل وينيه عينيه والشمس منعكسة عليهما من الأمواج، ويجيل النظر فيما حوله كأنه ينتبه إلى محيطه لأول مرة.

يقول: «في أي عام نحن الآن يا كارديل؟».

- هلا أسديتني معروفًا؟ خاطبني بجان مايكل.

الفصل الثالث والثلاثون

يسافران بسرعة وبأقل تكلفة ليجعلا الرحلة قصيرة بقدر الإمكان، محشورَين بين بضائع على متن عربات لا يحفل سائقوها بما إذا كان الوقت مبكرًا أو متأخرًا قبل انطلاقهم على الطريق. لا يهدأ بال لإميل وينيه، ودومًا يغير وضعية جلوسه حتى يجد وضعية تريح ظهره، ثم يذب سرب ذباب يداهمهما في أثناء تقدمهما المتثاقل، لا شيء من حولهما سوى الغابات، التي تصير مراعي من حين لآخر، حيث أزال فأسُ مزارعٍ الأشجار من الأرض من أجل زراعة المحاصيل أو الرعي.

يقول وينيه: «دعني أحاول تلخيص الوضع، إن لم يكن من أجلك فمن أجلي».

يتمهل لحظة حتى يرتب أفكاره قبل أن يتابع: «علينًا أولًا أن نحدد ما إذا ارتُكبت أي جريمة أم لا. أيمكننا الأخذ بكلام السيدة كولينغ أم أن حزنها جعلها تتوهَّم أشياء؟ ربما يجدر بنا أولًا أن نبذل ما بوسعنا حتى نعرف بأنفسنا مدى انتشار الذئاب حول «الورود الثلاث»».

كان كارديل قد جذب حافة قبعته ثلاثية الزوايا فوق عينيه ليحمي وجهه من الحشرات، طاردًا التي تغامر بالاقتراب مستخدمًا عشبة طويلة مثبتة في زاوية فمه.

وينخر عندما يجيب: «قصة الذئاب مختلَقة، ليس من السهل أن يهاجم قطيع ذئاب إنسانًا في هذا الوقت من العام، فالغابات مليئة بفرائس أخرى، مثل هذه الحوادث لا تقع إلا عندما يجعل الشتاء جميع الوحوش تتضور جوعًا إلى درجة لا تطاق».

- إذن ينبغي لنا على الأقل أن نعرف ما إذا وقعت الجريمة في الغابة أم في مكان آخر، وما إذا سنجد أي معلومات في الموقع.
- ما كنت أفكر فيه بالضبط.

المنظر الطبيعي متوشح بحُلَّة الصيف، وكل حقل حبوب متموج يعِد مبدئيًّا بحصاد متوسط لأول مرة منذ سنوات، كأنه اعتذار الطبيعة عن الشتاء القاسي الذي انصرم. للكثيرين يأتي الفرج متأخرًا، فالأوراق والزهور التي جادت بها الطبيعة بوفرة لا فائدة منها سوى تزيين قبورهم. تمر العربة على مرأى من المنازل المهجورة، وحيث تشهد غيوم الحشرات على الذين ماتوا مغلَّفين في الجليد ولا يُعرف بأمرهم إلا الآن. تئن العجلات الملتوية أنينًا صاخبًا مع كل دورة حول محاورها، حاملةً إياهم على درب يتعرج متحاشيًا التلال والوديان ويختار المسار الأقل مقاومةً، بصرف النظر عن عدد الانحناءات والمنعطفات التي قد يتطلبها. وعند النُّزُل الأخير يسألان عن الاتجاهات، ويواصلان الرحلة مشيًا.

تخرج الأرملة كولينغ لملاقاتهما، وحالما يدخلان إلى الباحة، ترفع دلو ماء من البئر لهما حتى يغتسلا ويزيلا الغبار عن وجهيهما.

قالت: «لم أظن أنك ستأتي».

يأخذ كارديل جرعة ماء أخرى ويقول: «هذا إميل وينيه، سيساعدني في هذه القضية».

ينظر في أرجاء الباحة التي تعمها الفوضى، الأبواب المفضية إلى المسكن الرئيسي والمباني الخارجية جميعها متدلية مفتوحة، كاشفةً عن سقط متاع مكوم بالداخل.

قال: «ما الذي يجري؟».

تنخر السيدة كولينغ وتقول: «هل سأعتني بالمزرعة وحدي؟ ما كاد محاسب العقارات يعبر عن تعازيه حتى طرح عليَّ الأسئلة التي فهمت منها أنني عليَّ الاختيار بين تسليم الأرض المستأجرة أو نزعها مني، والوقت المتاح لي شارف على نهايته. لدي شقيقة تقيم على بعد مقاطعتين، ولا خيار لي سوى إلقاء نفسي تحت رحمتها وطلب ركن يمكنني النوم فيه. إنني أحزم أغراضي وأفرز كل شيء أملًا في الحصول على مبلغ زهيد مقابل ما لن أتمكن من أخذه معي».

المرارة التي في صوتها لا تشجِّع ردًّا من كارديل ولا من وينيه.

قالت: «طيب، جميعنا نرزح تحت أعباء وشواغل. من أين تريدان أن تبدآ؟».

ما يكاد كارديل يفتح شفتيه حتى يقاطعه وينيه: «الضيعة. نود رؤية «الورود الثلاث»، داخلها وخارجها».

تهز كتفيها وتقول: «سأدلكما على الطريق».

تقتادهما عبر الغابة إلى ساحة خالية تنتهي عندها الأشجار، يمكن رؤية «الورود الثلاث» من الجانب الآخر من الحقل، وهو بيت ريفي من النوع الذي تحب طبقة النبلاء في المنطقة أن تُسمِّيه قلعة، في خدعة لن يكلف أهل المدينة أنفسهم عناء التحقق منها. إنه منزل ضيعة في نظر الذين يعرفون استوكهولم، يحيط به من الجانبين بيتان خارجيان منفصلان، يضمان المطبخ ومسكن الخدم.

تشير السيدة كولينغ إلى الطريق وتقول: «أيمكنكما تتبع طريق عودتكما؟ سأذهب لأعد العشاء حتى تعودا. لن تطأ قدماي أرض «الورود الثلاث» مرة أخرى أبدًا».

الخادمة التي تستجيب لطرْق كارديل تتركهما ينتظران مدة قبل أن تعود وفي أعقابها رجل عصبي ضئيل الحجم، صوته متشنج من الضيق، ويرمقهما بنظرة صارمة من فوق نظارته المتوازنة على أرنبة أنفه.

قال: «نعم».

- جان مايكل كارديل، إميل وينيه، في مهمة رسمية من شرطة استوكهولم.
- وما هي طبيعة مهمتكما؟
- لنيا شارلوتا كولينغ.
- هل لي أن أتجاسر على طلب الأوراق التي تثبت هذا الزعم؟

يعبس كارديل قائلًا: «هذا السؤال عادةً ما يطرحه علينا كل من يخفي شيئًا».

- لا يبدو عليك سيماء الذين يجرون عمل الشرطة.
- ألَّا يبدو شخص كأنه قادم من الشرطة ليس أمرًا سيئًا للذي يؤدي عملًا نيابةً عن وكالة الشرطة، إننا نعيش في عالم من المظاهر الخداعة. أنت نفسك على سبيل المثال، من الوهلة الأولى لا تبدو أحمق إلى درجة التشكيك في مسؤولَين حكوميين الحق إلى جانبهما.

يتصاعد اللون في وجه الرجل الضئيل، لكنه لا يكاد يأخذ نفسًا قبل أن يريه كارديل الوثيقة التي أعدَّها آيزاك بلوم ووضع عليها الختم الصحيح.

قال: «إليك الأوراق ذات الصلة، إن كان يهمك أن تتحرك من تلقاء نفسك، فأنصحك بالتحرك بينما ما يزال الوقت متاحًا».

يتغير سلوك الرجل الازدرائي إلى خنوع، وينضح عرقًا وهو ينتحي جانبًا ويقول: «أستميحكما عذرًا، يعج الريف بالصعاليك، وسأكون مقصرًا في أداء واجباتي إذا لم أتحقق من نيات كل زائر».

- وهل لي أن أسأل عن وظيفتك هنا؟
- عُيِّنت لإدارة العقار في غياب المالك. اسمي اسفينِنغ.
- هل تعرف المكان منذ مدة طويلة؟

يهز اسفيننغ رأسه ويقول: «لا، إطلاقًا. كنت أمين حسابات طوال حياتي، لكن بوصفي ابن مُزارع ساعدتُ في مسائل مشابهة في أماكن أخرى. جُلبت إلى هنا إثر وعد براتب يفوق راتبي. رحل الورود الثلاث الكبير في الربيع الماضي، وبما أن وريثه الوحيد كان مسافرًا خارج البلاد، أدارت السلطات المحلية شؤون العقار أفضل إدارة حسب قدراتهم، ثم جاء الابن ليتزوج، وفهمتُ أن أحداثًا مؤسفة وقعت، ونُصِحت بأن الأفضل لي أن أظل جاهلًا بها. طُرد رئيس العمال السابق، وعُرض عليَّ المنصب».

- من هو رب عملك؟

- الابن، بالطبع، مالك العقار، إريك الورود الثلاث.

ينهش كارديل ساهمًا موضع عضة بعوضة في مقدمة شعره، ثم يقول: «الآن حان دورنا في طلب الأوراق».

- لدي عقد، بالطبع، سأجلبه لك حالًا، كل شيء على ما يرام، لكنني أتجاسر على تخمين وجود مسائل أهم تودان التطرق إليها، صحيح؟

يضيِّق كارديل عينيه ناظرًا إلى الردهة المعتمة ويقول: «سرير الزفاف، أرِنا الغرفة التي جُهِّز فيها سرير الزفاف».

يغلق كارديل الباب خلفهما عندما يجتازان العتبة، الغرفة جميلة، يتوسطها سرير تتدلى فوقه ستائر معلقة من أربعة أعمدة مزخرفة، والأثاث متسق مع بقية المنزل، من نوعية جيدة، متوارث عبر الأجيال، محفوظ بنفس الحالة التي كان عليها عندما اقتُني أول مرة في عالم بعيد كل البعد عن موضات المدينة دائمة التغير. سجادة شرقية، وورق حائط ذو نقش زهور مكون من أكاليل مضفورة.

يسيران جيئة وذهابًا وسط الأناقة عتيقة الطراز في الغرفة، ووينيه أول من يبدد حاجز الصمت: «هل تشم الرائحة؟».

يومئ كارديل قائلًا: «صابون وماء، لكن هذا لا يخبرنا بأي شيء، لقد غسلوا الغرفة، ومن الطبيعي أن تُنظف استعدادًا لليلة زفاف كما تُنظف بعد جريمة قتل».

يجثو على ركبتيه وقد خطرت له فكرة مفاجئة.

قال: «ساعدني هنا».

يطويان معًا نصف السجادة إلى الخلف، فيكشفان عن اختلاف في لون ألواح الخشب تحتها، يقيس كارديل نهاية السجادة المزودة بأهداب ويقارن طولها بطول المنطقة التي بين الخشب الفاتح والداكن.

ثم يقول: «كانت توجد سجادة أخرى هنا قبل هذه، هل غُيِّرت لأنها صارت ملطخة أم لأن الجديدة رُئيت أنسب لغرفة زفاف؟».

ينهض كارديل فتطقطق ركبته بينما يومئ وينيه ساهمًا، ومعًا يتفحصان بقية الغرفة، لكن بلا طائل، كل شيء نظيف لا تشوبه شائبة، إلى درجة أن نُدف الصابون ما تزال ظاهرة في شقوق الخشب وتجاويفه. يبادر كارديل بإلغاء البحث ويرتمي على كرسي ويحشو خده بالتبغ.

ويقول: «لا جدوى».

يمضغ وينيه ظفره ويرنو ببصره إلى السقف، حيث تتدلى ثريا من زخارف جصية عبر سلسلة مغلفة بقماش التفتا.

قال: «أيمكنك...».

يخرسه الشك، فيرمقه كارديل بنظرة نفاد صبر ويقول: «هيا انطق، أيًّا كان ما ستقوله لن يجعل الوضع ميؤوسًا منه أكثر مما هو عليه».

- أيمكنك أن تطلب من أحدهم إضاءة الثريا لنا يا جان مايكل؟

- نحن في منتصف النهار، ألا يكفيك الضوء؟

يختار وينيه هز كتفيه بدلًا من توضيح فكرته، ويواصل التحديق إلى الأعلى حتى ينهض كارديل أخيرًا متنهِّدًا ويغادر الغرفة، وعندما يعود بعد دقيقتين يعود مصطحبًا الخادمة نفسها التي فتحت الباب لهما، والآن تحمل شمعة ذبالتها المشتعلة محمية خلف راحة يدها المقوسة، تقرِّب اللهب من شموع الثريا، شمعة تلو الأخرى، بحذر حتى لا تلامس موشورات الزجاج، في

حين كان وينيه يرخي أربطة الستائر ويجذبها عن النوافذ، ويضيِّق كارديل عينيه ناظرًا إلى الضوء المفاجئ.

قال وينيه: «ليس هناك يا جان مايكل، ساعدني على النظر بمحاذاة الجدران، إننا نبحث عن ظل شبح لا ينتمي إلى هذا المكان».

يؤديان معًا رقصة بطيئة في أنحاء الغرفة، وبصيحة خافتة يلمح وينيه ما يبحث عنه: لطخة على ورق الحائط الذي يرتعش كلما هب نسيم في الغرفة يجعل الشموع ترفرف. شيء كحشرة، كأنه شيء اندس خلسة بين أوراق ورق الحائط.

ينظر وينيه فيما حوله ويقول: «ساعدني على نقل الطاولة».

يحرِّكان الطاولة ويتسلقها وينيه ويقف على سطحها، يبحث عن الخط الذي بين اللهب والظل، حتى يستطيع وضع يده بين الكريستال وينزع الشيء الذي يبحث عنه. ثم يمد كارديل يده ليساعده على النزول، ومعًا يسيران إلى النافذة، حيث يمكن لوينيه رفع الشيء نحو الشمس.

ثم يقول: «هل كانت لنيا شارلوتا ذات شعر أحمر مثل والدتها؟».

على أحد الجوانب يريان خصلة شعر عالقة في قطرة دم متخثر.

الفصل الرابع والثلاثون

بعد غيابه الوجيز يقاطعهما اسفيننغ بالأوراق التي طُولِب بها، ويتفحص وينيه التوقيعين بشيء من التدقيق، توقيع اسفيننغ إلى جانب الآخر الذي ينبغي أن يكون توقيع إريك الورود الثلاث لكنه ليس سوى لطخة حبر تتخللها خطوط متموجة.

قال وينيه: «هل وقَّعتما هذه في الوقت نفسه؟».

- لا، وقعتُ أولًا، وحدي، على نسختين، ولاحقًا أعيدت لي إحداهما بتوقيع موثَّق.

- ألم تتقابلا وجهًا لوجه قط؟

هز اسفيننغ رأسه.

- ألم تجد هذا غريبًا؟

- ليس مستغرَبًا جدًّا، فهو ما كان ليحتاج إلى خدماتي إن لم يكن رجلًا مشغولًا، ولم أر سببًا قد يدفعني إلى التشكيك.

كانت يد وينيه قد امتدت إلى ذؤابة شعر عند مؤخرة عنقه، وبدأ يبرمها.

قال: «قل لي، ماذا كانت مهمتك الأولى عندما عُيِّنت رئيسًا للعمال هنا؟».

- تعيين طاقم جديد.

- جميع العمال القدامى سُرِّحوا؟

يهز اسفيننغ كتفيه ويقول: «هذا ما أفترضه. ليس من الصعب العثور على بدلاء، فالعمال من هذا النوع متوفرون، ويمكن لكل صاحب عمل أن يختار كما يحلو له».

يتدخل كارديل بفظاظة: «هل لديك فكرة عن مكان إريك الورود الثلاث؟».

- لا، لا أرى سببًا يدفعني للاستعلام عن مكانه ما دمت أقبض راتبي.

حرارة النهار ما تزال عالقة تحت الأشجار، رغم أن الشمس بدأت تغوص في مغربها، والشفق الأحمر يتلألأ من خلال الأغصان، الذباب والبراغيث تلمع وهي تحتشد داخلةً في العوارض المائلة أو خارجة منها.

يحل كارديل أربطة ذراعه الخشبية ويدعها تتدلى فوق كتفه.

ثم يقول: «رأيتُ ما رأيتُ من إراقة الدماء، ورغم هذا غير قادر على تخيل كيفية تناثر لطخات الدم حتى الأعلى».

- وما تفسيرك للوضع الآن؟

- كولينغ على حق حتى الآن، لم تُقتل ابنتها فحسب، بل وبُذل مجهود كبير في سبيل إخفاء ما حدث، كُشطت الغرفة ونُظِّفت، وجميع الذين كانوا في البيت في ذلك الوقت تشتتوا في اتجاهات الدنيا الأربعة.

- يُفترض وجود شخص واحد فقط في الغرفة مع لنيا شارلوتا، وهو العريس، وحقيقة اختفائه لا تصب في صالحه، لا سيما مع تدبير الاختفاء بطريقة تبدو كأنها تتعمد إخفاء أي أثر. إذا وجدنا إريك الورود الثلاث، فسأراهن على أننا سنجد قاتلها أيضًا.

يومئ كارديل موافقًا ويقول: «سمعت عن أشياء كهذه من قبل، لكن نهايتها ليست مأسَوية كهذه. العروسان شابان، العريس متهور المظهر ومضطرب النفس، ثمل غاية الثمالة، وعندما يعجز عن الأداء يتملكه الإحباط، فيلجأ إلى قبضتيه حتى يحرص على أن تدفع عروسه ثمن رجولته الجريحة».

- إذن نعتمد على مبدأ التفسير البسيط، لكن رغم كل شيء لا بد لنا من العثور على إريك الورود الثلاث.

صالة البيت الرئيسية خالية تقريبًا، ورغم دفء الأمسية توجد نار موقدة في المدفأة الأرضية، نار تزأر حتى تمتد ألسنة لهبها إلى أعلى المدخنة. الأرملة تحرق أغراضها التي لا يمكن بيعها ولا منحها لأي أحد، تجلس على مقعد جوار النار حاملةً فأسًا صغيرة، تُكسِّر الكراسي القديمة، والأدوات التي لا يرجى إصلاحها، ومتاعًا منزليًّا تحمَّل استهلاك أجيال حتى فاق وزنه قيمته.

يرسم العرق مسارات عبر السخام على وجه مارغريتا كولينغ، وهي تحدق إلى المدفأة الأرضية وتثبت عليها نظراتها رغم أن وينيه وكارديل اجتازا عتبة الباب.

يجلس كارديل على المقعد ويضع ذراعه على الأرض جواره ويقول: «إذن؟ هل تعرفين خبرًا عن العريس بعد الزفاف؟».

تكسر كولينغ طبقًا خشبيًّا مشقوقًا على ركبتها وتلقي بالقطع في النار، ثم تقول: «رأيتُ العربة عندما غادرتْ المنزل، وركضت خلفها لأسأل عن وجهتهم، لم أر إريك قط، وكان الحوذي فرنسيًّا، صاح ببضع كلمات بلغته وضحك، ثم سلك الطريق المؤدي إلى استوكهولم، نفس الاتجاه الذي جئتما منه».

- أيمكنكِ تذكر ما قاله؟

- لا أعرف اللغة، لكنني بذلت كل ما بوسعي لأتذكر طريقة نطق ما قاله الرجل.

تحاول بضع محاولات لترديد الكلمات وإميل وينيه يحاول بعناية استقاء معنى من الأصوات.

قال: «لو تون بو دي فيفان؟».

- نعم، هذا ما يبدو أنني سمعته، بهذه الطريقة. لكن إذا كنتما تسعيان خلف إريك، فأنتما مخطئان، فهو قطعًا لم يقتل ابنتي.

يميل كارديل إلى الأمام ويقول: «ولم لا؟».

تلتفت كولينغ التفاتة حادة من مقعدها وتقول: «كان ذلك الفتى يحب لنيا شارلوتا ويحترمها غاية الحب والاحترام، إلى درجة أنه لم يمسها قط عندما كانا يركضان في الغابة طوال أيام الصيف، بعيدًا عن الأعين، رغم أنها ما

كانت لتمانع على الأرجح. أرادا أن يصبحا زوجًا وزوجة، وما من عائق كان ليحول بينهما. رأيتهما عندما التأم شملهما بعدما عاد إريك من رحلته، بريق الحب في عينيه كان من نوع لم أره قط. من أجلها عانى معاناة شديدة لعدة أشهر، يستحيل أن يمس شعرة من رأسها».

يقف إميل وينيه عند الباب ونظراته مثبتة على ملامح المرأة المكلومة ويقول: «أحيانًا تتحول المشاعر القوية إلى مشاعر أخرى مغايرة».

تهز رأسها هزة عنيفة قائلة: «كان فتى طيبًا، ولم يتمنَ لها سوى الخير».

يعجز كارديل عن النظر إلى عينيها، ويشيح بوجهه ممتعضًا، ثم يقول: «ورغم هذا وجدنا الدماء متناثرة حتى الثريا فوق سرير زفافه».

تضيف الدموع مسارين جديدين على السخام الذي يكسو وجهها وتقول: «إذا قتل إريك ابنتي، فما من خير في هذا العالم».

كلاهما يعجز عن الرد عليها، ولا يسعهما فعل شيء سوى تركها تحرق ما بقي لها من الحياة التي عاشتها ذات يوم.

الفصل الخامس والثلاثون

يراوغ النوم إميل وينيه، رغم أن الليلة باردة لطيفة والعجلات تهدهد العربة تحته، يضجع مستيقظًا ويرنو ببصره إلى النجوم الزاحفة عبر السماء، آلاف النجوم غير المسماة تدور في الظلام بين أبراج يتذكر أسماءها لأول مرة منذ سنوات، ينتقل من يد العذراء اليسرى إلى السِّماك الرامح، ومن كوكبة العواء إلى كوكبة السلوقيان، فيطلق ضحكة خافتة عندما يتذكر البرج الذي ينتمي إلى النجم: السلوقيان، أي كلبا الصيد. في مقدمة العربة يسمح الحوذي لنفسه بأن يغفو قليلًا، فالحصان يعرف الطريق. كارديل يشخر شخيرًا عاليًا على الجانب الآخر من العربة. إذا ظلت السماء صافية فأمكن السير في الطريق طوال الليل، فسوف يبلغون استوكهولم مع بزوغ الفجر.

لم يعتد بعد الانطباعات التي تقتحم حواسه التي استعادها مؤخرًا. لا بد أن الوقت تجاوز منتصف الليل، وتضيء شريحة قمر متضائل في رحلة صعوده، وتحت ضوئه تنتصب الأشجار شاحبة. تحيط بهم أصوات الغابة، ومنها يُسمع تكسر أغصان بين الظلال، فيحس وينيه بضيق متزايد.

يحاول التشبث باليوم الذي انقضى، يتذكر اللحظة التي خطرت له فيها فكرة، أول فكرة تخطر له منذ مدة طويلة حسبما يتذكر، ومدى فعاليتها، ونظرة كارديل إليه نظرة غير مألوفة عجز عن تفسيرها، نظرة امتنان، وإكبار، واحترام.

يسمع صوتًا آخر الآن، ويرتعد مع سريان قشعريرة باردة في ظهره. إيقاع مكتوم، لا يحجبه تدحرج العجلات على الحجارة، كأنه مشيُ شخص يلاحقهم ثقيل الخطوات لدرجة تزلزل الأرض. يغمض عينيه ويضع إصبعيه في أذنيه. وبمرور الوقت يهدأ، ويتباطأ وجيب قلبه، فيتجاسر على الاستماع

مرة أخرى، ولا يسمع شيئًا. ويتساءل عن مدة راحته من وساوسه في هذه المرة. يحيط ركبتيه بذراعيه، محاولًا بلا جدوى صرف أفكاره إلى أي شيء آخر حتى تمضي الليلة. يقترب شيئًا فشيئًا من المراقب المضجع، الذي ينام محتضنًا طرفه الأبتر بيمناه، يتردد وينيه قبل أن يمد إصبعه وينكز كارديل في خاصرته، فيتمتم في نومه ويواصل الشخير، وبعدما يكرر وينيه مناورته بضع مرات يبسط المراقب ساقيه ويعتدل جالسًا وينظر فيما حوله.

فيقول وينيه: «جان مايكل؟ هل أنت أيضًا غير قادر على النوم؟».

ينخر كارديل، ويتثاءب ويهرش لحيته النابتة.

يقول وينيه: «ما دمتَ مستيقظًا على أي حال، هلَّا تحدثنا معًا قليلًا؟».

صوت كارديل الأجش يبيِّن إرهاقه: «عن ماذا؟».

- عن الحرب، إذا كنت تطيق الحديث عنها، أو ما كنت تفعله قبلها، أو بعدها، عن ريوترهولم وآرمفيلت، أو «مدينة ما بين الجسور»، أيًّا كان ما تود الحديث عنه.

يتبدد كل نعاس من عيني كارديل عندما ينظر أخيرًا إلى وينيه، الذي يستحضر العرض الذي تلقاه في تل القلعة وكيف أن ما قاله كارديل كان تحريفًا للحقيقة، لأن هاتين العينين ثاقبتان بما يكفي لرؤية طبيعة الأشياء. لكن كارديل يهز كتفيه، ويجلس بوضعية أكثر راحة، ثم يتحادثان حتى يتخلل ضوء الفجر فروع الأشجار الشرقية، ويلقي كارديل على وينيه نظرة كسابقتها، فيتلقى إيماءة ردًّا عليها، ويغوص في الجوال الذي خلفه ويغرق في النوم مرة أخرى.

يستيقظ كارديل تحت وطأة ضوء الصباح، ويهز بدنه الضخم كأنه كلب تحت المطر، ويفرك عينيه، واحدة تلو الأخرى، بيده الوحيدة. منذ تلاشي النجوم ظل وينيه جالسًا متكئًا على جوال دقيق، شاحبًا، وجفناه شبه مغمضين. يتناول كارديل قارورة ماء يتشاركانها، ويمضمض فمه، ويملأ راحة يده ليغسل وجهه.

- صباح الخير يا جان مايكل.
- هل نلت قسطًا من النوم في النهاية؟

يهز وينيه كتفيه.

- وأنت؟
- إنني معتاد الراحة عندما تتاح لي الفرصة، لكن ذهني بعد النوم لم يتفتق عنه حل للغزنا.

يطرق وينيه مدة طويلة قبل أن يتابع، مترددًا بشأن كيفية التعبير عن أفكاره بالكلمات: «كنت أفكر في عبارة وداع الحوذي الفرنسي. *لو تون بو دي فيفان* يمكن أن تعني بلغتنا شيئًا من قبيل «أغنية الأحياء الجميلة»، حسب قدرتي على ترجمة العبارة. وكولينغ قالت إنهم اتجهوا إلى استوكهولم».

- هذا لا يبدو مبشرًا.
- ما تقييمك لمقدرة كولينغ على الحكم على الشخصيات؟

يفكر كارديل ثم يقول: «عندما التقينا أول مرة قالت لي بضعة أشياء أقنعتني بأنها أقوى مني ملاحظةً وفراسة».

- إذن لنفترض للحظة أن ما قالته عن إريك هو الحقيقة، قبل هذا الحدث لم يُظهِر إريك الورود الثلاث أي نزعة عنف، وأن ما فعله في ليلة زفافه كان صدمة بالطبع. أي مجرم متحجر القلب ربما لا يؤنِّبه ضميره، لكن لا بد أن إريك ندم أشد الندامة.

يجد كارديل نفسه يومئ مستحسنًا المنحى الذي يتخذه منطق وينيه.

- تابِع.
- فكرتي هي أن الورود الثلاث قصد استوكهولم كي يغرق في أحزانه، وأن كلمات الحوذي ينبغي أن تُترجم بما معناه «جلبة رعاع الأحياء» التي ينبغي لنا البحث فيها، في الحفلات وصالات الرقص في «مدينة ما بين الجسور»، عن نبيل شاب، متنكر على الأرجح، وربما يصحبه خادم فرنسي. أجادت كولينغ وصفه: نحيل، رشيق الأطراف، داكن الشعر، وسيم.

يبتسم كارديل مبديًا فجوة كانت تسدها أسنان ذات يوم ويقول: «إذا كان مختبئًا هناك، فحظوظنا جيدة، ما من حانة في المدينة لم أرضع من ثديها».

الفصل السادس والثلاثون

في «مدينة ما بين الجسور» يغيِّران ساعات استيقاظهما إلى الليل، مع الفجر يتهالك كارديل على سريره المتداعي، ويعود إميل وينيه إلى الغرفة التي ما يزال يستأجرها، ممتنًّا لوقوع بصره على غرفة مضيئة عندما توقظه الكوابيس. ثم يبدأ عملهما من جديد عندما يحل الغسق وتُوقد الفوانيس، يبحثان عن إريك الورود الثلاث في كل مكان، في الشوارع حيث تكتظ الحانات جوار بعضها، منذ أن يترنح أول من يعانون آثار ما بعد الثمالة أمام الأبواب في العصر إلى أن يخمد الهرج والمرج ويضطرون إلى انتزاع السكارى -المتعانقين أو المتشاجرين- بعدما التصق بعضهم ببعض بإفرازاتهم. يلجأ كارديل للتهديدات والرِّشى كي يحصل على خدمات أطفال الشوارع، الذين ينشرون الخبر ويرسمون صورة أشد وضوحًا: يُبحث عن قاتل لزوجته ذي وجه ملاك، قد لا يظن المرء أنه قاتل لولا الحزن في عينيه، وهو شاب لم يصبح رجلًا بالغًا بعد، ويشرب لينسى حزنه.

كثيرًا ما يُعثر على من ينطبق عليه الوصف، فالحانات تعد ولا تحصى، جميعها مكتظة، من بين كل مائة زبون يوجد واحد يبدو من عائلة نبيلة هارب، بعضهم ابن ثانٍ منفي، أو ابن غير شرعي منبوذ يتباهى بأبيه بلا جدوى، أو مبذر بدد ميراثه، بعضهم ثمل متجهم، وآخرون يسعون إلى تدمير أنفسهم، دائخون عند الطاولات حيث يلعب المحتالون لعبة فارو ويجردونهم من آخر نقود يملكونها، كل واحد منهم بطل مأساته، لكن لا أحد منهم يداه ملطختان بدماء عروسه، ولا أحد يحمل اسم الورود الثلاث. يبحث كارديل ووينيه في جميع الأنحاء، ينتظران في الساحة التي خارج البورصة مع تلاشي آخر الإيقاعات الموسيقية في قاعة حفل، وعندما يتدفق الناس من السلالم،

يعترضان الكونتات وكذلك الخدم. الصيف يذوي فيما حولهما، كل يوم أقصر من سابقه، وتتمدد ساعات الليل، يمر شهر وينقضي أغسطس، والذين يعدون سبتمبر شهر صيف يثبت خطؤهم مرة أخرى، تزداد برودة الرياح في تنقلها اليومي بين البحر واليابسة، وفي المساء تبرد حجارة الشوارع الساخنة، ولا تعود القمصان كافية للخروج إلى عتمة الأزقة التي كانت قائظة ذات يوم. إذن يحل الخريف، مع أثره البالغ في كل الكائنات الحية، ويُنسى حر الصيف الخانق، ويُسامَح. نُذُر الشتاء تعِد بمشقة وشيكة، السنة الماضية كانت باطشة، فهل ستكون هذه أسوأ؟ يتذكر الناس قبور السنة الماضية، ويقلقون على الذين ما زالوا فوق الأرض.

أشجار الزيزفون في مقبرة أبرشية ماريا تُساقِط على إميل وينيه أوراقًا حمراء وهو يقف عند قبر أخيه أول مرة، الفجر شاحبٌ فتِيٌّ، وهو وحده وقد غادر كارديل ليستجم حتى تفتح الحانات أبوابها مرة أخرى.

يبدد اليوم الجديد الندى من الأرض، ويجثم الضباب على الجزيرة الجنوبية، واضعًا فاصلًا بين وينيه وبين المدينة التي تستيقظ. إنه هنا وحده مع القبر، بضعة أقدام تفصل الموتى عن الأحياء. قبر سيسل متواضع بسيط، *سيسل وينيه، 1764 – 1793*. توقف الزمن عند سيسل، وبعد أقل من عام سوف يصبح إميل الأكبر سنًّا، وتبدو له الفكرة غريبة إلى درجة أنه لا يسعه كتم قهقهته، ومعها يسمع صوتًا آخر خلفه، صوت خافت يشي بوجود شخص آخر، فيستدير على عقبيه.

- إميل.

وجهٌ آخر لم يره منذ سنوات، لكن يبدو له أن الزمن غض طرفه عنه، تبدو شقيقته كما يتذكرها تمامًا، جميلة، ذات شعر أشقر، وبشرتها صافية كعهده بها، محميةً من الشمس بعناية، تقف قريبة بحيث يمكنها ملامسة كتفه إذا أرادت، وقد نسي إميل مدى قدرتها على التحرك بهدوء، لم تكن تمل هذه الألعاب عندما كانوا أطفالًا، هي وسيسل وهو، كانت تسير على أطراف

أصابعها خلفه دون أن تصدر صوتًا، ومتى ما كان شاردًا تغطي عينيه بيديها الباردتين، وترن ضحكتها الصافية جوار أذنه.

قال: «عاملتكِ السنوات بحنو يا هيدفيغ».

- لكم أتمنى أن أقول الكلام نفسه لك يا أخي الصغير.

ينخر من الشفقة التي يقرؤها في حاجبيها المنكسرين ويقول: «أجل، إنه أمر لافت، رأيتُ الكحول يستعمَل لحفظ المخلوقات الميتة في قوارير زجاجية، لكن إذا سكبتِ السائل نفسه داخل شخص، فسيكون التأثير عكسيًّا، لكن هذا هو ثمن علاج مرضي، وهو أفضل بكثير من العلاج الذي قدمتِه لي».

- فلنكف عن الشجار الآن وقد جمعنا القدر معًا.

للمرة الألف في حياته يتسنى له الوقت لتأمل مدى اختلاف مظهرها عن شخصيتها، أنيقةٌ ما تزال، ورشيقة الأطراف، ووجهها كأنه نُقش على يدي نحات في مدح جمالٍ إعجازي، يتذكر صفوفًا لا تنقطع من الشبان الذين يجثون أمام هذا الوجه، وجميعهم بلا استثناء يُرَدون خائبين فيذهبون لتضميد قلوبهم المتشظية. لم يكن يتفاجأ، فمن عساه أن يرتقي لمستواها؟ بنظرة سريعة كانت تحل معادلات أعيته هو وسيسل لساعات، كان الشقيقان متقاربَين في المنافسة والصداقة، لكنها، الكبرى، كانت نسيجًا وحدها، تعد مقارنة نفسها بهما حطًّا من كرامتها، وإذا تجرأ أحدهما على تحدِّيها فسيعرف قدْره على الفور. كما كانت أول من يغادر البيت، يتذكر إميل شجارها مع والدهم، رغم أن كلمات قليلة عبرت الباب الموصد الذي كان يلصق به أذنه، وبعدها صار كل من يزل لسانه بذكر اسمها يتذوق العصا.

تداعب هيدفيغ وينيه شاهد قبر سيسل بأصابع كالمرمر.

قالت: «متى قابلته آخر مرة يا إميل؟».

- جاء سيسل إلى غرفتي في أوبسالا، ليسألني عن سبب بقائي هناك وعدم جلوسي لأي من امتحاناتي، لم أتعرف إليه في البداية ورفضت السماح له بتخطي عتبة الباب، كنت قد سحبت خزانة الأدراج ووضعتها أمام الباب وبالكاد تمكنت من تحريكها لاحقًا، أخبرته بالحقيقة، وهي أن الشرط الذي أدرجه والدنا في وصيته الذي يقضي بحصولي على

دفعة سنوية على كل سنة أمضيها في الجامعة كان خطأ، تشاجرنا، ورفعت صوتي عليه.

- لطالما كنتَ مقربًا جدًّا من سيسل.

يحس بألم الذكرى كطعنة في صدره. عندما كان ثلاثتهم أطفالًا، ويؤمَرون بالخلود إلى الفراش دون عشاء عقابًا على عدم التزامهم بإحدى قواعد البيت العديدة، فيتمددون في أسرَّتهم المتلاصقة، كانوا يلتمسون العزاء بالإمساك بأيدي بعضهم حتى يستغرقوا في النوم تباعًا، كان إميل ينام بينهما، وآخر من يستيقظ دومًا.

قال: «كلاكما هجرني، لكن وداع سيسل كان الأشد إيلامًا، لعامين طويلين بعدما غادرتما، ظللت وحدي في ذلك المنزل، مرغَمًا على الخضوع لوالدنا وألعاب متاهته. مهما حاولت إرضاءه، ومهما بلغت المركز بسرعة، لم يكن أبي يرضى، لكنني لا ألومه كثيرًا، كنت أنتِ أولًا، ثم جاء سيسل، وأخيرًا أنا، الحلقة الأضعف، خيبة الأمل الذي لن يرتقي أبدًا إلى مستوى شقيقيه. أتعرفين؟ عندما ذهبت إلى أوبسالا أول مرة، لم أخرج إلى الجامعة إلا وسمعت قصصًا عن سيسل وانتصاراته: *ذات مرة أنهى سيسل وينيه امتحانًا خلال أقل من ربع ساعة... عندما يتعثر البروفيسورات في اقتباساتهم باللاتينية، يصححهم سيسل من ذاكرته*...».

- كيف افترقتما؟

- أخبرني بأنه يعتزم الزواج، وسألني عما إذا كنت أحتاج إلى شيء، وسألني عما إذا كنت أشرب، فأجبته بلا، وهذه لم تكن كذبة عندئذٍ. وأخيرًا استسلم، وتركني وشأني، لكنه حذرني من أن فشله في إقناعي بالاستماع إلى صوت العقل يعني أنكِ ستحاولين بكل ما لديك من قوة. وكنت أحمق بما يكفي للضحك في وجهه.

تشيح هيدفيغ بوجهها هروبًا من الاتهام الذي تحمله عيناه.

قالت: «ما الذي جاء بك إلى استوكهولم يا إميل؟».

ينحسر غضبه بنفس سرعة تصاعده، ويطلق زفرة حرَّى ويهدِّل كتفيه، ويمرر أصابعه عبر شعره مغمضًا عينيه، ثم يقول: «أساعد الشرطة في قضيةٍ ما».

- وكيف تسير؟

يمثِّل صمته إجابة كافية.

قالت: «ربما يمكنني المساعدة».

يبحث إميل عن نظراتها ليرى مدى جديتها، ويتفاجأ عندما يرى في عينيها آخر إحساس يتوقع رؤيته: الندم.

ورغم هذا يرد بفحيح مرير: «تساعدينني؟ أنت؟ كأنني لا أعرف مساعدتك تمام المعرفة، آخر مرة رأيتك فيها كانت عندما تركتِني في أوبسالا، في الأوكسينستيرن. صحت مناديًا اسمك عبر القضبان والزجاج المصفح وأنت تسيرين مبتعدة حتى لا تشاهدي، أودعتِني مصحة المجانين يا هيدفيغ، أتعرفين ما يقال عن مثل هذه الأماكن يا أختي؟».

يدير إميل ظهره لها كي يغادر، ويأتيه ردها همسة واهنة: «أذهبُ إلى الكنيسة في كنيسة الفرسان في أيام الأحد، إذا غيرتَ رأيك فستجدني هناك يا أخي».

يذبُّ كلماتها بحركة امتعاض كأنها ذباب جوار أذنه، وعند البوابة يكاد يرتطم بقارع الجرس، ولا يلقي بالًا للنظرات التي تشيِّعه إلى الخارج.

الفصل السابع والثلاثون

الغرفة التي في «زقاق الإوز» تزداد برودة والظلال تزيح خيوط أشعة شمس العصر طاردة إياها خارج النافذة، ويخمن كارديل الوقت من زاوية سقوط الأشعة وتتبت صحة تخمينه عندما يرن جرس كنيسة سان غيرترود، تأخر في نومه، وتندفع التيارات الهوائية من بين ألواح الأرضية، ويحين وقت التحرك مرة أخرى. ستأخذهم رحلة الليلة بمحاذاة النهير وحتى «المستنقع» ومنه إلى «كلارا الجميلة»، وهي دار عامة سيئة السمعة في حي ناء تعيس لا يود أي شخص محترم أن يُرى فيه أبدًا. وسرعان ما يسمع خطوات على السلالم، ويعقبها صوت إميل وينيه عند الباب، ومن وقع الأقدام يعرف كارديل أن خطبًا ما قد وقع، إذ تشي بحركة من نوع مختلف عما رآها من إميل وينيه خلال هذا الصيف الكئيب، يستشعر لديه استيحاشًا وقهرًا متزايدين، لا يسرع إلا عندما يتقهقر فزعًا من شيء. يدخل الغرفة لاهثًا من صعود السلالم ومستثارًا بالخبر الذي يحمله.

قال: «خطرت لي ذكرى جعلتني أدرك شيئًا كان ينبغي لي إدراكه منذ مدة طويلة».

- هات ما لديك.

- الحوذي الفرنسي. فلنفترض أن ما قاله لم يكن: *لو تون بو دي فيفان*، إنما: *لو تومبو دي فيفان*. لا ألوم الأرملة، فالأصوات هي نفسها، لا سيما بالنسبة إلى شخص لا يتحدث الفرنسية، لكن إذا أدركت هذا منذ البداية لوفرت علينا جهدًا كبيرًا.

يلقي كارديل بذراعيه في الهواء، بحركة تتيح له للحظة نسيان أن لديه ذراعًا واحدة.

ثم قال: «أسدني معروفًا بالكلام معي كأنك تتكلم مع شخص عادي».

- أظن أن إريك الورود الثلاث في «خليج الدنمارك».
- مصحة المجانين؟
- إما المصحة وإما المستشفى، إنهما جوار بعضهما.
- وكيف عرفت كل هذا فجأة؟
- الكلمات لا تعني «أغنية الأحياء الجميلة»، *لو تومبو دي فيفان* يمكن أن تُفهم بوصفها عبارة تحقيرية تُطلق على أماكن مثل «خليج الدنمارك».
- وما الذي تعنيه حرفيًّا؟
- مقبرة الأحياء.

يسيران فوق القنطرة الحمراء، حيث بدأ التيار يهدأ ترقُّبًا للشتاء، ويجتازان ساحة الخردواتية والسوق، ويمران بمحاذاة الرصيف تحت الجرف، على الجانب المواجه للصخور تتراكم الألواح وأثقال الوزن فوق بعضها. وكان بحارٌ قد أشعل نارًا، محتميًا بالجرف، ووضع فوقها مرجلًا، وآخرون في طريقهم إلى الكوخ المتكئ على الصخرة، حيث افتتح انتهازيٌّ ما حانةً أملًا في أن عطش البحارة سيفوق رغبتهم في سير المسافة الطويلة إلى حانة «الوشق» عند جسر سوتهوف. يصعدان السلالم التي تتسلق الجدار، ويلتقطان أنفاسهما على منصة متداعية في منتصف المسافة. سفن أقل مما مضى تجرؤ على خوض أمواج مدخل المرفأ، التجارة نادرة، قليلون يكلفون أنفسهم عناء الإبحار حتى استوكهولم، والذين يفعلون يجدون مدينة قد عدَّت بضائعهم مخالفة للقانون.

يعبران إرستا عند نهاية منحدرات النتوء، ثم يحدقان إلى الأسفل إلى هوة حوض السفن، الذي يُرى في قاعه العمال يتحركون في الوحل كالنمل، مسحوقين تحت وزن أحمالهم. يضيق البرزخ ويريان المياه من الجانبين.

وعند بوابة الجبايات يعلن كارديل نيتهما في العودة عما قريب. لا يبقى لهما سوى متابعة الجدول المستخدَم لإدارة عجلة الطاحونة باتجاه الشمال حتى يقع المستشفى ضمن مجال رؤيتهما، الذي على أرضه تنتصب أشجار ذات فروع شبه عارية تصارع الرياح، تتقلب الأوراق في الهواء حتى تطلق الرياح سراحها فتسقط في الجدول، الذي يتبعه وينيه وكارديل فيجتازان باحة مفروشة بحصى غير منتظم، حيث يمر الجدول أسفل أساسات المبنى نفسه، وعند المدخل تستجيب امرأة ترتدي مئزرًا لطرْقهما، وتومئ عندما تسمع اسميهما وتسمح لهما بالدخول.

يشغل مُصلى ضخم منتصف المبنى بأكمله، وتوجد سلالم على كل جانب، يُقتادان إلى الطابق الأول، ويجتازان أبوابًا مفتوحة تظهِر أسِرَّة محتشدة معًا، ثم يواصلان السير إلى رواق.

تتوقف المرأة وتشير إليهما وتتمتم مؤكدةً: «إريك الورود الثلاث».

ها هو ذا، جالس على سريره ويداه في حجره، كأنه مأخوذ من وصف مارغريتا كولينغ الدقيق، لكن معاناته تركت عليه آثارها، الوجه الوسيم -الذي ما يزال أقرب لوجوه الصبية من وجوه الرجال- شاحب وضاوٍ، وجسده نحيل، وشعره متهدل، لا يبدي أي ردة فعل وهما يدخلان حتى يخاطبه إميل وينيه.

قال: «أأنت إريك الورود الثلاث؟».

يحدق الصبي أمامه ساهمًا، ورغم أنه يحاول محاولة واهنة أن يرفع رأسه، تظل نظراته مثبَّتة على النقطة نفسها.

فيتابع: «هذا جان مايكل كارديل، جاء في مهمة شرطة رسمية، اسمي إميل وينيه، أتينا لنطرح عليك بضعة أسئلة متعلقة بلنيا شارلوتا كولينغ».

يتشنج وجه الصبي من الألم كأنه لُطِم، ويخرج صوته ثقيلًا كما لو أنه يتكلم بلسان متورم: «أنا قتلتها».

يتقدم كارديل، ويعجز عن إخفاء الغضب الذي يشوب صوته: «لكن لماذا حبًّا في الله؟».

يخفض الورود الثلاث نظره إلى حجره مشدوهًا، ثم يهز رأسه: «لا أدري».

يحدق إلى راحتَي يديه لوهلة، قبل أن يرفعهما لزائرَيه وقد أغمض عينيه بشدة: «انظرا!».

يداه ترتعشان، ولا تشوبهما شائبة.

بعد ساعة من طرح الأسئلة بلا انقطاع لا يعرفان شيئًا لم يكونا يعرفانه من قبل، أحيانًا يبدو إريك الورود الثلاث كأنه يجيب عن سؤال غير الذي طُرح عليه، وفي أحيان أخرى لا يجيب إطلاقًا، غارقًا في أفكاره وغير مكترث بزائريه، وعندما يستعيد تركيزه، لا يعود قادرًا على التعرف على اللذين يتحدث معهما، فلا يجدان بُدًّا من إعادة التعريف بنفسيهما، وعندما ينفد صبر كارديل، يخرج ضاربًا إطار الباب بيده الخشبية، متمتمًا بسباب يسوِّد الهواء في أعقابه. يبقى إميل وينيه لمدة حتى يسأم من ترديد الكلام نفسه مرارًا وتكرارًا، ثم يجد كارديل في الرواق، متكئًا على الجدار كأنه يحصِّن نفسه من غضبه، وفي إحدى الغرف يجدان المرأة نفسها التي أدخلتهما، وينتحي وينيه بها جانبًا.

ويقول: «هل هو هكذا دومًا؟».

تهز كتفيها قائلة: «لا أراه إلا في أوقات الوجبات، لكنني لا أتذكر رؤيته في حالة مختلفة».

- هل أُعطِي شيئًا عدا الأطعمة والمشروبات المعتادة؟

تومئ وتقول: «آه، نعم، يُعتنَى به خير عناية. يُدفع ثمن دوائه مقدمًا».

- أيمكنني رؤيته؟

تقتاده إلى غرفة تخزين، وتفتح بابًا ثقيلًا بمفتاح معلَّق بسلسلة حول عنقها، وتتابع بإصبعها صف قوارير على رف حتى تتوقف عند قارورة تحمل اسم الورود الثلاث وعليها ملصق يوضح تفاصيل الجرعة، ينزع إميل وينيه السدادة، ويتشمم أولًا، ثم يغمس إصبعه بحذر ويمرره على لسانه، ويهز رأسه لكارديل، الذي يفسر معنى الإشارة ويأخذ المرأة من ذراعها.

ويقول: «اسمعيني جيدًا الآن، لا تقدمي شيئًا لإريك الورود الثلاث سوى نفس الطعام والشراب اللذين تقدميهما للمرضى الآخرين، لا تعطيه أي قطرات، سواء هذه أو أخرى، أكلِّمكِ بسلطة الشرطة، سنعود...».

يحول نظراته إلى وينيه، الذي يرفع له إصبعين.

يتابع: «...بعد غد. عندئذ ينبغي أن يكون الورود الثلاث قادرًا على الكلام، وإذا لم يقدر فسنعرف أن تعليماتنا لم يُحفل بها، وفي هذه الحالة سيتعرض كل شخص مسؤول للمحاسبة».

يبصق كارديل باتجاه المبنى بعدما يخرجان من الباب الأمامي ويقول: «ليس من السهل تصديقه عندما تراه».

يومئ إميل وينيه موافقًا: «هذا ما خطر لي في البداية أيضًا، لكن إذا تكشفت نيات جميع المجرمين من مظاهرهم، لأصبح العالم مكانًا أبسط مما هو عليه».

- إذن ما العمل الآن؟
- القارورة تحتوي على الثيباكا، وهو مستخلص أفيوني، يخفف الألم على حساب صفاء الذهن. أظن وآمل أن هذه القطرات هي ما تسبب له حالته، وأن كلامه سيكون واضحًا عندما ينتهي مفعولها في جسده.
- كأنك مررت بتجربة مع هذه الأشياء.

يكبح وينيه اختلاجة، متذكرًا غرفةً ضيقة والأربطة تقيده من دون إرادته، ويتذكر القطرات الحلوة الباعثة على الغثيان تُسكب في فمه المفتوح بالقوة. إذلال سيكفيه مدى الحياة.

الفصل الثامن والثلاثون

انقضى وقت طويل منذ أن حظي كارديل بيوم خال من الشواغل، والآن وقد حل لا يعرف ما يفعل فيه، يجلس على سريره مدة طويلة، مستمعًا إلى خنفساء الموت التي تسير على خشب الجدران الرطب، وأخيرًا يدفعه القمل والجوع إلى مغادرة السرير، يصب الماء في وعاء ويرش وجهه وشعره. وحالما يفرغ من جلسة مرحاضه الصباحية، يثبِّت ذراعه الخشبية بين السرير والجدار، ويدخِل فيها طرفه الأبتر ويشد الأربطة، وكما هو الحال دومًا يلسعه جلده تحت قبضة الأربطة، لكن الإحساس يتلاشى بعد لحظات. يرتدي معطفه ويهبط السلالم.

يجد أن مطرًا صامتًا غشي المدينة في الليل، ويرى ضوء شمس شاحبة نائية، غير قادرة على بث الدفء، يلتمع على جميع الأسطح الرطبة. ينخر كارديل من المنظر، إذ علمته الحياة ألا يحسن الظن بمدينة ما بين الجسور، وفي كل مرة تفاجئه بالكشف عن جمالها يعتريه ضيق، كأنها تخدعه وتُغرِّر به ناصبةً له مكيدة، ورغم هذا يتوقف عند السلم ليتأمل عرض الأضواء على الأسقف والمباني، يحشو فمه بالتبغ ويمضغ هنيهة، وعندما يسري الخَدَر الممتع في جسده، يعرف على الفور المكان الذي يريد الذهاب إليه، يتجه يمينًا، ويسير على حجارة الرصف المائلة، قاصدًا القنطرة.

حانة «العابث» مكان متواضع، لكنها أفضل حالًا من مثيلاتها، ولإثبات هذا علَّق أحدهم بفخر لافتة فوق الباب، يُرى عليها صورة قرد واثب، ليس رسمًا جميلًا لكن يسهل التعرف عليه، وبالتالي يفي بالغرض. لم يأت كارديل

إلى هنا طوال عام، إذ انشغل بأشياء كثيرة بعد جنازة سيسل وينيه، ووجد عزاءً في معرفة أن الفتاة آنا استينا -التي صارت الآن لوفيسا أولريكا منذ أن أخذت مكان ابنة صاحب الحانة- قد وجدت مُستقَرًّا آمنًا، فلم يرَ أي سبب يدفعه إلى تعكير صفوه بوجوده البائس. يحسب الشهور على أصابعه، كانت الفتاة حبلى في آخر مرة رآها، فلا بد أنها صارت أمًّا الآن، قطعًا، فيداهمه قلق مباغت عندما تخطر له الفكرة، إذ إن نصف المولودين حديثًا لا يكادون يُرحَّب بهم في العالم حتى يودِّعوه، الحياة هشة، وكارديل -الذي لم يطلب شيئًا لنفسه قط من أي قوى عليا- يسمع مدهوشًا ابتهالًا ما ينفلت من بين شفتيه.

يضطر كارديل إلى الطَّرق أكثر من مرتين قبل أن يجذب شخصٌ مزلاج الباب ويفتحه فتحة ضيقة، لا يتذكر أنه رأى الوجه من قبل، لكن عمَّال الحانات يتغيرون دومًا، يرى رجلًا نحيلًا ذا وجه مذعور.

فيقول: «أبحث عن سيدة البيت، لوفيسا أولريكا بليكس».

يفتح الرجل شفتيه كأنه يهم بقول شيء، لكنه يغير رأيه، فيفتح الباب حتى النهاية ويتمتم بكلمات طالبًا من كارديل الانتظار.

صالة المشروبات خاوية، لكن لم يحن بعد موعد استقبال زبائن النهار، المستوقد مليء بالرماد، في آخر مرة جاء كارديل كان واضحًا له أن الفتاة أنفقت بحكمة النقود التي أعطاها إياها بوصفها مهرًا متأخرًا من الفتى بليكس، زوجها الاسمي، المقاعد والطاولات صُقِلت من شظايا الخشب، والأرضية غُسلت، والجدران طُليت بالأبيض. والآن يبدو الوضع كأن استوكهولم بأسرها عادت بنَهَم جديد، بكل الفوضى المستهلِكة التي تمكنت الفتاة من إبعادها مؤقتًا عن بابها، الأثاث يحمل آثار الإهمال، مكسر وملطخ وبحاجة إلى صيانة، وعلى الأرضية قش منثور ليمتص السوائل المندلقة، لكن الأكداس النتنة أُهملت فشبَّعت الهواء بنتانتها، وجوار الجدران براز جرذان تجوس بين الثقوب والشقوق. يستشعر كارديل الخراب، ألم تتعافَ الفتاة من مخاض الولادة؟ هل استشرت الحمى هنا؟

امرأة لم يرها كارديل من قبل، تشبه آنا استينا لكنها ليست هي، تهبط السلالم التي بمحاذاة الجدار البعيد، في عينيها ازدراء، يراه كارديل جليًّا عندما ينظر إليها.

قالت: «إذا جئت قاصدًا لوفيسا أولريكا، فقد جئت إلى المكان الصحيح، لكنني لم أحمل الاسم بليكس قط، حتى خلال المدة الوجيزة عندما أطلقت الفتاة التي تبحث عنها على نفسها اسم لوفيسا أولريكا، استعدتُ اسمي، وطردتُ المتطفلة منذ أمد بعيد، إذا كنت من زبائنها، فحري بك الانصراف قبل أن أرسل زوجي ليحضر الشرطة».

يعض كارديل شفته بقوة وأفكاره تعود إلى محنة آنا استينا على جزيرة «الندبة»، ويقف صامتًا للحظات، محاوِلًا المفاضلة بين أفضل الوسائل التي ستمكنه من معرفة ما يريد معرفته، تجتاحه موجة غضب تجعل ذراعه اليسرى ترتعش.

ويفاجئ نفسه بخفض صوته والكلام وهو يكز أسنانه بنبرة مقنعة بقدر مستطاعه: «سيدتي، أستميحك عذرًا على الخطأ بشأن الاسم، يعلم الرب أنه ليس من السهل التفريق بين الناس في هذه المدينة، إنني أعمل في حرس المدينة، كما ترين زيي، الفتاة آنا استينا مطلوبة بتهمة الدعارة، وبما أن هذه الحانة ضمن أماكن إقامتها المعروفة، ارتأيت أن من الأفضل التحقق».

تنخر له وتقول: «لا عجب من عدم كفاءتكم عندما لا تدري يد ما تصنع اليد الأخرى، تكلمتُ سلفًا مع أحد زملائك، وإجابتي هي نفسها: إذا لم تكن العاهرة في المشغل بالفعل، فلا بد أنها مختبئة في البالوعة التي زحفت خارجةً منها، أينما كانت. المدينة ليست كبيرة، ولا أدري لماذا تستغرق الشرطة وقتًا طويلًا للعثور على فتاة واحدة».

قليلون يعرفون حقيقة هذه الكلمات أفضل من معرفة كارديل.

الفصل التاسع والثلاثون

يتساقط مطر بارد على إميل وينيه وميكيل كارديل وهما يسيران عائدين إلى مستشفى خليج الدنمارك وقد صارا يعرفان الطريق الآن، تشتد الريح من حين لآخر، فتنهش هبات الرياح المالحة كل قطعة قماش ليست مثبتة بدرزات أو أزرار أو إبزيمات، تمتلئ أخاديد العجلات ببطء بالمياه البُنية حتى تتدفق منها، فلا تجد نعالهما الجلدية موطئًا آمنًا، وللحظات يختل انتظام وقع أقدامهما وهما يتخيَّران عبثًا مسلكًا جافًّا، لكن سرعان ما تبتل أقدامهما فتصير محاولاتهما بلا جدوى، ويستأنفان السير بإيقاع منتظم. يلوذ كارديل بالصمت متجهمًا، ويتبين إميل وينيه أن أمرًا آخر غير الطقس والحذاء يعكر صفو رفيقه، ويرمقه بين الفينة والأخرى بنظرة جانبية فيرى الوجه المعتكر على حاله، عابسًا وغارقًا في لُجَّة تفكير، ولا يجد الشجاعة لسؤاله إلا عندما تغيب بوابة الجبايات عن أنظارهما.

قال وينيه: «ما الخطب يا جان مايكل؟ حظوظنا أفضل من أي وقت مضى، سيكون الورود الثلاث صافي الذهن الآن، وسنتمكن أخيرًا من سماع القصة كاملة على لسان صاحبها».

يتوقف كارديل، وينتزع قبعته عن رأسه ويهرش جبهته حانقًا حيث تفصد العرق من مجهوده، ثم يقول: «الأمر متعلق بفتاة. لا، ليس كما قد تظن، إنني أكبر منها سنًّا بكثير، ونظرًا إلى... بجانب أمور أخرى عديدة. إنها ساعدتني وشقيقك على حل أحجية. ذهبتُ لأبحث عنها البارحة، لكنني لم أجد لها أثرًا، كانت حبلى عندما رأيتها آخر مرة، وينبغي أن تكون قد وضعت حملها الآن،

ليست لدي فكرة عن مكانها، لكنني أستشعر متاعب، استوكهولم ليست مكانًا آمنًا لأم يافعة بين ذراعيها رضيع».

يدير كارديل ظهره للرياح ويضيق عينيه ناظرًا إلى مباني المدينة، كما لو أن ما يبحث عنه يسهل رصده من بعيد، وعندما يستدير مرة أخرى تلتقي عيناه بعينَي وينيه، وتستوقفه خيبة الأمل التي يلمحها فيهما، فيمسح المطر عن وجهه.

يقول: «أرجو المعذرة، إنك محق، ينبغي ألا أكافئ نباهتك بأن أكون كئيبًا فاتر الهمة هكذا، مسعانا يبدو واعدًا للمرة الأولى، وهذا بفضلك. إذا شردتُ بأفكاري لوهلة فشرودي ليس سوى دليل على ثقتي بك».

يشرع في السير مجددًا ويربت على كتف وينيه، تربيتة قوية تجعله يترنح جانبًا، ويهرع وينيه ليجاري إيقاعه.

بينما يقول: «أتمنى أن أقدر على مساعدتك، هلَّا وصفتها لي؟ ربما أتعرف عليها إذا رأيتها».

يبذل كارديل ما بوسعه ليصفها.

وفي غرفة إريك الورود الثلاث، يجدان ألواح السرير بادية وقد اختفى الفراش، والأغراض القليلة التي كانت موجودة لا أثر لها. يدخل كارديل ووينه الغرفة صامتَين مصدومَين ويجولان بأعينهما في المكان الخالي.

فيعبِّر كارديل أولًا عن شعوره بالكلمات: «ماذا بحق الجحيم؟».

يظل وينيه ساكنًا وكارديل يتنقل بين أركان الغرفة الأربعة، كأنه يود التحقق بنفسه من عدم إخفاء أي تفسير بين الأثاث القليل، ويقاطع صمتهما وارتباكهما طرقٌ على الجدار، فيتبعان الصوت إلى الغرفة المجاورة، ويجدان فيها الوضع معكوسًا، إذ تحمل الغرفة آثار إقامة طويلة المدى، وعلى السرير رجل شبه جالس يرتدي قميصًا دون كُمين، تتدلى ستارة أمام النافذة، فيريان -بعدما تتكيف أعينهما مع الضوء المعتم- أن الملاءات مرتبة كي تخفي تورم بطن وساقي الرجل المصاب بالاستسقاء.

قال: «اسمي يواكيم إرسن، كنت تاجرًا ذات يوم، قبل أن يلمَّ بي هذا الداء».

يومئ كارديل له محيِّيًا ويقول: «كارديل ووينيه. خالص أمنياتنا لك بالشفاء العاجل».

يضرب إرسن فخذه براحة يده ويطلق ضحكة مريرة قائلًا: «كل يوم يأتون إليَّ ليفرِغوا مني إبريقًا كاملًا من السوائل المخاطية، بلا جدوى. إذا وجدت طلبًا على ما يخرجونه مني لجنيت ثروة، أؤكد لكما أن بئري عميقة لا تنضب».

- إننا نبحث عن إريك الورود الثلاث.

يومئ التاجر ويقول: «لم يعد هنا».

- حقًّا؟ أين إذن؟

- أخذوه إلى مصحة المجانين.

يُصعَق كارديل فيخرِج صوته زئيرًا: «لماذا بحق الجحيم؟».

تعتري كآبةٌ وجه التاجر ويقول: «لم يجدوا خيارًا آخر. الفتى لم يعد على طبيعته، ليس حتى مقارنةً بحاله سابقًا. عندما يفرِغون مني السوائل أستطيع أحيانًا السير بضع خطوات، التي كثيرًا ما تأخذني إلى غرفة الورود الثلاث، القطرات التي يعطونها له تجعله مشوش الذهن، ولا يتكلم معي إلا فيما ندر، لكن يمكنني الهذر والمزاح بما يكفي كلينا، وعلى الأقل كنت دائمًا أشعر بأنني برفقة إنسان آخر، لكن الآن...».

- ماذا حدث؟

- جاء زائران، سمعت صوتين غير مألوفين إضافة إلى صوت الورود الثلاث، تحدثوا مدة من الوقت، ثم فعلوا شيئًا، لا أدري ما هو على وجه التأكيد، سمعت أصواتًا أعجز عن تفسيرها، ثم شممت رائحة لحم مشوي، بعدها تركا الورود الثلاث وشأنه. وعندما تمكنت أخيرًا من جر جسدي البائس إلى غرفته بعد بضع ساعات، وجدته ممددًا على فراشه وكان...

ترتعش شفة إرسن الثقيلة ثم تنعقف زاويتا فمه بتقزز لا إرادي، ويتابع: «... كنت هنا عندما جاء الورود الثلاث، وكما تريان يا سيدَي أنني لن أتعافى

أبدًا إلى درجة تمكنني من العودة إلى أي حياة طبيعية، لكن ذلك الفتى كان يافعًا، وحياته بأكملها أمامه، لطالما كنت آمل أن يتعافى الورود الثلاث، قليلون يمكنهم الأمل في شيء كهذا، وبدلًا من تمني أي فرَجٍ لي، قلت لنفسي إنني على الأقل سأحظى بفرصة رؤية فرَجه».

تنثال الدموع على خدَّي التاجر المكتنزين، ويسيل أنفه، فتخرج كلماته مكتومة من خلال ملابسه: «فعلا شيئًا برأسه، رأيتُ بقعًا في كل مكان على الأرضية، والضمادات لم تكن كافية لإيقاف الدماء، فتلطخت وسادته كلها بالأحمر، الورود الثلاث... لم يعد سوى قوقعة خاوية».

على الجرف جوار البحر لا يهدأ للمعتوهين بال، والحارس -الذي تلوح على محياه السخرية واليأس- يقتاد وينيه وكارديل عبر الأروقة، وبين الفينة والأخرى يلقي عليهما نظرات اعتذار من فوق كتفه.

قال: «إنهم كثيرون جدًّا، الاكتظاظ صار سيئًا للغاية، وإذا بدأ أيٌّ منهم التصرف بجنون، فسينتشر سلوكه كالنار في الهشيم في جميع أرجاء المبنى».

يصعدون سلمًا، ويعبرون باحة ويواصلون السير عبر المبنى الضخم، ثم يفتح حارسٌ بابًا ثقيلًا من خشب السنديان، ويرشدهم إلى رواق تحيط به أبواب مزوَّدة بكوات على مستوى العين.

يقول الحارس: «هذا هو وافدنا الجديد».

يفتح كوةً ويلقي نظرة عبرها، ويجعِّد وجهه من الروائح ويشير إليهما لينظرا بنفسيهما وهو ينتحي جانبًا ليهرش ورمًا ملتهبًا في عينه. يرمش كارديل حتى يرغِم عينيه على استجلاء العتمة، فيرى قشًّا على الأرضية، ومبولة غرفة مقلوبة، وأربعة رجال، عراة أو يرتدون أسمالًا، منكمشين على أنفسهم معًا ليحموا أنفسهم من الضوء الذي تعلموا الخوف منه. يطلق كارديل سيل سباب وهو يفسح المجال لوينيه كي يلقي نظرة، ويهز قبضته الخشبية أمام القفل.

ثم يقول: «افتح الباب وأخرجه، واجلب له شيئًا ليغطي به نفسه».

يتقهقر المعتوهون الأربعة وَجِلين، ويقف كارديل مباعدًا ما بين ساقيه في منتصف الغرفة كأنه يبقيهم محتجَزين في الركن، الورود الثلاث جالس على الأرضية وساقاه منحنيتان أمامه ويداه مستلقيتان على الأرضية، بلا حراك، ولا أي ردة فعل ملحوظة إزاء تغير الضوء أو الزوار الذين يمسكونه بأيديهم ويحاولون إيقافه على قدميه، تبدو أطرافه كسيحة، وينقاد لهم مرتعشًا مترنحًا.

يهمس وينيه بما يخطر له من كلمات تشجيعية قليلة وجوفاء، ويضع يديه برفق على كتفي الورود الثلاث ليُجلِسه على المقعد الذي أسفل النافذة المزودة بقضبان، تفوح من الفتى رائحة أنتن من بقية الغرفة، إذ سال برازه وبوله على ساقيه ثم جف، فظهر عليه طفح جلدي أحمر، شفتاه زرقاوان، وحول رأسه ضمادة ملوثة، تبدو كأنها مزينة بوردة قذرة حيث نزف الجرح.

يعود الحارس ومعه قميص كتاني كبير الحجم، ويجذبه وينيه فوق رأس الورود الثلاث ويدخل ذراعيه فيه.

ثم يشير إلى الضمادة ويقول: «ما الذي تعرفه عن هذه الإصابة؟».

يهز الحارس رأسه بشدة حتى يتطاير منه القمل ويقول: «لا شيء يا سيدي، وصلنا هنا وهو بهذه الحالة».

لا يحرك إريك الورود الثلاث ساكنًا عندما يتحسس رأسه وينيه بأصابع خفيفة، ويرخي العقدة التي تثبِّت الضمادة في مكانها ويبدأ حلها، وتحتها يبدو الشعر الطويل مجزوزًا، وأجزاء من الجمجمة حليقة، الجرح نفسه صغير كشلن، فوق جبهته، تتحلق حوله صفوف من القمل المنغمس في وليمته، القشرة السوداء مشققة حيث التصقت بقماش الضمادة ويسيل منها خيط رفيع من الدماء والسوائل، يجلس وينيه محدقًا إليه قبل أن يجثو أمام الورود الثلاث، واضعًا يديه على خدَّي الفتي محاولًا حمله على مبادلته النظرات، فلا يجد في عينيه سوى الخواء. الورم الناجم عن الجرح قد امتد إلى الجبهة، حيث تتدلى كدمة محتقنة داكنة فوق العينين، مرغِمة الفتى على تخريز عينيه، وإحدى العينين حولاء إلى الداخل، وهامدة كالرخام، والفم مفتوح متدليًا واللعاب متجمع تحت اللسان، ويفيض من زاوية الشفتين.

يلتفت كارديل إلى الحارس ويقول: «اغسله وأفرد له غرفة خاصة به».

يكاد الاحتجاج يخرج من شفتي الرجل لكن كارديل يعاجله قبل أن يتفوه بحرف: «لا يهمني مدى اكتظاظكم، نفِّذ ما قلتُه لك، حتى إذا اضطررتَ إلى التخلي عن غرفتك. لن يسبب أي متاعب، حتى إذا لم يكن الباب مزودًا بقفل فلن يهم نظرًا إلى حالته».

يحوِّل نظراته إلى وينيه، الذي يرد عليه هامسًا: «قوقعة خاوية».

بالخارج تعوي الرياح عند أركان مصحة المجانين. رياح رأسية في رحلة الذهاب، ورياح عكسية في رحلة العودة، والأمواج تلعق الشاطئ. عادةً ما يكون كارديل أول من يتوجه إلى الداخل عندما تهب رياح مغيب الشمس نحو البحر، لكنه الآن يتحمل هباتها القوية المفاجئة بأناة، سعيدًا بتركها تطهِّر ملابسه من هواء مصحة المجانين. على الشاطئ الآخر تذوب ظلال أحواض السفن في جحافل ظلام أكبر، وخلف الجزر الصغيرة يُنزل العلَم من الحصن الذي يحرس مدخل الميناء، وبعيدًا داخل الخليج تنتظر «مدينة ما بين الجسور» إشعال فوانيسها. تشق سفينة متأخرة طريقها نحو الميناء، وفوانيسها تتلألأ، أملًا في الرسو قبل أن تتلاشى آخر خيوط الضوء. لا يفتح كارديل شفتيه إلا عندما يتركان بوابة الجبايات خلفهما ويجدان مأوى من الرياح أسفل نتوء.

قال كارديل: «وماذا الآن؟ ما الذي ينبغي لنا عمله؟».

يجفل وينيه إثر سماعه الكلمات، وقد قُطع حبل أفكاره التي تبحث عن إجابة السؤال نفسه.

يتردد لوهلة قبل أن يهز رأسه ويقول: «أرجوك أمهلني وقتًا لأفكر يا جان مايكل».

يفترقان على الجانب الآخر من القنطرة، فيمضي كلٌّ منهما إلى زقاق مختلف، كارديل منتعلًا حذاءه الثقيل، ووينيه بخطوات سريعة، متحاشيًا تهيؤات الظلال المتراقصة عندما تهب الرياح المفاجئة فتحرِّك الفوانيس.

الفصل الأربعون

تدور مئات النوارس في السماء الشاحبة، متحينة الفرص للغوص نحو الأرض واقتناص سمكة غُفل عنها أو سرقة فريسة من رفاقها ذوي المناقير الناجحة. يستعمل الباعة المتجولون أنصاف براميل مبطنة بالقش، يرصفونها على الجسر الحجري والساحة، في انتظار بيع سمك الفَرْخ والكراكي للذين سيتدفقون عما قريب من الكنيسة بعد القداس، وأثقال موازينهم مجوفة ومحشوة بالفلين، فكل شلن ضروري عندما يحل الشتاء.

يعبر إميل وينيه الجسر الحجري، ويجتاز جدران الضريح الرمادية، فيجد لنفسه مكانًا يتيح له مراقبة بوابة الكنيسة، وهو ليس وحده، فبنو الغبراء وشتى ضروب الشحاذين -الذين تمكنوا من الانسلال خلسة عبر الجسر قبل قطع الطريق عليهم- يخرجون جميعهم الآن من مخابئهم وينتظرون بصبر نافد السخاءَ الذي قد توقظه كلمات الرب في نفوس التائبين. يتدربون جميعهم على رسم أشد درجات البؤس على وجوههم، ويرتبون ملابسهم بحيث تعزز مصداقية محنتهم. لا يدوم الانتظار طويلًا، من الأعلى يرن الجرس حِدادًا على موتى هذا الأسبوع، وتنفتح الأبواب ويتدفق الناس خارجين، يشرئب إميل بعنقه حتى يجعل نفسه أطول مما هو عليه، حتى يرى ويُرى. تفتح أبواب الكنيسة فيضان على الأرض، وما من سلالم أفضل لاستعراض المباركين في أثناء خروجهم، واحدًا تلو الآخر، ورغم هذا لا يخطئها إميل، وتنجذب نظراتها إليه كأنها كانت تتوقعه، لا يدري وينيه ما إذا كان يرافقها شخص أم لا، لكنها تنتحي جانبًا بحذر وتنتظر حيث هي حتى يخف الحشد فتقترب بأريحية.

ترتدي فستانًا ذا ألوان كئيبة، وتضع على شعرها وشاحًا أسود، على النقيض من جميع الذين قرروا ارتداء ألوان برَّاقة لا لشيء سوى إظهار أنهم فوق قانون التقشُّف. تحييه بإيماءة بسيطة، ولا تحتاج إلى سؤاله عن سبب قدومه، وتتبعه عبر الجسر.

خارج الحانة التي خطط لاصطحابها إليها، يمتد صف الناس من الباب ويستمر في الشارع، لأن كثيرين رأوا أن شراب القربان المقدس لم يكن كافيًا لإخماد عطشهم.

يجد مقعدًا حجريًا في الممر المقنطر تحت الأعمدة، ويدعوها للجلوس. يتغير اتجاه الرياح، فتجلب روائح إسطبلات من الشمال الشرقي.

قال لها: «لا أطلب منك المساعدة من أجلي أنا».

لا ترد عليه، فيجيب تساؤلها على أي حال: «شخص كان صاحب مكانة لدى شقيقنا طلب مني المساعدة، يدعى جان مايكل كارديل، وهو رجل صالح رغم أنكِ قد لا تصدقين هذا عندما ترينه، مَضَغته الحرب ولفظته فاقدًا ذراعًا، ومع هذا يريد الخير. أطلب منك المساعدة من أجله، إنه يستحق أفضل مما يمكنني تقديمه له وحدي».

تكتفي بإيماءة، ثم تقول: «لماذا لا تبدأ من البداية؟».

تستمع مدة طويلة دون أن تقاطعه، وساهمةً تأخذ حفنة سعوط بأصابعها من جراب وتقربها من أنفها، وتعطس في منديلها.

قالت: «طيب يا أخي الصغير، أرى احتمالين في هذه الحالة. ربما كان الورود الثلاث هو الذي خطط قدَره المشؤوم من البداية حتى النهاية، لأسباب لن نعرفها أبدًا تخلص من زوجته التي تزوجها للتو، وبمساعدة آخرين أنزل على نفسه العقاب الذي أحس بأنه يستحقه».

- والاحتمال الثاني؟

- المؤامرة بالطبع.

- كيف عساي أن أعرف الاحتمال الصحيح؟

تشرع في السير جيئة وذهابًا أمام المقعد ويداها خلف ظهرها، كدأبها دومًا في مثل هذه اللحظات، عندما لا تنقطع مناشدات إميل فتلين له وتساعده على حل واجباته المنزلية التي قررها والدهما.

قالت: «أول وأهم ما يخطر لي هو المال، الدافع الذي أغفلتَه حتى الآن. رغم أن الورود الثلاث كان الابن الثاني في البيت، فقد كان المستفيد الوحيد من وصية والده، والآن مع توعُّكه من يتحكم في العقارات؟ المستفيد الأكبر من أي مأساة غالبًا ما يكون مُدبِّرها».

- من أين أبدأ؟

- رئيس العمال في «الورود الثلاث»، ذلك المدعو اسفيننغ، ما من سبب يجعلني أظنه متورطًا في ارتكاب أي جُرم بنفسه، لكن حريٌّ بك معرفة كيفية دفع راتبه. التوقيع على العقد الذي أظهره لك – كيف كان يبدو؟

- متعذر القراءة.

- توقيع واحد، لا توقيع آخر؟

يهز إميل رأسه، وتبتسم هيدفيغ له نصف ابتسامة وتقول: «إذن الوثيقة لم توقَّع في حضور شهود. لو كنت مكانك لتتبعت هذا الخيط حتى أرى نهايته، بعدها يمكنك وصديقك أن تسمحا للقنوط بأن يتملك منكما. الآن اذهب واكتب لاسفيننغ، طالِبه برد سريع».

يتداولان لبعض الوقت صياغات مختلفة قبل إكمال الرسالة، وتقف هيدفيغ بصمت بعدما كانت تذرع المكان ويداها خلف ظهرها.

ثم تقول: «يهمك أمر هذه القضية، أليس كذلك يا إميل؟».

- بلى.

- أتفهَّم أنك قد تحس بإغراء السير على خطى سيسل. لديك أسبابك التي تدفعك لمتابعة هذه القضية، لكن من السذاجة أن تقلل من شأن دوافع الآخرين.

- ما الذي تقصدينه؟

- كارديل هذا.

تُغيِّر وضعيتها كأنها تهيئ نفسها لحديث طويل وتكمل: «تقول إن الحرب دمَّرته. وأظن أن شقيقنا الراحل أعاد إليه كرامته، لبعض الوقت. ثم يجدك كارديل، ولا أحد يمكنه إنكار التشابه بينك وبين سيسل، أتجاسر على تخمين أن كارديل يرى فيك إمكانية عيش الماضي مرة أخرى، ويجدر بك أن تضع في حسبانك أن ولاءه الأكبر ليس لك، إنما لشبح يطارد ذكرياته، وهذا أمر ينطوي على خطورة، فأفعاله نابعة من القلب، وهو عضو مخادع متقلِّب. توخ الحذر».

تقعد جواره، قريبًا منه وتتابع: «وهل ستخبره عني؟ هل ستخبره أن المساعدة التي يتلقاها تأتي من جهات أكثر مما كان يتوقعها؟».

وتردف قبل أن يجيبها: «إنني مدينة لك يا إميل، بأكثر مما يمكنني الوفاء به أبدًا. إذا كان يهمك تقدير كارديل لك، فاحتفظ به لنفسك، لا أمانع».

يجلس إميل ساكنًا، عاجزًا عن الكلام إثر شعور يتذكره من طفولته، شعور الحوار مع شخص يعرفه هو كمعرفته بنفسه ولا جدوى من كتم أي سر عنه، وتنهض هيدفيغ وتسير بضع خطوات جوار الأعمدة وتقف محدقة إلى التيار بالأسفل.

وعندما تعاود الكلام تفتح موضوعًا جديدًا: «عِلَّتك يا إميل، عندما بدأت آخر مرة، متى انتبهت لها في البداية؟».

يشيح بوجهه ويغمض عينيه، تعود إليه الذكريات بسهولة: «كنت أرى أشياء غير موجودة».

- بأي طريقة؟

- استيقظت ذات صباح موقنًا أنني أُراقَب، ورأيت أبي جالسًا على سريري شاحب الوجه، ومعه حزمة أوراق على حجره، جميع الرسائل التي تلقيتها من أساتذتي في الجامعة يوجهون فيها التوبيخ والتحذير والشكاوى، كان غاضبًا، وأظنه إذا واتته القوة لاستخدم معي العصا كما لم يستخدمها من قبل. أراد أن يسمع مبرراتي، سبب عدم اجتهادي، ولماذا خذلته رغم كل الجهود التي بذلها في سبيل تجهيزي لدراستي. قذف بنجاحات سيسل على وجهي، بوصفها أدلة على نجاعة أساليب تربيته إذا وجدت التربة الخصبة. لم تكن لدي أعذار أقدمها له، وعندما

ازداد غضبه استعارًا، أجهشتُ بالبكاء وجذبت الأغطية فوق رأسي حتى كف عن الكلام.

- وبعدها؟

- عندئذ تذكرت أن عدة أسابيع قد انقضت منذ موت أبي، رغم أنني لم أتمكن من العودة في الوقت المناسب من أجل الجنازة.

تلوذ بالصمت لوهلة ونظراتها إلى الأسفل، وإميل ينتظر.

قالت: «ماذا حدث لاحقًا؟ صارت حالتك أسوأ؟».

يطلق إميل ضحكة خافتة ويقول: «ستظنينني أمزح يا أختي العزيزة، لكن سأخبرك على أي حال وأخاطر بتعريض نفسي لسخريتك. أعطاني سيسل كتابًا ذات يوم، في يوم تسميتي، كان كتابًا لبلوتارخ، قصة تحدي ثيسيوس لمتاهة دايدالوس وعثوره على المينوتور في مركز المتاهة. كانت مزحة بالنسبة إلى سيسل، طريقة للسخرية من ألعاب والدنا المتاهية، لكنني كنت أصغر من أن أفهم الدعابة. لم أعرف عدد الليالي التي استيقظتُ فيها مبلِّلًا الملاءات من كوابيس المينوتور ذي رأس الثور الرهيب على كتفي إنسان، آكل بشر لا يرحم. وبعد رؤيتي المتخيلة لأبي بوقت قصير، بدأت أسمع المينوتور، خطواته الثقيلة على الجانب الآخر من الجدار الذي كأنه جدار المتاهة في كنوسوس، مترصدًا إياي، كلما سمعت الصوت يبدو أقرب من ذي قبل».

قالت: «لا شك أنك لا تؤمن بالقصص الخيالية، صحيح؟».

يقطب إميل حاجبه ويقول: «لا يا هيدفيغ، ليس هنا في وضح النهار. أظن أن مرضي اختار هيئة مأخوذة من ذكريات طفولتي، أي أفظع صورة تمكَّن من إيجادها في ذاكرتي. لكن اسأليني في الليل عما إذا كنت أسمع الوحش يقترب بخطوات تزلزل الأرض، عندما أكون وحدي وما من أحد قد يساعدني، عندئذٍ ستكون إجابتي مختلفة».

- هل تسمع الخطوات الآن؟

- نعم، أحيانًا.

يتساءل عما إذا كان ما يقصده واضحًا على تعابير وجهه. أحيانًا يسمعها قوية، وضعيفة في أحيان أخرى، لكنه يسمعها دومًا.

إذا استشعرتْ كذبًا منه، تتحلى باللباقة الكافية للتجاهل.

ويتابع إميل: «إنها الهلوسة. هذا ما قاله الطبيب، تخيلات مزمنة، عدم قدرة على فصل الواقع عن الخيال، أوهام الاضطهاد. رأوا حالات كهذه من قبل، وكل حالة كانت فريدة من نوعها، لكن لم يتعافَ أحد قط. حالما خرجتُ من مصحة المجانين بحثت بطريقتي الخاصة عن وسيلة لتخفيف معاناتي ووجدت أن السُّكر وحده يمدني بالسلوان».

يحس إميل بدفئها على كتفه، لا يتذكر آخر مرة لمسَته، صوتها مهدئ، الصوت الذي استخدمته مرات عديدة قبل وقت طويل لتهدهده حتى ينام عندما كان قلقه يبقيه مستيقظًا.

قالت: «إذا أردتَ مشورتي مرة أخرى، فضع ورقة في الزاوية التي يلتقي فيها الشارع الشرقي بزقاق الترزي، جوار كنيسة نيكولاي. إنني أعبر ذلك التقاطع كل عصر».

تضع يدها على خده وتقول: «هزم ثيسيوس المينوتور، أرشده خيط أريادني إلى خارج المتاهة. ربما يجب عليك أنتَ أيضًا أن تواجه مخاوفك أولًا قبل أن تتحرر منها».

- من الذي يؤمن بالقصص الخيالية الآن؟

الفصل الحادي والأربعون

كارديل منشغل بالبحث، وقبل المساء خُيِّل إليه أنه رآها عشرات المرات، يجوب الأزقة نفسها التي رآها فيها عدة مرات من قبل، يركض مرارًا إلى فتاةٍ ما لديها شعر آنا استينا المستقيم ظاهر تحت وشاحها، ويضع ذراعه على كتفها ويديرها بقوة لا يدركها في خضم تلهُّفه، ويضطر إلى الاعتذار خجِلًا بعد لحظة. إنها في كل مكان، لكنها ليست هي.

يحل الليل، ودخان الزيت غير النقي في الفوانيس ينتشر في كل مكان، رائحة لاذعة إلى درجة أن كثيرين يسخرون قائلين إن من الأسهل للمرء أن يجد طريقه عبر متاهة الأزقة بتشمُّم الطريق من فانوس إلى فانوس بدلًا من محاولة الرؤية بالضوء الشحيح المنبعث منها، بيد أن كارديل لا يحتاج إلى أي منهما، إذ يعرف كل جُحر وركن في «مدينة ما بين الجسور» سواء كان الوقت ليلًا أو نهارًا. تُسمع جلبة هادرة من جميع الحانات، وكلما فتح زبونٌ جديد باب حانة، ترتفع صيحات تعنِّف القادم الجديد حتى يغلق الباب خلفه سريعًا لئلا يدخل هواء الليل البارد.

يضحك الناس على كارديل حيثما ذهب ويقولون: «المرة السابقة كنتَ تبحث عن فتى يافع قتل زوجته، والآن عاهرة هاربة، من سيكون غدًا؟!».

حتى هؤلاء الذين يجعلهم يندمون على استهزائهم لا يجد عندهم أي إجابة عن أسئلته.

رغم أن ذكريات سنواته في الجيش تتلاشى، كثيرًا ما يجد كارديل نفسه مستيقظًا ساعة نفخ البوق أو الطبول، وعادةً ما ينقلب ويعود إلى النوم، لكن في هذا الصباح ينهض ويهز نفسه ويبدأ روتينه الصباحي، يشحذ الموسيَّ على نعل حذائه ويبلل وجهه، ثم يشرع في الحلاقة بمشقة، وهذا النشاط نادرًا ما يكلف نفسه عناء ممارسته بأي عناية، فكه وخداه تغطيهما ندوب سنوات طوال وتجاويف يختبئ فيها شعره، الماء بارد، والصابون ضئيل، والشفرة ليست حادة بما يكفي، لكن أخيرًا ينعكس على المرآة خدان محمران أملسان. ومن الصندوق الذي تحت السرير يخرج زي المراقبين بكامله، حتى كساء الساق والحزام العريض، ويمرر فرشاته على سترته ليبعد عنها النسالة، ثم يهبط السلالم ويخرج إلى الشارع، فيصادف نساء جمع النفايات اللاتي يدفعن عربة يد، ويسمع ضحكتهن الساخرة تتبعه بعدما ركض إلى زقاق متجنبًا اندلاق فضلات مراحيض الليل عليه. يعبر قنطرة بولهيم ويتجه غربًا.

وحالما يجتاز الجسر، يتخيل أنه يمكنه استشعار حضور المشغل قبل أن يرى معالمه، جاثمًا على مركز الجزيرة المسماة بـ «الندبة»، التي نادرًا ما تطؤها قدماه، وهي قلب عمل المراقبين القذر. سخام النوافذ وغبارها بمأمن من أي ممسحة ودلو خلف قضبانها الضيقة، وفي الحجرات التي خلفها يستشعر كارديل وجود النساء، المنكفئات على عجلات الغزل منذ ساعات، يبددن حيواتهن بالعمل في يأس صامت. يهز نفسه ليجلو أفكاره ويعرِّف بنفسه عند البوابة.

قال: «كارديل. رقمي أربعة وعشرون. أريد الحديث مع الناظر».

يحدق المراقب إليه ويقول: «هايبنيت مريض بنزلة برد. إذا كنتَ محظوظًا قد أتمكن من العثور على بيترسن، أو بالأحرى غير محظوظ».

من النادر أن يقابل كارديل نِدًّا له في الحجم، لكن بيترسن رجلٌ ثور، طوله يماثل عرضه، زيه من قماش ذي درجة مختلفة من اللون الأزرق، تئن خيوطه كلما تمطَّى، وتحوم حوله رائحة حامضة من شراب اليوم السابق. تضيق عيناه المحمرتان وهو ينظر متشككًا إلى كارديل وهو يوضح الغرض من مجيئه.

يتكئ بيترسن إلى الوراء ويفكر في الكلمات التي سمعها للتو.

ثم قال: «تود أن تتأكد من أن آنا استينا كناب هنا حتى تكف عن البحث عنها؟».

يرفع بيترسن قنينة إلى فمه، ويعض سدادتها ويلفظها على الأرضية، ثم يأخذ جرعتين كبيرتين، ويناولها لكارديل رافعًا حاجبيه، فيهز كارديل رأسه.

يميل الناظر فوق الطاولة التي تفصل بينهما ويقول: «أعرف هذا الاسم تمام المعرفة، والاسم كارديل أيضًا يبدو مألوفًا».

يفرغ بيترسن القنينة قبل أن يتابع: «سمعت أن كارديل ليس واحدًا منا، إنه يترفَّع عن عملنا، لكنه لا يمانع قبض الراتب. لا يسعني سوى التساؤل عن سبب تجشمك عناء نفض الغبار عن زيك المستعار لا لشيء سوى المجيء إلى هنا وسؤالي عن مومس هاربة كنت أظنني وحدي من يعرفها باسمها».

يرفع بيترسن يده -القوية بما يكفي لرفع مرساة- قبل أن تتاح فرصة الرد لكارديل، الذي يعرف أن كذبته واهية، ويدرك أن افتراضاته بشأن جهل زملائه كانت خطأً، والآن لا يسعه سوى لعن غبائه.

قال: «استعلامك، كما قدمته لي يا كارديل، ليس سوى هراء سخيف، كناب ميتة، بحسب ما تعرفه السلطات، ولا أحد يكترث لحقيقة أن الرفات الذي وُجد في الصيف الماضي في القبو كان من الواضح أنه رفات شخص آخر ما دامت أرقام السجلات متسقة في النهاية. لكنني أعرف حقيقة الأمر، كما تعرفها أنت أيضًا على ما يبدو. كلا يا كارديل، إننا بصدد أمر شخصي هنا، من نوع لا يمكنني سوى تخمينه».

تضيق عينا بيترسن وهو يتفحص كارديل متريثًا بتعابير مستجوِب صارم.

ويقول: «اعذرني على التفكير بصوت عال يا كارديل، فأنا أعاني آثار الشراب قليلًا. عندما كانت كناب الصغيرة هنا لم تأتِ للسؤال عنها، لذا لا بد أنك تعرفت عليها بعدما انسلَّت خارجًا، كيفما حدث هذا، إذن لا بد أنها هاربة في مكان ما من «مدينة ما بين الجسور»، أليس هذا صحيحًا؟ لا ريب أنها انتكست إلى بيع جسدها، وربما كنتَ أحد الذين اشتروا خدماتها وتتوق الآن إلى المزيد منها».

في لحظة شرود يسقط القناع الصارم عن وجه بيترسن إثر استحضاره ذكرى لطيفة، وترتسم تعابير حالمة على قسماته الدميمة.

فيقول: «لديها ما يميزها، تلك الفتاة آنا استينا، أليس كذلك؟».

يحس كارديل بخديه يلتهبان وبالغضب يمور بداخله، لكن لا يسعه فعل شيء سوى البقاء جالسًا ووجه بيترسن ينشق عن ابتسامة هازئة.

يتابع: «كنت قد تخليت عن أمل رؤيتها مرة أخرى، إذ ظننت أنها هربت من المدينة واستقرت في مكان ما بعيد جدًّا، لكن الآن ها أنت ذا تأتي باعثًا الحياة في أحلامي القديمة، إنني مدين لك بالشكر يا كارديل أربعة وعشرون! أحس الآن كما لو أنها كانت تقف أمامي بالأمس، ترتعد خوفًا من العصا، لقد أعدتَ لي هدفي في الحياة، سأجدد بحثي بطريقتي، إذا ما زالت الفتاة في المدينة فعثوري عليها مسألة وقت ليس إلا. مهلًا، إذا وجدتها أولًا، لِمَ لا تجلبها هنا بعدما تشبع منها؟ سوف أعطيك مكافأة بسيطة مقابل أتعابك».

يرفع بيترسن إحدى فلقتي مؤخرته من مقعده ويطلق ريحًا مع تنهيدة ارتياح.

ويكمل: «والآن أسدني معروفًا واغرب عن جزيرتي يا كارديل، لم يعد لك شيء هنا».

لا خيار أمام كارديل سوى الانصياع لما أُمِر به، ترافقه سخريات رفاق بيترسن. ويناوشه خاطر مؤرق وهو يشق طريقه عائدًا عبر المنازل والأكواخ الحجرية القديمة في أبرشية ماريا: الوضع الذي كان سيئًا سلفًا، جعله أسوأ. يجب أن يجدها، سريعًا. كل شيء آخر لا بد أن ينتظر.

الفصل الثاني والأربعون

العنوان الذي كتبه اسفيننغ في رده السريع قاد إميل وينيه إلى زقاق على المنحدرات المؤدية إلى رصيف الميناء، حيث حجارة الرصف زلقة جدًّا بالطين إلى درجة أن بضعة رجال يعانون في دفع عربات الحطب إلى أعلى التل. يطرق بابًا على الطابق الثاني فيُدخَل إلى مكتب صغير لكنه حسن الترتيب، به مستوقد تطقطق فيه حزمة أغصان. الرجل الذي فتح الباب له وعاد إلى مكانه عند مكتبه اسمه بالِندر، يجلس حاسر الرأس وقد علَّق باروكته المصنوعة من صوف الخراف على ظهر كرسيه، وعلى الطاولة إبريق شراب بلوري وكأسان منقوشتان، إلى جانب قطع عديدة من أدوات الكتابة. اتخذ جسد الرجل هيئة مستديرة بسبب عمله الذي يتطلب الجلوس لأوقات طويلة، لديه خدان متوردان، وعلى أرنبة أنفه تقبع نظارة قراءة، ينظر من فوقها إلى وينيه بابتسامة اعتذار.

ويقول: «حسنًا إذن يا سيد وينيه!».

يتردد وينيه إثر سماعه اسمه، فيقول: «أكنت تتوقع حضوري؟».

- بالطبع، أتخيل أن كلينا تلقى رسالته من اسفيننغ في الوقت نفسه، لكنه جعلني أظن أنني قد أستقبل زائرَين.

قصد كارديلَ مرتين منذ الأمس، لكن طرقاته على باب غرفته لم تجد مجيبًا.

قال: «زميلي مشغول بعمل في مكان آخر».

- طيب إذن، إلى صلب الموضوع، وهو بسيط. نعم، بعد ما أوضحه اسفيننغ في رسالته، ستكون حماقة مني أن أنكر أنني أدفع راتبه نيابة

عن شخص آخر. لكنك بلا شك تفهم أنني أضع مصلحة عميلي أولًا، وأنني غير مخوَّل بإفشاء اسمه أو أي تفاصيل أخرى لأي طرف ثالث.

- رأيتَ أوراقي، وهي صادرة من وكالة الشرطة.

يطلق وينيه سبابًا صامتًا لعجزه عن نطق الكلمات دون تلعثم، كأنه تلميذ متأكد من فشله أمام ممتحِنه. يرى بنفسه أن كل حرف يكرره يعزز من ثقة بالندر بنفسه.

قال بالندر: «بالتأكيد، لكنني لم أر شيئًا كهذا من قبل، ولا يسعني سوى ملاحظة أن الاسم على الوثيقة لا يتطابق مع اسمك».

- لدي إذن من كارديل بأن نتصرف نيابة عن بعضنا، كما نتصرف نيابة عن الشرطة.

- لم يحدث أن رأت الشرطة أن من الحكمة التشكيك فيما يُعد إجراءً قياسيًّا في مهنتي. لا ينقصني الأصدقاء المقربون من مدير الشرطة، وسأسعد جدًّا بتأكيد سلطاتك عن طريق مصادري قبل أن نواصل هذا النقاش.

يلزم وينيه الصمت، ويغير وضعيته على الكرسي باحثًا بلا طائل عن الكلمات التي يحتاج إليها من أجل متابعة قضيته، يجثم اليأس عليه، فيُثقِل على عنقه ويهدِّل كتفيه ورأسه، وطوال هذا الوقت ينتظره بالندر، صبورًا كسحلية، يحدق إليه فوق نظارته. يهم وينيه بالنهوض والانصراف، بنظرة أخيرة إلى بالندر توحي بوعد كاذب بالعودة، وعندئذ يرى أن يدَي الرجل الصغير ترتعشان على الطاولة أمامه.

يبحث عن نظرات بالندر مرة أخرى، والآن يلمح فيهما شيئًا لمحة خاطفة، شيئًا لا يخطئه، مخفيًّا ببراعة لكنه ظهر لوهلة وجيزة. يسحب بالندر يديه سريعًا من سطح الطاولة إلى حجره أملًا في تدارك الضرر الذي أحدثتاه، ويغوص وينيه في الكرسي الذي كان على وشك إخلائه.

ويقول: «هلَّا قدمت لي مشروب وداع يا سيد بالندر؟».

يعجز بالندر عن الامتناع، يتشجع مضطربًا ليتناول الكأسين، لكنه لا يستطيع السيطرة على يديه، يدلق البراندي على الطاولة، فيضع الإبريق، ثم

يمسح وجهه بأصابع ملطخة بالحبر. كلاهما يجلس صامتًا، غير واثقين من الخطوة التالية، ويشابك إميل أصابعه في حجره ويأخذ نفسًا عميقًا.

قال إميل: «الخوف».

يحس إميل بصوته يخرج على نحو أفضل الآن.

فيتابع: «إنه شعور بغيض، يشل العقل، عدوٌّ من الداخل يضع المرء على طرفي نقيض مع أفكاره، أتخيل أن قليلين سنحت لهم فرصة التعرف عليه معرفة أفضل من معرفتي، كنتُ طفلًا مضطربًا، تؤرقني الكوابيس، لا أثق بأحد، ثم كبرت، لكن خوفي لم يقل إلا قليلًا، لا أحد يفلت من ظله، ويصير الخوف أسوأ عندما يكون المرء وحده، لكننا اثنان هنا الآن، ربما يمكن لكل واحد منا أن يساعد الآخر على مجابهة هذا الشعور».

يرفع بالندر إحدى الكأسين المترعتين من بِركتها ويقذف محتوياتها في حلقه بأسرع ما يمكنه، ويتقلص وجهه.

ويقول: «ماذا عنك يا وينيه؟ ألن تشرب؟ هذا علاج للخوف أيضًا، وإن كان علاجًا مؤقتًا».

- يؤسفني أنني لا أحتمل الشراب وأثمل بسرعة.

- ومن يمكنه احتماله بحق الجحيم؟

يفرغ بالندر كأس وينيه، ينزع القرطين الذهبيين من أذنه ويضع الكأسين على الطاولة.

ثم يقول: «هل أتكلم بصراحة على أن تضمن لي أنك ستحتفظ بالكلام سرًّا؟».

يومئ وينيه، ويصب بالندر لنفسه كأسًا أخرى، كلما فُتحت السدادة الزجاجية تعبق رائحة حلوة كأنها كمثرى مسلوقة، لا بأس بها. يأخذ الكأس معه وينهض ويسير إلى النافذة، ويحدق ساهمًا إلى الزقاق.

قال بالندر: «سامحني إذا وجدتُ صعوبة في كيفية التعبير عما سأقوله، لم أضطر قط إلى التعامل بالكلمات عندما تكون الأرقام متاحة، أرجو أن تتساهل معي إذا عبرت عن نفسي تعبيرًا أخرق».

- أظنني آخر من يحق له عقاب أحد على هذه الخطيئة.

يتنحنح بالندر ويثبِّت نفسه على إطار النافذة ويقول: «لا شك أنك لاحظت الوضع الاقتصادي الذي نعيش فيه، ما من مجال عمل لم يتأثر سلبًا، تتفهم أنني لا بد أن أكون ممتنًا لكل عميل أتمكن من مواصلة العمل معه، وفي هذه الحالة يتمثل العمل في عقد متوارث عبر أجيال، كنت في خدمة الأب، لذا تقتضي التقاليد أن أواصل في خدمة الابن، إذ إن العديد من الوثائق تحمل ختمي سلفًا، وكل ثروة ترافقها تعقيداتها بمرور الزمن. كنت أود التخلي عنه، لكن كما لو أن القبور ليست مليئة بما يكفي، تسبب الملك نفسه في قتل نفسه، ومضت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والحقيقة المؤلمة هي أنني عجزت عن التكيف. في الوضع الحالي لا يستطيع المرء رؤية الصورة الكاملة، ولا تخمين العواقب التي قد تحيق ليس بالقريبين من المشكلة فحسب، بل وأيضًا بآخرين لا يستحقون أي ضرر يلحق بهم».

- إنني شاكر لك ثقتك، لكن يصعب عليَّ فهم مثل هذا الشرح العام.

يمسح بالندر خديه المتعرقين بكُم قميصه ويقول: «لا، لا، أدرك كيف يبدو لك كل هذا، ولم أقدِّم لك أي سبب يجعلك تحسن الظن بدوافعي، لكن من أجلنا جميعًا دعني أعبِّر عن التماس بسيط: ألن يكون من الأسهل أن تصوَّب عين الشرطة اليقظة إلى ناحية أخرى هذه المرة فقط؟ لا ريب أن استوكهولم لا تعاني نقصًا في الجرائم الأخرى التي تستحق العقاب».

- أنت أيضًا لا ترى الصورة الكاملة يا سيد بالندر، إذا تمكنتُ من إعارتك عينَيَّ ربما يتبدد ترددك، قُتلت فتاة، ووقعت الجريمة بعنف كاف لتلطيخ الثريا بالدماء، وثُقبت جمجمة فتى وهو الآن يجلس مرتجفًا بين فضلاته، منتظرًا موته بفارغ الصبر. أيًّا كان عميلك فهو له علاقة بكل هذا الذي جرى في الخفاء، وإذا كان بريئًا فالكشف عما حدث يخدم مصلحته كما يخدم مصلحتك.

يومئ بالندر مغمومًا وينسحب إلى مكتبه ويخفض صوته: «أجل، ربما. كما قلتُ، هذا ليس عميلًا كنت لأختاره بمحض إرادتي».

تعترك مشاعر متناقضة على وجهه وهو يتابع: «إذًا ما من شيء يمكنني فعله لإقناعك بالعدول عن مسعاك، ألا تظن أننا ينبغي لنا التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين؟ اسمح لي بالتواصل مع عميلي بنفسي وإبلاغه بشأنك،

فبحسب معرفتي به سيأتي إليك من تلقاء نفسه، إذا أعطيتني عنوانك. هكذا ستجنبني خيانة إفشاء السر الذي عُهِد إلي».

بينما يحاول وينيه المفاضلة بين الإيجابيات والسلبيات، يرى أن وجه بالندر يزداد امتقاعًا، ويستشعر أن مخاطرته تتجاوز مجرد احتمال التوبيخ وفقدان دخله. يتساءل إميل عما إذا كان جبروت الشرطة يغرس في الرجل خوفًا أعظم من خوفه من عميله المجهول. يتنهد ويقدم إجابته، مدركًا أن الخيط يمكن شده حتى يخدم غرضه لكنه لن يكون ذا نفع إذا انقطع.

فيقول: «طيب يا سيد بالندر، لكن إذا لم أتلقَ إجابتي غدًا بحلول وقت العشاء، فتوقع مجيئي هنا مرة أخرى، على الأرجح برفقة شخص أظنه سيكون أقل مرونة مني».

يطلق بالندر تنهيدة لا بد أنه ظل يكتمها طوال هذا الوقت، ويتناول الإبريق عازمًا على إفراغه على ما يبدو، ارتياحه محسوس لدرجة أن هواء الغرفة يبدو كأنه غُيِّر للتو.

ثم يقول: «سماحتك لن تُنسى ما دمتُ مستمرًّا في عملي».

يوقف صوت بالندر وينيه عند عتبة الباب، وآثار الكحول الذي يظل يشربه منذ بداية لقائهما صارت مسموعة لأول مرة: «سيد وينيه! إليك عربون على هيئة تحذير، تعامل مع هذه المسألة بحذر، ولا أقول هذا من أجله فحسب».

الفصل الثالث والأربعون

يظل إميل وينيه منتظرًا ساعتين عند زاوية الشارع الذي طلبت هيدفيغ منه أن يضع فيها رسالته، شاعرًا بقلق متزايد مع غوص الشمس أسفل سطوح المباني.

تأتي مع المساء من اتجاه رصيف الميناء، كما وعدته، وتتبعه صامتة إلى «البورصة الصغيرة»، ويجلسان في ركن منعزل. ترفع هيدفيغ أحد حاجبيها.

فيبتدر إميل الكلام: «تلقيت رسالة من شخص يدعى تايشو سيتون، يعرِّف بنفسه وصيًّا على إريك الورود الثلاث».

- ما الذي كتبه أيضًا؟

- يريد أن يلتقي بي الليلة، ويشدد على أن أذهب إليه وحدي.

يضع إميل الرسالة الصغيرة بختمها المكسور أمام هيدفيغ، فترفعها تحت الضوء كي تقرأها بسهولة، وينتظر إميل تعليقها.

قالت: «هناك من بين جميع الأماكن؟ وفي هذا الوقت من اليوم؟».

- نعم يا هيدفيغ، لم أعثر على جان مايكل في أي مكان، وإذا تمكنت من الوصول إليه لطلبت منه أن يتبعني من بُعد على الأقل، لكن الوقت ضيق، لذا أطلب منك الأمر نفسه.

- لا أظنني بمستطاعي نجدتك إذا كان سيتون هذا يخطط لخدعةٍ ما.

- لا، لكن إذا اتخذت الأمور منحى سيئًا، يمكنك إبلاغ جان مايكل بمصيري و...

يتهدج صوته، فيتنحنح قبل أن يتابع: «حذَّرني بالندر أمين السجلات. مجرد معرفتي بحضورك ستمدني بالشجاعة التي أفتقر إليها».

تتمهل قليلًا قبل أن تومئ له: «فليكن إذن».

- الليلة، قبل منتصف الليل بنصف ساعة.

- حسنًا.

- ابقي في الظلال، يجب ألا يلاحظ وجودكِ بأي حال من الأحوال.

أرخى الليل سدوله على «ساحة الخردواتية»، التي تحيط بها أضواء باهتة من الفوانيس التي في الزوايا، ومرارًا ترتعش الشعلات وتطقطق إثر امتصاص الزيت الملوث عبر أشرطة الفوانيس، وعندما يعبر إميل وينيه الساحة المرصوفة بالحجارة، يرى هيئة البئر وخلفها منطقة مفتوحة بين المباني ذات الخطوط المشوهة التي تخدع العين وقد بدت غير مألوفة في غياب الضوء، يبلغ قلبه حنجرته بغتة، وأي شجاعة استجمعها من أجل هذا اللقاء المتأخر تُستنفد فورًا، ينتظر هنيهة في الظلال، والظلام حليفه ومصدر رعبه في آنٍ واحد، إلى أن يُطمئن نفسه بأن الصوت الوحيد الذي يعكر هدوء الساعة هو جلبة شجار قادمة من «شارع باغ» ووقع أقدام شخص غير مرئي يرافقه وقع عكاز على الحجارة. يذكِّر نفسه بوجود هيدفيغ في مكانٍ ما في الأزقة التي أمامه، آتيةً من رصيف الميناء حتى لا تثير أي شكوك في حال اكتشاف أمرها. وعندما يهدِّئ روعه، يسير مترنحًا عبر الأرض غير المرئية بخطوات قصيرة حتى لا يتعثر على أي قمامة ألقيت في الساحة، وفوقه تتلألأ عناقيد العنب الذهبية على لافتة حانة «السلام الذهبي»، ثم يجد أمامه هيئة شخص في انتظاره، لا يظهر إلا بالفانوس الذي يحمله بيده.

ويقول: «سيد وينيه؟».

- سيد سيتون؟

يحييان بعضهما بانحناءة، ويرفع سيتون فانوسه حتى يسهِّل على كليهما رؤية وجه الآخر، فيعجز وينيه عن كبح شهقة عالية عندما يرى ندوب وجه

سيتون، تلتمع حواف الجرح رطبةً تحت ضوء الفانوس، ونظراته يملؤها الفضول.

قال سيتون: «أعتذر عن اختيار مكان اللقاء غير المعتاد، لدي عمل هنا الليلة، ربما يسلِّيك أيضًا، هكذا سنجمع بين المتعة والعمل».

يجذب سيتون الباب فيفتحه ويدعو وينيه للدخول ويقول: «أعطيت البواب شلنين حتى يتركه مفتوحًا لنا».

الحانة مظلمة، وقد أغلقت أبوابها قبل بضع ساعات، رغم أن رائحة الزبائن ما تزال عالقة، وستبقى إلى أن تبدأ الخادمات بغسل الأرضية عند شروق الشمس. يواصل سيتون السير بفانوسه، هابطًا السلالم حيث يحمل سقف القبو المقوس وزن المبنى. ترسم قراميد غير مستوية أشكالًا على جدران سميكة، مطلية بالأبيض هنا وهناك لتخفف عتمة المكان. يرفع سيتون الفانوس، وعندما يتبعه وينيه حول زاوية يدرك أنهما ليسا وحدهما، الحجرة مليئة، لكن سلوك المجموعة غريب، ومحير، وسرعان ما يدرك أنه لا أحد منهم يحرك ساكنًا، تذبذُب شعلة الفانوس وحده يهِبهم وهم الحياة.

يلتفت سيتون إليه ويقول: «تماثيل شمعية، جميعها. ربما قرأتَ عن هذا العمل عند أحد باعة الكتب، الفضيحة لم تفُت على الصحف».

يهز وينيه رأسه ويتوغل في الحجرة، أمامه امرأة ترتدي فستانًا مذهلًا، ملامحها دقيقة لدرجة أنها تبدو كأنها تكتم أنفاسها إثر سماعها نكتة.

يسير سيتون مقتربًا حتى يلقي عليها نظرة أفضل.

فيقول سيتون: «ماري أنطوانيت، مرفوعة الرأس هنا مقارنة بوضعها الحالي، وانظر هناك زوجها».

يتحرك سيتون ببطء من تمثال إلى آخر ويقول: «المثَّال اسمه كورزيه، ألماني يسافر من مدينة إلى أخرى ليعرض فنَّه، لكن هنا في استوكهولم تخلى عنه حظه، أُغلق المعرض سلفًا، وغدًا سيبدؤون بحزم أمتعتهم ليغادروا. وانظر! هنا لدينا سبب كل شيء، بكل عظمته».

يرى إميل وينيه فوق عمود تمثالًا نصفيًّا لرجل ذي جبهة عالية ووجه شامخ، وعندما يمر متجاوزًا النقطة التي وجَّه إليها فنان الشمع نظرات

التمثال الاصطناعية، يبدو التمثال له كأنه ينبض بحياة مفاجئة ناظرًا إليه مباشرة، فيرتعد.

ويطلق سيتون ضحكة خافتة قائلًا: «إنه الملك الراحل غوستاف. لم يستغرق باروننا القلِق ريوترهولم وقتًا طويلًا ليرسل مدير الشرطة أولهولم إلى هنا بنفسه حتى يغلق المعرض، يعد هذا التمثال النصفي واقعيًا جدًا إلى درجة أنه يمكن أن يحرض الناس على الثورة. لكن هذا ليس سبب مجيئي، انظر هناك».

يرى ستارة تخفي تجويفًا في الجدار، فيزيحها سيتون جانبًا حتى يدخل وينيه، ويترك الستارة تسقط خلفهما ويضع ذراعه أمام الفانوس كأنه يريد للحجرة أن تحتفظ بسرها لمدة أطول قليلًا. يحدق وينيه إلى الظلام، وببطء تتخذ الظلال شكلًا أمام عينيه، وتلوح هيئة ممددة على نقالة.

يقول سيتون: «هل أنت مستعد؟».

ينزِل سيتون ذراعه، فينطلق الضوء باهرًا في هذه المساحة المغلقة. يتمدد رجل على طاولة منخفضة، عاريًا وتغطيه القروح، ذراعاه وساقاه بُتِرت من جذعه، ولم يبق سوى رأسه، الأطراف المبتورة متخشبة، والعينان مفتوحتان على اتساعهما من الرعب والحيرة، والفم يرسم دائرة من الصدمة.

يضحك سيتون من تعابير وجه وينيه ويقول: «مهلًا، هوِّن عليك، إنه ليس حقيقيًا. كورزيه لا يعرضه للجميع، ومع هذا نقف أمام تحفته. ألا تعرف من هذا؟».

يهز وينيه رأسه، ويمد يده ليلامس الدماء التي تخبره كل حواسه بأنها ما تزال دافئة رطبة، لكنه لا يلمس سوى الشمع الجاف.

قال سيتون: «اسمح لي بتقديم مونسيو روبيرت *فرانسوا دامِين*، إنه الذي هاجم لويس ملك فرنسا في عام سبعة وخمسين بمدية تعجز عن شحذ ريشة كتابة، أُصيب الملك بخدش على صدره، يكاد لا يُلاحظ، لكنه ظن أن لحظاته الأخيرة حانت واستدعى الملكة إلى فراش موته كي يعترف بأسماء جميع سيدات البلاط اللاتي شاركهن الفراش خلال زواجهما، ثم ضُمِّد خدشه فاستعاد صحته. آه يا وينيه، كان إعدام دامِين حفلًا للجماهير، لا شك في هذا. عُذِّب على المخلعة أربع ساعات، سُحقت قدماه، وأزيلت أعضاؤه التناسلية

بكماشة محمرة من الحرارة، وأُحيلت اليد التي حملت السلاح رمادًا فوق مجمرة، وشُقِّق الصدر والذراعان والفخذان وصُبَّ الرصاص المصهور على الجروح، قيدوا أطرافه إلى أحصنة، واحدًا تلو الآخر، ومع عدم اعتياد الأحصنة على المهمة ظلت تكدح نصف ساعة قبل أن يأخذ شخص منشارًا إلى الكتفين والوركين، وهكذا فقد إحدى ذراعيه أولًا، ثم الأخرى، وبعدها الساقين، وأخيرًا تمكن القائمون بإعدامه من إيصاله إلى الحالة التي نراها هنا، كتلة دامية ذات رأس متضعضع، ما تزال متشبثة بالحياة على نحو خارق، لا يقدر سوى على الأنين والتحديق إلى الصليب الذي يمده كاهن الاعتراف له ليقبِّله. استمتع الناس أيما استمتاع، وعند نافذة بالأعلى شوهد كازانوفا نفسه مع رفيقة له يتحسس ما تحت تنورتها».

يحرك سيتون الفانوس للأمام والخلف كي يبرز من الظلال جميع تفاصيل فن المثَّال.

ويقول: «وداعٌ لا مثيل له، ألا تظن هذا يا سيد وينيه؟ في باريس قُطِفت رؤوس الآلاف بآلة اختُرعت خصيصى لهذا الغرض، فماتوا جميعهم موتة لا قيمة لها، لكن دامِين هنا، بفضل كروزيه، ما زال يمتِّعنا إلى اليوم، حتى كلماته الأخيرة وُثِّقت من أجل الأجيال اللاحقة، أتعرف ما قاله صباح اليوم الذي اقتيد فيه من زنزانته إلى حتفه؟».

يهز وينيه رأسه.

يتابع سيتون: «*سيكون يومًا عسيرًا*».

يضحك سيتون، ويخرِج منديله من جيبه ليمسح زاوية فمه، ثم يتراجع خطوة.

فيتنحنح وينيه وينتهز اللحظة ويقول: «إريك الورود الثلاث...».

- أستميحك عذرًا، فرغتُ مما جئت من أجله وأشكرك على صبرك. أجل، إريك الورود الثلاث، إنك تعمل بالنيابة عن الشرطة، على ما أظن، وأفترض أن الأرملة كولينغ، أم العروس، هي التي أثارت أسئلة بشأن المصير المأسَوي الذي حاق بابنتها. أريد توضيح أمر واحد دونما تأخير، وهو أن الفتى بريء، ربما ينفجر غضبه عندما يُستفَز، لكنه ليس قاتلًا.

- تعتقد كولينغ اعتقادًا جازمًا أن ما من ذئاب ظهرت في الغابة التي حول «الورود الثلاث» منذ سنوات عديدة.

يومئ سيتون موافقًا ويقول: «كما لا تُلام الذئاب على ما حدث».

- ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟

يتراقص الضوء مخادعًا مع تمايل الفانوس، وكما يوهم بتحرك تماثيل الشمع، يعجز وينيه عن التأكد مما إذا كان سيتون يبتسم أم لا.

قال سيتون: «أود أن أوضح المسألة برمتها، كما أراها، لك ولرفيقك كارديل، إذا أخبرني بالندر بالاسم الصحيح، لو شرَّفتماني بالانضمام إلى مائدتي غدًا في «تل هورن» في «جزيرة الملك». عليك أن تعذرني على متاعب هذه الليلة، إذا لم تكن رؤية مواهب كورزيه اعتذارًا كافيًا، أردتُ مقابلتك وحدك قبل أن أقدم لك الدعوة، ولم تخيب ظني، أرى أنك لست من النوع الذي يدفعه الطموح أو الغرور، ومع معرفة هذا أود أن أُسِر لك بشيء...».

يصمت، ويميل رأسه جانبًا إثر سماعه صوت احتكاك من الحجرة المجاورة، ثم يقول: «هل سمعت هذا يا سيد وينيه؟ أظن أن شخصًا تبعنا إلى الداخل، لا يمكن قطعًا أن تكون قد دعوت أي طرف غير مرغوب فيه وقد طلبتُ منك تحديدًا أن نكون وحدنا، صحيح؟ أخشى أن سلوكًا كهذا من شأنه تغيير الوضع تغييرًا تامًّا».

يسحب سيتون الستارة جانبًا ويرفع الفانوس ليلقي الضوء على الحجرة بالخارج، تتراقص ظلال التماثيل على الجدران، مشوهةً بأشكال غريبة، بينما يسير سيتون بين الصفوف وهو يدير رأسه من جانب لآخر. تقف هيدفيغ ساكنةً سكونًا تامًّا، ورأسها منحنٍ نحو الأرضية، إحدى الوصيفات تمسك بذيل فستان كاترين العظمى حتى لا يتسخ على الأرض. ولوهلة تقع عينا سيتون على هيدفيغ، يجد إميل الوقت ليظن أن أقل تنفس سيفضح وجودها، لكنها تظل ساكنة. ويلمح إميل على امتداد الجدار خلفهم شيئًا يهرع إلى أمان مخبئه، فيستدير سيتون على عقبيه ويهز كتفيه.

ويقول: «جرذ، البقية مجرد خيال عابر».

الفصل الرابع والأربعون

ينظر كارديل إليه، ويقرأ إميل وينيه في ملامحه شيئًا جديدًا، شيئًا لا يعرف التعبير عنه في بادئ الأمر، ويدرك مرتاعًا أنه إعجاب، إكبار يتاخم الفخر بأنه -كارديل- كان موفقًا في اختيار شريكه. ونبرة صوت لا بد أن شقيقه سمعها حتى سئمها، والآن موجهة إليه هو لأول مرة: «لم تكن عديم الفائدة من دوني قطعًا».

تخطر هيدفيغ على بال وينيه، فيحس فورًا بأنه لا يستحق المدح، ويشيح بعينيه محرجًا وينظر إلى الجسر المنبسط فوق القناة وإلى الطريق الممتد نحو «جزيرة الملك».

ويقول: «حتى الآن ليست لدينا فكرة عن نهاية مسعانا هذا».

يسيران جنبًا إلى جنب على الألواح الرطبة، وبدلًا من الإجابة عن مزيد من الأسئلة، يطرح وينيه نفسه سؤالًا: «ماذا عنك يا جان مايكل؟ أين كنت؟».

يحين دور كارديل في تقديم الإجابات الغامضة، بصوت يطغى عليه الإرهاق: «آسف، توليت بعض المسائل الشخصية التي لا يمكن إرجاؤها، لم أعد إلى الغرفة منذ لقائنا آخر مرة، ولم أحظ سوى بساعة من النوم قبل أن تطرق الباب. إنه أمر لا علاقة له بقضيتنا، لكن اللعنة يا إميل، إذا ساعدك غيابي على هذه الإنجازات، فربما ينبغي أن أدعك وحدك معظم الوقت».

يعبران الجسر ويتبعان الطريق الذي يبدأ حيث يكدح صانعو الزجاج في عملهم إلى اليسار، وإلى اليمين مستشفى سيرافيم، فيشكِّل المكانان بوابة

إلى «جزيرة الملك»، وهما يحددان نهاية المدينة، فما بعدهما حدائق وحقول جُني حصادها قبل أسابيع، والآن مهملة في انتظار ليالي الصقيع. يتبعان الدرب الممتد بين المجاري المائية لمدة، وخلفهما يريان مبنى ملجأ الأيتام المهيب، وعندما تغير الريح اتجاهها وتهب نحو وجهيهما تجلب الهواء من مصنع النترات، رائحة كريهة تشبه نتانة البيض الفاسد. وعلى مبعدة تنتصب صفوف تلو صفوف من الأشجار على أرض لا سلطات المدينة ولا المزارعين لديهم القدرة على ترويضها، وخلف الغابة تلوح المياه مع انحدار الجزيرة نحو الشاطئ. صفوف أشجار الزيزفون تحف طريقهما، متأهبة بجذوعها ذات العُقد، وتقودهما إلى بستان تفاح، مُشذَّب بعناية حتى تقطف الفواكه بأقل مجهود. على أحد الجانبين الأرض مقسمة إلى أقسام مربعة، كل منها مخصص لمحصول بعينه. وفي هذا الصباح المتأخر الغيوم متناثرة، تسمح بظهور شمس خريفية شاحبة ما زالت قادرة على إرسال شيء من الدفء. وأمامهما ينتصب بيت ضيعة مطلي بالأبيض، ذو جناحين يمتدان شرقًا وغربًا، ومحاط بمبانٍ خارجية وإسطبلات، ويتناهى إلى مسامعهما ثغاء خراف يقودها على المروج صبية يعتمرون قبعات زرقاء زاهية، ومشهد المياه الساكنة خلفهم يحبس الأنفاس ويوقفهما في طريقهما.

قال كارديل: «ولم يقل الرجل شيئًا بشأن ما يريد أن يرينا إياه؟».

- لم يقل سوى أنه يرحب بمشاركتنا عشاءه، وفي أثنائه سيسلط الضوء على المصير المؤسف الذي حلَّ بإريك الورود الثلاث وعروسه اليافعة.

يبصق كارديل التبغ على العشب ويتنحنح بصوت عال.

يرنو وينيه ببصره إلى المشهد الطبيعي أمامهما ويقول: «أتعرف ماهية هذا المكان يا جان مايكل؟».

يهز كارديل كتفيه قائلًا: «بيت ضيعة مثل بيوت كثيرة، على ما يبدو. شيد النبلاء هذه الأماكن ليهربوا من المدينة، لكن استوكهولم تتمدد كالغرغرينا وتدفع معظم الناس للتراجع إلى أماكن أبعد. هذه المنازل بيعت وحوِّلت إلى مصانع وما شابهها، واسم هذه الضيعة لم أسمع به من قبل.

يلوِّح لهما بالدخول رجلٌ بين الأعمدة جوار الباب الأمامي ذو قمة رأس صلعاء لامعة ويرتدي معطفًا من المخمل الأحمر، مُرحِّبًا بهما بابتسامة مع اقترابهما.

يقول: «أظنكما سيد كارديل وسيد وينيه، صحيح؟ اسمي رودستيدت، مرحبًا بكما في «تل هورن»، وددت لو أريكما أنحاء المكان، لكن سيد سيتون يريد إرجاء التسلية إلى وقت آخر، وجبتكما في الانتظار، وإذا خيبتْ ظنكما فلا بد أن لديكما ذوقًا مميزًا. يواكيم! كلارا فينا!».

يصفِّق بيديه، فيظهر صبي وفتاة، يبلغان التاسعة أو العاشرة من عمريهما، وكلاهما يرتديان قميصين أبيضين طويلين، يأتيان ركضًا بخطوات سريعة. ينحنيان ويثنيان رُكبهما، ويتخذان مكانيهما جوار كل ضيف ويمسكان بيديهما، ويعجز الصبي الذي إلى يسار كارديل عن إخفاء دهشته.

فيمسك كارديل به من كتفه ويديره إلى الجانب الآخر ويقول: «يجدر بك اختيار اليد اليمنى، إن كان لا بد».

يقتادهما الطفلان عبر صالة جميلة ذات جدران عليها رسوم، ثم يفلتانهما بحركة صامتة توحي بالتمرس ويركضان أمامهما ويفتحان الباب المزدوج في نهاية الصالة، وخلفه يمتد بهو مرتفع، تعكس الجدران البيضاء الضوء الداخل عبر كوات السقف، وفي منتصف الأرضية مائدة عليها شمعدانات مضيئة. ينهض سيتون من مقعده ويقترب منهما بذراعين مفتوحتين، ملابسه لا تشوبها شائبة، وعلى حذائه وسرواله إبزيمات فضية. يشير إلى الكرسيين الشاغرين.

قال: «مرحبًا بكما يا سيدَي، مرحبًا، أتودان الجلوس ومشاركتي الوجبة قبل أن نواصل أنشطة الأمسية؟».

الطفلان اللذان يرافقانهما يجذبان الكرسيين، وما يكادان يجلسان حتى تملأ الفتاة كؤوسهم بنبيذ أحمر من إبريق مزخرف، يرفع سيتون كأسه ويقلِّب طرْفه بين كارديل ووينيه.

ويقول: «صحتكما!».

يشربون النخب، وينيه لا يقرِّب الكأس من شفتيه، وكارديل، من ناحيته، يميز مذاق النبيذ القادم من الراين، من نوع تفوق جودته أي نوع تذوقه من قبل، لكن حتى هذا لا يطيل حبل صبره لحظة واحدة. يميل سيتون رأسه للخلف، فينبجس النبيذ الأحمر من التمزق الذي في زاوية فمه، ويسيل على كتفه وصدره، لا يلقي له بالًا، لكن كارديل يرتعد ويشيح بوجهه.

ثم يقول: «ما هذه الدار؟ أهي مسكنك؟».

يهز تايشو سيتون رأسه. ويقول: «لا، إنني زائر مثلك، لكن لا يمكنني إنكار تحمل مسؤولية الأنشطة. «تل هورن» ملجأ أيتام، ورغم أن التباهي ليس من شيمي، أود أن أقول إنه لا نظير له ليس في المدينة فحسب بل وفي المملكة بأسرها».

يُحمل الطعام من المطبخ على صِحاف فضية على أيدي أطفال يرتدون الأبيض، طائر تُدرج مزين بريشه، إلى جانب لفت وجزر وصلصة غنية. يشاهد سيتون في أثناء تقطيع الطائر وتقديمه.

قال سيتون: «يؤدي الأطفال جميع أعمال الطبخ، تحت إشراف بالطبع. أرجوكما، استمتعا».

اللحم طري وكثير العصارة، والخضراوات تسبح في الزبدة الذائبة. يأكلون في صمت هنيهة قبل أن يُبعِد إميل وينيه كأس نبيذه الذي لم يمسه ويقطب حاجبيه، ويخرج صوته مترددًا وكلماته متعثرة: «أتزعم أنك الوصي على إريك الورود الثلاث؟».

يومئ سيتون موافقًا ويقول: «جميع الوثائق الضرورية لإثبات زعمي يمكن توفيرها، إذا أصررتما، لكن أرجو أن تعلما أن هذا لن يحدث إلا برضاي. تقولان إنكما مرسلان من الشرطة، وبالندر يؤكد لي أن أوراقكما سليمة على نحو أو آخر، لكن لا أظن أن مدير الشرطة أولهولم يعرف بأمر عملكما».

يتنحنح كارديل بصوت عالٍ ويقول: «ما الذي يجعلك تقول هذا؟».

- أولهولم كلب مطيع لدى السلطة الحاكمة، وقضايا كهذه لا تثير اهتمامه. ليس عمومًا، لكن قطعًا ليس هذه القضية تحديدًا، لكن هذا لا يهم، إنني مستعد لأكون في خدمتكما رغم كل شيء.

يواصل سيتون عشاءه خلال الصمت الذي خيم عليهم، ثم يحاول وينيه التمسك بخيط الحديث الذي فقده قائلًا: «ماذا عن الورود الثلاث؟ ما الذي حل به؟ أتعرف شيئًا عن العملية الجراحية التي سلبته عقله؟».

يأخذ سيتون قضمة من طعامه ساهمًا، قبل أن يزيح أدوات مائدته جانبًا، ويتناول سيجارة شيروت من علبة مبطنة ويشعلها من شمعة، ويبقي شفتيه مغلقتين ويترك الدخان يتسرب عبر الجرح الذي في خده.

ثم يقول: «في سان بارثيلمي، حيث عشت معاناة حتى نهاية الصيف، خلال الشهور العديدة التي انقضت قبل لقائي أول مرة بالورود الثلاث وابن عمه، كنت أزجي وقتي مع العبيد الذين اشتريتهم، أحدهم كان مميزًا عن الآخرين، ورغم أنني لم أتمكن من التحقق من خلفيته، لن أتفاجأ إذا عرفت أنه كان زعيم قبيلة قومه، أو حتى حاكم مقاطعة، من البداية استشعرت وميض ذكاء في عينيه، ورغم أنه كان مطيعًا مثل رفاقه، أمكنني الجزم بأنه لم يستسلم لمصيره، كان نبيهًا ويتحين الوقت المناسب، وظل يسليني مدة طويلة بعد ذهاب رفاقه، كنا نلعب معًا لعبة، اختلقنا قواعدها في أثناء اللعب، ومما برهن على ذكائه أننا كنا نتفاهم خير تفاهم رغم عدم تكلمنا لغة مشتركة، مستخدمين الإشارات والإيماءات فحسب. لا شك أنه كان قد رأى وسمع المصير الذي حل ببني جنسه، لكنني أفهمته أن بوسعه أن يشتري لنفسه حياةً أطول مقابل ثمن، حاول أن يعرض عليَّ أشياء عديدة، وظللنا نتساوم مدة طويلة، وأخيرًا اتفقنا على أن يومًا واحدًا يساوي قيمة إصبع واحد، تمكن من قطعه مستخدمًا أسنانه وحدها، وقدَّمه لي بعد قرابة ساعة، واصلنا على هذا النحو مع مضي الأيام، وحل موعد سداد جديد، وعندما لم يتبق سوى إبهاميه وسبابتيه، عرض عليَّ أشياء أخرى، لكنه أفهمني أنه يريد التفاوض بشأن استخدام أدوات إذ لا يستطيع بأسنانه أن يصل إلى أعضاء جسده التي اقترحها، قوة إرادته لم تفشل في إثارة إعجابي قط، ورغم أنه لم يربح الكثير في هذه اللعبة، فقد نال احترامي. لا بد لي من الاعتراف بأن اللعبة كانت مغشوشة كأي لعبة فارو في الحانات، وأن لوح الخشب غير الثابت في زنزانته الذي عمل عليه بصبر مستخدمًا شظية عظم كل ليلة كان قد أُعِد بناء على أوامري لمدِّه بالأمل، أحلامه بالهروب لم تكن سوى أضغاث

أحلام، وعندما أدرك هذا، إذ إن من الطبيعي ألا يستمر أمر كهذا للأبد، انطفأ شيء بداخله، ولم يسعني فعل شيء سوى التخلي عنه مثل البقية، رغم أنه أبدى مقاومة جديرة بالإعجاب قبل أن أتمكن مع لويس أخيرًا من إلقائه فوق الكومة في الحفرة التي ستصبح مصدر غذاء جيد لزهور الفرانجيباني، التي لن يرى لها مثيلًا في الجزيرة بأسرها».

ينفث سيتون سلسلة من حلقات الدخان، غير متناسقة الأشكال مثل الفم الذي نُفثت منه، وتتلاشى كل حلقة في الضباب الرقيق وهي تنساق فوق شعلات الشمعدانات.

قال: «أثقلتُ عليكما بهذه الحكاية لأن رؤيتكما أعادت إليَّ ذكرى هذا الرجل، لا تكادان تختلفان كثيرًا عن رعاع الشوارع لكن فيكما شيئًا من روح ذلك الرجل نفسها، شديدا العزم ومثابران، رغم أن الاحتمالات ليست في صالحكما على الإطلاق».

يزيح وينيه طبقه جانبًا حتى يضع مرفقيه على الطاولة ويميل إلى الأمام. ويقول: «أنت وراء كل شيء إذن، لِنيا شارلوتا، وإريك، كل شيء، صحيح؟».

- نعم بالطبع.

متوترًا يميل وينيه إلى الأمام أكثر، كأنه يقطع طريق كارديل الأقصر إلى سيتون، ويقول: «لماذا تعترف لنا بهذا الآن؟».

- اطلب من رفيقك التحلي بمزيد من الصبر قليلًا وسأخبرك، ونحن نتناول القهوة إذا أردت. آمل أن تتغاضيا عن حقيقة أننا هنا في «تل هورن» نخالف كل القوانين ونستمتع بالذهب الأسود.

يدخل الطفلان حاملَين إبريق قهوة فضيًّا ويملآن ثلاثة أكواب خزف صيني، يشرب سيتون نهِمًا، وتختلط البقع السوداء بالحمراء التي لطخت معطفه سلفًا.

يقول: «أتعرفان؟ معظم الناس لا يبدون أنهم يجدون أي صعوبات في الحكم على عمل الخير بأنه خير عندما يرونه، وعلى ما يبدو لديهم القدرة على التمييز بين الخير والشر، لكن إذا كان فعل ما هو صائب قد يكلفهم

أقل تكلفة، فسيفضلون فعل الخطأ أو ترك الأمور على ما هي عليه، ما دامت خياراتهم تبقى طي الخفاء وما من شاهد يمتدح الفضيلة أو يندِّد بالرذيلة».

يأتي بحركة من يده كأنه يريد أن يشمل بكلامه المكان بكامله ويتابع: «لدينا سلفًا ملجأ أيتام هنا في استوكهولم، تدعمه سلطات المدينة نفسها، والمدينة لا تعدو كونها مكانًا لإنتاج جثث الأطفال. استغللتُ عقار «الورود الثلاث» في تأسيس «تل هورن»، وقد عزوت فضل كل هذا العمل لآباء المدينة، وبما أنه لم يكلفهم شيئًا، فهم يسعدون بالتمتع بمجده، يحسب الناس أنهم يدفعون من جيوبهم لتأمين مستقبل لأطفال الشوارع، وحيثما يذهبون يشير الناس إليهم معجبين وهامسين: *ها هو ذا رجل صالح، يؤثِر الآخرين على نفسه*. وبفضل أمثال هؤلاء، يرغب كثيرون آخرون أيضًا في عد أنفسهم ضمن متبرعي «تل هورن»، ومسرورًا أسمحُ لهم بالتظاهر. يأتي إلى هنا سادة متأنقون متخفون في عرباتهم ليجعلوا عشيقاتهم يرون المكان، اللاتي، بطبيعة النساء، يضعفن أمام فعل الخير ويسعدن بفتح سيقانهن لأولئك الرجال الأفاضل قبل نهاية اليوم. لما كانت هذه الأكاذيب ممكنة من دوني، لذا أستمتع بحمايتهم لي، وبمباركة ذوي الشأن، حتى ألد أعدائي لا يستطيع أن يمسني. والأموال، التي يبدو أنها محور وجود الجميع، لا تثير اهتمامي إلا بالقدر الذي يتيح لي عيش الحياة التي أريدها».

يجول وينيه بناظريه فيما حوله بعينين متشككتين ويقلد حركة سيتون ويقول: «عندما تقررت زيارة كاترين العظمى للمناطق التي غزاها بوتِمكين حديثًا، يقال إنه شيَّد على امتداد الطريق الذي ستمر به واجهات قرى مزدهرة نابضة بالحياة، حتى يخدعها بجعلها تظن أن كل شيء على ما يرام والحقيقة أن الفقر متفشٍّ في المنطقة».

- آه، لكنك لا ترى جمال خطتي الكامل. أفهم منطقك، ما مدى سوء ما يحدث لهؤلاء الأطفال الضعاف تحت رعاية وحش مثل تايشو سيتون عندما تُطفأ الأضواء ويعود الزوار إلى بيوتهم؟ لكن الحقيقة هي أن «تل هورن» ليس خدعة، وهنا يكمن الجمال، هذه الدار ليست سوى ما تبدو عليه، ولماذا؟ طيب، لأنني كنت أتوقع أناسًا من أمثالكما، أناس وجدوا ذريعةً ما للتربص بي ولن يدعوني وشأني أبدًا، أناس ليس لديهم ما

يخسرونه ولا يضعفون أمام الرشاوي، يمثلون الاستثناء الذي يثبت القاعدة، وها أنتما ذان.

يصفق سيتون بيديه وينادي الفتاة، التي تنتظر مُذعنةً جوار الجدار.

يقول: «من فضلك يا كلارا فينا، هلا تلطفتِ وانضممتِ إلينا لحظة؟».

تثني الفتاة ركبتيها، وتخطو بضع خطوات سريعات وتقف جوار حافة الطاولة وتقول: «نعم يا سيد سيتون».

- خاطبيني بتايشو الليلة.

- تايشو.

- من فضلك هلا أخبرتِ ضيفينا عن حياتك قبل مجيئك للعيش معنا هنا في «تل هورن»؟ هيا، لن يُحكم عليك هنا.

تخفض بصرها وتحمر خجلًا وتقول: «في أوقات النهار كنت أنام حيثما وجدت مكانًا، وفي المساء أذهب إلى القلعة أسفل الجدار الغربي حيث يوجد الذين يرغبون في العاهرات الصغيرات».

يميل سيتون إلى الأمام ويجفف دمعة على خدها بطرف منديله.

ثم يلتفت إلى الصبي الواقف خلف إميل وينيه ويقول: «وماذا عنك يا يواكيم؟».

- كنت أسرق ما يمكنني سرقته، بالدهاء من الغافلين، وبالقوة من الضعفاء، وفي الأيام التي يشتد فيها جوعي أذهب إلى القلعة مثل كلارا فينا وأفعل كما تفعل.

يلقي سيتون بذراعيه في الهواء ويقول: «هنا نمنح هؤلاء الأطفال فرصة حياة جديدة، ليس في الوقت الراهن فحسب، بل ومع أمل في المستقبل أيضًا، عندما لا يكونون مشغولين بمهامهم في المطبخ والبستان، نعلِّمهم القراءة والحساب، وإذا وجدوا مجالًا بعينه يناسبهم من بين جميع المهن التي تُوفِّر لهم فرصة تجريبها، نساعدهم على التدريب في المجال نفسه عندما يبلغون السن المناسبة. لا أحد يمس شعرة من رؤوسهم، لا سيما أنا. بعدما ننتهي من وجبتنا لكما حرية التجول حيثما شئتما هنا في «تل هورن»، تكلما مع الأطفال، ثم وجِّها لنفسيكما هذا السؤال: ما القدَر الذي كان ينتظر هؤلاء

الأطفال لولا تايشو سيتون؟ كل ضربة توجه إليه ستقع عليهم أشد. تريدان معاقبتي على تحطيم جسد لنيا شارلوتا وحرق دماغ إريك الورود الثلاث، لكن الجريمة الصغيرة التي تسعيان إلى حلها لا يمكن معالجتها إلا بدفع ثمن وقوع شر أعظم، فالأيدي التي ستكبلني بالأغلال، هي نفسها التي ستدفع يواكيم وكلارا فينا ومئات الأطفال المُتبنين إلى الجثو أمام متجول بالليل أُنزل بنطاله في ظل جدران القلعة، وسرعان ما يرغمهم على ابتلاع ما سيكون على الأرجح غذاءهم الوحيد خلال اليوم. أليست هذه هي الحقيقة الواضحة؟».

يلتفت إلى الصبي مرة أخرى ويقول: «يواكيم، هلا تلطفت بالركض وجلب الملف الذي في المكتب؟».

ينطلق الصبي راكضًا، ويرشف سيتون قهوته حتى ثمالة الكوب.

ثم يقول: «ربما تتسليان بقراءة مقتطف من كلمات إريك بينما ننهي وجبتنا... ربما من لحظة التقائنا؟ طلبت منه كتابة ذكرياته عن قصته بأكملها عندما كان يعاني في خليج الدنمارك، من أجل تسليتي، وهذا سبب آخر من الأسباب التي جعلتني أتطلع إلى استقبال ضيوف مثلكما، إذ إن بمستطاعي -وأنتما عاجزان- أن أعرض عليكما كل ما أنجزته دون أن أضطر إلى إخفاء أي شيء. منذ مدة طويلة أحسست كما لو أنني سيرغيل، النحَّات العظيم، لكنني أُرغمت على إخفاء تحفتي تحت الملاءات في ورشة متضعضعة، ففي نهاية المطاف، ما الفن من دون المعجبين الذين يستحقهم؟».

الفصل الخامس والأربعون

ترفرف عينا إميل وينيه بين السطور، ويزداد امتقاعًا وهو يمرر كل صفحة ينهيها إلى كارديل، الذي لا يستطيع القراءة بالإيقاع نفسه، ومع تراكم الصفحات غير المقروءة على الطاولة جواره، يكتفي المراقب بإلقاء نظرات سريعة على الصفحات أملًا في التقاط بضع كلمات ربما تتيح له استيعاب معنى أشمل. وقبل انقضاء ساعة، يعيد وينيه القراءة من جديد، متصفحًا الأوراق بحثًا عن فقرات بعينها ليدقق فيها. عندما تستحيل أولى سجائر سيتون رمادًا، يشعل أخرى، متكئًا على الكرسي وساقاه متصالبتان، متنقلًا بعينيه بين ضيفيه.

يمر الوقت، والصمت المشحون يفوق قدرة كارديل على التحمل، ولا يحتفظ بسيطرته على نفسه إلا بجهد جهيد، لكنه يضطر إلى الإشاحة بوجهه بعيدًا عن الطاولة، يتثاقل تنفسه ويحس بألم خاطف في ذراعه اليسرى، ويشي صوته بمشاعره.

قال: «ما الذي فعلته بالورود الثلاث؟».

- لم أمس شعرة من رأسه بنفسي، لطالما كنت أفضِّل المشاهدة بينما يفعل الآخرون. لكنني رتبت الزفاف، بالطبع، وأرسلت الدعوات. أعطيت إريك أقراص *باستي دو سيراي*، بكمية كافية لانهياره على سرير زفافه، غائبًا تمامًا عن العالم. وعندما ودَّعَنا الضيوف الآخرون، اقتحمت جماعتي غرفة الزوجين اليافعين، وتناوبوا عليهما، كلٌّ حسب ما يمتِّعه. إريك المسكين لم يكن مسليًا كثيرًا، لأسباب بدَهية، رغم جماله، لكن زوجته كانت تسلية أفضل، لذا أتخيل أن إخضاعها كان مُمتعًا للضيوف.

أُجريت جراحة إريك بناءً على نصيحتي، بالطبع، إذ إن حصولي على ثروة الورود الثلاث يسهُل كلما عاش مدة أطول وظل مطيعًا.

ينظر إميل وينيه إلى حجره وهو يطرح أسئلته، عاجزًا عن النظر إلى عيني سيتون: «هؤلاء الضيوف الذين تتحدث عنهم، من كانوا؟».

- قبل مغادرتي إلى سان بارثيلمي، كنت أنتمي إلى جماعة تشاركني الاهتمامات إلى حد ما، اختلفت آراؤنا وهذا ما جعلني أسافر. والحفل المتهتك الذي أقمته كان قربان مصالحة من جانبي.

- وهل تُقُبِّل منك؟

يهز كتفيه ويقول: «إذا لم يكفِ لوصل جميع وشائج الصداقة التي انفصمت، فبما يكفي لعقد هدنة».

يخفت صوت وينيه حتى يغدو همسًا واهنًا: «ويوهان آكسل اسكيلدت، ماذا حل به؟».

يضحك سيتون حتى تسقط رقائق التبغ على بنطاله، فينفضها بعناية وخواتم أصابعه تعكس الضوء.

قال: «آه، أمره حساس! ألم تستشعر وجوده في المذكرات؟ يعود من أجل وداع أخير، لكن إريك نفسه لا يتعرف عليه ولا يفهم ما كان يحاول قوله، التقيا لمدة وجيزة في الكاريناج قبل أن يودِّع اسكيلدت سان بارثيلمي للأبد».

ينفث سحابة دخان عبر خده ويتابع: «أغلقنا فكَّه بلجام، وحلقنا رأسه ولطَّخناه بالقطران حتى صار جلده داكنًا بما يكفي لعدم لفت الانتباه. فوجئنا بنجاح الخطة، وحتى صديقه المقرب لم يتعرف عليه عندما انتهينا: كود *إرات ديمونسترادوم*. اجتذب بعض النظرات المدققة في مزاد العبيد، ومع هذا ذهب بأقل سعر».

يومئ سيتون لنفسه وهو يتركهما يستوعبان كلماته. يمسح كارديل وجهه بيده، وعندما يتكلم يجعل الغضب صوته همسًا متحشرجًا.

قال: «لماذا كل هذا؟».

يهز سيتون كتفيه مرة أخرى ويقول: «أعيش كما فطرتني الطبيعة، ما عسى النحلة أن تفعل بشوكتها عدا اللسع؟ ألا تفعلان الأمر نفسه بطريقتكما الخاصة؟».

- ما خطبك بحق الجحيم؟

يستغرق سيتون في التفكير هنيهة، وقد وجَّه نظراته إلى داخله، ثم يجيب بصوت مجرد من الهزل: «خطاب فون رونشتاين الرائع أمام الأكاديمية ظهر في المكتبات العام الماضي، ألقاه عام تسعة وثمانين، ممتدحًا حقبتنا بوصفها «التنوير الأعظم»، انقضت أربع سنوات قبل أن يصبح النص جاهزًا للطباعة، وانظرا إلى ثمار تنويره المزعوم خلال ذلك الوقت القصير! في أماكن أخرى من القارة تخلَّص الناس من الخرافات التي كانت تقمع الجميع، وتعرَّض إله العهدين القديم والجديد لضربة قاضية، الخطوة التالية هي أننا سنشكك في الملوك الذين يحكمون باسمه، ودماء عامة الناس، سواء كانوا بريئين أو مذنبين، ستسيل باللون نفسه في مجاري التصريف، سوف ينتهز كل شخص الفرصة لتصحيح الخطأ بالفؤوس التي ظلوا يشحذونها بصمت منذ أمد بعيد، حرب الكل ضد الكل. لا أشك أن نياتهم كانت طيبة، أعني مفكرينا العظماء، لكن كل ما حققوه، عندما أطاحوا بطغاة الأمس، هو منح الجنس البشري عذرًا جديدًا لإظهار نفسه على حقيقته، كما كان دومًا، تحكمه قوانين الطبيعة كأي حيوانات في الغابة، حيث تحكم القوة حكمًا مطلقًا ويفترس الأقوياء الضعفاء في كل مكان. انظرا إلى باريس، حيث الجلادون في كل مكان. أين *الموسوعيون* الآن؟ جميعهم قُذفوا في قبورهم قبل أن يتمكنوا من إدراج «السيدة مقصلة» تحت الحرف الصحيح. يوجد فلاسفة يسمون روبنشتاين وكِلغرِن برجال عصر التنوير! هذه الألقاب في غير موضعها. أي مباهج يحجبها المستقبل عن أمثالي الذين يجدون المتعة في القتل الذي جعلوه واجبًا أخلاقيًّا على مذبح الحداثة؟ القرن القادم ينتظرني بأذرع مفتوحة».

- كيف يكون كلامك هذا إجابة عن سؤالي؟

يرفع سيتون حاجبه ويقول: «المعذرة، ظننت أن الأمر بدَهي. ما أحاول قوله هو أن ما من خطب بي، إنني ببساطة رجل المستقبل، وقد وُلدت مبكرًا».

- ماذا عن أمثالنا إذن؟

يزمجر كارديل بسؤاله، فيجعل سيتون يضحك.

ثم يقول: «فلنكن صريحين الآن وقد صار نقاشنا حميميًّا، ما من عصر رحَّب بأناس أمثالكما بأي درجة من الحماسة».

يسحق سيجارته الشيروت في كوب قهوته، فتصدر حسيسًا عندما تلامس بقايا القهوة، ثم ينهض عن الطاولة ويسير مبتعدًا.

قال: «والآن أترككما يا سيدَي، تفقدا المكان كما تشاءان. أشك في ظهور سبب يجعلنا نلتقي مرة أخرى».

يتوقف واضعًا يده على مقبض الباب ويقول: «الورود الثلاث يقول في قصته إن وجهي المشوه صعَّب عليه تحديد ما إذا كنت أبتسم أم لا، والحقيقة هي أنني أبتسم طوال الوقت، ما الذي يمنعني؟».

الفصل السادس والأربعون

يلوذان بالصمت وهما يتركان الدار خلفهما، وكلاهما مستغرق في أفكاره، تغيب الشمس خلفهما، وظلاهما المستطيلان يدلانهما على طريق العودة إلى «مدينة ما بين الجسور». كارديل ما يزال يرى أمامه وجوه الأطفال الذين قابلهم قبل مغادرة «تل هورن» أخيرًا، مختلفون جدًّا عن الذين اعتاد رؤيتهم في المدينة، مهندمون، وليسوا متسخين، ولا تغطيهم القروح والنمش، ولا يرتدون الأسمال الممزقة، إنما لديهم خدود مستديرة ومتوردة من العناية والتغذية، ويرتدون قمصانًا نظيفة بيضاء كالثلج، والامتنان في أصواتهم والأمل في أعينهم.

فوجئ بمدى سهولة الكلام معهم، ولم يدرك الفرق إلا لاحقًا، ففي «مدينة ما بين الجسور» وأبرشيتَي ماريا وكاتارينا، على سبيل المثال، جميع الأطفال يتعلمون تحاشي البالغين، إذ يعرفون عن تجربة أن الخطر يكمن في كل لمسة، الذين يتكلمون معهم يلاحظون أنهم دائمًا ما يكونون شبه مستديرين على أعقابهم، وأقدامهم متأهبة للفرار السريع، لكن هذا ليس هو الحال في «تل هورن»، فعندما جلس كارديل ليتكلم مع صبي في نفس سن كلارا فينا، جاءت فتاة صغيرة تبلغ الخامسة تقريبًا وزحفت إلى حجره من تلقاء نفسها، ملتمسة الدفء والحميمية، وبعد لحظات غَفَت الطفلة وأذنها ملتصقة بصدره، ثم استفاقت مبتسمة على عالم ما يزال كما تركته آخر مرة رأته، وأمسكت أيدي أصدقائها وسارت إلى مغامرتها التالية. لم يسمع قط أطفالًا يضحكون بحرية ويلعبون بمثل هذه الحماسة.

يقض المينوتور مضجع وينيه في الليل. يقف إميل حافي القدمين على تراب جزيرة كريت الأحمر، في الأرض القاحلة على مبعدة من كنوسوس، وأمامه تنتصب جدران المتاهة، ما من شمس تضيء مشهد كابوسه، لكنه ما يزال قادرًا على التحديق خلال الظلام، يتساءل عن مكان الآخرين، بقية السبعة شبان والسبع شابات الذين أُرسلوا إلى هنا للتضحية بهم، لكن ما من أحد غيره. يعرف أنه لا خيار له، فيشرع في السير نحو المدخل الذي شيده دايدالوس.

ينام إلى وقت متأخر، ولا يحس بالأمان إلا عندما ترتفع أستار الليل، ومع حلول منتصف النهار، يكون في طريقه من ساحة الخردواتية، حيث يبتاع لنفسه لقمة طعام، ويتسلق عائدًا إلى الأزقة المنحدرة. تحجب الغيوم الشمس، ومن الساحة تتصاعد أصوات أناس منشغلين بشؤونهم، متبادلين كلمات بعشرات اللغات، فيصدرون جلبة قوامها مزيج من الإطراءات والسباب. «مدينة ما بين الجسور» دائمًا ما تهزأ به. مد الناس وجزرهم يرسم أشكالًا لافتة في الشوارع والأزقة، التي تحكمها قوة غير مرئية، لم يتمكن من استيعاب طبيعتها قط، كثيرًا ما يتعين عليه شق طريقه بالتدافع عبر حشد حتى يخطو خطوة واحدة في الاتجاه الصحيح، لكن عندما ينعطف عند زاويتين يجد نفسه وحده، ويخيم على المدينة صمت القبور. المكان خارج بابه يجمع بين عدة خصائص، مفترق طرق مهجور ووسط الجلبة، ومكان بين مكانين، يجتازه الجميع مسرعين وما من سبب يدفع أي أحد للبقاء فيه. على درجات سلمه تنقِّب يده في جيبه بحثًا عن المفتاح، ويتوقف إثر سماعه صوتًا يعرفه تمام المعرفة، رغم أنه مبحوح أكثر من ذي قبل، يستدير فيجعله المنظر يتقهقر كأنه يتحاشى ضربة وشيكة، ويبدو له أن مرآةً رُفعت أمامه.

قال: «سيسل؟!».

ها هو شقيقه يقف أمامه، شاحبًا نحيلًا، بشعره الأسود المربوط بشريط، وعصا في يد ومنديل في الأخرى. ينتظر سيسل بصبر انحسار صدمة إميل، الذي يتهالك على السلم ليخفف الوزن عن ركبتيه المرتعشتين.

قال: «سيسل، وقفت أمام قبرك، فكيف...».

- اعذرني على المفاجأة، ما كنت لآتي لو أن لي خيارًا آخر، لم أخرج في هذه الرحلة من أجلك، ولا من أجلي، إنما من أجل جان مايكل.

يكبح سعالًا بمنديله ثم يتابع: «ربما أرغمني السُّل على البحث عن مناخ مختلف، لكنني لست من دون صلات في «مدينة ما بين الجسور»، أنشطتك لم تخفَ عليَّ، ماذا تفعل يا إميل؟ أهذا انتقام من نوعٍ ما؟».

- أنا...

- جئت إلى أوبسالا لأساعدك، منذ مدة طويلة، إذا سمعتَ كلامي عندئذٍ لكان بالإمكان تجنب كل هذا، بعدي وهيدفيغ أحس والدنا أنه أتقن نظرياته الغريبة بشأن تنشئة الأطفال، وكنتَ الأصغر، ويفترض أن تكون تتويجًا لإنجازاته، كنتَ الذي أنفق عليه أطول وقت حتى يوصلك إلى الكمال، لكن بلا طائل، ذهب والدنا إلى قبره رجلًا محطَّمًا. والآن انظر إلى حالك يا إميل، ليس بمستطاعك تغيير ما حدث، لقد بددتَ أي موهبة حظيت بها، لا أنوي إهدار وقتي في لومك على الخيارات التي اتخذتها، لكنني لا أستطيع الوقوف مكتوف اليدين وأنت تضلل جان مايكل باستنتاجاتك المغلوطة، هل لا بد من التضحية به على مذبح ثقتك المهزوزة بنفسك؟ ما تفعله أنانية منك.

- هو الذي جاء إليَّ.

يزيح سيسل الحصى عن درجة السلم ويقعد جواره، وأمامهما يهرع رجلان بعربة، أحدهما في الأمام والمقبض في قبضته، والآخر يدفعها من الخلف، ويطلق سبابًا فظيعًا كلما انزلقت العجلات في الوحل ولطخت بنطاله القصير.

قال سيسل: «أنا وجان مايكل كنا كوجهين لعملة واحدة، كان قويًّا حيث أكون ضعيفًا، وحيثما كان بطيئًا كنت الأسرع، كلانا كان لديه أسبابه التي تدفعه إلى السعي من أجل العدالة، ومعًا صرنا أكثر من مجموع جزأينا، فأنجزنا كل ما قررنا إنجازه، لكن ماذا تمثِّل لجان مايكل يا إميل؟».

يدفن إميل وجهه في يديه ويقول: «جائزة ترضية».

يومئ سيسل قائلًا: «جان مايكل ليس صديقك يا إميل، يتمنى أن تكون مثلي فحسب، لكنك غير قادر على هذا، إنه يستحق ما هو أفضل. لن ينتهي مسعاك إلا نهاية سيئة».

- ما الذي تريد مني فعله؟

- اذهب إلى الديار ما دام الوقت متاحًا، عُد إلى قنينتك إذا أردت، إنك متمرس عليها على الأقل.

يمضغ إميل أظفاره حتى يحس بألم مباغت ويتذوق الدم على لسانه.

ثم يقول: «ما دمنا نحرز تقدمًا، فسيتوقف عن تدليك طرفه الأبتر، سيتبدد ألمه أو ينساه».

- وإذا تعثرتما؟

يتذكر إميل تعابير وجه كارديل، كلما تذبذبت شعلة الأمل يطبق فكيه حتى تصطك أسنانه، وتتقلص شفتاه حتى تصيرا خطًّا أبيض بينما تبحث يده اليمنى عن مكان التقاء طرفه الأبتر بالخشب.

قال إميل: «هل ستبقى في مكاني يا سيسل إذا فعلتُ ما تريده؟ ما كان ينبغي لك تركه أبدًا، وأيًّا كان من يقف جواره، فالمعركة التي يخوضها تستحق العناء».

يجلس سيسل صامتًا هنيهة، مسندًا ذقنه إلى يديه اللتين تمسكان بمقبض عصاه ويقول: «الظروف تمنعني من مساعدته هذه المرة، حالتي...».

يخيم الصمت عليهما مرة أخرى، وعندما تتجاسر نظرات إميل على البحث عن وجه شقيقه، لا يصدق عينيه.

فيقول: «هل تبكي يا سيسل؟».

لا يتلقى ردًّا.

- يظن الجميع أنك ميت، لماذا...

لكن الدمعة التي على خد شقيقه تبدو كأنها تتحرك للأعلى، وعندما يقترب إميل يرى أنها دودة، بيضاء مفصَّصة، تشق طريقها بصبر إلى أمان مأقَى العين، والياقة التي ظنها ذات نقوش حمراء يتضح له أنها ملطخة ببقايا مخاط دموي جاف. جلد سيسل شاحب مبقَّع، وعيناه اللتان كانتا تبرقان

بزرقة داكنة صارتا الآن حليبيتين متورمتين ومتمعِّجتين برفيقات تلك الدودة. يشيح سيسل بوجهه، كأنه يخفي خزيه.

- أنت...

عندما يمد إميل يده ليلمس كتف شقيقه، لا يجد سوى الغبار العالق في حزمة أشعة الشمس، في خضم تشوشه عاد الميت إلى الحياة. يحيط إميل نفسه بذراعيه ليبدد رعشة، وقلبه يخفق كالطبول، وتتسارع أنفاسه حتى تطن أذناه. يهز رأسه ليُطمئن نفسه بأنه ما زال في المدينة، فلا يستطيع الجزم، إذ تلوح له منعطفات لا نهاية لها، وممرات خفية حيث يسمع خطوات وحش يقترب متربِّصًا نهِمًا، متمهلًا إذ يعرف أن نتيجة المطاردة حتمية. يصغي إميل مدة طويلة قبل أن يتمكن من تمييز الخطوات المُرعِدة عن وجيب قلبه.

الفصل السابع والأربعون

يتسلق إميل سلالم كارديل، حيث يرسم ضوء المساء على امتدادها أعمدة شبحية من كل نافذة ضيقة حتى باب الغرفة، ويجد المراقب مستغرقًا في تفكير صامت مسندًا جبهته على يده، ولا يرفع بصره إلا عندما يقف إميل منتظرًا عند العتبة.

قال كارديل: «ادخل وأغلق الباب، حتى لا يتبدد الدفء البسيط من الغرفة».

- لن أمكث طويلًا.

يستشعر كارديل من نبرته أن كلماته لا تقتصر على اللحظة الراهنة.

فيقول: «ما الذي تعنيه؟».

- سأغادر إلى أوبسالا في الصباح، جهزتُ لكل شيء، ذهبت إلى «الأرض المحروقة» ورتبت لوسيلة نقل، سأحزم صندوقي الليلة.

ينهض كارديل وتندفع الدماء إلى وجهه: «لماذا بحق الجحيم؟».

- ألا ترى أن مسعانا عقيم؟ سيتون محق، الشر عادة ما يكون بسيطًا تافهًا، لكن عندما لا يكون هكذا، فكيف يمكننا المساعدة إذن أنا وأنت وحدنا؟

- لا بد من وجود طريقة.

يهز إميل رأسه ويقول: «ليس لدي المزيد مما يمكنني تقديمه، سأذهب إلى البيت».

تضيق عينا كارديل وقد داخَله شكٌّ مفاجئ، ويقترب خطوة ثم يقول: «طرأ أمرٌ ما، إنك خائف لدرجة الارتجاف بمجرد وقوفك في مكانك، ولا يتعلق الأمر

بتايشو سيتون، ماذا حدث؟ لا شك أننا نعرف بعضنا معرفة كافية تجعلك تخبرني بالحقيقة».

يبسط كارديل يده داعيًا إميل للدخول، لكن إميل ينكمش كأنه يبتعد عن مُعتدٍ، وفي داخله يشعل خوفه شرارة في الخزي الذي يحس به، يسمع كلامه همسًا ناقمًا، وكل حرف مسموم يشق طريقه نهشًا عبر الهواء.

فيقول: «سأخبرك بالحقيقة التي تريدها. لم نعد فريقًا، ليس بعد الليلة، انظر إلى حالنا، إنني سكِّير أُرغمت على الإقلاع عن الشراب ونادم على كل لحظة لم أثمل فيها، وأنت معاق أخذت شقيق صديقك رهينةً لتخفف وحدتك، لكنني لست سيسل، والآن انتهى الحلم».

يقول إميل الكلمات كأنها تخرج من تلقاء نفسها، ولا يحاول إيقافها.

يتابع: «تظن أنه كان صديقك. لم أسمع في حياتي قط أنه صادَق إنسانًا، كان راضيًا بصحبة نفسه المتفوقة، وحيدًا في عظمته، مفضلًا تنصيب نفسه حكمًا على الآخرين. قطعًا لم يعانِ وخزات الإحساس بالوحدة. استغلك لأنك تؤدي غرضه، سيسل كان ضعيفًا محتضِرًا، ولم يقع اختياره عليك لأنه رأى فيك ما يميزك يا كارديل، اختارك لأن ما من أحد آخر رغب في مساعدته، وأنت في غاية الامتنان لتعرضك للاستغلال لدرجة أنك ما زلت حزينًا على موته، يا له من أمر مثير للشفقة!».

كل كلمة كأنها رمح يخترق الأحشاء، يشتد وقعها حيثما اقتربت من الحقيقة. لا يحر كارديل ردًّا، وذراعه اليسرى تنبض إلى جانبه، عالقةً للأبد تحت سلسلة المرساة التي لم يبق منها سوى قطع صدئة في قاع خليج فنلندا. ولا يسمع وينيه ردًّا إلا عندما يستدير ليهرع عائدًا أدراجه، يسمعه حشرجةً مكتومة.

يقول كارديل: «مهلًا لحظة».

ثم يثبِّت نفسه بذراعه اليمنى ويتهالك بركبتيه على الأرضية جوار أحد الألواح غير الثابتة، ويرفعه بقبضة متمرسة ويخرج صرة مخبأة بالأسفل، ثم

يرتمي جالسًا على السرير ويضع الصرة على الملاءة ويحلها فيظهر ما فيها، ويلف سلسلة ذهبية حول أصابعه ويناولها لوينيه.

ويقول: «مكافأتك، كما وُعِدتَ».

يأخذها إميل بيده، إنها ساعة جيب سيسل وينيه، بيورلينغ، *استوكهولم*، بأرقام عربية حول محيطها ومرصعة بالألماس، وبالخلف طائران تحت جدار عليه جرار، والمفتاح بإكليل غار منحوت وموصل بالسلسلة. يتبادلان نظرة مليئة بكل ما يُستحسن عدم التصريح به، ثم يضع إميل الساعة في جيبه ويختفي هابطًا السلالم.

يجلس ميكيل كارديل محدودبًا والظلال تصعد من حوله، متمايلًا إلى الأمام والخلف وهو يحاول تهدئة الذراع المبتورة، ثم ينقطع حبل أفكاره إثر سماعه خشخشة عند الباب، يترنح نحو الباب، وهو يأمل للحظة أن إميل وينيه قد عاد ليتراجع عن كلماته الكاوية، وعندما يفتح الباب، لا يعرف في البداية الشخص الذي ينظر إليه، شبح مهزول، يرتدي ملابس رثة، ولا يرتطم كارديل بالإدراك إلا بعد بضع لحظات، ارتطام عنيف يذكِّره بأيامه في سلاح المدفعية عندما كان يقف جوار المدافع في أثناء إشعال البارود وانطلاق القذائف.

قال: «رباه! ماذا حدث لكِ؟ ما الخطب؟».

تحملق إليه بعينين متسعتين، هي التي ظل كارديل يبحث عنها منذ أيام، لم يسبق أن رأى على وجهها أي لمحة تضرُّع، وهي التي قاست معاناةً تهون معاناته مقارنة بها، ورؤية تضرعها السافر الآن يجعل منظر وجهها أسوأ.

يخرج صوتها مبحوحًا عبر شفتين مشققتين: «أحتاج إلى مساعدتك يا ميكيل، لا ملجأ لي غيرك».

الجزء الثالث

السّراب
ربيع 1794

يتيمة الأم، وقد حاقت بي النكبات

ما أشد عوزي ومحنتي

إذا ما تجمدتُ الليلة حتى الموت

فما من قلب سيكترث أو حتى يعرف.

- آنا ماريا لينغرن، 1794

الفصل الثامن والأربعون

وجدتْ عونًا في مهر يوهان كريستوفر بليكس، المحفظة التي أعطاها إياها المراقب كارديل لا لسبب سوى فعل ما هو صائب. هي التي كانت تدعى ذات يوم بآنا استينا كناب وصار اسمها الآن لوفيسا أولريكا بليكس، استخدمت كل شلن استخدامًا حكيمًا، وازدهرت حانة «العابث» تحت رعايتها، اختفت البراميل المقلوبة التي كانت تُستخدم طاولات، والآن استُبدلت بها ألواح ناعمة موضوعة على حوامل متينة، تحيط بها مقاعد يمكن للزبائن تمديد سيقانهم المتعَبة عليها. يأتي صبية وفتيات الحي بعد العاشرة كل ليلة ليكنسوا وينظفوا، تُكشط الأرضيات يوميًّا، كما تُمسح الطاولات وتُطهَّر، وتبعًا لكل هذا ذاع صيت الحانة.

في أول مرة ذهبتْ إلى الرجل الذي قبِل بأن يكون والدها، كارل توليب، الذي يُدعى «امرئ الزهر»، وأفضت إليه بتطلعاتها المستقبلية، رأت عينيه تفيضان فخرًا وأملًا، فالحانة هي الشيء الوحيد الذي يتباهى به بعد كدح حياة بأكملها، وتبدو كأنها جزء منه كما هو جزء منها. والآن يشهد ميلادًا جديدًا للـــعابث. وحالما فرضت آنا استينا النظام على المنشأة المتقوضة، توجهت الأنظار إلى المالك نفسه.

احتج في بادئ الأمر، إذ اعتاد الاقتصاد في الإنفاق من أجل توفير الدخل الضئيل، ولم يقتنع إلا على مضض بأن الصدرية التي يرتديها فوق القميص نفسه منذ سنوات لم تعد تليق بالمنشأة التي يمثِّلها. ملابس جديدة، أحذية جديدة. ورغم أنه أكد لها أن أسماله يمكن أن تستمر في الخدمة سنتين إضافيتين، ترى آنا مدى ارتياحه للملابس الجديدة، التي تبدو كأنها أعادت

لجسده الهَرِم مجده الغابر، إذ استقام ظهره بالقميص الأبيض، وتمددت ساقاه بالبنطال الأزرق. وأخيرًا أقنعته آنا استينا بالكف عن ارتداء الباروكة التي أخفت رأسه الأصلع لسنوات، وحملت بالمقص على الخصلات المتعنقدة البيضاء المتشبثة بصدغيه، فصار مُحرَجًا في البداية، متوجسًا من سخرية زبائنه المنتظمين، لكن تحيَّاتهم جاءته مفعمة بالمودة، وعندما وجد القملُ نفسَه محرومًا من أماكن اختبائه القديمة، هجر كارل توليب هجرانًا تامًّا كي يبحث عن أراضي صيد أفضل.

عندما جاءت آنا استينا في البداية، تولت الشؤون التي أهملها الآخرون، لم تنكص عن أشق المهام: قشرة الطين التي صارت سميكة وجافة طبقةً فوق طبقة على مر الأعوام، وبرميل فضلات المرحاض الخارجي الذي ظل طافحًا عدة شهور، في البداية لأن أُجرة جامع الفضلات لم تكن تُدفع، ولاحقًا لأن جهد المهمة صار أكبر من قيمة الأجرة. توليب نفسه اقترح الانتظار حتى الشتاء، حين يمكن قطع الفضلات المتجمدة وتحميلها على عربة تجنبًا للنتانة الطاغية، لكن المهام من هذا النوع لم تزعج آنا استينا، فقد رأت الأسوأ. نُظفت الأرضية، وسُوِّي الفناء، واستُبدلت حلقة البرميل الذي يسرِّب.

وبعد مدة لاحظت أن عنايتها مطلوبة في جوانب أخرى أيضًا، فكارل توليب، الذي لا يقل سُكرًا عن زبائنه إلا نادرًا، ظل يهمل حساباته، ويجمع أرباح كل أمسية في صندوق كثيرًا ما يُهمِل مفتاحه، لذا نادرًا ما ينجو من اختلاس أصابع زبائن يشعرون بأنهم يستحقون تخفيضًا، والنفقات لم تُجمع أو تُكتب قط، فبذلت آنا استينا ما بوسعها وفوجئت بأن المبدأ الحسابي ليس أصعب مما تعرفه من عملها متجولة بالسلة في أبرشية ماريا، إذ توضع أرقام الربح والخسارة جوار بعضها، وعندما تفوق الخسارة الربح، يتوجب اتخاذ إجراءات. تحسم الأسوأ سريعًا بالحد من السرقات الصغيرة وبالحرص على إغلاق أبواب «العابث» في الساعة التي حددتها سلطات المدينة، فانتفت الحاجة إلى تقديم مشروبات مجانية لحرس المدينة، وبعد صيانة خزانة الحانة، بدأت التفكير في وسائل زيادة الدخل.

واتضح أن هذا أسهل مما كان لها أن تتخيل، ربما لأن قلة من النساء يدرن الحانات، والرجال على ما يبدو غير قادرين على رؤية ما هو ماثل أمامهم.

فالحانة النظيفة المرتبة تجتذب عددًا أكبر من الزبائن، إذ إن حتى الذين يحدثون أسوأ فوضى لا يحبون رؤية فضلاتهم. ثم صارت تشتري بضائع أجود كلما أمكنها دفع سعرها، وسرعان ما عرف الجميع أن أفضل جعة في الحي تُقدَّم في «العابث»، وأن براميلها لا يُعاد ملؤها بالماء حالما توشك على الفراغ، فتجمعت الحشود عند النضد وصارت الطاولات أكبر، وعندما أصبح عدد الزبائن مشكلة أمكنهما زيادة الأسعار قليلًا، وبدآ بتربية الدجاج في الفناء، وأفردا مكانًا لبضعة خنازير جوار أحد الجدران، وببقايا طعام المطبخ اشتريا حُسن نية أطفال الشوارع، الذين يسددون دينهم بالابتعاد عن الحانة في أثناء ساعات العمل. وفي «العابث» لم تعد ساعات الجيب والمحفظات عرضة للسرقة، حتى إذا فقد مُلاكها وعيهم من السكر. ومن دون أن تشعر آنا استينا بدأت نوعية الزبائن تتغير.

يبدآن بالاستعداد للشتاء معًا، رغم أنه عجوز وهي يافعة، ينظفان المدفأة، ويجلبان حزم حطب تكفيهما حتى الربيع. وعندما يأتي البرد يجدان أن بحوزتهما ما يُبقي الصالة الرئيسية دافئة، دون أن يخيم الدخان كالضباب فيثير السعال ويُدِر الدموع. يُستبدل بشموع الشحم الشمع. وزبائن الحانة المنتظمون، معظمهم ندماء قدامى لكارل توليب لا يفوِّتون أي فرصة للشرب بالدَّين، لم يعودوا يظهرون إلا نادرًا، وحل محلهم آخرون ذوو سعة.

الطفل الذي تحمله يزداد نموًّا، وتُدهَش من التغيرات التي تعتري جسدها، الذي كان مألوفًا لديها ذات يوم، يتمدد الجلد مشدودًا فوق بطن سرعان ما يكبر حتى يخفي قدميها. لا تدري مقدار ما بقي من وقت حتى يستعد الصغير للخروج، لكن لا يمكن أن يكون وقتًا طويلًا. ذات يوم تجثو على ركبتيها جوار سطل المسح لتنظف بقعة عجز الآخرون عن إزالتها، وتدرك أن بطنها يلامس الأرضية، ورغم هذا تستمر في النمو، وتحس آنا بتسارع دبيب الحياة بداخلها ساعة تلو ساعة، يركل الطفل ويتلوى كأنه لا يرغب في شيء أكثر من رغبته في مغادرة أمان بيته الأول، لكنه يواصل الاختباء عن ضوء النهار ويظل متحصنًا في ظلامه الدافئ، وتبدأ آنا تمشي متمايلة مع وزنها.

يتوق كارل توليب إلى حفيده، دائمًا ما يغادر فراشه قبل آنا استينا، وبعدما تستيقظ يجلس إلى جانب سريرها حاملًا شمعة، وعلى محياه تعابير القلق والترقب بقدرٍ متساوٍ.

قال: «كيف حالكِ اليوم؟ هل أحضِر القابلة؟».

تعرف آنا استينا بطريقةٍ ما أن توليب أكثر فطنة مما يظن الناس. إنها ليست ابنته، وهو يعرف هذا يقينًا كما تعرف أنه ليس والدها. أحيانًا ينظر إليها نظرة عطوفة مع لمحة إقرار بسرِّهما المشترك وهو يؤنبها بلطف: «كنتِ تأكلين بيدك اليسرى يا لوفيسا».

تبتسم له مع دهشة مصطنعة: «بالطبع يا أبي العزيز، لا أدري ما حلَّ بي اليوم».

ويضحكان معًا بعدها، دون أن يحس أي واحد منهما بالحاجة إلى التطرق لاتفاقهما الضمني بكلمات كثيرة. إنها ابنته التي اختارها لنفسه، وهو الأب الذي لم تحظَ به قط.

الفصل التاسع والأربعون

تطلُب آنا استينا كثيرًا من كارل توليب ألا يرهق نفسه بالعمل، لا سيما مع قلة مساهمتها مع مرور كل يوم، واضطرارها أحيانًا إلى الصعود إلى غرفتها للراحة، لكن العجوز عنيد، وربما يمثِّل عناده عدم اعترافه بسنِّه، ورغبة في إثبات كل ما هو قادر عليه. لم تعد آنا استينا تتذكر عدد مرات نقل توليب لبرميل جعة وحده رغم أنها تطلب منه قبول المساعدة، فيرد على توبيخها بابتسامة فخر وأسف في آن واحد.

تدرك أنها نامت مدة أطول خلال قيلولة بعد الظهر وتستيقظ شاعرةً بقلق، فتستند إلى الجدار وتهبط السلالم.

قالت: «أبي؟».

لا يجيبها أحد. حانة «العابث» خالية، إذ تبقت ساعتان قبل موعد بدء العمل. كل شيء يبدو على ما يرام، نافذة مفتوحة لتجفيف الأرضيات التي مُسحت، وطائر يغرد في الفناء بالخارج، فيتردد تغريده بين المباني، وبنت الجيران هناك تنقب في أعشاش الدجاج وتجمع البيض فوق بعضه في مئزرها.

فتقول لها: «هل رأيتِ أبي؟».

تهز الفتاة رأسها. ولا يسع آنا استينا فعل شيء سوى الانتظار، وتحس بقلق ينهش أحشاءها، ليس من عادة توليب الخروج في مهام بعيدة، بل يبدو كأنه مقيَّد إلى «العابث» بحبل يعيده كلما ابتعد.

تسأل: «ماذا عن نيلز؟».

تجيب الفتاة قائلة إن شقيقها الأكبر، الذي يساعد في أداء عدد من المهام، مريض لكنه يأمل أن يقف على قدميه قريبًا.

تجلس آنا استينا عند كتلة تكسير الخشب وتمضي وقتها في تكسير الحطب إلى قطع صغيرة.

يحضرونه محمولًا على نقالة مصنوعة بعجالة من عمودين وحبل. عندما تسمع آنا الطرق على الباب تُدخِلهم وتشير إلى السلالم عندما يسأل غريبان عن المكان الذي ينبغي حمله إليه. وتفسر نظراتهم ذات المغزى وهما في طريقهما إلى الخارج بأنهما يريدان تعويضًا على متاعبهما، فتهرع إلى حصالتها. ويبقى رجل أكبر سنًّا مدةً أطول وقبعته في يده.

ويقول: «تهالك جوار البئر عندما أراد حمل دلويه، وعرف أحدهم أنه مالك «العابث» فحملناه إلى هنا».

تخمن آنا استينا ما حدث، الصبي نيلز لم يكن موجودًا، فأخذ توليب، بدلًا من الانتظار، العصا والدلوين بنفسه وذهب إلى الساحة ليجلب الماء، واتضح أن الوزن شاق عليه. تمسح جبهته بخرقة قماش غمستها في آخر قطرات ماء في الوعاء، وهو مستيقظ لكن لا يبدو عليه أنه يرى.

ترفرف عيناه دون أن تركزا على شيء بعينه، ويبدو وجهه متغيرًا، على جانبه الأيمن تتدلى زاوية شفتيه إلى الأسفل كثيرًا جوار فكه، وأحد الحاجبين مرتخٍ فوق العين. تكتشف آنا استينا بعد برهة أن الشلل أصاب جانبًا كاملا من جسده، من رأسه إلى أخمص قدميه، بينما ما تزال الحياة متشبثة بجانبه الأيسر، قدمه تختلج، ويده تمسك الهواء، وباقي جسده ساكن تمامًا، وزن النصف المشلول يبقيه على ظهره، عاجزًا كأنه خنفساء مقلوبة. يحاول الكلام مرارًا، لكنه لا يصدِر سوى صراخ ونحيب لا تُميَّز منه كلمة.

ترسلُ فتاةَ الجيران في طلب الطبيب، وعندما يتضح أنه مشغول، تأمر الفتاة بالوقوف أمام الباب حتى تميزه بين حشد الزبائن الظمآنين الذين

تجمعوا ويطرقون الباب الذي كان ينبغي أن يُفتح قبل مدة. يصل الطبيب في النهاية، مرتديًا معطفه الأسود، وحاملًا حقيبته إلى جانبه.

لا يكاد يحتاج إلى لمس المريض كي يؤكد التشخيص متنهدًا: «تعرض توليب لسكتة دماغية».

لا تحتاج آنا استينا إلى طرح أي أسئلة، فالطبيب سمعها كلها قبل وصوله.

قال: «سببها غير معلوم، قد يكون كل شيء ولا شيء، الحياة نفسها، الأمر الوحيد الذي يمكنني قوله بأي درجة من اليقين هو أن المرض ذو صلة بالسن والانغماس في الملذات. والآن ما من شيء يمكن فعله سوى الانتظار، لأن العلم لا يعرف علاجًا، بعض الذين يصابون بالسكتة الدماغية يتعافون، وبعضهم لا يتعافون. الزمن وحده سيصدر الحكم. لكن ينبغي أن تكوني ممتنة لبلوغ والدك سنًّا متقدمة تجعله عرضة للسكتة، فكثيرون تنتهي حيواتهم في سن أصغر ونهاية أسوأ».

يلقي كلمات وداعه بنظرة على بطنها الضخم: «تنتهي حياة لتفسِح مجالًا لحياة قادمة، هذه هي طبيعة العالم، يجدر بكِ تدبير مساعدة لوالدك، لأن طفلك يبدو مستعدًّا للخروج في أي يوم».

تناوِله آنا استينا القبعة والمعطف اللذين كانت تمسكهما على حجرها وتقول: «سوف أجد من يساعده».

لكن بطنها يواصل النمو، وتحس بأنه سينفجر في أي لحظة. تجد رجلًا تسبب في خراب حانته ليساعدها على إدارة العمل، ورغم أنها تعرف أنه يختلس جزءًا كبيرًا من الصندوق ويسيء إدارة بقية النقود، فالحانة تدر ربحًا أكبر مما لو أغلقت أبوابها. تقضي وقتها في رعاية توليب. كلما تقرِّب قدحًا من شفتيه يختنق، فصارت تعطيه قطعة قماش مبتلة ليمتصها، وتجد راحة في أن الحساء الخفيف الذي يتمكن من ابتلاعه يبدو غذاءً كافيًا له.

كل صباح تبحث عن لمحة من الرجل الذي كانت تعرفه في العينين اللتين سُلبتا نعمة البصر، فلا تجد شيئًا، وعدم المعرفة هذا هو الأسوأ، عدم معرفة ما

إذا كان ما يزال موجودًا، عالقًا في جسد لم يعد يستجيب له، أو ما إذا غادره الوعي تاركًا جسده خاويًا. يصير رضيعًا غير مألوف، وتصنع آنا له حفاضًا من قميصين قديمين، تعقدهما حول وركيه وساقيه للحفاظ بسهولة على نظافة الفراش. لا تدري كيف يميز الليل عن النهار، لكن لا يتصاعد قلقه واضطرابه إلا في جوف الليل، تفسح لنفسها مكانًا بجانبه ويبدو دفؤها مصدر راحة، كافيًا لساعتين من النوم. لم تعد لديها طاقة سوى لإطعامه وغسله، مع احتياج الحياة التي تنمو بداخلها إلى الرعاية أيضًا، وتتزايد غفواتها في أي وقت من اليوم.

تنقضي ثلاثة أسابيع ولا يبدو على صحة كارل توليب التحسن أو التدهور. يظل على حاله يومًا تلو يوم، مع ازدياد نحوله. «العابث» تحت حصار جميع القوى التي كانت تسود قبل مجيء آنا استينا، والآن تتآمر لإعادة الحانة إلى ما كانت عليه ذات يوم، قذرةً، مهملة، لا تدر ربحًا، سيئة السمعة. تبذل آنا استينا ما بوسعها لإبعاد المتآمرين، لكن فرص نجاحها ضئيلة. وذات صباح يوم أربعاء وهي مضجعة مع وركيها اللذين يؤلمانها على السرير الذي جلبته إلى الغرفة التي كانت تخص توليب وحده، تسمع جلبة في السلالم، وسرعان ما تجد أمامها حشدًا صغيرًا من الناس، تتقدمهم امرأة طويلة ذات عينين متَّقدتين.

وقالت: «هكذا تبدو إذن، المحتالة!».

إلى جانبها يقف رجل لا يبلغ حتى كتفيها، لكنه عريض مكتنز، ذو شاربين ضخمين، والآخرون يقفون على مبعدة خلفهما. تميز آنا بضعة وجوه بأسمائهم، رجال تعرفهم من الحانة. ترمش آنا استينا حتى تبعِد النوم من عينيها وتتدحرج بصعوبة حتى تجلس بوضعية تمكِّنها من الوقوف على قدميها.

ثم تقول: «من أنتِ؟ وماذا تريدين؟».

يتهدج صوت المرأة من شدة امتعاضها وتقول: «أتسألينني عن اسمي؟ سؤال ملائم في الحقيقة، لأن اسمي هو ما جئت لاستعادته. أنا لوفيسا أولريكا، ابنة كارل توليب، ابنته الوحيدة».

يبتسم الرجل الواقف جوار لوفيسا أولريكا ابتسامة ساخرة إثر رؤيته الانفعالات التي تغمر آنا استينا.

فتنظر إلى المرأة الواقفة أمامها نظرة متضرعة وتقول: «هلا تحدثنا وحدنا؟ أرجوكِ».

تفكر لوفيسا أولريكا للحظة قبل أن تومئ لزوجها إيماءة مقتضبة، فيقتاد الآخرين خارج الغرفة ويغلق الباب خلفه.

- هاتِ ما لديكِ.
- سيحين موعد ولادتي قريبًا، أتوسل إليك أن تدعيني أمكث حتى أضع طفلي، وعندئذٍ سأغادر ولن تقع عيناك عليَّ مرة أخرى أبدًا.

تصمت لوفيسا أولريكا مدة أطول مما بوسع آنا استينا احتمالها، فتردف: «لا أطلب منك سوى هذا، أليس لديك أطفال؟».

ربما هذه الكلمات هي التي تحسم قرار المرأة، فالتعابير التي كانت تتأرجح بين الرحمة والاستياء تتصلب إلى اللامبالاة.

فتقول: «لم أُرزق بأطفال كُتبت لهم الحياة، رغم أن أمهم شريفة وليست عاهرة متشردة مثلك. لن تجدي تعاطفًا هنا، اخرجي من بيتي، يمكنك الاحتفاظ بملابسك التي ترتدينها، لكن إذا نظرتِ مجرد نظرة إلى أي شيء آخر فسأرسل زوجي ليُحضر الشرطة».

تصادف في أثناء هبوطها عبر السلالم أحد زبائن «العابث» المنتظمين السابقين، أحد الذين كانوا مقربين من كارل توليب وقد رأته معه في الأوقات السعيدة كثيرًا. ينظر إليها نظرة تأنيب.

ويقول: «ما من ضير ما دام الرجل العجوز سعيدًا راضيًا، لكن المسألة مختلفة الآن وقد بات على أعتاب الموت، لا يجوز أن يرثه شخص غريب. ماذا كان عسانا أن نفعل سوى أن نرسل في طلب ابنته الحقيقية؟».

وخلفها في الغرفة تسمع صرخة حادة تشتد قوتها، صيحة كارل توليب التي بلا كلمات إثر افتقاده الدفء الذي فارق جانبه.

الفصل الخمسون

تجتاز ببطء ثلاثة مربعات سكنية قبل أن يتعين عليها التماس العون من جدار والاتكاء على سطحه الخشن، وتتكئ عليه حتى يستند بطنها إلى فخذيها، فتريح أسفل ظهرها بعض الراحة. لم تمشِ هذه المسافة منذ أسبوع أو أكثر، لكن ما زالت أمامها مسافة أبعد، إذ لا مجال للعودة. يخنق الذعر أنفاسها فيجعلها متلاحقة. الأمان الذي عملت جاهدة من أجله ذهب أدراج الرياح بضربة واحدة. تترك جسدها يغوص في الأرض، مسندة جبينها إلى ركبتيها، متكورة حول مركز الحياة بداخلها. الطقس لطيف، والصيف سيأتي عما قريب، لكن الحجارة باردة وتبث فيها رعشة لا تجد عزاءً لها إلا بتذكر خطر أعظم، لا تملك شيئًا سوى الملابس التي على ظهرها، فستان وبلوزة وقميص داخلي وقطعة قماش لتزيح شعرها عن وجهها. «مدينة ما بين الجسور» ليست مكانًا يغفر الضعف، إذا لاحظ شخص جلوسها حيث هي، فلن يلاحظها إلا بوصفها عائقًا ينبغي الدوران حوله وهو يطلق السباب.

تستجمع أفكارها لتجابه المشاعر التي تهدد بشلِّها، ثم تنهض، متكئة بكل ثقلها على الحجارة، وتشرع في التمايل في الشارع، نحو الشمال. أول ما يخطر لها مستشفى الولادة العام، لكن شيئًا ما يخيفها منه، فرغم أنهم يساعدون الأمهات الشابات على الولادة دون سؤالهن عن أسمائهن، تعرف أنها ربما ما تزال مطلوبة لدى العدالة، وهذه الأماكن تجتذب النساء الساقطات، وأكثر من مرة رأت مراقبين يتربصون عند الساحة أملًا في وقوع فريستهم بين أيديهم. لا ترغب في المخاطرة.

تستغرق ساعات حتى تبلغ «جزيرة الملك» بإيقاع سيرها الزاحف، رغم أنها تهرع بأقصى سرعة تقدر عليها، قلقةً من إغلاق الأبواب قبل وصولها، تعرف الطريق وتحصي الخطوات، تجتاز «دار سك العملة الملكية»، وتعبر الجسر المؤدي إلى «جزيرة الشبح المقدس» فوق التيار الفاصل بين المدينة والبر الرئيسي، تهدر المياه تحت قدميها، حيث تندفع مياه البحيرة بكل قوة فيضانات الربيع. تسير يسار الشارع متجاوزة حشد عمال الميناء حول «السقائف الحمراء»، ثم فوق جسر الرصيف البحري الذي يقطع بحيرة كلارا. فترة ما بعد الظهر هادئة، والمياه ساكنة، تغشي الشمس بصرها، لكنها تحس بانخفاض حرارة النهار مما يعِد بليلة ستتجمد فيها، ومن حولها يسير سكان المدينة في الاتجاهين، مشغولين بشؤونهم، البشر والطبيعة يتَّحدان في لا مبالاتهم حيالها، وبداخلها تحس بصدى غضب قديم، فرن صهر مستعر ساعدها أكثر من أي شيء على البقاء على قيد الحياة خلف أسوار المشغل.

تصل آنا استينا إلى باب مستشفى سيرافيم مع هبوط المساء، المكان كما وصفه كريستوفر بليكس، بشعار نبالته المعلق بفخر فوق قوس في الجدار الخارجي، جوار شجرة كستناء، ومن بين كل ما أخبرها عنه، تتذكر أن هذا المكان هو الوحيد الذي وجد فيه شيئًا من العطف. لا أحد يسألها وهي تسير عبر الحديقة على الحجارة المجروشة، ولا عندما تدفع باب المبنى الرئيسي بما يكفي لدخول بطنها، وبداخل الأروقة ترى ممرضات يهرعن في غدو ورواح، وأخيرًا عندما تنظر إليها إحداهن نظرة متسائلة، تتنحنح وتبتهل بصمت أنها تتذكر الاسم على نحو صحيح.

قالت: «أين البروفيسور هاغستروم؟».

تزم المرأة شفتيها وتهز رأسها قائلة: «البروفيسور خارج البلاد ولا نتوقع عودته قبل منتصف الصيف، ما كان يجدر بك المجيء هنا في حالتك، الحرارة قادمة والحمى متفشية ولن تصابي بالعدوى في أي مكان بطريقة أسهل من إصابتك بها هنا».

لا بد أن اليأس يسهُل قراءته على وجه آنا استينا، لأنها عندما ظلت واقفة لا تدري ما عساها تفعل، لانَت ملامح المرأة الصارمة.

فقالت: «حسنًا، انتظري هنا. أرى السبب الذي دفعك للمجيء إلى هنا».

تنتظر آنا استينا حيث تُركت، قلقة من أن أقل تغيير في وقفتها قد يقلب عليها موازين الحياة والموت المتأرجحة، ولا يمضي وقت طويل قبل ظهور شاب يسير نحوها، يمسح يديه على مئزر ملطخ ويومئ لها إيماءة مقتضبة على سبيل التحية.

ويقول: «هلا تبعتِني من هنا من فضلك؟».

تتبعه عبر باب يفضي إلى رواق، وبعدما يفتح الشاب عدة أبواب إلى يساره ويجد الغرف مشغولة، يعثر على غرفة خالية أخيرًا، فيشير لها بالجلوس على مقعد جوار النافذة حيث الإضاءة جيدة.

يقول: «هل لك أن ترفعي فستانك وقميصك الداخلي؟ أريد أن أفحصك من كثب».

تفعل كما يقول، ويجثو على ركبتيه أمامها، أصابعه رقيقة وهو يجس بطنها منتبهًا إلى مواضع الألم، وحالما ينتهي فحصه، يضع قُمعًا من نوعٍ ما على بطنها ويلصق أذنه به، ويغيِّر موضعه عدة مرات ثم يومئ ببطء كما لو أنه تأكد من تخمين، وأخيرًا يشير لها كي تعيد ملابسها ويجلس على مقعد قبالتها.

ويقول: «أفهم سبب مجيئك».

لا تدري ما عساها تقول وتنتظره ليتابع.

- لحسن الحظ إنني مؤهل لمساعدتك، وعلاوة على هذا يمكنني مساعدتك من دون أي رسوم، نخصص سريرين هنا للاتي يحتجن إلى الرعاية ولا يقدرن على الدفع، وأحدهما خالٍ.

يضع يديه خلف ظهره ويلتفت إلى النافذة حيث بدأ الضوء يتلاشى ويكمل: «نظرًا إلى سنك أفترض أن هذه هي ولادتك الأولى، صحيح؟».

تومئ مؤكِّدةً وتدعه يتابع.

- وركاك ضيقان وحسبما أعرفه من رؤية بطنك، الطفلان متشابكان، لا أرى أن ولادتك ستكون ناجحة، سواء لك أو للطفلين.

- الطفلان؟!

يقطع تسلسل أفكاره. ويقول: «تحملين توأمين، افترضتُ أنك تعرفين».

تبدو حقيقة بدَهيَّة للغاية عندما يقولها، بالطبع إنها ظلت تسمع نبضات قلبين بداخلها، وأطراف طفلين جعلت بطنها ينمو أكبر مما رأته عند أخريات.

قال: «في حالتك لا يوجد سوى إجراء واحد، يجب أن ننتظر ونتحلى بالصبر، لا نتسبب في الموت هنا في السيرافيم، لذا لا بد أن ندع الطبيعة تأخذ مجراها. حالما نجد الجنينين ساكنين، يمكننا إخراجهما من الرحم بأمان، بخُطاف ومقصات من نوع خاص يمكننا تقطيعهما في الرحم وإخراج الأجزاء واحدًا تلو الآخر بالاستعانة بالملاقط».

عندما تلوذ بالصمت يقف الشاب حائرًا، ثم يفرك يديه ويقول: «أتودين رؤية أدواتي؟».

الفصل الحادي والخمسون

ينتابها غثيان شديد من الاقتراح الذي رفضَته للتو عندما تغادر مستشفى سيرافيم، ومرة أخرى تجرجر قدميها عبر الجسر عائدةً أدراجها. تتوهج السماء بضوء شاحب، لكن الأرض تكسوها الظلال، فتتوجس من طريقها عبر الجسر فوق الألواح الخالية من المارة، لا تفلت قبضتها من الحاجز، الذي لا تراه ولم يعد بمقدورها تمييزه عن مياه الخليج السوداء التي تصدر خريرًا في كل مكان حولها، كما لا ترى موطئ قدميها، وكل خطوة تمثل قفزة إيمان أعمى، تبطئ سرعتها إذ نال منها الإرهاق، هل كان الجسر طويلًا كهذا سابقًا؟ وعندما تبلغ الأرض الثابتة على الجانب الآخر، تضطر إلى المشي دون الاستعانة بشيء، ما من فوانيس تضيء هذا الشاطئ النائي، يلوح لها سقف مبنى مجهول عبر سماء ذات زرقة داكنة، وخلفه تتبين قمة برج الكنيسة، تترنح إلى أخشاب السور وتتهالك على الأرض كي تستمد شيئًا من الدفء.

تستغرق يومين طويلين حتى تعبر هذه الأراضي التي تمتد شمال المدينة ثم تتلاشى في البرية، متأرجحة ببطء كأنها تعاني دوار الحمى، تتخدش قدماها في حذائها الذي لم يُصنع لمشي مثل هذه المسافة، تعجز عن التفكير في أي شيء سوى الهروب، وأن تترك الناس ومساكنهم خلفها بأي ثمن، فهم عندما يعتزمون الأذى، يؤذون بكل سهولة، وعندما يحاولون المساعدة، فالنتيجة هي نفسها. تقل كثافة المباني كلما ابتعدت في سيرها، وجوار الكنيسة تجد شربة ماء، ومنها تضع نصب عينيها برج الكنيسة الأبعد، البرج الذي يمثِّل حدود آخر أبرشية في المدينة. في ظلال التلال يتمدد «المستنقع» كبثرة على وجه الأرض، تصعب معرفة الحدود بين الأرض الثابتة والمياه، في المنتصف بقعة يغطيها الزبد، يحيط بها حطام طافٍ تتخلله الأعشاب

والبوص، وحول المكان الأرض موحلة، ويتلاشى كل كوخ وبيت في المناطق المجاورة، جميعها مائلة متضعضعة، قليلون يختارون بمحض إرادتهم بناء منازلهم على شواطئ كهذه. يهرع السكان بين الحانات غير المرخَّصة والأعمال الوضيعة، متحاشين نظرات الناس الصالحين، وأطفالهم يلعبون في المستنقع ويضحكون كلما زلت قدم أحدهم وغاصت في الطين. وحول البحيرة مساحات مسيجة لجمع المخلفات ونقلها، لكن أخشاب السياج مهترئة ومساميرها صدئة والمباني آيلة للسقوط. توجد ألواح على حافة الشاطئ لتسهِّل المشي، وتشق آنا استينا طريقها عبرها، وأمامها لا ترى سوى غابة «الفيء العظيم» النائية جوار ليل جانز، ولا شيء بعدها.

يداهمها المساء مع إفساح آخر البيوت المجال للأشجار، والفيء جدير باسمه. تجد أجزاء من السور المحيط ساقطة، فلا يعترض شيء مسارها، وخلفه سور من نوع آخر، أكثر فعالية، من أجمات ونباتات العليق حيث تنهشها الأشواك، ثم تجد أرضًا خالية جرداء تحت غطاء قمم أشجار بلوط يبلغ عمرها قرونًا، تقف بين أعمدة صالة الرقص هذه التي تبدو كأنها من عالم آخر، الصمت خانق في البداية، ثم تبلغ مسامعها أصوات من نوع لم تعتده، خافتة لكنها مستمرة، وفوقها عاليًا تشعِّث الرياح غطاء قمم الأشجار لكنها لا تبلغ آنا بالأسفل، وفي كل مكان حولها تستشعر حركة مخلوقات غير مرئية تجوب بساط الأوراق الميتة التي تساقطت في خريف العام الماضي، وتحس بدفء النهار ما يزال عالقًا جوار الجذوع الضخمة. لا تدري آنا استينا ما تبحث عنه، وقد اعتراها الإرهاق والحيرة والألم، لكنها تواصل الترنح، انقضى وقت طويل منذ أن أكلت آخر مرة، بطنها مليء وخاوٍ في آنٍ واحد، وتحس بحجابها الحاجز ينقبض بتشنجات نابضة سرعان ما تخف ثم تعود أشد.

لا تدري آنا استينا ما إذا كانت تهلوس أم لا، ترى وميضًا بين الأشجار، رغم هبوط الليل منذ مدة طويلة، فتغيِّر مسارها نحو الضوء، وعندما تتسلق قمة فرجة بين الأشجار ترى النار، محاطة بعناية بحلقة من الحجارة، تغشي النار بصرها في البداية، وتستغرق برهة حتى ترى أن المخيم ليس مهجورًا،

توجد فتاة جوار النار، أمامها مباشرة، فتاة ليست أكبر منها، تقفز عندما تظهر ضيفتها غير المدعوة، وتبدو كأنها نبتت من الغابة نفسها، مخلوقةً من لحاء وطحالب وجذور، وإلى جوارها قطعة قماش مفروشة، عليها بضعة مقتنيات بسيطة، غلاية منبعجة يكسوها السناج، وقارورة سدادتها خرقة قماش، وسكين قديم. تزحف آنا استينا المسافة الأخيرة، وعندما تقترب بحيث تحس بالحرارة، تتكور جالسة وتبادل الفتاة النظرات من خلال ألسنة اللهب، وترى في عينيها حذر بعض وحوش البرية، لكنهما لا تضمران سوءًا، فتغمض عينيها وتترك وعيها يذوب في الخواء.

لا تدري آنا استينا مقدار الراحة التي وُهِبتها، ساعات أم دقائق، وتجد الظلام نفسه عندما تستيقظ، والفتاة ما تزال موجودة، تحدق إليها وركبتاها تحت ذقنها، تلتقي أعينهما لوهلة وجيزة قبل أن تشيح الفتاة بوجهها وتتكلم بصوت أجش، همس يوحي بعدم التمرس على الكلام.

تقول: «الطفل، أظنه يريد أن يخرج».

وتومئ لتشير إلى ما تقصده، فترى آنا استينا أن ماءها تدفق في أثناء نومها، وتصدر القطرات هسيسًا عندما تلامس الصخور التي حول النار.

تتابع: «اسمي ليزا، من يعرفونني يسمونني ليزا المهجورة».

تهم آنا استينا بالرد عليها باسمها، لكن تقلُّصًا يطعن بطنها ولا تند عنها سوى شهقة، فتنهض ليزا، ولا تدري ما عساها تفعل، تنقِّل وزنها من قدم لأخرى، ثم تحمل قدحًا من الأرض وتختفي بين الأشجار.

لا تغيب ليزا مدة طويلة قبل أن يشتد الألم مرة أخرى، يقطع أنفاس آنا استينا وتتشنج ساقاها بقوة، ترفع وركيها عن الأرض، وما إن تظن أن ألمها بلغ حده الأقصى تعتصرها قبضة داخلية بمزيد من القوة، وتعجز عن إيقاف

الصرخة التي تخرج من شفتيها، تقصُر المدة الفاصلة بين التقلصات، وفيما حولها يتلاشى العالم أمام ألم قاهر لا مبالٍ ولا يرحم كل ما في طريقه.

تعود ليزا إلى جانبها، وترى آنا استينا فوق انحناءة بطنها وجهًا قلقًا ممتقعًا، وما ظنته في البداية مجرد أوساخ تراها وحمة محمرة، لطخة غير متساوية تتعرج عبر وجه ليزا كأنها مندلقة من فروة رأسها حول إحدى العينين منحدرة على خدها، جسدها وأطرافها نحيلة، لكنها قوية توحي بمشقة جوبهت بصلابة، يتعذر تحديد لون شعرها حيث يشرد من تحت وشاحها، تشارك ألوان الأشجار والأرض، ظلال باهتة من البني والأخضر والرمادي، وعيناها زرقاوان صافيتان. يستحيل الظلام ضوءًا، وينقلب الضوء ظلامًا مجددًا، يتملكها الشقاء والذهول، وعزاؤها الوحيد هو أن هول ما تحس به لا يدع أي مجال للخوف. تفقد وعيها وتستعيده مرارًا، ولا تصحو إلا عندما يتسارع إيقاع معاناتها. لا يستطيعان الخروج، لا يستطيعان الخروج؛ بطنها قفص لهما، قفص من لحم وعظم.

الفصل الثاني والخمسون

تذرع ليزا المهجورة المكان جيئة وذهابًا، تتمتم مع نفسها بلغة لا يفهمها الآخرون، وتستمع إلى الفتاة التي جاءها المخاض ولا تعرف اسمها، التي تهذي بصوت عالٍ في لحظات فتور وعيها، تتحدث إلى الأحياء والموتى، إلى أُمٍّ تحبها لكنها لم تعد على قيد الحياة، وأب مجهول يبدو أنها شكَّلته بأمنياتها وغفرت له بعاطفتها، ووالد طلفها الذي لم يولد، لاعنةً اسمه. تطبق ليزا يديها على أذنيها إزاء سيل المعلومات التي لم تطلبها، متاعب الآخرين لا تعنيها في شيء، كانت قد تخلت عن كل شيء ولا تطلب شيئًا بالمقابل، الغابة توفر لها كل ما تحتاج إليه. تدير رأسها متلهفة نحو أعماق الغابة حيث الأمان، ويحثها صوت بداخلها على الهروب، على أن تجمع مقتنياتها البسيطة في كيس وتترك الفتاة لمصيرها، لكن ضميرها -الذي ظنت أنها أخمدته منذ أمد بعيد- يسمِّرها في مكانها، ودون أن تقدر على التعبير عن مشاعرها بالكلمات تعرف أن هروبها سوف ينهش أحشاءها طوال حياتها، ولن تجلس جوار نارها بسلام مرة أخرى أبدًا. عبر ألسنة اللهب تستشعر شبحًا ذا بطن منتفخ، سيطاردها للأبد إذا تركته للموت المحتوم، بخيانتها.

تمضي ليلة ونصف يوم منذ نزول ماء الجنين، ورغم هذا لا يخرج الطفل، تعرف ليزا أن الفتاة تعاني خطبًا ما، وأن المشكلة تفوق قدراتها، وتعرف ما يجب عليها فعله لكنها تعجز عن استجماع شجاعتها، وتلعن نفسها لجُبنها. وعندما يأتي العصر تتغلب معاناة الفتاة على مقاومة ليزا، فتميل نحوها مُحرَجةً وغير معتادة وجود الآخرين.

لتهمس في أذنها: «سأعود حالًا، سأجلب المساعدة، انتظريني، حاولي الصمود مدة أطول قليلًا».

تنطلق سريعًا عبر ألفاف الشجيرات بقدمين واثقتين، ويستحيل ضيقها غثيانًا حالما تقع عيناها على أول المخازن في المروج، التي تمثل حدود المدينة، وسرعان ما تلمح أناسًا على مبعدة، هيئات صغيرة مشغولة بأعمالها. تُنزِل الوشاح على كتفيها لتكشف عن وجهها وتظهر وحمتها، إذ إن القبح هو دفاعها الوحيد ضد أي انتباه غير مرغوب فيه، وتخفض نظراتها وتغذ السير، مستعدة في أي لحظة لعض اليد التي توقِفها لتسألها عن شأنها، وتحسب دومًا بعينيها الخطوات إلى أقرب مسار هروب. لا تقع عليها إلا نظرات تقزُّز سافر، فتمتن لها. تواصل السير نحو «مدينة ما بين الجسور»، وتقل المسافات بين المنازل مع كل خطوة، وتزداد أعداد الناس، وترتفع بداخلها صيحة أقوى تذكِّرها بوجوب الهروب، والنفاد بجلدها، والعودة إلى البرية حيث تنتمي قبل أن يفوت الأوان، لكنها ما تزال قوية بما يكفي لتجاهل النداء. جزء منها يتمنى لو أن الفتاة ماتت، موتة سريعة بسيطة تجنِّبها الإحساس بالذنب، مدركةً أنها فعلت ما بوسعها دون أن تكلفها محاولتها شيئًا.

الفصل الثالث والخمسون

نسجت الأعوام عباءتها حول هيدا داهْل، خيطًا خيطًا، يومًا تلو يوم، صارت عجوزًا شاب شعرها، سيدة هرمة تناهز السبعين من عمرها، وكل صباح تداهمها قسوة الحياة، التي تمنحها بسخاء ما كانت تفتقر إليه، لكن بعدما سُلبت القدرة على الاستمتاع به. انقضت عشر سنوات منذ أن صرعت حصوةٌ زوجَها، الترزي البارع الذي عاش برجوازيًّا لثلاثين عامًا، ووفقًا لقوانين النقابة سُمح لها بمواصلة إدارة ورشته بمساعدة حِرفي، وسرعان ما لمست في نفسها القدرة على إدارة العمل أفضل من إدارة زوجها، ونجحت بما يكفي لتجنب ملجأ الفقراء ما دامت على قيد الحياة، لكن ما من نقود ستكفي لاستعادة بصرها الذي يضعف باستمرار، كل صباح عندما تفتح عينيها تخشى لحظة انطفاء العالم إلى الأبد، لكنها ما تزال تراه ضبابيًّا كحجرة مظلمة يتسرب إليها وهج شمعة منسية في الصالة المجاورة.

انتابها قلق عظيم عندما غادر آخر أبنائهم ليؤسس بيته، فدون أطفال تعتني بهم وتفتخر، لم تعد أعمالها المنزلية كافية لجعلها تشعر بالرضا، فبعدما تخبز وتخلِّل وتعصر وتملِّح وتغسل الملابس وتخمر الجعة وتجفف اللحم، تجد نفسها ما تزال نشيطة، لذا أرادت المزيد، وقد رأت أنها اجتازت ذروة حياتها دون أن تنجز شيئًا أكثر من تقديم الرعاية للآخرين. وخطرت لها فكرة، وعندما ذهبت إلى زوجها لتناقشه كانت واثقة من نجاحها.

أرادت هيدا داهل أن تكون قابلة، كانت في سن مناسبة، وهي نفسها أنجبت سبعة أطفال، وليست محدودة الذكاء. تم كل شيء باعتماد بال قابلة البلاط نفسها، التي قبِلتها بإيماءة، ومنذ تلك اللحظة صارت تمضي كل أوقات

فراغها في تعزيز مهارتها في المهنة التي اختارتها، التي لم تكن متطلباتها بسيطة، وكثيرات لم يتمكن من تلبيتها، إذ كان عليها إجادة القراءة، وليس الترديد الأبدي للتعاليم المسيحية فحسب، علاوة على استخدام أدوات الكتابة. وكل مساء كانت تتبع زميلة لها أقدم في المهنة لمساعدتها على ولادة. وفي المسرح التشريحي في قاعة المدينة، أوضح جراح لها ولزميلاتها جميع أسرار الجسم البشري، شُق بطن امرأة ماتت في أثناء الولادة، وعُرض عليهن الطفل الذي لم يرَ النور ما يزال متكورًا في مكانه، ورغم أن معدتها انقلبت استفادت مرات عديدة من ذكرى ما رأته وهي تتحسس الالتواءات المتورمة لتحديد وضعية الأجنة، وبعدها مع بضع أخريات ذهبن إلى «قصر رانغيل» حتى يمتحنهن الطبيب الملكي اسكولزينهايم نفسه، الذي رُفع إلى رتبة النبلاء بعد تطعيمه ولي العهد من الجدري. ووُجدت أنها ذات مؤهلات عالية، وذكية، ومثابرة، وذات مقدرات رفيعة. وضعت إصبعين على الإنجيل وأقسمت بالرب والإنجيل على أن تخدم البسطاء والعظماء، والأغنياء والفقراء، ليلًا ونهارًا.

عملت عشرين عامًا قابلة في شمال استوكهولم وعبارات قَسَمها قريبة إلى قلبها، وهذه المدة كانت أفضل أوقات حياتها، نالت التقدير والاحترام، وظلت كل يوم تهِب الشباب بأصابعها الرشيقة سعادةً تعجز الكلمات عن وصفها، عانقها الآباء وأعينهم مغرورقة بالدموع، وقبَّلت الأمهات اليافعات يدها. والآن كثيرًا ما تطيل التفكير في المنحى الخاطئ الذي اتخذته الأمور، ليس حدثًا واحدًا، إنما سلسلة من الأحداث، مجموعة ظروف تآمرت عليها. الحقيقة أنها طعنت في السن وقد بدأ بصرها يضعف، وصحيحٌ أيضًا أن نساءً أصغر، مُداجيات ومُجاملات، بدأن ينافسنها على عملها، وكثير من الزوجات الشابات صِرن يفضِّلن امرأة تقاربهن في السن، امرأة يستطعن أن يفضين إليها بأسرارهن، لذا نُبذت هيدا داهل العجوز. ورغم هذا ظل الناس يستدعونها في الحالات الحرجة، وعندما لا يجدون قابلة أخرى، في معظم الأحيان يكون أوان المساعدة قد فات عندما تدخل البيت، ثم بدأ الناس يعدُّون مجرد وصولها نذير موت، وكانت آخر من يسمع الألقاب التي ينعتونها بها: هيدا الهلاك، هيدا هادمة اللذات، داهل الداهية. وسرعان ما صارت مساعدتها غير مرغوبة إطلاقًا.

والآن لم يعد يُطلب منها سوى الإدلاء بخبرتها في المحاكم من أجل تأكيد الدليل على ولادة حديثة في قضايا نساء شابات متهمات بقتل الأطفال الرضع. مرة واحدة فقط قدمت شهادتها تحت القسَم، والحقيقة التي لم تتمكن من حجبها أرسلت المرأة التعيسة إلى ما وراء اسكونز لتجثو أمام السياف، كانت الفتاة مذنبة بالطبع، لكن لا يمر يوم دون أن تتمنى هيدا سحب كلماتها وبدلًا منها تأكيد أن الفتاة تعرضت لإجهاض متأخر. وهكذا انتهت آخر مهمة لهيدا داهل القابلة، ولم يبق من مهنتها شيء سوى مرارة متعاظمة في عالمٍ يزداد قتامةً باطراد، لكن اللافتة ما تزال معلَّقة فوق بابها، عليها جسد رضيع صغير مطروق في النحاس يشير إلى مهنتها، حتى إذا طاوعها قلبها على إنزالها فستخذلها عيناها، وآخر مرة انتبهت لها كانت لأن شخصًا رسم بالطباشير جناحَي ملاك على ظهر الرضيع.

تجلس كدأبها دومًا على حافة الفراش، مستغرقة في التفكير، قلة نومها من لعنات سنها المتقدمة، مع عدم وجود ما تشغل به أوقات فراغها. الخادمة التي تساعدها ذهبت إلى بيتها، ويقترب الغسق، وهو الوقت الذي تخشاه في اليوم، إذ تنجرف أفكارها إلى أماكن تريد تجنبها بكل السبل. تمر لحظات قبل إدراكها أن الأصوات التي تسمعها قادمة من باب بيتها، فتنهض ببعض الجهد وتتحسس طريقها عبر الحجرة بيديها الممدودتين أمامها، من السرير إلى إطار باب الحجرة، ومن إطار الباب إلى الطاولة، وبمحاذاة الجدار إلى الصالة، لا ترغب في فتح الباب لغريب في مثل هذه الساعة، لكنها تفتحه على أي حال، بدلًا من اختبار قوة صوتها لترى ما إذا كان سيخترق الخشب، وتجد بالخارج كل شيء مسربلًا بظُلمة ضبابية.

قالت: «نعم».

لا تسمع مجيبًا، ما من أحد، لا بد أنه مقلب أطفال، يحدث هذا، على الأقل لم يتبولوا على بابها هذه المرة حتى يجعلوها تمشي على البول حافية القدمين. ثم تسمع أمامها أنفاس زائرها المتلاحقة، وتخمن أنها امرأة، وتنتظر.

- رأيت لافتتك.

الصوت حاد لكنه يصير أجش وهي تتابع: «توجد فتاة تحتاج إلى مساعدة، الطفل لا يريد الخروج».

- توجد أخريات يمكنهن المساعدة، أنا متأكدة أنك تبحثين عن إحداهن، ستجدين سوزانا ألفاريس على بُعد ثلاثة شوارع، عند البئر، وتعيش لوتا ريغا أعلى التل باتجاه نقطة المراقبة، في كوخ في الفناء الذي خلف بيترس التاجر.

تسمع وزن زائرتها ينتقل من قدم إلى أخرى.

ثم تقول: «لا أعرف الشوارع هنا، والوقت ضيق، إذا لم يفت الأوان الآن فلن يكون بعد وقت طويل».

لم تحضَر هيدا داهل ولادة منذ سنوات. يغمرها الإحساس نفسه الذي أحست به عندما وقفت أمام القاضي لتؤدي قسَمها، متوترة وخائفة إزاء مهمة تخشى ألا تكون جديرة بها، رغم تدريبها، ويخطر لها القَسَم نفسه، والكلمات التي قالتها تمدها بالقوة الآن كما أمدتها بها وقتذاك، لقد قطعت عهدًا، مدركةً تمامًا أنه يُلزمها بواجب أعظم من نفسها.

قالت: «أين؟».

- في الغابة، عند الفيء.

- كم تبعد؟

- ليس أكثر من ميل ونصف، لكن الطريق وعر في النهاية.

- في الداخل تحت السرير توجد حقيبة مصنوعة من الكتان، هلا جلبتِها لي؟

تشم ضيفتَها مع مرور شبحها أمامها، وتجد رائحة الطحالب وأشجار التنوب. تقبض على اليد القماشية التي كانت مألوفة ذات يوم، وتحس بوزن الحقيبة مريحًا، ما تزال بداخلها إبرة وخيط، وحقنة شرجية، وزيت لليدين والأصابع. تجتاز هيدا داهل عتبة باب بيتها. متى اجتازتها آخر مرة؟ انقضت مدة طويلة. تقف عند باب بيتها مدهوشة من الحقيقة التي نسيَتها للتو.

فقالت: «إنني لا أبصر، عليكِ أن تدليني على الطريق».

تمد يدها إلى ما تراه ضبابًا رماديًا، وتحس بأصابعها ترتعش، فتشي بالخوف الذي ما يزال يمسك بتلابيبها، وتظل الذراع معلقة دون أن تُمس للحظات، ثم تشعر بيد في يدها، يد لا تشبه الصوت اليافع الذي سمعته، جلدها خشن سميك، لكنها صغيرة هشة كيد جنين عندما تحكم هيدا قبضتها عليها.

الفصل الرابع والخمسون

تسمع هيدا داهل من مسافة أن الفتاة تهذي واهنةً، وهذه ليست إشارة مبشرة. تجثو بمساعدة ليزا جوار الفتاة، لاهثة من جهدها، وقدماها تغطيهما قروح دامية، تعرف على الفور أنها تحمل توأمين، وإلا لما كان بطنها بهذا الحجم. تطلق تنهيدة ثقيلة وهي تقيس وركَي الفتاة بأصابع متمرسة، ضيِّق، آه ضيق جدًّا، يافعة. تتحسس الحقيبة التي جوارها وتنقب بداخلها، وتختار القارورة وتصب الزيت على يديها. الفتاة واهنة ولا تسمع.

ودون أن تدري الاتجاه الذي ينبغي أن توجه نحوه حديثها، تقول هيدا لدليلتها: «باعدي بين ركبتيها».

فتأتي المساعدة التي طلبتها دون كلام، وبدفعات خفيفة تُمدد الفتاة بالوضعية التي تريدها.

عنق الرحم متوسع بمقدار ثلاثة شلنات كما ينبغي أن يكون، مستعدًّا لإخراج الطفل، الانقباضات لا تأتي بالسرعة الكافية، لا بد أنها انحسرت إثر تبدد الطاقة من جسدها بلا جدوى. تدع أصابعها تتحسس أبعد إلى الداخل، بحثًا عن مشكلة، تمسك بالحبل السري بين إصبعين وتحس به ينبض بالحياة، أحد الطفلين على الأقل ما زال حيًّا، منتظرًا بصبر نافد، وخلف الحبل السري تلامس أطراف أصابعها ما كانت تخشاه وآخر ما تود العثور عليه في هذا الموضع، تحس بأنها ذراع، التوأم الأول مستلقٍ على جانبه، مضغوطًا على الفتحة كالسدادة في قارورة، وشقيقه قريبًا منه خلفه، تتحرك أصابعها على الذراع الصغيرة أملًا في تعديل وضعية الجنين، وتلامس يدًا، وتحس بها تقبض على سبابتها.

في مثل هذه الحالات يُلزِمها قَسَمها بأن ترسل في طلب طبيب أو جرَّاح، الذي كان ليعطي الفتاة صبغة الأفيون من أجل الألم، ويترقب المحتوم، ويقطع الطفل الأول بمقص، ويثقب قمة رأس شقيقه ويدعه يخرج لاحقًا، يُضحى بكليهما من أجل إنقاذ حياة أمهما. لكن هنا ما من مساعدة، وهذان الاثنان يجب أن يخرجا بطريقةٍ ما حتى لا تزهق أرواح ثلاثتهم. لم تكن شديدة التدين قط، ورغم هذا يخطر لها دعاء قديم، كلمات ترددها القابلات الأكثر ورعًا عندما يشعرن بالحاجة إليها.

قالت: «فليبارك الرب عمل يدي وبرحمته يعينني في وقت حاجتي».

وتوجِّه كلماتها التالية للفتاة التي أحضرتها: «ما اسمك؟».

- ليزا.

- أيمكنك غلي أي مقدار من المياه؟ وهل لديك أي قماش يمكننا استعماله؟

- لدي غلاية، والماء في الجدول، وليس لدي أي أقمشة غير التي أرتديها.

ترسل هيدا الفتاة لتجلب الماء، وهي تخلع بلوزتها، وعندما تعود ليزا، تطلب منها خلع بلوزتها أيضًا. تزيِّت يديها مجددًا، وتتموضع حيث ينبغي لها وتبدأ بتعديل الجنين. المهنة التي برعت فيها ذات يوم تعود إليها بقوة مع مرور كل ثانية، تملك حاسة سادسة تتيح لها الرؤية عبر الجلد والأغشية بحاسة اللمس وحدها. تعرف أنها كانت صاحبة أفضل يدين في أيام مجدها، رغم أن قليلين يقدِّرون براعتها حق قدرها وقد جاءت ذريتهم إلى العالم للتو. تعود إليها ذكريات المناورات القديمة، مثل كيفية طي أصابعها حتى تتحرك اليد دون إيلام الأم، ورغم هذا تصرخ الفتاة، إذ ما من شيء يمكن فعله حيال هذا النوع من الألم. يد هيدا اليمنى بالداخل، تمررها على رأس الجنين إلى عنقه، ويسراها عند عنق الرحم للدعم، تشدد قبضتها، وتدفع دفعة خفيفة لكنها ثابتة. سيضيع كل أمل إذا لم يرغب الجنين في التعاون. تدع ذراعها تنزلق إلى الداخل أكثر، وتبتهل بصمت ألا تنشق الفتاة أكثر مما ينبغي، سعيدةً من أجلها لأنها هي نفسها نحُلت مع تقدمها في السن. الجنين يقاوم، وتستشعر إرادته المتعنِّتة، حتى يتحرك شيءٌ ما، ويرضخ الجسد الصغير فجأة، تُخرِج ذراعها لكنها تدع أصابعها عند فتحة المهبل، في انتظار تعافي جسد الفتاة وبدء التقلصات مرة أخرى.

وتميل إلى الأمام نحو وجه الفتاة وتقول: «عليك أن تدفعي الآن، أتسمعينني؟ الطفل عند العتبة لكنه يحتاج إلى مساعدتك، عندما يعود الألم لاحقًا عليك أن تدفعي، ادفعي بكل ما أوتيتِ من قوة».

تنقضي نصف ساعة ثم تلتفت هيدا فوق كتفها وتقول: «ضعي غصنًا بين أسنانها وثبتيها من ذراعيها، الطفل قادم».

- إنها قوية جدًّا، لا يمكنني تثبيتها.

- ابذلي كل ما بوسعك!

ومن ثم يأتي الجنين، بنت، بحركة واحدة تفصل بين الحياة والموت، خاطفة كطرفة عين، جسدها سليم، كبيرة مكتملة النمو. تتحرك يدا هيدا آليًّا فتزيل المخاط من الفم وتستحث الأنفاس الأولى بصفعة على العجيزة، ثم تأتي الصرخة.

تنادي ليزا: «قمِّطيها واحمليها بين ذراعيك».

تشعر هيدا بترددها فتقول: «كُفِّي عن التلكؤ، أحتاج إلى يدَيَّ، الآخر قادم».

وسرعان ما يتبع صبيٌّ صغير أخته.

في أثناء نوم الأم تنظفها هيدا، وترش بلوزتها بالماء الساخن وتطويها على شكل وسادة وتضعها بين ساقي الفتاة، وتجعل من القميص الآخر كمَّادة دافئة حول البطن. وتغسل يديها هي عندما تبرد مياه الغلاية. يؤلمها جسدها من التعب. تعرف أنها غير مسموح لها بالتعميد إلا في ظل أسوأ الظروف، عندما لا يتوقع أن يعيش الأطفال مدة كافية للذهاب بهم إلى الكنيسة والقس، وهذان المولودان حديثًا كلاهما بصحة جيدة، لكن من سيرعى روحهما في هذه البرية؟ تلتفت إلى الاتجاه الذي تسمع منه ثلاثة أنفاس مختلفة.

تقول: «ليزا، هلا عدت إلى الجدول وجلبت لي وعاء ماء صغير؟ يجب أن تكون نظيفة، غاية النظافة. أعطني الصغيرين ريثما تأتين».

تمتثل ليزا دون أن تتفوه بكلمة وتترك الطفلين بين ذراعي هيدا داهل، التي تحس بوزنيهما مريحين. وتعود ليزا سريعًا.

تقول هيدا: «خذيهما وامسكيهما لي واحدًا تلو الآخر بحيث يكونان بمتناولي، لا بد أن يكون شخص ما عرَّابًا أيضًا، وما من أحد آخر هنا، لذا إذا أردتِ دومًا أن تكوني أُمًّا روحية، فهنيئًا لك».

- لا أؤمن بالرب.

- إذن لن تمانعي الاستماع إلى بعض الخرافات.

تتلو الكلمات وهي تكوِّر كفَّها وتنثر الماء على حاجبين مقطبين.

وتقول: «باسم الأب، والابن، والشبح المقدس. صلاة الرب. مباركة الرب».

تصدر آنا استينا الأمر صوتًا واهنًا وهي ما تزال شبه فاقدة الوعي.

فتميل هيدا مقتربة، وتومئ: «أعمِّدكما وأسميكما ماجا وكارل».

وتم كل شيء.

تغادر وتترك الأم ما تزال نائمة، وتسمح لليزا بمرافقتها حتى بوابة الجبايات، ففي منتصف النهار يمكنها معرفة طريق عودتها من هذا المكان، الشوارع التي كانت مألوفة ذات يوم ما تزال على حالها. وعندما تهمَّان بالافتراق تأخذ هيدا بذراع الفتاة وتديرها حتى تقفا وجهًا لوجه.

وتقول: «سمعتك تحزمين أغراضك، لا يجوز لك أن تتركيها».

- متى يمكنني؟

- عندما تتعافى وتصير قادرة على الاعتناء بنفسها وصغيريها، ستعرفين عندما يحين الوقت، ليس قبل نهاية الصيف. عِديني.

بعد لحظات من التردد تحس هيدا بإيماءة عبر ذراعها لكنها تعتصر يد الفتاة زاجرةً حتى تأتي الإجابة مسموعة.

فتقول: «نعم، أعدك».

تسير هيدا داهل وحدها عبر ضواحي المدينة في وضح النهار، المختلفة الآن عما كانت عندما غادرتها. ويبدو خريف عمرها أكثر إشراقًا من ذي قبل، وقد اكتسبت أحزان الأمس معنى عميقًا، مات الرُّضع الآخرون حتى يعيش هذان الاثنان. وبهذه البصيرة المكتسَبة بشق الأنفس تجد الكثير مما يمكنها تفهُّمه ومسامحته. تسمع شهقات الصدمة من الذين تصادفهم في الشارع، وتحس بهم يحدقون، إذ إنها لا ترتدي بلوزتها، وتسير عارية الصدر، بلا خجل، واثقة في معرفتها أنهم كانوا مخطئين من قبل، فلم تعد تعبأ بنظراتهم.

الفصل الخامس والخمسون

قالت ليزا: «وضعتُ ملابسكِ في الجدول، تحت بعض الحجارة ريثما تُنقع، ما من أغطية حريرية أو من زغب الإوز هنا، لكن يمكنك أخذ بطانيتي القديمة».

لا تدري آنا استينا ما إذا يمكن أن تُسمى اللحظات السابقة نومًا، ولا تدري ما إذا أيقظتها الكلمات أم أعادتها إلى الواقع الذي نسيته للحظة. يتمددان على ذراعيها، طفلاها الجميلان، ما يزالان متغضنين ورديين، الصبي ينام نومًا هادئًا، لكن البنت مستيقظة، تعاني مع جفنين لا يريدان أن يفتحا على اتساعهما، كي تلقي نظرة سريعة على العالم الذي وصلت إليه، وشفتاها تبحثان بلهفة عن الثدي ثم تجدان ما تريدان رغم عدم وجود لبن كافٍ بعد، لكنها تتدبر أمرها على أي حال. لا تمل آنا استينا من النظر إليهما، كل عضو صغير وكل حركة بسيطة تبدو لها كمعجزة، أنفاس قصيرة لكنها قوية، لمحة من عين زرقاء. تنتقل من حقبة إلى أخرى بين عشية وضحاها، حقبة يكون فيها خوفها على نفسها لا شيء يُذكر مقارنة بخوفها عليهما. ليزا المهجورة تجلس على الجانب الآخر من النار وتقلب ثلاث أسماك نهرية فوق الجمرات، كل واحدة يخترقها غصن حاد.

وتقول: «ستتمكنين من الوقوف على قدميك بعد يوم أو يومين».

- لا أعرف كيف سأتمكن من شكرك يومًا.

صوت آنا استينا مبحوح، إذ ما تزال صرخاتها تخِز حنجرتها.

تأخذ ليزا أغصان الشواء من النار وتناولها واحدًا وتقول: «من بين جميع من كانوا حول النار الليلة الماضية، بذلتُ أقل مجهود».

يتضح أن توقُّع ليزا المهجورة صحيح، تستعيد آنا استينا قواها بأسرع مما توقعت، الطعام بسيط لكنه مغذٍّ، أسماك مختلفة الأنواع، وسريعًا ما تدرك أن كل جزء من السمكة له قيمته، لحم السمك النهري الصغير وسمك الأبرميس جيد المذاق لكن تتخلله عظام دقيقة كالإبر، والجلد لذيذ عندما يُشوى حتى يصير هشًّا، وأيًّا كان ما يتبقى يمكن ادخاره وغليه ببطء حتى يصبح حساءً خفيفًا. وفي الأمسيات والصباحات عندما لا تكون برودة الليل مُقبلة أو ما تزال عالقة، تغليان شايًا من أوراق الفراولة البرية وتأكلان التوت الصغير. لا تتكلم ليزا إلا عندما لا تكفي الإشارات والحركات، وبما أن آنا استينا تفهم بسرعة لا تحتاجان إلا إلى كلمات قليلة. تُريها ليزا سلة صيد سمك نسجتها من شتول أشجار البندق، وتدعها ترى الكيفية الأمثل لتزويدها بالطُّعم ببقايا آخر صيد، وتقود آنا استينا إلى الأماكن التي تنمو فيها الفراولة البرية وتوت العليق وحيث ستثمر الأجمات التوت الأحمر والعنب البري. ومن منبع مجهول في أعماق الغابة ينحدر جدول مياه عذبة إلى مياه «خليج البومة» المالحة الآسنة.

كلتاهما تحمل طفلًا متى ما غادرتا المخيم، وقد وافقت ليزا على مضض في البداية ورضخت لأن ما من طريقة أخرى، غالبًا ما تتبادلان الحِمل، وكلا الطفلين يريد أمه ويتذمر عندما يكون الثدي بعيدًا عن متناوله، صار اللبن يُدَر بسهولة، من صدر متورم تعلم سريعًا التكيف وفقًا للحاجة. في كل مساء تحصي ليزا مقتنياتها، وتفرزها بعناية وتضعها بالترتيب الذي تريد أن تحزمها به، فتوقن آنا استينا في كل مرة أنها ستستيقظ وتجد مكان ليزا خاليًا، وفي كل صباح تجدها في مكانها.

تجلسان معًا عند اقتراب المساء على جانبي النار والطفلان ينامان هادئين، يبددان الصمت عندما يكونان مستيقظين، لكن ليس الآن، تعود آنا استينا مرارًا إلى وجه ليزا، حيث تجلس القرفصاء جوار النار، وتحرك بعصا كل غصن إلى أفضل وضعية، مرتدية قميصًا كتانيًّا سيحمل دومًا بقع دماء آنا استينا.

تقول آنا استينا: «هل ترغبين في إنجاب أطفال ذات يوم؟».

لا ترفع ليزا عينيها من النار وتقول: «لا أمانع الأطفال، لكنهم يأتون بثمن باهظ، الأب، رجل يهرب عند أول فرصة، أو الأسوأ، الذي يبقى».

تقع نظرات ليزا على حزمة الأقمشة حيث يرقد الصبي وأخته متلاصقين، مرتاحين لدفئهما المشترك. وترفع يدها وتثبتها بجانب وجهها.

وتقول: «عندما كنت صغيرة ظننت أن العلامة الحمراء التي حملتها معي إلى العالم لعنة، ميَّزتني عن الآخرين، ورأى الناس أنني مختلفة فابتعدوا عني، والذين يبحثون عن رفقة فضَّلوا اختيار شخص آخر، والآن بعدما كبرت أعرف أن العكس صحيح، إنها نعمة، للأسباب نفسها. في طفولتي كنت أبكي حتى أنام لأنني وُلدت مشوهة، والآن أشكر حظي كل يوم».

ولاحقًا عندما تضجعان لتناما، يأتي صوتها خافتًا، كهمسة من الجمرات المحتضرة: «كان لدي طفل ذات يوم، مات وهو بداخلي، لم يُمهل حتى يتنفس».

الفصل السادس والخمسون

لا يمضي وقت طويل قبل أن تتعلما أن لكل طفل شخصيته المميزة، رغم صغرهما، ماجا هادئة، نادرًا ما تتذمر وتظهِر ما تريده، مع بساطة احتياجاتها، الحليب والنوم والدفء وتغيير قماطها. تتخيل آنا استينا أنها من الآن تقرأ الحكمة في عينيها، الهادئتين الفضوليتين، إذ كثيرًا ما تتجهان حيثما تولي آنا استينا انتباهها، كأنها تستوعب فجأة ترابط الأشياء. وتظن آنا استينا أنها ترى ملامح التي حملت ماجا اسمها، أمها ماجا كناب، ورغم أنها تعتاد التشابه لا تكف عن الذهول من إمكانية حدوثه، أن يتمكن شخص مفقود من العودة إلى العالم بهذه الطريقة، حتى شعرهما متطابق، الشعر الملبد الناعم هو نفس شعر جدتها، أدكن من شعر آنا استينا.

والصبي كارل أنحف وأكثر توترًا، ينزعج بسهولة ويسارع إلى التعبير عن مشاعره، ما من شبه كبير بينه وبين شقيقته، ولا ترى آنا استينا الكثير من ملامحها فيه، تتساءل عما إذا كان ما تجده غير مألوف في وجهه هو في الواقع أول لمحة تراها من والدها المجهول، الذي لم تعرف اسمه قط، أو أن أباه هو الذي منحه ملامحه، شعره أقل، لا يضاهي شعر شقيقته وخصلاته أخف، دموعه أقرب من ضحكته، وينقل عدوى مزاجه إلى أمه وشقيقته، ضحكته فاتنة، يشوبها صوت غَقيق، غرغرة مرحة تلوِّن الغابة بأكملها بألوان مبهجة، وتلاحظ بسرعة مدى حساسيته للدغدغة، إذ ما تكاد أطراف أصابعها تلامس اللحم الطري أسفل ذقنه أو سُرته حتى يبدأ التلوِّي طربًا.

ورغم اختلافهما يريدان أن يكونا معًا دومًا، قريبين جدًّا من بعضهما، لا يطيقان حتى البطانية التي تستخدمها لتقميطهما، يجاهدان ضدها بقوتهما

المشتركة حتى يلتصق جلداهما، ولا يشعران بالأمان والرضا إلا بالحرارة التي يستمدانها من جسديهما. تشاهدهما وهما نائمان، وتتعلق نظراتها بوجهيهما الوادعين، وتفكر في أواصر الدم التي تربطهم معًا، التي لطالما كانت أمها ماجا تشدد على أهميتها بقناعة راسخة: « *لا شيء يربط كالدم يا آنا، تذكري هذا*».

وأحيانًا عندما تكون آنا استينا حادة المزاج ترد على أمها: «*أين أبي إذن؟ ماذا حدث لأواصر الدم التي كان ينبغي أن تبقيه هنا معنا؟*».

لم يكن من عادة ماجا كناب أن تدع شخصًا ينتظر إجابة مدة طويلة، ليس هذه المرة: «*والدك رحل حالما ظهرت عليَّ علامات الحمل، إذا كان قد رآك بعينيه لما تمكن قط من التخلي عن مسؤوليته*».

في الحي المكتظ الذي تعيش فيه مع أمها ماجا، لا بد أنها اشتغلت جليسة أطفال مئات المرات، يولَد الأطفال في المدينة شاحبين وعرضة للأمراض، مصابين بفقر الدم، ومثيرين للشفقة، فتعلمت منذ وقت مبكر أن ترى حيوات الأطفال كأنها شموع واهية في مهب الريح، في غاية الهشاشة لدرجة أن المرء لا يجرؤ على عدهم ضمن الأحياء إلا بعدما يبلغون عامهم الثالث، الجنازات التي لا تُحصى تتكلم عن نفسها، كل قبر يُحفَر يخفِّف بحجمه الصغير عن ظهر حفار القبور.

ورغم أن ماجا وكارل مولودان في الغابة، فهما من نوع مختلف، متوردان وقويان، ويزداد وزنهما من أسبوع لآخر. وترى آنا فيهما شيئًا آخر، شيئًا لم تره في الأطفال من قبل: إرادة حياة تفوق قوتها جسديهما الغضَّين، جامحة ونافدة الصبر. كما لا تزعجهما الأمراض، تتذكر الأطفال في ماريا وكاتارينا الذين كانت كل أنواع الأمراض تحاصرهم على الدوام، بأنوفهم السائلة وسعالهم الذي لا ينقطع. توأماها يظلان بصحة جيدة، تزداد قوتهما مع مرور كل يوم، ماجا أول من يرفع رأسه، وأول من يمدد ساقه إلى الأعلى حتى تنقلب على جانبها، وسرعان ما يقلدها شقيقها، ويتقن المقدرات نفسها مصدرا أصوات بهجة عارمة.

تحنو الغابة عليهما، وكذلك الصيف، ويظل الدفء عالقًا في الأجواء، وحتى عندما تضرب العواصف المطرية الأغصان والأوراق، لا يسمح الغطاء الشجري بمرور الكثير من الماء، وعندما تصفو السماء وتكوي أشعة الشمس أسقف المدينة، توفر الأشجار للأطفال ظلًّا باردًا وترسم على الأرض بقعًا متموجة من الضوء. تجهز ليزا سلة صيد السمك كل صباح والطفلان ما يزالان نيامًا، وكل صباح تنبض السلة بالحياة، بأكثر مما يكفي لإطعامهم جميعًا، وسرعان ما تنوء أجمات توت العليق بحملها، وبعد وقت ليس بالطويل تتألق شجيرات أخرى بالعنب البري، وعلى الجانب الآخر من التل توجد سراخس تجمع ليزا جذورها وتنظفها، تراقب حلول الغسق باهتمام، وتلاحظ قِصر كل نهار عن سابقه، لكن الصيف يستمر.

تساعد ليزا آنا استينا على التعرف على المكان، باتجاه الشمال هناك «خليج البومة»، يتصل بالمياه المالحة بمضيق ضيق، وفوقه جسر يتيح عبور شارع. من حين إلى آخر يأتي المسافرون أو العربات من هذه الناحية، منهم علية القوم في طريقهم إلى «استراحة الصياد» ليستمتعوا بيومهم. وفي أقصى الشمال تُشيد مبانٍ، وتأتي في الصباح الباكر عربات محملة بالخشب والحجارة تجرها ثيران، تسمع آنا استينا أصوات المطارق عندما تهب الرياح بزاوية مناسبة، وعندما تتجاسر على الذهاب أبعد في الاتجاه نفسه، ترى عُمالًا يحتشدون كالنمل على عارضة رُفعت حديثًا تعِد بمبنى ضخم يدغدغ غرور أحد السادة، يظلون بعيدين بما يكفي لعدم إزعاجها، ولا تقترب من المكان مرة أخرى.

تتمنى ألا تنتهي أيام الصيف هذه أبدًا، ولا ترغب في رفقة مزيد من الناس. لكن فطر المشروم يطل برأسه على أرضية الغابة، وتزداد الليالي برودة، هي وليزا قرَّبتا فراشيهما من بعضهما، والطفلان بينهما. ذات ليلة عندما تنزلق عنها البطانية، تستيقظ في ساعات الليل المبكرة وتنهض لتجمع الحجارة من النار ليستمدوا منها الدفء، وعندئذٍ تراها أول مرة، أضواء صغيرة تتخلل الأشجار، يتلألأ التوهج لقرابة ساعة قبل أن يتبدد، تجلس آنا استينا ساكنة سكونًا تامًّا، تراقب كأنها في مناوبة حراسة. وفي الصباح تسأل عنها.

تقول: «ما الذي يومض بين الأشجار في الليل؟».

- إنها غازات المستنقعات، مجرد سراب. لا تذهبي نحوها.

الفصل السابع والخمسون

يتغلب فضولها عليها. إلى أرضية رقص أضواء غازات المستنقعات تذهب آنا استينا عندما يحين دورها في جمع التوت، بينما تراقب ليزا الطفلين اللذين لم يوقظهما الجوع بعد. تجد مساحة خالية، تنحسر الأشجار وتطوق منطقة دائرية تكسوها أعشاب طويلة تحتفظ بخضرتها رغم اصفرار كل ما حولها، مرج صيفي مختبئ خلف الأشجار، يعج بزهور ما زالت صامدة رغم قرب نهاية موسمها، ويحبس جمال المكان أنفاس آنا استينا.

لا تراها في البداية وهي محجوبة خلف سيقان الأعشاب الطويلة المتمايلة، قبور صغيرة متناثرة في أرجاء المكان، محددة بعصي بسيطة أو حجارة منقوشة، وعندها تختلط باقات الزهور الذابلة بتذكارات الموت: دمية، وحصان منحوت. وعلى الفور تدرك آنا استينا المكان، إنه الموضع الذي تأتي إليه الأمهات اليافعات بأطفال غير مرحَّب بهم في المقابر المقدسة، غير معمَّدين وقد جُلبوا إلى العالم خارج مؤسسة الزواج. تقودها الأعشاب المدعوسة إلى بقعة حُفرت في الليلة السابقة، وُضع عليها إكليل زهور إلى جانب دمية قطة من القماش.

تستدير مبتعدة، مدركةً أن هذا التحذير قد جاء في الوقت المناسب، إذ قد بدأت تراودها فكرة قضاء الشتاء في «الفيء العظيم»، بإغراء من الصيف الذي سوف يعود في غضون بضعة أشهر. عندما يأتي الصقيع الليلي زاحفًا سينقلب فردوس الأمس إلى فخ موت. فيما حولها ما يزال الندى متشبثًا بالعشب، لكنه دموع من نفس النوع الذي سمعت أن وحوشًا في أراضٍ غرائبية تذرفها عندما تلتهم فرائسها، لا عجب أن الزهور تنمو أكثر ازدهارًا

وجمالًا مقارنة بأي مكان آخر، أكانت الغابة نفسها لتظل موجودة لولا قدرتها على إغواء ضيوفها ليبقوا مدة أطول مما ينبغي لهم البقاء؟ هِباتها مشروطة. وعندما ترنو آنا استينا ببصرها إلى الأشجار، لا تراها كما كانت، تستحيل كائنات مفترسة تتحلى بصبر خارق، وتلوح لها أغصانها الحانية مخالبَ نهِمة ممتدة نحوها وصغيريها. هنا في مرج الموتى الصغار تدرك أن مدة مكوثهم انتهت، لا يمكنهم البقاء.

وعندما تعود آنا استينا، بكمية أقل من التوت، ترى في عينَي ليزا أنها تعرف المكان الذي ذهبت إليه، وتُدهش عندما ترى في عينيها أيضًا الخزي بدلًا من العتاب.

تقول لها: «هل الطفل الذي أنجبتِه مدفون هناك أيضًا؟ ألهذا تأتين في الصيف؟».

تشيح ليزا بوجهها وتقول: «قال الجرَّاح إنه مات حالما خرج مني، وقال إنه كان رماديًّا كاللحم الفاسد. لم أره قط، أعطوني صرة صغيرة لم أجرؤ على فتحها، لكنه في قلبي يبدو كطفليك، جميلًا حسن النمو، وميتًا رغم هذا».

الفصل الثامن والخمسون

يأتي الخريف خلسة إلى «الفيء العظيم»، تقصر ساعات النهار، وفي كل شجرة وأجَمة تغير الأوراق لونها، حتى ترفع آنا استينا بصرها وترى الصُّفرة تطغى على الخضرة، ومع هذا فالهواء هو أقوى دليل على تغير الفصل، تبرد الغابة سريعًا في الأمسيات، ويصعب تحديد الوقت، أشعة الشمس التي كانت تسقط عموديًّا عبر غطاء الأغصان صارت تتلاشى بحلول منتصف النهار. ومع هبوب الرياح من اتجاه المدينة فتتيح لآنا استينا عد دقات أجراس الكنيسة، غالبًا ما تخطئ العدد، حتى يتلاشى الضوء، ويغدو كل يوم أقصر من سابقه. عندما تعصف العواصف بغطاء قمم الأشجار، تضطرب أرض الغابة أيضًا بدوامات الرياح ذات البرودة القارسة. كل يوم تستغلان آخر الهِبات التي يقدمها نعيم الصيف، تتدلى أغصان التفاح البري ثقيلة بالفواكه، فيقطفانها ويجففانها، وفطر المشروم متوفر، وكذلك السمك في «خليج البومة».

لكن ليزا تتشمم الهواء وعلى وجهها نظرة قلقة.

تقول: «تعالي معي».

تحمل كلتاهما طفلًا، وتتوغلان في الغابة عبر درب يفضي إلى أشنة شائكة وشجرة بلوط متحللة، وقبل أن تسيرا مسافة بعيدة تتوقف ليزا وتدقق النظر بين الأشجار إلى رابية منخفضة، تتقدم بضع خطوات وتجد ما تبحث عنه، تحرك حزمة أغصان جافة فتكشف عن ألواح مربوطة معًا، وهذه أيضًا يمكن تحريكها، وعندما تزيحها عن الطريق تشير لآنا استينا بالاقتراب، إنها مغارة تمتد بطول ستة أقدام داخل الرابية، فيها جذور سميكة تؤدي عمل العوارض وتثبت السقف، الأرضية صلبة إلى درجة تجعل سطحها كالصخر.

تقول آنا ستينا: «هل أعددتِ هذا المكان؟».

تهز ليزا رأسها قائلة: «أُفضِّل النوم في مكان لا يكون مدخل أي معتدٍ إليه هو مهربي الوحيد منه أيضًا. لا أعرف صاحب المكان، لكن لا أظن أن من أعده يحتاج إليه بعد الآن ولا أظن أن أحدًا آخر يعرف بشأنه، وجدته قبل سنوات، ولم يتغير شيء».

تقترب آنا استينا ببطء وليزا تحاول جذب إحدى الأخشاب المدفونة في الأرض لتساعد في حمل البناء، فلا تتزحزح.

تتابع ليزا: «لا أحتاج إلى الملجأ في الصيف على أي حال، لكن الآن يزداد الطقس برودة، وعما قريب لن يتوفر المزيد من الطعام».

وعندئذٍ تفهم آنا استينا سبب اصطحاب ليزا لها إلى هنا.

تقول آنا ستينا: «تنوين المغادرة».

لا تتلقى إجابة سوى الصمت، وهو بليغ بما يكفي.

فتتابع: «ألا يمكنني الذهاب معك؟».

ترفع ليزا بصرها وقد انتُشلت من أفكارها، ثم تقطب حاجبيها وتهز رأسها قائلة: «لِم لا؟ توجد قواعد يلتزم بها الذين يعيشون مثلي، وقد خرقتِها سلفًا. يجب ألا تنشئي أي علاقات لا تستطيعين تخليص نفسك منها في الوقت الذي تستغرقينه للنهوض وإلقاء الصرة التي تحوي جميع مقتنياتك على ظهرك. يجب تجنب رفقة الآخرين، النساء سيئات، ربما يكن لا بأس بهن وهن منفردات، ولا أكثر من هذا، ليس من السهل على الإطلاق فهم نياتهن، التي كثيرًا ما تكون خبيثة، والرجال يسهل فهمهم لكنهم أشد خطورة، يريدون ما هو ملكك وما من أكاذيب يتورعون عن قولها لينالوا مبتغاهم، وإذا مُنِعوا يستخدمون القوة، ثم في نفس اللحظة التي يتعين عليهم دفع ثمن متعتهم، يرحلون، ولا تجدين لهم أثرًا، يتركونك تدفعين الثمن وحدك. لكن الأطفال أسوأ، عبؤهم ثقيل، وقريبًا سيغدو هذان ثقيلين فلا تستطيعين حملهما، سوف يقيدان حياتك، ولن تتخلصي من قيدك أبدًا، إنهما ثقيلان منذ الآن، حالما تتدبرين أفضل طريقة لحملهما معًا، سأرحل، ولن تتمكني من اللحاق بي أبدًا».

- ماذا لو ساعدتِني؟
- إذا كان طفلًا واحدًا فقط، ربما، لكن الوضع متعذر مع الاثنين. عليك أن تجدي لهما مكانًا آخر.
- أين؟

تتبع نظرات ليزا عبر الأشجار، حيث تُلمح «مدينة ما بين الجسور» بين أعمدة الدخان وقمم الأبراج الحادة.

الفصل التاسع والخمسون

تعرف آنا استينا مكانًا وحيدًا يمكنها أن تجد فيه شيئًا يشبه المساعدة، لكن الطريق طويل وعليها أن تستعد بحذر، سيتعين عليها العودة قبل أن يخفي الظلام دروب الغابة التي تعرفها معرفة جيدة في النهار. تستيقظ في الليل، وتنفخ في الجمرات لتدفئ الحجارة المسطحة، ثم تلفها بقطعة قماش حتى تمد ليزا والطفلين بالدفء لأطول مدة ممكنة. تتحرك بهدوء لئلا توقظهم. يقترب فجر اليوم الجديد، الغيوم خفيفة، ولا تبدو مهدِّدة بهطول أمطار. تعتصر ثديها بكل ما تملك من قوة لتفرِغ كل قطرة لبن في قدح حتى تعطيه ليزا للطفلين عبر خرقة يمتصانها. تقبِّل ماجا وكارل قبلات الوداع، ثم تهرع مبتعدة عبر الغابة، وتسلك الطريق الطويل حول بوابة الجمارك، وتعبر الضواحي المنحدرة الواقعة في شمال المدينة، وسرعان ما تجد نفسها قد عادت إلى «مدينة ما بين الجسور».

تستفز المدينة جميع حواسها بعد صيف أمضته في الغابة، لا تصدق أن هذا هو المكان الذي عاشت فيه طوال حياتها، تنقلب معدتها عندما تذكِّرها ريح تهب من البحيرة بـ «ملتقى الذباب»، وترغِمها على التنفس عبر فمها. الناس في كل مكان، فوضى وحركة دائبة، الحشود عظيمة في الأزقة، عمال المزارع وأبناء الشوارع والسادة دومًا على وشك الاصطدام في خضم محاولتهم تجنيب أحذيتهم مجاري التصريف، تُقاد الماشية فترغم المشاة على التدافع أكثر نحو أطراف الشارع، وفي الحشد تتسلل الأيدي الرشيقة إلى الجيوب، وتتمزق الحقائب، وتصوَّب المرافق إلى صدور الغرباء، وترتطم عصي المشي بالسيقان، وكل شيء يرافقه سباب بذيء.

- انتبه لما أمامك يا هذا!!

- الكمه في وجهه!

- خنزير!

- نذل!

- أوقفوا اللص!

تُرغَم على تغطية أذنيها بيديها حينما ترن الأجراس من جميع الاتجاهات معلنة انقضاء ساعة. وعندما تختار طريقًا مختلفًا لتبتعد عن الحشود، يُظنُّ بها ما لا تتصف به، فتتفاجأ بشاب يرتدي معطفًا مُقلَّمًا وقبعته مائلة بزاوية صارخة، يحاصرها عند جدار ويُسمِعها رنين النقود في محفظته وهو يغمز لها ويهمس في أذنها.

يقول: «أحلى صباح يا صغيرتي، تتمددين على ظهرك للحظات خلف الزاوية وستكون مكافأتك شلنين في يدك وملء ملعقة مني، لستُ متطلِّبًا، سنفعلها كما تشائين».

تراوغ مبتعدة منه وتهرع نحو قنطرة بولهيم.

لا تعرف آنا استينا سوى اسم الشارع، وغير متأكدة من الباب الصحيح، المبنى لا يقدم لها أي تلميح، وعندما تشعر بأن الوقت ينفد منها تختار أحد الأبواب عشوائيًّا. وبعد عدة طرقات تفتح امرأة الباب، وعندما تسمع من يُسأل عنه، تنظر إلى آنا استينا من أعلى إلى أسفل نظرة قاسية.

وتقول: «خذيها نصيحة، سأفكرُ مرتين قبل التورط مع أمثاله».

- ما كنتُ لأتردد إذا كان لدي خيار آخر.

تومئ المرأة، ويلين شيء في وجهها الصارم، ثم تشير برأسها إلى الجانب الآخر من الشارع.

وتقول: «إذن ابحثي عن باب أسود كروح صاحبه، لكن تجدر بك معرفة أنني أعيش هنا منذ سنوات عديدة ونادرًا ما رأيت أحدًا يجتاز عتبة بابه بكامل إرادته، معظمهم يُجلبون إليه وهم يرفسون ويصرخون».

تثني آنا استينا ركبتيها شاكرةً المرأة التي سبقتها بإغلاق الباب، وسرعان ما تجد ما تبحث عنه في الاتجاه الذي أشارت إليه المرأة، ويُفتح باب فتحة ضيقة فيكشف عن وجه متجهم.

يقول: «ماذا؟».

- أريد مقابلة دوليتز.

- اغربي عن وجهي يا فتاة، قبل أن أخرج وأصفعك.

- قل له إن أرملة كريستوفر بليكس هنا لمقابلتك.

الفتى لم يصف لها الغرفة، ولا الرجل القاعد خلف المكتب الذي يستقبلها الآن دون أن يكلف نفسه عناء رفع بصره عن أوراقه، تبدو عليه أول آثار التقدم في السن لكنه ما يزال يشع قوةً، هجر الشعر قمة رأسه وما بقي حول صدغيه ومؤخرة رأسه مقصوص قصة قصيرة وقد وَخَطه الشيب، يرتدي ملابس أنيقة مترفة غير مبهرجة، قميص وصدرية، وقطعة حرير مربوطة حول عنقه، وتثبت ياقوتة ربطة عنقه، تومض تحت ضوء الشموع وهو يجمع أوراقه في حزمة ويلتفت إليها، عيناه زرقاوان باهتتان ولا تشيان بأي انفعال.

قال: «كنت حتى هذه اللحظة أظن أن شأني قد انتهى مع السيد بليكس الشاب، وحقيقة تسميتك نفسك أرملته لا تغير من الأمر شيئًا».

تتذكر اليوم الذي استُدعيت فيه للمثول أمام إلياس ليساندر بشأن اتهامات ممارسة الدعارة، المشهد مشابه، إذ تقف أمام رجل ذي سطوة، وأحد أعوانه ينتظر في الأروقة. بيد أن الوضع مختلف أيضًا، فهذا الرجل يبث فيها خوفًا أشد، رغم أنها جاءت إليه طواعية.

تهز رأسها وتقول: «لم آتِ نيابة عن كريستوفر، أتيتك من أجلي».

يرفع دوليتز أحد حاجبيه، ولكانت حركته هذه غير مرئية لولا الضوء من الطاولة الذي يملأ كل خطوط وجهه بالظلال، فيجعل ملامحه بارزةً بشعة.

فتتابع: «أخبرني كريستوفر بما تفعله، إنك تُقيِّم سمات الشخص وقدراته وتجد مشتريًا له، تنال سلطتك على بضائعك بالاستحواذ على ديونهم. هذا ما أريده لنفسي، ليس إكراهًا بالدين، إنما بإرادتي الحرة مقابل مبلغ».

- إذن ابحثي عن عمل كالآخرين.

- ما من عمل لأمثالي.

- جميع النساء وُهِبن ما يرغب الرجال في الدفع من أجله، وأنت أوفر حظًّا من كثيرات، كل ما عليك فعله هو الوقوف عند ركن شارع، وسريعًا سترين الدخل يُقبِل متراقصًا نحوك من تلقاء نفسه.

تبادله النظرات وتقول: «لا».

يصمت هنيهة ويدعها تتابع: «لم يبق لي أحد، كريستوفر مات، جزئيًّا بسببك، ترك ملابسه على الشاطئ ومشى على جليد عمره يوم حتى لم يعد يتحمل وزنه».

يطلق دوليتز ضحكة جافة مقرقعة ويقول: «تقولين إنك تعرفين من أنا وما أفعله، ورغم معرفتك تأتين هنا محاوِلةً استدرار تعاطفي؟».

- ما كنت لآتي إذا ليس لدي شيء ذو قيمة يمكنك بيعه.

يميل إلى الوراء وينظر إليها مستغرقًا في التفكير، وترى آنا على وجهه طيف ابتسامة ازدراء وخُبث.

يقول: «أريني إذن».

تأخذ آنا استينا نفسًا عميقًا وتتقدم حتى تقف أمام المكتب مباشرةً، تتجلَّد للحظة ثم تغرس عينيها في عينيه، وتمد يدها اليسرى وتثبِّتها فوق شعلة الشمعة. إذا دُهش دوليتز بهذا الفعل فهو يجيد إخفاء دهشته، يتابع يدها بنظراته، لكن العينين الزرقاوين تعودان سريعًا لتتفحصا وجهها.

لا يشتد الألم تدريجيًّا، كما كانت تظن، إنما فورًا، كأنها تمسك مقبض غلاية ساخنة لدرجة الاحمرار، تعض الشعلة الحارقة يدها بأسنان رهيبة،

تنهار جدران العالم فيما حولها وتتقلص إلى نقطة واحدة مرتعشة حيث تلامس النار اللحم.

تحتاج إلى كامل إرادتها كي تبقي عينيها مسمَّرتين بوجه دوليتز اللامبالي، ليس بمقدورها السماح لنفسها بالإشاحة بوجهها. وفي أفكارها تبحث عن كارل وماجا، ولا تجد سلوانًا، يُحكِم الألم قبضته عليها ويتحول إلى صور في ذهنها، فترى جلدها يتفقَّع ويسود، تذوب الدهون مصدرةً هسيسًا، وتنبجس أخيرًا، تُحدِث النار ثقبًا، وبداخله يتعرى العظم أسود، يهسهس دمها بينما النار تواصل النهش متعمقة، يتباطأ الزمن، ويستمر التبريح.

تمر مدة قبل أن تدرك أن شيئًا حدث، وعندما تستعيد حواسها تجد أن دوليتز قد أبعد ذراعها عن حرارة اللهب، تلسعها يدها، لكن عندما تنظر إلى راحة يدها لا ترى سوى بضع بثور وهالات حمراء.

قال: «فهمت المقصد. لا داعي للإضرار بيدكِ إلى الأبد».

يلتفت إلى خادمه ويقول: «أوتوسن، اجلب كرسيًّا للأرملة بليكس واطلب من إهرلينغ أن يأتي بمسكِّن للجرح».

وفي أثناء جلوسها ويدها مضمدة بخرقة مبللة بماء بارد، يُخرِج دفترًا ويفتح صفحة خالية.

ويقول: «ما اسمك؟».

- آنا استينا بليكس.

- أخبريني بما يمكنك عمله.

تقول كل ما لديها وتدرك أنه ليس بكثير، تفكر بكل ما مرت به، تروي قصتها، وتتعجب من مدى الأثر الذي يتركه عام واحد في المرء، لكن في خضم ذكرياتها تجد صعوبة في تحديد أي مقدرات من النوع الذي يمكن لرجل مثل دوليتز أن يجني منها ربحًا، وتلاحظ حيرة دوليتز أيضًا، ليس من وجهه الهامد، إنما من الملاحظات القليلة المتفرقة التي تخطها ريشة الإوز على الورقة. ما من كثير يُقال عن آنا استينا بليكس، كناب سابقًا، ليست سوى

جسد في طريقه إلى التحلل كجميع الآخرين، لا يصلح لشيء غير تأجيره على فراش ما دام محتفظًا بشبابه. وأخيرًا يضع ريشته على مكتبه، رغم استمرار كلماتها المترددة، وعندما تفرِغ كل ما في جعبتها، يظل جالسًا ساهمًا بلامبالاة.

ثم يقول: «أهذا كل شيء؟».

لا تعرف ما عساها تفعل سوى الإتيان بإيماءة. يدوي غلاف دفتره عندما يغلقه. تعرف أنها ستغادر وقد خاب أملها، كان ينبغي أن تكون أدرى من أن تُغرى بمثل هذا الأمل العقيم، تنهض لتغادر، وتحس بخزيها من غبائها كأنه نَيْر على كتفيها، وجرح يدها اليسرى يذكِّرها أيضًا بمدى حماقتها.

يقول: «أتعرفين الحانة التي عند «استراحة الصياد»؟ ستعرفين يوم الأحد عندما تسمعين أجراس المدينة داعيةً للقداس. إذا احتجت منك شيئًا فسأرسل أحد رجالي في الصباح ليعقد شريطًا أحمر في ركن الدار، سوف ترينه إذا ذهبتِ إلى شاطئ الخليج، وعندما ترينه عودي إلى هنا».

الفصل الستون

- رأيتكِ في الصباح بعدما شربت من كوبك، ما الذي كنت تفعلينه؟

تتفاجأ ليزا للحظة بسؤال آنا استينا.

ترد: «كنت أقرأ أوراق الشاي. قابلت امرأة قبل مدة طويلة علَّمتني كيفية قراءة الطالع».

- وما الذي رأيتِه؟

تهز كتفيها قائلة: «شتاء قاسٍ هنا في الشمال، لن أتمكن من تجنبه بسهولة. وخطر ينتظرني في تيفيدن».

- هلا قرأتِ الأوراق مرة أخرى لي ولطفلَيَّ؟

تتردد ليزا، ثم تهز كتفيها مرة أخرى وتضع الغلاية على الجمرات حتى يغلي ما تبقى من ماء، وتومئ لآنا استينا.

وتقول: «عليك أن تعدِّي المشروب بنفسك، وإلا فلن أرى شيئًا».

تتبادلان الأماكن. تهدئ ليزا الصبي الذي يستيقظ عندما يحس بغياب أمه، وتضع يدها على صدره. تنثر آنا استينا أوراق الفراولة الجافة في قعر الكوب وتصب عليها الماء الساخن، وتنفخ على السطح حتى يبرد، ثم ترشف ببطء حتى تتبقى الثمالة في القعر. تمد ليزا يدها، فتناوِلها آنا استينا الكوب، وتنهض ليزا وتستدير مبتعدة بضع خطوات وهي تقرأ ما تقوله الأوراق، تتمهل قبل أن تقرفص لتنظف الكوب بغصن، وبعدما تفرغ تضعه فوق كومة مقتنيات آنا استينا.

ثم تقول: «سيكبر طفلاك أقوياء أصحاء، وستكونين معهما، وستكونون سعداء معًا».

- لماذا تبكين؟

- هبت ريح عبر الأشجار وأدخلت الغبار في عيني.

الهواء ساكن تحت غطاء قمم الأشجار والكذبة واضحة للغاية.

- ما الذي رأيتِه في الأوراق؟

تجفف ليزا المهجورة خديها وتهز رأسها وتقول: «رأيت ما أخبرتك به للتو. إنها دموع غيرة فحسب من السعادة التي ستكون من نصيبك وليست نصيبي».

تظلان جالستين جوار النار حتى ساعة متأخرة من الليل قبل أن تأويا إلى فراشهما. تجد يد ليزا يد آنا بين أنفاس الطفلين الهادئة، وهكذا يغشاهما النوم وأيديهما متشابكة.

الفصل الحادي والستون

تستيقظ ليزا المهجورة في جوف الليل، وقد شربت قبل نومها كمية مياه أكثر بكثير مما ينبغي، رشفة تلو رشفة كي تملأ بطنها بما يكفي لإيقاظها قبل الفجر، وكان بوسعها أن توفر على نفسها العناء، إذ لم يغمض لها جفن، ظلت مضجعة ساكنة تحاول نيل كفايتها من الاستماع إلى الأنفاس الهادئة. تنسل بصمت من تحت البطانية، وتشدها حول كارل، الذي كان ينام جانبها والآن ينقلب ويجد نفسه أقرب إلى أمه. تهرول ليزا مبتعدة بين الأشجار وتقرفص خلف الشجرة المقلوبة التي اختارتاها لهذا الغرض، ترتجف والبرد يبعث القشعريرة في ساقيها العاريتين، وتسعد عندما تعيد تنورتها حول خصرها مرة أخرى. تعود إلى جوار النار، كل شيء على ما يرام، مقتنياتها جاهزة لحزمها في صرتها، كل ما يصدر رنينًا مغلف بقماش كاتم للصوت. لا تريد أن تودِّعهم، إذ ليست واثقة من أنها تتحلى بالقوة الكافية.

كانوا ينادونها بالمهجورة جاعلين منها موضع سخرية، الذين حرصوا أشد الحرص على ألا تعقد أي صداقات، أولئك الذين يحسون بقيمة أنفسهم بالتقليل من شأن الآخرين، كانت تشعر بالخزي في البداية، لكن هذا كان منذ مدة طويلة. الاسم الذي أطلقوه عليها جعلته اسمها، لكنه جاء بثمن باهظ. حتى بالنسبة إلى شخص مثلها يصعب فصم العُرى التي طال وجودها، ربما يكون السبب هو أن خدَّها المبقَّع لم تداعبه يدٌ قط، لكن حتى أي لطمة ربما تكون أفضل من الوحدة. بيد أنها اعتادتها وتمرست عليها، نُسي الألم القديم، وكل ما كان يؤلم في الماضي صار خَدِرًا تحت ضمادة الزمن المنقضي. لكن هذا الصيف سيصعب نسيانه. أمامها الكثير الآن، لا بد أن تبدأ من جديد، أن تتعلم كيف تعيش دون رفقة، وأن تتقن فن العزلة مرة أخرى.

تعزّي نفسها بفكرة أن رحيلها يصب في مصلحتهم أيضًا، فبصحبة آنا استينا سيكون إغراء الاعتماد على قوتهما المشتركة طاغيًا، إغراء أن تخدع نفسها بأنهما تتحليان بالجَلَد الكافي للصمود في الشتاء ونيل جائزتهما ببلوغ الصيف القادم. تعرف كيف سينتهي الأمر على الأرجح، ذات يوم ستمشي إحداهما على الثلوج وتتعثر في جُحر غُرَيرٍ ما فتكسر ساقها، وفجأة يتعين على شخص واحد إطعام أربعة أفواه، لن ينجو أي واحد منهم من «الفيء العظيم»، وليزا -التي تفوق معرفتها بالشتاء في البرية معرفة أي أحد- سوف تنوء بعبء الإحساس بالذنب.

تسير نحو المرج وتجمع بعض الألعاب التي تُركت على القبور، قطة مصنوعة من خِرق متشابكة لكارل، وحصان منحوت لماجا، ولكليهما كرة محشوة ورجل خشبي منتصب على قاعدة مستديرة. تعود بذراعين مليئتين وتضع الهدايا حيث سيجدها الطفلان حالما يستيقظان.

تمسح على خدود ابنيها بالمعمودية قبل مغادرتها، والقبلة التي تطبعها على جبين آنا استينا تجعلها تتمتم قائلة شيئًا وتنقلب قلقة في نومها، متحسسة بذراعها حتى تستشعر الدفء من الحجر الذي وضعته ليزا المهجورة في مكانها. ولا تدرك ليزا إلا بعدما تبتعد قرابة ميل أنها نسيت أن تودع قبر ابنها، فتتذكر أن الجراح النازفة وحدها كفيلة بحجب الندوب القديمة.

الفصل الثاني والستون

لا تستطيع آنا استينا أن تعد رحيل ليزا خيانة، إذ تدين لها بالكثير. وليس الطفلان وحدهما هما من يستيقظان ويجدان الهدايا، إذ تصطف جميع الأشياء التي تقدر ليزا على تدبر أمرها من دونها، ولولاها لعانت آنا استينا معاناة شديدة. عندما تخبو آخر الجمرات تفكك آنا استينا حلقة الحجارة وتهيل التراب على موضع النار المسود، وتزيل كل آثار بقايا المخيم، ثم تحمل طفليها إلى المغارة.

أغصان أشجار الغابة ما تزال تهِب الفواكه أحيانًا، وما يزال السمك يبتلع الطعم. تجمع آنا المزيد من الطعام متى ما استطاعت لتزيد من مخزونها، لكنها سرعان ما تكتشف أن آخرين يريدون المؤونة التي تجمعها، فذات صباح تجد جرذًا في كومة التفاح التي راكمتها جوار جدار المغارة، يزحف متعثرًا ويعيث فسادًا في نظامها، ويفحُّ غاضبًا عندما تضربه بغصن. وتدرك آنا استينا أنها ليس بمقدورها الاحتفاظ بمخزونها في نفس المكان الذي ينام فيه طفلاها، ماجا وكارل ما يزالان يجهلان المخاطر التي تحيق بهما، ولم يتذوقا طعم العوز قط. ينهشها القلق.

تشاهد مدهوشة مدى ازدياد تجاوبهما مع بعضهما يومًا تلو يوم، كثيرًا ما ينقلبان على جانبيهما كي ينظرا إلى وجهي بعضهما ويبتهجان بمرآهما، هي تبادر وهو يتبعها، عندما تتحرك ماجا يقلد كارل حركتها، تنتهي كل تلويحة بأصابع متشابكة ويمسكان ببعضهما، يطرحان الأسئلة ويجيبان عنها بالمناغاة والبأبأة، كما يضحكان وينتحبان معًا، لم يعد بالإمكان فصلهما عن بعضهما دون أن يرتفع عويلهما، حتى وهي تعتني بهما تتدبر وضعية

تجمعهما معًا، تغني لهما، أغنيات كلماتها وألحانها عفا الزمن عليها، أُوقظت من سباتها في ذاكرة آنا استينا منذ أن كانت في مهدها.

تصغي إلى الأجراس بانتباه كل صباح، وعندما يأتي يوم الأحد تغلق مدخل المغارة بالأغصان وتدحرِج صخرة كبيرة إلى أعلى الرابية لتأمين المدخل، فيبقى خلفه صغيراها بمأمن من الثعلب. تهرع إلى شاطئ الخليج، لكنها لا ترى شريطًا أحمر يرفرف على جانب الحانة.

وفي اليوم التالي تسمع وقع أقدام شخص غريب لأول مرة منذ مجيئها إلى «الفيء العظيم»، خطوات ثقيلة تسحق الأغصان والأوراق على الأرض، ويدان تزيحان فروع الأشجار جانبًا فينطلق سيل سباب عندما ترتد وتصفعه. القادم رجل، من عساه يكون؟ يصدر جلبة متقدمًا كأنه يخوض معركة مع الغابة نفسها، كأنما كان ينبغي للأشجار أن تتعقل وتعرف من هو وتبدي له الاحترام الذي يستحقه. أمثاله يثيرون اشمئزاز آنا استينا، فتمسك بمقبض سكينها الصغير الذي يُرثى له، الأداة الوحيدة التي تملكها للدفاع عن نفسها، سعيدةً بأن خوفها الذي تحس به يتحول إلى غضب بسهولة. وفجأة تعرف القادم، إنه إهرلينغ، رجل دوليتز، الذي يطلق سبابه بلكنة ثقيلة، وعندما تُظهِر نفسها، يضع يديه على ركبتيه ويمسح جبهته اللامعة مطلِقًا تنهيدة ارتياح، ولا يلقي بالًا للمدية الصغيرة اللامعة التي تمسكها بين أصابعها المبيضَّة.

قال: «حمدًا للشيطان، السيد يريدك، الأمر عاجل».

ينعش نفسه من قارورة ثم يلوح بيده ناحية الاتجاه الذي يظنه الصحيح ويقول: «إنه ينتظر عند بوابة الجبايات بنفسه، لا يمكننا إهدار أي دقيقة».

ينتظرها دوليتز في المبنى المتضعضع الذي شيِّد على عجل ليكون حانة للذين يحتاجون إلى شراب ليتجلَّدوا وهم في طريقهم خارجين من المدينة أو داخلين إليها، يرتدي عباءة فوق ملابسه الراقية، ويعتمر قبعة متدلية فوق

عينيه. المكان خالٍ تقريبًا، وعندما يلقي أوتوسن على الساقي نظرة ذات مغزى، يتخلص من بقية الزبائن بذريعة أن وقت الإغلاق قد حان.

قال: «السيدة بليكس، اتضح أنك تملكين خبرةً أصبحتْ فجأة سلعة مرغوبًا فيها».

يدعوها للجلوس ثم يتابع: «أخمن أن شؤوننا في المدينة لا تبلغك في بيتك الريفي».

- أجل.

- ما من كثير تحتاجين إلى معرفته. بعد أسبوع، في الثالث والعشرين من هذا الشهر، ستُنفَّذ عقوبة جَلد أمام «قاعة النبلاء»، شُيدت منصة، سوف تُجلب إليها امرأة وتُقيَّد إلى هيكل التعذيب، ثم تتذوق السوط. سوف تذهبين إلى هناك وتلقين نظرة فاحصة على وجه المرأة حتى تميزيها إذا رأيتِها مرة أخرى. هذه نهاية قضية شغلت المملكة بأسرها خلال العام الماضي، وباستثناء لصوص المنازل الجريئين وأسوأ السكِّيرين سوف تحتشد المدينة بأكملها في الساحة، فلن يكون من السهل الاقتراب بما يكفي لإلقاء نظرة من كثب.

تومئ.

فيتابع: «وبعدما يكمل آمر السجن مهمته، سوف تُقتاد الآثمة إلى عربة ستذهب بها إلى حيث ستقضي بقية عقوبتها، على الأقل إلى أن يبلغ ولي عهدنا سن الحكم. هذه سجينة رفيعة الشأن، يليق بها قفص ذهبي، وحاليًّا يُجهَّز لها بيت قس قديم حتى تقضي فيه عقوبتها في وضع مريح، لكن أعمال الصيانة لم تكتمل بعد، وحتذاك سوف تُحتجز مؤقتًا. القمر مكتمل الآن وفي الخامس والعشرين سيضمحل وستكون السماء مظلمة كالقبر. أتعرفين الاسم الذي يطلقونه على الليلة في «مدينة ما بين الجسور»؟».

تعرفه بالطبع.

قالت: «ليلة اللصوص».

- سوف تتسللين إلى الغرف التي أُعِدت للمرأة، وتعطينها هذه لتقرأها، وتنتظرين حتى تكتب ردًّا، ثم تأخذين ردها معك، وتحضرينه لي.

يدفع دوليتز ظرفًا على الطاولة، مغلق بشمع لامع، ولا تستطيع آنا استينا إخفاء تشوشها.

قالت: «قلتَ إنني أملك خبرة لا يملكها سواي وإن أحدهم يحتاج إليها، ويبدو لي أن هذه المهمة سيقدر كثيرون على أدائها أفضل مني».

يبتسم دوليتز ابتسامة باهتة ويهز رأسه قائلًا: «صدقي أو لا تصدقي، أنت الشخص الوحيد الذي يعرف مدخلًا سريًّا إلى المشغل في جزيرة «الندبة»، سوف يحتجزون المرأة هناك، في جناح أُثِّث على عجل لهذه المناسبة. زحفتِ عبر أساسات المبنى، عبر ثقب في قبو المبنى القديم. عليك أن تعودي من حيث خرجت، ثم تخرجي مرة أخرى، إذا لم تعثري على مخرج أسرع».

تعود إليها الذكريات سريعًا، ضغط الحجارة الخشنة حول صدرها، تفرُغ رئتاها ويستحيل تنفسها، النفق الذي صار قبرًا موحشًا لآلما غوستافستودر. تنقطع أنفاسها كأن الحجارة تشدد قبضتها عليها من الآن كي لا تفوت فرصة أخرى للقبض على التي أفلتت ذات مرة. يترقب دوليتز ردها.

يقول: «أتفهم ترددك، إذا فشلتِ فستقعين في أيدي المراقبين مرة أخرى، وستعيشين من جديد الكابوس الذي ظننت أنك استيقظت منه، كابوس أسوأ على الأرجح. سأقصِّر عليك عناء التفكير يا آنا استينا كناب، لأنك ليس لديك أي خيار. أنا متأكد أنك تظنينني شخصًا سيئًا، لكن أجزم لك أن من كلَّفوني بهذه المهمة أسوأ مني بكثير، هذه المسألة أكبر مني ومنك، وفي سبيل مسعاهم مستعدون للتضحية بفتيات كثيرات، لا سيما اللاتي لن يثير اختفاؤهن أي تساؤل، هؤلاء أناس مجرَّدون من أي وازع، كما هو شأن أصحاب الأهداف العظيمة. أخطرتهم باحتمال صعوبة إقناعك، فقالوا لي إنك إذا لم تشقي طريقك إلى المشغل طواعيةً فسوف تُجلَبين إليه مقيدة وتُتركين تحت رحمة المراقبين».

تجد أن كلماته تحمل وقْع الحقيقة القاسي، ويغمرها ارتياح لعدم اضطرارها إلى الاختيار. تبادله نظرات ثابتة، دون أن تُظهِر مشاعرها.

وتقول: «المبنى مليء بأبواب موصدة لا يمكنني اجتيازها».

الرد السريع يُخرِس دوليتز لوهلة، فلا يتمكن من استجماع شتات نفسه إلا بصعوبة بادية، ويخرِج حلقة مفاتيح من جيبه.

ثم يقول: «هذه حلقة مفاتيح من النوع الذي يحبه عديمو الضمير إذ يجنبهم كسر الأبواب التي تعترض طريقهم. الأقفال قديمة ومن نوع مألوف، إذا لم ينجح مفتاح فسينجح آخر».

يميل إلى الأمام ويضم أطراف أصابعه إلى الأعلى فوق الطاولة، ويبدو من تعابير وجهه أنه مشغول البال. كان يقول تعليماته السابقة بصوت صارم.

وتتفاجأ آنا استينا بتغير نبرته إذ يكلمها كأنهما نِدَّان: «ما زالت أمامنا مسألة الاتفاق على سعر خدماتك».

- مئتان. مبلغ مهري من كريستوفر، المال الذي استخدمتُه لتحسين المنزل الذي طُردت منه بعدما وُصفت بالمحتالة.

يتراجع في كرسيه عابسًا ويقول: «تطالبين بثمن بخس، صاحب العمل الذي ذكرته وأتكلم بالنيابة عنه مستعد لمنحك المزيد، إذا أعطيتِني عُشر المبلغ مقابل أتعابي، فسأحرص على أن يدفع لك أكبر مبلغ ممكن».

في النهاية تُظهِر السلطة الوحيدة التي لديها، الوحيدة التي عرفتها في حياتها: سلطة الرفض. إذ تستعيد احترامها لنفسها بكل قطعة نقود ترفضها.

تقول: «لا. تلك المئتان هي المبلغ الذي يدين به العالَم لي، إذا تلقيت أي مبلغ أكثر من هذا فسأكون أنا المدينة. لا أريد المزيد».

ينظر إليها مدة طويلة، ثم يذعن لقرارها ويقول: «فليحالفك الحظ».

الفصل الثالث والستون

تُرضع آنا استينا ماجا وكارل حتى يصدِر اللبن في جوفهما بقبقة وهي تهدهدهما ليناما، ويمدهما بالدفء حجرٌ ساخن أملس ملفوف بالبطانية. تغلق مدخل المغارة بالأغصان المنسوجة وتتحقق منها ثم تنثر الأوراق لتخفي المدخل. تنظر إلى موضع الشمس، فتجد أن عليها العودة في غضون ثلاث ساعات، أو أربع على أبعد تقدير، وتلقي نظرة أخيرة قلقة على المدخل الذي لم يعد يُميَّز عن الرابية المحيطة به، ثم تهرع مبتعدة نحو «مدينة ما بين الجسور» مدركةً أن كل لحظة محسوبة عليها.

الحشود كثيفة منذ الآن على الجسرين، تنزلق بين المرافق والأوراك ممتنةً لجسدها النحيل وهي تشق طريقها إلى «جزيرة الفرسان»، وترى على قاعدة حجرية تمثالًا برونزيًا لملك ينظر إلى الأفق لا مباليًا بالهرج والمرج، وعند الجسر يقف أفراد من «الفرسان الملكيين» متأهبين جوار المدافع التي دُحرجت إلى مكانها لتصد تدفق الناس. تمر آنا استينا فلا تلفت انتباه أحد. وعلى الجانب الآخر من المياه، تبدو الأرض كأنها رُفعت وغُطيت برؤوس بشرية من كل نوع، لا يُرى حجر رصف واحد بين الحشد. وعندما تلتفت آنا استينا ترى أطفال الشوارع قد تسلقوا الأسقف ليحظوا برؤية أفضل. الساحة نفسها مكتظة وتضيق بمن فيها، من الذين ضُغِطوا على جدران الكنيسة إلى الذين يتدافعون مذعورين لتجنب السقوط في القناة أو فوق حاجز الجسر، ومن حين لآخر تشهد الصرخات وأصوات الارتطام بالماء على عدم نجاح الجميع،

تتبعها ضحكات مرحة صاخبة من الصيادين الذين يجدفون بقواربهم لإنقاذ الذين يوشكون على الغرق من مصيرهم مقابل محتويات جيوبهم.

تستمر الأزقة في لفظ الناس إلى الحشد الهائل لدرجة أن آنا استينا لا تصدق أن المدينة تؤويهم جميعًا. في منتصف الساحة تبرز المنصة فوق الجمع الغفير، وعلى سلالمها الخشبية ينتظر آمر السجن، معتمرًا قلنسوته، كما يقف جوار هيكل التعذيب ضابط متزين بالذهب ويداه خلف ظهره، يرسل بصره فوق رؤوس الناس متوترًا وهو ينقل وزنه من قدم إلى أخرى، وحول المنصة يقف الحراس مجتمعين وكل واحد منهم يحمل قضيبًا طويلًا، وقريبًا سيمثِّلون سياجًا بشريًّا لصد الجموع.

الناس مختلفون عن الذين اعتادت آنا استينا رؤيتهم، والأجواء مغايرة عن أجواء العقوبات العلنية التي شهدتها قبل أن تكبر وتقرر عدم حضورها، ليس الرعاع النزقون وحدهم هنا، المتحمسون لنسيان كدحهم اليومي بإشباع تعطشهم للدماء، إنما يبدو لآنا استينا أن استوكهولم قد خرجت عن بكرة أبيها، علية القوم والوضيعون كلهم حاضرون، وكل نافذة في أجنحة القصر المحيط بالساحة مكتظة بالنبلاء الذين يميلون إلى الخارج لأقصى حد يجرؤون عليه ليحظوا بنظرة أفضل، والذين عجزوا جاؤوا بعرباتهم كي لا يتدافعوا بالمناكب مع العامة، والنساء كثيرات بقدر كثرة الرجال.

تتفشى قلقلة بين الحشد، كسطح ماء أُلقيت فيه حصاة، إذ لُمحت العربة، لكن المرأة التي ترتدي الأسود والبني تُرى عند بوابة دار القضاء تتحاشى العربة وتسير خارجة من البوابة بنفسها، تهبط السلالم وتتجه إلى المنصة. يوصل الحراس قضبانهم فيكوِّنون سلسلة، ويدفعون الحشد بكل ما أوتوا من قوة، فيُخلى ممر كافٍ لسير المُدانة عبر الساحة مع ضابطين إلى جانبيها، نحو هيكل التعذيب.

تبدأ آنا استينا شق طريقها إلى الأمام، مقتربة شيئًا فشيئًا، منحنيةً تحت المرافق ومتراقصةً بين السيقان، تحتاج إلى بلوغ المقدمة حتى تتمكن من الرؤية، تسمع همهمة الناس ولغطهم فيما حولها.

يهمس رجل يرتدي معطفًا أنيقًا وصدرية مزركشة همسًا متكلفًا لرفيقه: «هل صارت استوكهولم مثل باريس الآن؟ يُرسل الأرستقراطيون إلى منصة

التعذيب من أجل تسلية الدهماء! سحقًا! إننا نعيش عصرًا مظلمًا يا أخي، لم أحسن الظن قط بريوترهولم، لكن حتى أنا لم أتهمه بأنه يعقوبي».

وبعد مدة قصيرة تمر برجل بدين يرتدي ملابس ملطخة يستثير ضحك رفاقه صائحًا بالسجينة: «مالا! مالا رودينسشولد! متى سيحين دوري؟ من بين جميع سكان استوكهولم بقيت أنا والدوق كارل اللذان لم تضاجعيهما بعد!».

مجموعة صغيرة من النساء يُشهرن أصابعهن الوسطى: «عاهرة!».

وتسمع السبابَ امرأةٌ أخرى على مقربة فتفحُّ في أذن رفيقتها: «صه! إذا كانت متعقلة وتصرفت كعاهرة حقيقية لكانت حرة كعصفورة، لو كنت مكانها لفتحت ساقيَّ للدوق كارل وأغمضت عينيَّ متخيلةً أنني أضغط آرمفيلت بين فخذيَّ».

تتطاير الشائعات من الألسنة في كل مكان حول آنا استينا، يزعم أحدهم أن البارون ريوترهولم طالب بعقوبة الإعدام لكنه أُرغم على سماع صوت العقل في آخر لحظة، وانتقامًا حرص على أن تُنقع الهراوات التي ستُجلد بها ماغدلينا رودينسشولد في محلول ملحي طوال الليل.

- خائنة! تستحقين ما تنالينه جزاءً لبيعك وطنك الأم!

- عاهرة روسية!

- الآن حان وقت تذوق هراوة من نوع مختلف!

تشق آنا استينا طريقها مقتربة، كطيفٍ تنزلق بين الحشود حتى تتوقف على بعد ذراع من صف الحِراب، وإذا اقتربت أكثر فلن ترى سوى وجه جندي المشاة المتعرق. وعلى بعد بضع أقدام منها تُقاد رودينسشولد إلى أعلى المنصة.

تنتشر موجة حركة في الحشد كأنهم كيان واحد، يتأرجحون للأمام وللخلف، الدفعات المفاجئة من جانب ترغم الجميع على الترنح للأمام والخلف حتى يبقوا واقفين، وتجد آنا استينا نفسها متكئة على فتاة خادمة في مثل سنها، ترتدي سترة دمورية مرقطة ذات أكمام فرنسية وزركشة زرقاء فوق تنورة قطنية بالأحمر والأبيض، وعندما تنظر آنا استينا فيما حولها

ترى أخريات مثلها، فتيات أدركن أن الجموع الغفيرة توفر لهن الأمان وأن المراقبين في هذا اليوم لديهم مهام أهم من تأديب المتأنقات. تلتقي أعينهما وهما ملتصقتان كتفًا لكتف، وتميل آنا استينا مقتربة منها كي تجعل صوتها مسموعًا في خضم جلبة الناس.

وتقول: «من هي؟ ما الذي فعلته؟».

ترمش الفتاة مدهوشة، وتضحك قائلة: «ما الذي تتكلمين عنه؟ في أي جُحر كنت تعيشين؟».

وقبل أن تسنح لآنا استينا الفرصة للرد، تميل مقتربة وتقوِّس كفيها عند أذن آنا استينا، مسرورة بالعثور على شخص لم يسمع القصة إلى حد الملل.

قالت: «أتعرفين آرمفيلت؟ إنه صديق مقرب من الملك غوستاف الراحل، أوسم رجل في المملكة. حتى العام الماضي كانت مالا رودينسشولد السيدة التي تجد حفاوة بالغة في البلاط، والدوق كارل وآرمفيلت كلاهما كانا يتنافسان على خطب ودها، وبطبيعة الحال اختارت آرمفيلت، من عساها ألا تختاره؟ طيب، آرمفيلت منفي الآن، ويحاول استجماع حلفاء لوضع حد لطغيان ريوترهولم، والآن يقال إن مالا هي حليفته وموضع ثقته في استوكهولم، وإنها بذلت كل ما بوسعها لمناصرة قضيته».

تشرئب الفتاة بعنقها لتلقي نظرة أفضل على رودينسشولد وهي تشق طريقها مجهَدة إلى أعلى السلالم.

ثم تتابع: «أتعرفين؟ عندما اقتحم رجال ريوترهولم منزل آرمفيلت وجدوا أكثر من ألف رسالة حب كتبتها مالا محفوظة في صندوق من خشب الورد مغلف بالمخمل الأحمر، ألف! أيمكنك تصديق هذا؟ وقد احتفظ آرمفيلت بها جميعها حتى يقرأها مرارًا وتكرارًا، وبعض أفضل الرسائل طُبعت في صحف الفضائح، أليس هذا رومانسيًّا؟».

نظرة الترقب على وجه الفتاة تتحول إلى خيبة أمل عندما تصعد ماغدلينا رودينسشولد على المنصة وتظهر بكامل هيئتها.

فتقول: «ظننت أنها ستكون أجمل، من كان ليظن أن آرمفيلت ليقع في حب امرأة مثلها؟».

تُسكِت الفتاةُ آنا استينا، رغم أن الفتاة هي الوحيدة التي تتكلم.

وتقول: «ها هم يبدؤون».

لم تشهد آنا استينا حدثًا كهذا قط، فالذين يجتمعون حول المنصة، حسب خبرتها، جميعهم متشابهون، يتقطرون حقدًا وحماسة، بيد أن المزاج العام في هذه الساحة مختلف، يشوبه التردد وتناقض المشاعر. ترى ضابطًا شابًّا ضعيف الشخصية ذا خط شعر منحسر يداري مشاعره بالكاد وهو يقتاد مالا رودنيسشولد إلى هيكل التعذيب ويتركها تحت تصرف آمر السجن، الذي يتردد وهو يقترب منها بسلسلة وطوق عنق حديدي ليثبِّتها على هيكل التعذيب، وعندما تنكمش المرأة من لمسته يتوقف تمامًا، بدلًا من تطويق عنقها بالحديد يقف مرتبكًا، لا أحد يأتي لنجدته، ربما توقع تصفيق الجمهور في هذه اللحظة، وأخيرًا يتقهقر خطوة ويترك السجينة غير مقيدة. يخيِّم السكون على كل شيء، ولا يخدش الصمتَ خادش. يسود هدوء كالذي يسبق العاصفة.

تقف ماغدلينا رودينسشولد في مكانها بملابس بنية ومعطف أسود، ملابس لا تشبه في شيء التي كانت ترتديها للحفلات الراقصة في البلاط، شعرها أشقر، مقصوص قصة قصيرة وممشط بحيث يتدلى على جانبي وجهها، بشرتها شاحبة من الشهور التي أمضتها في الحبس. تظل واقفة في مكانها قرابة نصف ساعة، غاضَّةً بصرها معظم الوقت، لكن أحيانًا تنظر إلى حشد الآلاف. تُقدَّم إليها شربة ماء مرتين، لا أحد يمسها، ولا تُرى أي هراوات جلد. وأخيرًا تترنح، إذ لم تعد ساقاها قادرتين على حمل وزنها، وتتهالك على ألواح المنصة دون صوت، فيهرع إليها أقرب الضباط، ويروِّحون وجهها ثم يقتادونها إلى العربة التي رفضتها سابقًا، وتتدحرج العربة مبتعدة، ويرافقها السباب الذي يكيله الحوذي والحراس وهم يحاولون إرغام الناس على التنحي جانبًا. يجرف الحشد آنا استينا معه، فلا تجد بُدًّا من متابعته ببطء نحو القنطرة، وعلى مبعدة ترى جمهرة من أطفال الشوارع والتلاميذ الحرفيين يتقاطرون ركضًا إلى الشارع أمام العربة ويسيرون كأنهم

في موكب استعراضي، أحد الطبَّالين يرفع مكنسة وآخرون ينثرون نشارة الخشب، ورجال الشرطة الذين يتبعون الموكب يغضون طرفهم. وخلف آنا استينا قريبًا منها يميل إلى الأمام رجل كان يشاهد الأحداث نفسها فوق كتف صديق له.

ويقول: «ألا يفهم ريوترهولم مدى وضوح أنه قدَّم رشوة للشرطة والأطفال المتسولين من خزائن الدولة؟ لو كان الرجل يملك ذرة عقل لتمكن من تلفيق عرض أكثر قابلية للتصديق».

يبصق صديقه في مجرى التصريف قائلًا: «لا أعرف رأيك بهذا الخصوص، لكن بوصفي أحد رعايا المملكة يصعب عليَّ تقبُّل أن أرفع مسؤولًا في البلاد أبله».

- فليكن الرب في عون هذه البلاد المنكوبة.

الفصل الرابع والستون

تهرع آنا استينا لتقضي شأنها الآخر في «مدينة ما بين الجسور». من تقصده لم يعد يقطن الحي الذي تحاول العثور عليه فيه أولًا، لكن أكثر من شخص يعرف المكان الذي انتقل إليه، إذ إن ميكيل كارديل من نوع الرجال الذين يسترعون الانتباه، وقد رُؤي في مكان ليس ببعيد، في حارة باندورا عند «زقاق الترزي»، وعندما تبلُغه آنا استينا تجد أناسًا يوجهونها التوجيه الدقيق، ترى فتاة تسوق إوزات بعصا فتشير لها إلى المدخل الصحيح. تسمع وقع خطواته الثقيلة عندما يأتي مستجيبًا للطرْق.

ينفتح الباب، فيتدفق الضوء إلى السلالم، والضوء الآتي من خلف كارديل يجعلها لا ترى سوى هيئة داكنة، لا يبدي ردة فعل في البداية، لكن عندما يتعرف عليها تسمع شهقة خافتة.

قال: «رباه! ماذا حدث لكِ؟ ما الخطب؟».

لا تقِل عنه دهشةً بعدما صار بمقدورها رؤيته، انقضى أقل من عام منذ أن وقعت أعينهما على بعضهما آخر مرة، لكن الزمن الذي مضى ترك عليه آثارًا سيئة، عيناه اللتان كانتا حزينتين تفيضان بأسى بالغ الآن، وظهره صار منحنيًا تحت أعباء غير مرئية، وشاب شعر وجهه، وشعر رأسه أشعث. تخفض بصرها حتى لا تدعه يرى انعكاسه في عينيها.

قالت: «أحتاج إلى مساعدتك يا ميكيل، لا ملجأ لي غيرك».

ينتحي جانبًا ويدعوها إلى الدخول متمتمًا باعتذار عن حالة الغرفة. لا تحتاج إلى إخباره بالكثير، ماذا يمكنها قوله ولا يمكنه قراءته بنظرة؟ يبدو

كارديل ممتنًا لعدم اضطراره إلى إخبارها بمتاعبه بالمقابل، يستحثها قبل أن يتسنى لها الوقت لتوضيح الغرض من مجيئها.

قال: «إن كنتِ في حاجة إلى المال، فيمكنني مشاركتك ما لدي، لكن يؤسفني أنه ليس بالكثير، ربما أتمكن من تدبر المزيد إذا أمهلتِني. وإذا كنت في حاجة إلى سقف يؤويك، فلك فراشي للمدة التي تريدينها، تكفيني بطانية على الأرضية».

تهز رأسها، شاعرة بالخزي من تذكرها كلمات ليزا المهجورة التي تجعلها تشكك في نيات أي رجل يقدِّم لها عرضًا كهذا.

قالت: «لا أحتاج إلى أي من هذا».

- ماذا إذن؟

- يضمحل القمر بمرور كل ليلة، وبعد الغد ستكون الليلة مظلمة، وعندئذ سأحتاج إلى مساعدتك. من بوابة الجبايات جوار «الفيء العظيم» سترى شجرة بلوط ضخمة على مبعدة من الطريق، شجرة أكبر من جيرانها، هلَّا قابلتني هناك بعد الظهر عند الساعة الثالثة؟

- ما الذي تريدين مني فعله؟

- لدي مهمة، ستستغرق وقتًا أطول مما أجرؤ على ترك صغيرَيَّ خلاله، لا بد أن يحرسهما شخص حتى أعود.

يفتح كارديل شفتيه ثم يغلقهما، وترمش عيناه مصعوقًا، ويبدو وجهه كأنما ارتسمت عليه مزيد من التجاعيد.

قال: «لا أعرف شيئًا عن مجالسة الأطفال، أُفضِّل أن تُقطع ذراعي الأخرى».

- كل ما يحتاجان إليه هو أن تكون هناك.

- هما اثنان؟ ماذا لو بدآ الصراخ؟

- غنِّ لهما، اروِ لهما قصة، هدئهما بقدر مستطاعك، أو دعهما يبكيان حتى يتعبا. لا أطلب منك سوى أن تبعِد عنهما الثعلب.

يومئ لها إيماءة مقتضبة ويشيعها إلى الباب، تستشعر الكلمات خلف صمته، ليست متأكدة من أنها تود سماعها، وتحث خطاها، لكن الكلمات تدركها عندما تجتاز الباب.

- سلامتك كانت مصدر راحة لي عندما التقينا آخر مرة، من بين جميع ما حدث لي العام الماضي كنتِ الوحيدة التي مدتني بالأمل، والآلهة تعرف أنني أحتاج إليه الآن أكثر من أي وقت مضى. أعدكِ بأن ذلك الثعلب سوف يندم إذا ظهر.

لا تريد أن تلتفت وتبادله النظرات على النحو الذي تستحقه كلماته، فلا تُظهِر احمرار وجهها من الخزي الذي يغمرها لهذا السبب نفسه. لا يسعها فعل شيء غير هذا. ينهشها إحساسٌ ما، وهي قد طلبت مساعدته بالفعل، لكن كلما قللت من أفضاله عليها، قلَّ ما قد يتوقعه منها.

الفصل الخامس والستون

يبدد الفجر مطر الساعات المبكرة، وبحلول منتصف النهار تُضحي السماء زرقاء شاحبة. تسير آنا استينا إلى بوابة الجبايات في وقت مناسب، ومن طرف الغابة تسمع برج يوهانز يرن معلنًا ثلاثة أرباع الساعة، فتجد كارديل هناك سلفًا، يدور قلقًا حول جذع شجرة البلوط، كلاهما يبدوان كأنهما خرجا من ورشة النجار نفسه، خشنان وثقيلان، لكن آنا استينا تلاحظ أن سترة كارديل نُظفت بفرشاة وحذاؤه لُمِّع وخداه حليقان. يراها قادمة ويومئ إيماءة مقتضبة، فتلوِّح له إلى درب الغابة الذي لا يعرفه سواها الآن. وعند المغارة تريه كل ما يحتاج إلى معرفته، مكان ماء الغسل ومكان خِرق القماش النظيفة، والحصان المنحوت ودمية القطة القماشية، وحيث يمكنه العثور على كومة الأغصان بالخارج فيطعِم النار منها. تغمس قطعة قماش في اللبن وتدع ماجا تتذوقه، لكنها تبكي بكاء مُرًّا مدركةً أن أمها لديها أفضل من هذا.

وتقول: «ستكون أوفر حظًّا مني، إذ لن تتوقع منك شيئًا آخر».

يومئ كارديل. وتجمع آنا القليل الذي تحتاج إليه، الرسالة والمفاتيح، ثم تقبِّل ماجا وكارل قبلة الوداع.

قالت: «إذا سار كل شيء على ما يرام، فسأعود في الفجر، أو منتصف الصباح على أبعد تقدير».

كلا الطفلين يشاهد جزِعًا أمه وهي تدير ظهرها لهما، ويتفحصان حارسهما الجديد بقلق، فيحدق كارديل إليهما، ويضع ذراعيه، واحدة من الخشب والأخرى من اللحم، على وركيه.

ويقول: «في فايبورغ جدفتُ عبر ممر تحت نيران خمسين فرقاطة روسية. يمكنني التعامل معكما أيها الصغيران. تشجَّع، اللعنة!».

يرتفع نواحهما حالما تهرع آنا استينا مبتعدة بين الأشجار، وتسمع كارديل يتمتم مع نفسه: «سيكون يومًا عسيرًا».

تغذ السير حتى لا يؤثر صوت بكاء طفليها الذي يقطع نياط القلب في عزيمتها، تبلغ المنحدر، وتخرج من الغابة، وبعد مدة ترى الضوء يومض على زجاج نوافذ ملطخة، ونتانة «المستنقع» تتحرش بأنفها. ما يزال طريقها طويلًا، ويجدر بها تسريع إيقاعها. تجتاز «الجزيرة الشمالية» و «خليج القطط»، وتعبر جسور المدينة.

الفصل السادس والستون

تتوقف عند جسر القنطرة المتحرك وتختار مكانًا، إذ يتعين عليها انتظار وقت الغسق، وتفضِّل الانتظار هنا حيث الحشود أكثر وتقل مخاطرة أن تصادف أحدًا يعرفها من الماضي. تجذب وشاحها فوق وجهها وتجد لنفسها مكانًا جوار مباني الطواحين حيث يمكنها رؤية وجه ساعة سان غيرترود على برجها.

تقترب «ليلة اللصوص»، أحلك ليالي الشهر، وتُنذر بأن تكون الأسوأ منذ مدة طويلة، إذ ما تزال المدينة تعج بالناس القادمين من الريف، الذين سافروا إلى المدينة خصيصى ليشهدوا الجَلد العلني. تتعرج صفوف أناس خارج باب كل حانة، التي وجد كثيرون من ملاكها فرصة الربح السريع لا تقاوم إلى درجة مخالفة القوانين وفتح أبوابهم مبكرًا. وفي مخبئها خلف برميل تتكور آنا استينا مع تصاعد الجلبة القادمة من الأزقة، أصوات ذكورية هادرة متلعثمة من الثمالة يدوي صداها كأنها في منافسة، بعضهم يغنون، وبعضهم يمرحون، وآخرون يستعرون غضبًا. يهبط الظلام، وما يكاد يُشعَل فانوس حتى يأتي شُبان يقفون على أكتاف بعضهم ويطفئون الشعلة. تقليد قديم.

يُمحى الضوء من الوجود في المدينة في «ليلة اللصوص»، ولا يستطيع أحد الدفاع عن نفسه في شجار عادل. في الممرات الضيقة، حيث يتربص النشالون، تختلط ضحكات المعتدين الساخرة بنواح ضحاياهم. تندلع الشجارات من أجل الشرف أو المتعة، ترافقها أصوات أنفاس لاهثة، وقبضات على الأجساد، وأقدام سريعة تقع على الأرض المرصوفة بالحجر بحثًا عن أفضلية قاتلة. وفي مكانٍ ما تصرخ امرأة مستنجدة، على الأرجح امرأة شابة

من الريف اقترفت خطأ السير من غير هدى إلى زقاق مظلم حيث يتربص شخص يمكنه الآن نيل مبتغاه دون مخاطرة، وإذا كانت تتحلى بالفطنة لتصرفت كما تتصرف التصرف الذي تتلقنه جميع فتيات المدينة: من الأفضل أن تتظاهري بأنك عاهرة تحت حماية قوادٍ ما أو سيدة ماخور في «شارع باغ» حتى يمكنك على الأقل أن تنالي بضع قطع نقود مقابل مَصابك.

حرس المدينة يسمعون ما يجري، لكنهم لا يأبهون، وهم أنفسهم سكارى فلا يكترثون بمشاهد الكر والفر في الظلال التي تلوح من حين إلى آخر عندما تقترب من وهج غلايينهم الفخارية. إنها ليلة اللصوص، والحمقى بما يكفي للسعي وراء مباهجها يتعين عليهم اللعب وفق قوانينها، ولا يلومون إلا أنفسهم. الجنون يسود استوكهولم، ولا جدوى من المقاومة.

يتلاشى برج الكنيسة ببطء في الظلام المحيط، يدق جرس الساعة الثامنة، فتشرع آنا استينا في السير نحو وجهتها، تعبر القنطرة، فتجد نفسها عادت إلى أبرشية ماريا، الحي الذي عاشت فيه طفولتها، لم يفتقدها أحد، كل شيء كما كان، ربما عتَّم الليل البيوت الحجرية الصفراء، لكن طوابقها عديدة وتحتشد فيها مئات الأُسر تحت أسقف البلاط. تبذل أجنحة الطواحين الهوائية ما بوسعها لتستغل النسمات المسائية وتدور متكاسلة فوق التل، وخلفها في مكان ما بحيرة لاردر والأرض السبخة حوله. شارفت ساعات العمل على نهايتها، تصلصل آخر قطع الحديد الزهر في الموازين، والبحارة الذين بدؤوا عربدة المساء قبل إنهاء إنزال بضائعهم يتجادلون والبراميل المقلوبة تهدد حيواتهم وسيقانهم. برج كنيسة ماريا المهدم جزئيًّا يشق سماء الليلة المرصعة بالنجوم. لا يعود أمام آنا استينا وقت للمكوث هنا مدة أطول، وتهرع عبر «شارع هورن».

لا يطل ذعرها المتعاظم برأسه إلا عندما تبلغ الأكمة التي تحدد نهاية الطريق، يرغمها الانحدار على الميل عن الطريق، وتعرف المكان الذي يؤدي إليه هذا المنحدر، فأسفله «جسر التنهدات»، الذي يمتد فوق مضيق ضيق، ووراؤه المشغل نفسه، غير متأثر بقدَرها، ينتظر عودتها بصبر، متلهفًا لفرصة أخرى

لقطع الطريق عليها. يمر المراقبون من هنا كثيرًا، ويتعين عليها توخي الحذر. ما من أحد بالأسفل عند الشاطئ، ومياه البحيرة فاترة. يرن جرس كنيسة ماريا مودعًا المساء. تمتد المياه سوداء، كما هو حال الجسر. لا تسمع أحدًا، ولا ترى بشرًا، وتتساءل عما إذا كان الأفضل لها أن تركض أم تمشي، وتختار الخيار الثاني. صرير الألواح تحت قدميها يشبه دوي مدافع هائلة. تسمع سمكة عالقة تحت الجسر تحاول تخليص نفسها. ثم تبلغ الجانب الآخر، وتطأ قدمها لأول مرة منذ عام أرض «الندبة» القاحلة، وفي مكانٍ ما أمامها ينتصب بيت المفتش، الذي لن تُسمع منه أغانٍ بصوت مشروخ يتردد صداه فوق المياه، لأن هانز بجوركمان ترك منصبه العام الماضي، وتبعه القس نياندر، وقد ذهب كل منهما في طريقه. تسير في المسار الأيسر إلى حديقة خضراوات مهمَلة، وتجد مكانًا بين الكشمش الأسود لتنتظر منتصف الليل، وقلبها يخفق بقوة تجعلها متأكدة أنه سيشي بمكان اختبائها لأي شخص عابر.

قليلون يدخلون مجال رؤيتها، حوافر منهَكة تجر عربة على الطريق فتصدر ألواح الجسر صريرًا، ورجلان يسيران جنبًا إلى جنب، مراقبان بلا شك، يتهاديان عائدين إلى مقرهما بعدما مرحا في المدينة. تترك مخبأها وتبدأ الاقتراب ببطء، منحنية، وسرعان ما تجد نفسها عند المشغل بمعالمه المشوهة، تحتضن الأجنحة بئر الفناء الملطخة بالدماء، التي يجد حولها بيتر بيترسون والمعلم إريك متعة آخر رقصات النزيلات. ولا تلوح سوى نافذة أو نافذتين مضيئتين في الضيعة الواقعة بالخلف.

وسرعان ما تصير قريبة بما يكفي لمد يدها وملامسة جدار المشغل، حجارته مكسوة بالجص الذي حال لونه إلى الأصفر بفعل الشمس، والآن أسود ككل ما حوله. تحاول آنا استينا استشعار الغِل الكامن في المشغل عبر راحة يدها، استشعار النبض المكتوم الصادر من أساسات المبنى، لكن ما من شيء، الشر الموجود مصدره فِعال الرجال، المحاطين بحجارة هامدة شهدت ما شهدت وستشهد الأسوأ مرة أخرى، لكنها تفتقر إلى لسان تدلي به بشهادتها. ولا شيء يُسمع من الداخل.

تعود لآنا استينا ذكريات ضبابية عن الليلة التي رأت فيها جدران المشغل، تتذكر رؤية النجوم وهي تزحف خارجة من النفق، لكن هذه الذكرى لا تمدها

بأي تلميح عن مكان الفتحة. تتذكر النسيم العليل الذي غمرها قادمًا من المياه وخفف عنها شيئًا من توترها الذي تبعها إلى الخارج، تخمن أنه الجانب المواجه للخليج، وتتحسس طريقها حول الزاوية وتزحف بمحاذاة أساس المبنى ويدها تلامس الحجارة بحثًا عن فجوة، تستشعرها من مسافة، وعندما تقترب ترى رقعة سواد على سواد، تحوم رائحة عطنة حول الفجوة، ترسل أصابعها متحسسة الحواف ويقشعر جلد عنقها عندما تدرك مدى ضيق الفجوة، بوابة إلى جحيم مصغر، لم تكن كبيرة بما يكفي لآلما غوستافسدوتر، التي اتخذت المكان قبرًا لها، لكنها كانت كبيرة بما يكفي لنيل حريتها ذات يوم.

الليلة أدفأ من الليالي السابقة، ولهذا تشعر بالامتنان وهي تخلع جميع ملابسها، وعاريةً تطويها في صرة وتأخذ شريط التنورة وتربطها بقدمها كي تسحبها خلفها، وتدس حذاءها في أجمة أعشاب، ثم تفعل كما فعلت المرة الماضية، تتمدد على ظهرها ويداها فوق رأسها.

كاحلاها وكتفاها ومؤخرة رأسها وظهرها تصير أقدام دودة بشرية تتلوى تحت التراب ببطء شديد، تحس بعناق عنيف من الظلام المحيط بجسدها بأكمله، عناق يشتد كلما توغلت إلى الداخل، وتعرف أنه سيسوء، بإيقاع بزَّاقة تكدح إلى الأمام في الممر الذي كلَّف آلما حياتها، إلى مركز الأساسات حيث انزلق حجر من الأعلى، يرتطم رأسها به عندما تبلغه، فتتمدد ساكنة للحظة ريثما تستجمع الشجاعة اللازمة للمجهود الأخير الذي إما أن يتيح لها تجاوز النقطة وإما يُمكِّن الحجر من خنقها بقبضة لن تجد منها فكاكًا أبدًا. تميل رأسها جانبًا حتى يؤلمها عنقها، وتدفع بكل ما أوتيت من قوة، تزفر كل هواء من رئتيها، ثم تتوقف، وقد صار الحجر فوق صدرها والنفق بعرض جسدها الكامل، تحاول أخذ نفس لكن ما من مساحة يتمدد فيها صدرها، وفي الظلام تتراقص النجوم والألوان أمام عينيها، مذعورةً تبدأ التلوِّي للأمام وللخلف بقوة متزايدة ونوبة غضب يائس ضد الموت. في المرة الماضية كان الحجر ملطخًا بدهون جثة آلما غوستافسدوتر المتحللة، لكنه خشنٌ مستبدٌّ الآن، وقد لعقته الجرذان والهوام فجففته منذ أمد بعيد. والآن تدرك آنا استينا مرعوبة أن جسدها، رغم هزاله، ليس كما كان العام الماضي، ازداد حجمها وصار أكبر من أن يتيح لها شق طريقها إلى الأمام أو الخلف.

الفصل السابع والستون

يأتي جرذ من داخل القبو، منجذبًا إلى الصوت والرائحة، فتصرخ آنا استينا عندما تحس بأنفه على أطراف أصابعها، وصرختها تكفي لإخافته وإبعاده، لكنها تعرف أن راحتها مؤقتة، إنها دافئة وطازجة، ليست كاللحم الجاف المملح واللفت المتعفن في براميل القبو، سيعود الجرذ عما قريب، وحده في البداية بدافع جشعه لكن سرعان ما سيتشمم رفاقه سِرَّه. يداها اللتان تمدهما في الفجوة هما خط دفاعها الوحيد، إذا سمحت لجرذ واحد بالعبور فسيكون وجهها تحت رحمة الأسنان والمخالب.

يمر الوقت بالخارج، لكنه يظل متجمدًا تحت الأرض. لا يمكنها فعل شيء سوى محاولة السيطرة على تنفسها، يتخدر جلدها حيث يضغط عليها الحجر وفي مواضع نتوءات الأرض تحتها. والآن يعيد الجرذ الكرَّة زاحفًا على أقدامه الناعمة ورغم هذا يتردد صدى خطواته في صمت النفق المظلم، يقترب شيئًا فشيئًا، فتضربه بيدها وتدحره مجددًا، فتجد نفسها وحدها مرة أخرى.

البكاء مؤلم للغاية، كلما ارتعشت إثر نشيجها ينبعث الألم في سائر المواضع الجديدة التي يجد النفق إليها سبيلًا، فتتمدد ساكنةً، في انتظار النهاية التي تبدو بعيدة بقدر ما هي حتمية، وتتساءل عن المدة التي ينوي الموت انتظار مرورها قبل أن يعطف عليها، ربما يمكنها مساعدته، بأن تدع الجرذ يشق طريقه إلى الداخل، ثم تضغط جسده الأشعر بين فكها وكتفها حتى تجد أسنانه حلقها.

تسمع مخالب تخشخش وتجوس على مبعدة.

الواقع ليس كما كان، كل شيء أسود ومجرد من المعنى، إذا ظلت مستلقية ساكنة سكونًا تامًّا لا يعود بمقدورها إدراك أي حدود على الإطلاق، لا تعرف أين ينتهي جسدها وأين يبدأ الحجر، ترمش حتى تعرف ما إذا كانت عيناها مغمضتين أم مفتوحتين، تنبثق الألوان من الظلام، ترى الأخضر، خضرة أوراق الأشجار في الصيف، وترى الرمادي الفضي، كغدير متعرج يجري فوق صخور لامعة، والبُنِّي، كأرض الغابة ودروبها.

ماجا لديها قارب صغير مصنوع من لحاء الأشجار، تميل فوق غدير بجسد لم يعد جسد طفلة إنما جسد فتاة صغيرة، طالت ساقاها، تبلغ ركبتاها أذنيها عندما تقرفص، ويقف كارل وراءها، منتظرًا، وهو أقصر منها قليلًا والشك في عينيه. «أمرتنا أمُّنا بالابتعاد عن المياه». فتنخر ماجا له وهي تنظر إليه فوق كتفها، وتبعد جديلة شعرها عن وجهها حتى تتمكن من إطلاق مركبتها في التيار. «لا تكن طفلًا، لن نغرق هنا إلا إذا انبطحنا على وجهينا». تشبه جدتها، وعينا كارل الزرقاوان تحملان نفس لون عيني أمه. ثم تطلق ماجا القارب، فيتمايل من جانب إلى آخر قبل أن يتوازن، وتحركه عارضة مصنوعة من غصن بثبات في التيار، ويركضان ضاحكين بأقدام حافية عبر الجذور والصخور ليتبعاه في مجراه، ماجا أولًا وكارل في أعقابها، وعندما تهرع آنا استينا لتلحق بهما تتساءل عما إذا كان هذا هو المستقبل نفسه الذي رأته ليزا المهجورة في أوراق الشاي.

ينطفئ المشهد إثر إحساسها بألم مباغت في إصبعها، أسال الجرذ دمها. انزلقت أسنانه السفلية على الظفر وأحدثت العلوية الحادة جرحًا على طرف الإصبع، تصرخ وتنتفض يدها، وتتمكن من قبض قدمي الجرذ الأماميتين. فيطلق صريرًا ثاقبًا ويتلوى محررًا نفسه، يبتعد، لكن مع ذكرى مذاق آنا استينا على لسانه.

تحاول آنا استينا استجماع المشاهد مرة أخرى، لكن بلا جدوى، لا ترى سوى رضيعين عاجزين متروكين مع شخص يقدر بالكاد على العناية بهما يومًا واحدًا، وما تركته من طعام لهما انتهى على الأرجح. طفلاها يبكيان

في مكان بعيد. يند عنها نشيج تعجز عن كبحه فيجعل الحجارة تنهش خاصرتيها.

شيءٌ ما يحدث، شيء غريب، تحس بدفء مفاجئ، وعندما تعاود تحسس الجدران تجد ملمسها لم يعد كما كان، يندلق عليها سائل، لا تستوعب ما يجري لكنها تغرس كعبيها عميقًا وتستعين بالجدران الخشنة، تفرغ رئتيها من الهواء وتضغط للأمام، فتتحرك فجأة، مما يتيح لها أخذ أنفاس أعمق، ثم نفس آخر، وآخر، وعندما تلتقط الرائحة تعرف ما أنقذها، لبن الأم بدأ ينساب من الصدر المهمَل المضغوط بالحجر، واللبن هو الذي أتاح لها الإفلات من فك الحجر.

الفصل الثامن والستون

حيث ينتهي النفق يتحول الظلام إلى ظلام آخر، مألوف بقدر ما هو بغيض، لا بد أنه المكان الذي وجدوا فيه رفات آلما غوستافسدوتر بعدما أخرجته آنا استينا، وعلى الأرجح أتاحت لهم الجثة المجهولة تفسير اختفائها هي، لكن المراقبين لم يفعلوا بالمكان أكثر مما يجب عليهم فعله. الليل الأبدي في القبو مشبع بروائح حامضة منبعثة من البراميل المهمَلة منذ أمد بعيد، ومن الجوالات التي تمزق قماشها فقدَّمت وليمةً لهوام الأرض غير المرئية. ترتطم قدماها بأشياء متناثرة على الأرضية، وتزحف سيقان حشرات دقيقة على جلدها العاري، الذي قاطع وليمتها، ويرتطم الذباب الدائخ بوجهها وذراعيها، ثم تغزو حواسها ذكريات أخرى مكبوتة منذ زمن طويل. لا تستطيع التسكع، فتهرع إلى اتجاه السلالم الذي تعرفه، وتنتظر بضع لحظات ملصِقة أذنها على الباب، المكان هادئ، المشغل نائم.

تأخذها السلالم إلى الطابق الأرضي في الضيعة القديمة، الغرف مظلمة، وحتى من الأعلى في غرف المراقبين لا يُسمع صوت سوى جوقة الشخير. إلى يمين آنا استينا باب موصد، وتتمدد على الأرض لتختلس نظرة من تحته، فلا ترى أو تسمع شيئًا، كانت قد غلَّفت المفاتيح بقطعة قماش حتى لا تشي بها، والمفتاح الثالث الذي تجربه يدير القفل بشيء من الصعوبة، كان دوليتز محقًّا، الأقفال قديمة وبسيطة. تجد خلف الباب مكتبًا فوضويًّا فيه دفاتر مهترئة متكئة على بعضها وأغلفتها مجعدة، الهواء جاف كما هو الحال عادةً في الأماكن التي يُخزَّن فيها الورق، وتنبعث منه رائحة الغبار. باب آخر، مفتاح جديد، خلفه السلالم التالية، وعلى الجانب الآخر من الجدار توجد الغرف التي ذكر دوليتز أنها المسكن المؤقت للسجينة الجديدة، مكاتب

نياندر القديمة. وفي أثناء تجريبها المفاتيح في القفل تجد صعوبة في بادئ الأمر، ثم تدرك أن الباب غير موصد، فتدفعه قليلًا، فتكشف الفتحة عن ضوء على الأرضية الحجرية، يوجد شخص مستيقظ.

تراها جالسة ترتدي منامة مولية ظهرها للباب، تحدق إلى مرآة مذهَّبة وهي تمشط شعرها، إنها هي، امرأة هيكل التعذيب، تحرك رأسها من جانب إلى آخر حركات امرأة خبيرة، ربما بحثًا عن بقايا جمال سلبته السنة التي أمضتها في السجن. لا تعرف آنا استينا أفضل طريقة لكسر حاجز الصمت، لكن يُرفع عنها حرج المبادرة عندما تلتقي أعينهما في المرآة.

قالت المرأة: «لماذا تزعجينني؟ ألا تعرفين في أي ساعة نحن الآن؟».

تستدير ماغدلينا رودينسشولد وتنظر إلى آنا استينا نظرة ارتياع وتقول: «ما هذا؟ كذبوا عليَّ بصفاقة، مدير الشرطة بنفسه أقسم لي بقبر أمه أنني لن أختلط بأي سجينة، ألا يكفي أنهم وضعوني بين عاهرات وساقطات لا لشيء سوى إذلالي؟ هل جئتِ للسرقة يا فتاتي؟ أم ببساطة لتتباهي أمام صويحباتك البائسات بأنك التقيت بمالا رودينسشولد؟».

تتحسس آنا استينا طيات تنورتها بحثًا عن الرسالة وتقول: «بُعثت إليك برسالة».

تنهض ماغدلينا رودينسشولد بغتة وتخطف الورقة من اليد الممدودة، وتفضها بظفرها متلهفةً وتقرأ بنهم، ثم تمسك الورقة فوق شعلة الشمعة وتلقيها في المدفأة، وتكشف عن أسنانها بابتسامة ناقمة، وتعود إلى الطاولة وترفع غطاء دواة، تتراقص الريشة على الورقة وتفلت منها بضع كلمات متمتمةً وهي تكتب ردها. الرؤية من فوق كتف رودينسشولد المنحني تتيح لآنا استينا التكهن بفحوى الرد: أسماء، مكتوبة اسمًا تلو الآخر في قائمة طويلة.

«ما زال الانتقام في متناولنا يا عزيزي غوستاف، عندما نستعيد كل حقوقنا سوف نذيقهم ما يستحقونه، وسوف تتلاشى أصوات استجدائهم الرحمة بقبلات التئام شملنا، وسوف أكون محبوبة من الجميع بوصفي ملكة».

وحالما تضع ريشتها تطوي أطراف رسالتها وتصب الشمع على الطية.

تقول: «خذي هذه وعودي بها على جناح السرعة، أتسمعينني؟ لا يجوز لك التوقف عند حانة، مهما يبلغ عطشك».

تُنقِّل آنا استينا نظراتها فوق النوافذ أملًا في العثور على مخرج، لكن جميعها مزودة بقضبان. ترفع ماغدلينا رودينسشولد ذقنها بصبر نافد، حتى تدرك أمرًا يجعل زاويتي شفتيها ترتفعان.

فتقول: «بالطبع، تريدين تذكارًا، لستِ الوحيدة على الإطلاق. باعوا جميع ممتلكاتي، والذين في صفِّي اشتروها بمبالغ باهظة، ليرتدوا جواهري القديمة على الملأ دليلًا على ولائهم. طيب يا دميتي الصغيرة، إذا التقينا في ظروف مختلفة لوقَّعت لك على قصاصة ورق حتى تريها لأصدقائك، لكن هذا سيفضح سرَّنا الآن».

تنظر فيما حولها وتتهلل أساريرها عندما تقع عيناها على منضدة الزينة، فتلتفت إلى آنا استينا وتستدعيها بإصبع يوحي بدعوة للتآمر، وتنهض وتحمل قنينة ذات شكل مميز، وترفعها حتى تعكس جوانبها العديدة الضوء، وتلوِّح لآنا استينا بإيماءة كي تقترب. تريها رودينسشولد كيفية بسط ذراعها، وترفع السدادة البلورية وترش سائلًا زيتيًّا على جلد آنا بسهولة توحي بالتمرس.

قالت: «إذا وضعت يدك أمام أنوفهم فلن يشك أحد في المكان الذي ذهبتِ إليه. الدوقة نفسها أرسلت لي هذه القنينة، من باريس البعيدة، حيث دُفعت المعاطر إلى الإفلاس وكل قطرة باقية تتطلب فدية ملك، أيمكنك شم العطر؟ الخزامى، والكاسيا، والبرغموت، وأفخم أنواع العنبر. نسميه ماء العسل. هذا العطر كان يثير جنون حبيبي غوستاف».

تفهم تشوش آنا استينا على أنه إعجاب صامت وتحثها على الخروج من الباب بابتسامة متسامحة تليق بملكة. وهذه المرة توصد الباب بعدما تغلقه.

الفصل التاسع والستون

تدرك آنا استينا خطأها حالما تتسلل عائدة إلى باب القبو، إذ تركته مواربًا فانغلق وراءها والآن ترى أن قفله من نوع مختلف، الأقفال الأخرى قديمة ومتضعضعة، لكن هذا جديد، معدنه اللامع ما زال خلوًا من الخدوش القبيحة التي يُحدِثها السكارى عندما يحاولون إدخال المفتاح فيه. تلعن نفسها لسهوها. حتى إذا لم يعثر بجوركمان ومراقبوه على فجوة التصريف عبر أساسات المبنى، فلا بد أنهم عرفوا أن أمرًا مريبًا حدث في القبو، اختفت فتاتان عبره، وتخلصوا من المشكلة بتركيب قفل جديد في الباب والحرص على تداول مفتاحه.

الآن انطبق عليها فخ الفئران. المفاتيح التي أعطاها إياها دوليتز لا تناسب ثقب القفل، تتهالك على الأرض وظهرها إلى الجدار لتفكر، وتنجذب عيناها إلى السلالم المؤدية إلى الطابق الأعلى، حيث يأتي هدير نوم المراقبين، فتتحرك خطوة تلو خطوة، وتصيخ سمعها كلما وضعت قدمها.

مهجع المراقبين تنبعث منه أصوات حظيرة خنازير وروائحها. تحصي آنا ثمانية أسِرَّة ضيقة، خمسة منها مشغولة، شخيرهم يكاد يرعِش زجاج النوافذ، على إحدى الطاولات قنانٍ وكؤوس فارغة، الهواء ثقيل بالعرق وحموضة النبيذ وغازات البطون. وعندما تخطو خطوة مجتازةً العتبة، يجلس الأقرب إليها منتصبًا على سريره، بظهر مستقيم كمذراة غلال، ويحدق إليها.

ويقول: «اغرب عن وجهي يا نيبلوم، هذه ليلة راحتي، اطلب من شخص آخر تولي مناوبتك».

وبالحركة المباغتة نفسها يهوي إلى حشية قشه، إلى نوم عميق لا قرار له كما في السابق، تاركًا إياها واقفة وقد بلغ قلبها حنجرتها. وفي أثناء زحفها مقتربة تسمع تمتمة كلمات أخرى من السرير نفسه: «مهلًا، نيبلوم! تبدو زري الهيئة».

تسير من سرير إلى آخر وتحدق إلى الوسائد، وكثيرًا ما لا ترى سوى كتلة شعر ويتعين عليها الانتظار حتى يتحرك الرأس أو المشي على أطراف أصابعها إلى الجانب الآخر حتى ترى الوجه، وعلى الجانب البعيد تجد الوجه الذي رأته آخر مرة تحت وهج الغليون الفخاري عند سلالم القبو الذي لم تعد قادرة على الوصول إليه الآن، جوناتان لوف، والد طفليها، يضجع فاغرًا فمه، لاهثًا في هواء الغرفة الراكد والدافئ بالعديد من الأجساد، ويسيل خيط لعاب من زاوية فمه، تبحث آنا في الوجه عن شبهٍ ما بطفليها، أجل، أورث ملامحه لكارل، هذا القدْر واضح. تغادر الغرفة.

الصباح يقترب، لكن ليس بسرعة تحرمها من الوقت للتفكير في خياراتها، ولا ترى سوى خيار واحد، وهو أن تختلط ببقية النزيلات، في الصباح يُقام طابور في الفناء لتفقد الحضور والغياب، وسيُكتشف غياب أي شخص، لكن لا أحد يتوقع وجود فتاة إضافية، وليس من المرجح أن تلاحظها إحدى النزيلات. من بين النزيلات الجديرات بالثقة ولم يتبق لهن سوى وقت قصير من عقوبتهن ثم ينلن حريتهن - تُختار دومًا مجموعة منهن ليعملن في الحديقة بالخارج، أو حتى يُرسَلن إلى المدينة لجلب الحطب وضروريات أخرى، إذا تمكنت آنا من الانضمام إليهن والخروج معهن فسوف تتجنب اكتشافها.

وفي الفناء بالخارج تتابع ضوء فانوس يتحرك بإيقاع بطيء مجتازًا نوافذ المبنى المزودة بالقضبان، وعندما يبتعد المراقب مسافة آمنة، تنطلق إلى قسم المشغل الذي كانت تنام فيه ذات يوم، تفتح قفله وتنزلق إلى الداخل وتجد مكانًا جوار الجدار، مخفي عن الباب بعجلات الغزل التي جُمعت في منتصف الحجرة. وفي أثناء انتظارها يغشاها نوم متذبذب.

عندما يرن جرس الصباح معلنًا بداية عمل اليوم، تجد آنا استينا الروتين مألوفًا، تنهض كأنما لم ينقضِ أي وقت منذ أيامها في المشغل، وفي أثناء ترتيب النساء لأسِرتهن، تسير جيئة وذهابًا بينهن وتحاول أن تبدو مشغولة مثلهن، ما من امرأة لديها وقت لتعيرها أي انتباه، وبعد بضع دقائق يُدار المفتاح في القفل، ويأمرهن صوتٌ أجش بالخروج إلى الفناء لطابور نداء الأسماء، فيهرع صف نساء خانعات إلى الخارج، وآنا استينا وسطهن.

يمضي وقت حتى ينظمن أنفسهن. المراقبون نزقون، والآن ترى آنا رجالًا مختلفين عن الذين تتذكرهم من العام الماضي، وتستغرق هنيهات حتى تلاحظ أنهم هم نفسهم في الحقيقة، وأن إدراكها هو ما تغير، فعندئذٍ لم تكن تشعر سوى بالخوف، والآن ترى مجموعة متباينة الأشكال من نوع ما كانت لتسمح لهم أبدًا باجتياز عتبة «العابث»، حطام بشر شوهتهم الحرب، أحدهم أعرج، والآخر نصف أعمى، يرتدون أزياء رثة ولا تناسبهم إلى درجة أنهم يبدون كرسوم كاريكِتيرية لجنود، كل واحد منهم تفوح منه نتانة الكحول والتبغ، والوحيدون الذين لا يعانون آثار ما بعد الثمالة هم الذين تسنى لهم الوقت لتناول بضع كؤوس مع الإفطار. يترنحون في أثناء وقوفهم، وبمجهود عظيم يرغمون النساء على الاصطفاف، وفقًا لترتيب مهاجعهن، ويبدؤون نداء الأسماء. سوء الفهم وسوء النطق يبطِّئان العملية، وفي خضم الاضطراب تشق آنا استينا طريقها إلى مجموعة النساء اللاتي اجتمعن ليحملن سلال أعمال البستنة، هؤلاء هن الذين يمنحن خبز الإفطار بالخارج، تنظر عدة نساء منهن إليها من أعلى إلى أسفل بدهشة مكبوتة، وأكثر من واحدة تثبِّت نظراتها على قدمي آنا استينا الحافيتين، لكن في السجن يتعلمن جميعًا أن ينشغلن بشؤونهن الخاصة بهن، وكل نظرة سرعان ما يحل محلها عدم الاكتراث.

يقف مراقب أمامهن، مستعدًّا لتوجيههن إلى الخارج، ومفتاح البوابة الضخم يدور حول إصبعه. وبينما تُساق بقية النزيلات بعيدًا ليأكلن، تتريث إحداهن، عجوز ذات وجه خرِب، وأطراف نحيلة وملتوية لدرجة أنها تبدو كعنكبوت مهروس، تقف في مكانها وتحدق إلى آنا استينا، ترمش ببطء، وعندما يزعق بها أحد المراقبين لتسرع، ترفع إصبعًا ملتويًا وتشير به.

وتقول: «تلك الفتاة، ينبغي ألا تكون هنا».

وعندما يمسك المراقب المرأة من أذنها ويلويها بقوة ليرغمها على التحرك، تتشبث بموقفها، فيحتار المراقب -غير معتاد المقاومة- فيما عليه فعله، وبوحي من غريزة حفاظ على النفس متجذرة تبتعد النساء عن الفتاة التي يُشار إليها. ويطعن الإصبع الممدود الهواء.

- تلك! ينبغي ألا تكون هنا!

تجتذب المجموعة الصغيرة انتباه الآخرين، ويقترب مزيد من المراقبين ليلعنوا زميلهم ويسألوا عن سبب المماطلة، فترفع المرأة العجوز صوتها إلى درجة العواء.

تقول: «تلك هي آنا استينا كناب، إنها الفتاة التي اختفت، لقد عادت، لا أعرف كيف».

واحد منهم على الأقل يجد الاسم مألوفًا.

يقول: «لم نستقبل أي سجينة جديدة الليلة الماضية، أليس كذلك؟».

يُرد على الرجل الذي تكلم بهزات أكتاف، فيفرك ذقنه غير الحليق ويبصق التبغ على الحصى ويقول: «استدعوا بيترسن».

- أنوقظ الشيطان في مثل هذه الساعة؟ استدعِه بنفسك!

يُرسَل أصغرهم وهو يتمتم محتجًا، وفي الصمت تجعل المرأة العجوز صوتها مُداهنًا بقدر مستطاعها عندما تخاطب المراقب الذي تولى الموقف:

وتقول: «أستحق مكافأة صغيرة بلا شك، صحيح؟».

يحدجها بنظرة ازدراء سافر ويقول: «نلتِ مكافأتك سلفًا».

تهز رأسها، متشوشة، فيرفع المراقب قبضته أمام أنفها قائلًا: «مكافأتك هي أنني لم ألكمك على فمك حالما بدأت الثرثرة دون أن يُطلب منك الكلام».

يضحك أحدهم بجذل أشد من الآخرين.

- ألا تعرفها يا سوندرهجيلم؟ لا بد أنك الوحيد. ندعوها بـــ «إرسن الجاثية على ركبتيها»، لم تغزل أي جديلة منذ أن دعاها بيترسن للرقص في نفس يوم مجيئها، وبدلًا من الغزل صارت تعيل نفسها بتقديم الخدمة الوحيدة التي ما زالت قادرة عليها، الأمر المضحك هو

أنك كنت ستسديها معروفًا بضربها، إذا كنت قد أسقطتَ أسنانها الناتئة فلربما تمكنتْ من زيادة أجرها من فتات خبز إلى كسرة خبز.

يبتسم سوندرهجيلم ابتسامة لا مرح فيها ويقول: «سأترك لكم هذه المهمة أيها الداعرون. تعرفون كما يعرف الجميع أنني أوقفت رصاصة بمنفرجي في الحرب، ولا أستطيع أن أقول إنني سعدت بمصابي بقدر سعادتي في لحظة وقوع عينَيَّ على إرسن هذه».

يسود مرح صاخب. وتشهق آنا استينا، وهي لا تصدق عينيها، فالمرأة الواقفة إزاءها هي «الحيزبون»، كارِن إرسن، المرأة التي وشت بها، التي جاءت معها إلى المشغل العام الماضي على متن العربة نفسها، بقية شعرها الذي لم يُنتزع من جمجمتها خفيف وشائب، جلدها شبكة من التجاعيد والندوب، وجسدها مهزول لدرجة أن جلدها متهدل فوق عظامها. وكما لو أنها ليست موضع السخرية تبتسم لآنا استينا ابتسامة خبيثة.

- آنا استينا كناب.

بيتر بيترسن هو المتكلم، فتعرف آنا استينا أن أمرها قُضي وانتهى.

الفصل السبعون

تقف جوار البئر وتتراجع نحوه ببطء حتى تحس بملاطه على ظهرها، وتلقي نظرة إلى الأسفل، وقد رأت من قبل العديد من النزيلات الجدد يزحفن قريبًا من الحافة أملًا في الهروب، بعدما يخطر لهن أن نصف دقيقة يقضينها على رؤوسهن في قاع قبر رطب تبدو مستقبلًا أفضل من سنوات موحشة في جوع أمام عجلة الغزل. لكن جميعهن دون استثناء، تتغير لديهن تعابير الترقب والرعب إلى خيبة الأمل والارتياح، فبداخل البئر شبكة حبال ثقيلة منسوجة في موضع منخفض بعيدًا عن المتناول، تتيح مرور أنابيب المضخة، لكنها كافية لتبديد أفكار الانتحار. يقصِّر بيترسن المسافة بينهما، وقبل أن يتسنى لها الوقت للتفكير في أمر آخر، تطبق يده على عنقها وعيناه الصغيرتان المحتقنتان بالدماء أمام وجهها مباشرة، أنفاسه ثقيلة، وفي عينيه ترى آنا شيئًا يتاخم الشغف، وهذا يخيفها أكثر من الغضب أو الشهوة. الأصابع التي تلتقي خلف عنقها لا تضغط، وتحس بالقبضة كأنها تأكيد لما تراه عيناه. إنه يرتعش. ثم يفلتها، ويرمش مرتين ويصدر أمرًا لمرؤوسيه بهمسة قاسية.

قائلًا: «ضعوها في الحبس الانفرادي، سأتولى أمرها بنفسي حالما تنتهي المهام الصباحية».

يمسك رجلان بذراعيها ويقتادانها بعيدًا، ترافقهم تمتمات النزيلات. تفتشها أيادٍ واثقة، وتُصادَر رسالة رودينسشولد ومفاتيح دوليتز. ثم تُدفع دفعة فظة، فتجد نفسها وحدها مجددًا.

مساحة ضيقة دون نوافذ، الأرضية ليست واسعة بما يكفي لتمددها بكامل جسدها، القصد منها الاحتجاز والعقاب بالقدر نفسه، إنه المكان الذي يجرُّون

إليه المصابات بالنوبات الهستيرية حتى ينحسر غضبهن أمام الجدران الحجرية الصلدة، أو ليتيحوا للاتي يحتجن إلى تذكير بقواعد السجن قضاء ليلة غير مريحة حتى يثبت الجوع والخوف لهن إيجابيات الطاعة. الجدران تحمل علامات شاغلي الزنزانة السابقين، والأرضية مشبعة برائحة البول الحادة، إذ ما من مبولة غرفة ولكل ضيف أربعة أركان يمكنه الاختيار منها، ويوجد ظفر مكسور محشور بين الحجارة. يتمهل بيترسن، ولا تعرف آنا استينا الوقت لكن تخمن أن العصر لا بد قد حان.

يحس بيتر بيترسن وهو في فناء السجن بأن صدره الضخم يطفح حماسة، ويجعله مزاجه الجيد وديعًا في هذا اليوم، الصفعات التي يوجهها عقابًا على التجاوزات العديدة فاترة، وأحيانًا يكتفي بالتهديد فحسب. يبدو له كل شيء على ما يرام، المفتش بجوركمان رحل منذ العام الماضي، وتبادل منصبه مع كاتب مقاطعة سافولاكس، يُدعى بينغت كروك. وقد راجت شائعات مواظبة بجوركمان في أنحاء بحر البلطيق، إذ لم تطأ قدمه مكان عمله، إنما يفوض مهامه بالتعاقدات الخارجية والآن يرفع راتبه مكافأةً على تبطُّله. وكروك رجل من نفس الطينة، يترك المهام اليومية للحراس ليتمكن من الاستمتاع بحياته الجديدة في العاصمة، مع زيارات مستمرة إلى قائد سلاح الخيالة في آرستا. وبيترسن لم يتوانَ خلال العام الماضي، لم يهدر وقتًا في إحداث جميع التغييرات التي رآها مناسبة، فصار قادرًا -بمعيَّة «المعلم إريك»- على دعوة النساء للرقص معه كما يحلو له، ويكاد لا يحتاج إلى تكليف نفسه عناء اختلاق الذرائع لتبرير عقوبته.

فتاة العام الماضي، التي هربت، حزَّت في نفسه، حتى قبل ظهور كارديل، المراقب رقم أربعة وعشرين، واستعلامه عنها وتذكيره بها، آنا استينا كناب، رآها في أحلامه بنظراتها الماكرة، وتخطيطها المتروِّي، تظاهرت بأنها كالأخريات، مذعنة قؤودة، لكنه استشف ما وراء تمثيليتها المصطنعة، وكان قد وضعها هدفًا لرقصته التالية، وتخيل في ذهنه كل خطوة، حتى إنه انتظر مدة أطول مما ينبغي، إذ يعرف أن الصبر الذي يفرضه على نفسه يعود عليه

بمتعة مضاعفة حالما يبدأ الرقص، وعندئذٍ اختفت، بين ليلة وضحاها، فتركته يكابد رغبة عارمة لا يمكن لسواها تلبيتها، ثم أرغمته الظروف على مجاراة الأمر والتظاهر بالاعتراف بأن الجثة التي وُجدت في القبو، التي بمقدور أي أحد أن يعرف أنها ميتة منذ عام على الأقل، هي جثة آنا استينا، في سبيل حماية بجوركمان من اتهامات الإهمال.

والآن عادت، ولكم كان يتوق إلى عودتها! يدعها تنتظر، وقد صارت تحت قبضته بأمان أخيرًا، خلف قفل ومفتاح. يفوِّض مهامه لمرؤوسيه، ويذهب إلى الحمام ليغتسل، يريد كل شيء مثاليًّا، يغطي جسده برغوة الصابون من رأسه إلى أخمص قدميه، ويغسل التراب عن شعره ويمشطه عدة مرات بمشط مخصص للقمل. وحالما يصير نظيفًا، يجعِّد أنفه من رائحة زيه ويختار قميصًا نظيفًا، وبعدما يتحقق من أن كل شيء على ما يرام، يأخذ مفتاح الزنزانة.

المشهد الذي يستقبل بيتر بيترسن عندما يدخل على أي سجينة في الحبس الانفرادي دائمًا ما يكون هو نفسه، دائمًا ما تبذل الفتيات كل ما بوسعهن ليقفن في أبعد مكان عن الباب، وبلا جدوى ينكمشن ليجعلن أحجامهن صغيرة بقدر مستطاعهن، يقرفصن ووجوههن إلى الجدار في أحد الأركان المشبعة بالبول، لكن هذه الفتاة مختلفة، ويبتهج في قرارة نفسه بطريقة إظهارها نفسها، آنا استينا كتاب مختلفة، وإلا لماذا عساه أن يشتهيها دونًا عن الأخريات؟ الآن تقف في منتصف الزنزانة كأن وقوفها أمر طبيعي تمامًا، وتبادله النظرات كما لو أنهما نِدَّان، الأمر الذي يجعله يتوقف قليلًا عند عتبة الباب، فتنتهز فرصة المبادرة بالكلام.

تقول: «أود أن أعرض عليك صفقة».

يستغرق بيترسن هنيهة حتى يستجمع شتات نفسه بما يكفي ليرد، ويلقي بذراعه في الهواء قائلًا: «فرصك للتفاوض محدودة نوعًا ما، كما يوحي مكان لقائنا هذا بالطبع».

يتضايق من وقْع صوته على أذنيه، يبدو كصبي وصل إلى مرحلة البلوغ للتو ويقرأ بصوت عالٍ أمام القس، وفجأة تتحشرج أنفاسه، فيسعل. ولا تتوانى آنا استينا كأنها لاحظت ارتباكه.

فتقول: «يمكنني شراء حريتي، حراسك أخذوا رسالة من ملابسي، وهي تساوي ثروة إذا وجدت المشتري المناسب، سأعطيك نصفها إذا أطلقت سراحي».

يقف بيترسن صامتًا لوهلة، مستغرقًا في التفكير.

ثم يقول: «جئتِ لمقابلتها، أليس كذلك؟ رودينسشولد، عطرها نفَّاذ بما يكفي ليلسع الأنف».

تلوذ آنا استينا بالصمت عازمة على عدم الاعتراف، ويواصل بيترسن التفكير بصوت عال: «هربتِ العام الماضي، لا أدري كيف، ثم دفع لك شخص مقابل معرفتك بسبيل الهروب، الذي دخلت عبره، بحثًا عن رودينسشولد. أتعرفين ما تورطين فيه نفسك؟ إنك تلعبين بالنار».

يدخِل يده في سترته ويرفع رسالة ماغدلينا رودينسشولد التي ما تزال مغلقة.

يقول: «ما فحواها؟».

تهز رأسها قائلة: «لا أدري».

- هل حددتِ مبلغًا؟

- مئتا دالر، نصفها لك.

يدور رأس بيترسن من الرقم، إذ نادرًا ما رأى مبلغًا كهذا في مكان واحد. المئة دالر ستكون كافية لشراء كل ما أراده يومًا، ملابس تناسب بدنه لأول مرة، وجدران خالية من القمل، ووظيفة بعيدًا عن أقذار المدينة. لكن تخيلاته تتلاشى عندما ينظر إلى آنا استينا كناب ووجهها المتحدِّي، بنمشِه المتوهج، وبشرتها البضَّة المكشوفة حيث تمزَّق قميصها. يعرف أن رده يجب أن يكون مختلفًا عن الرد الذي تريد سماعه.

قال: «إنني رجل بسيط، لا أطلب سوى القليل. أموالك ليست ما أنشده».

يخرِسها رده، ويرغمها على التحديق إلى الأرضية الحجرية، ثم تنظر إليه نظرة مباشرة، تخترقه، فيعتري أحشاءه إحساسٌ يسبِّب الدوار.

تقول: «تريد مني أن أرقص لك».

- أجل.

في البداية يعجز عن إخراج الصوت من حلقه الجاف، ويضطر إلى تكرار كلامه.

- أجل.

تظل واقفة لا تتكلم هنيهة، وعندما تتكلم يخرج صوتها خافتًا لكنه ينضح ثقةً: «إذا توصلنا إلى اتفاق، فسأرقص رقصًا أفضل من رقص أي امرأة اقتدتها إلى البئر يومًا، أنت والمعلم إريك. هل حسبت الجولات؟ أتتذكر من رقصت أكبر عدد جولات؟».

تجعل الذكريات شفتيه ترتعشان، وتسري رعشة استثارة في ظهره، قشعريرة صاعدة من رجولته.

قال: «كانت فتاة ضئيلة الحجم، سوداء الشعر، هادئة، هيِّوبة، شاحبة. حسبتُ ما يزيد قليلًا على ستين جولة، ما كنت لأصدق قدرتها على هذا العدد من مجرد النظر إليها».

- سوف أؤدي ثمانين.

يحس بالشعر ينتصب على ذراعيه الشبيهتين بجذع شجرة، وتنهش حلمتا صدره قميصه الكتاني.

- ثمانون؟

- ثمانون، على الأقل، وبعدها أي عدد إضافي أقدر عليه. سوف أكون أفضل من حظيتَ بها على الإطلاق، سوف يكون صراخي عاليًا، وتوسلاتي تقطع نياط القلب، دون كلل أو ملل. لأنك تريد الارتعاب أيضًا، أليس كذلك؟ موجود، إنني أخاف منك، بيد أنني أخفي خوفي في اللحظة الراهنة. لكنك لن تنال ما تنشده أبدًا إذا لم تدفع الثمن.

- وماذا لو لم أوافق؟

- إذن سوف أتمدد على البلاط حتى تنتهي، دون أن أتحرك قيد أنملة، سوف أظل متمددة وأتلقى كل ضربة وأنا أمضغ لساني وأبتلع دمائي، حتى تفرغ عروقي ويمتلئ بطني، لأسرِّع نهايتي بقدر مستطاعي. لن ترغمني أبدًا على التحرك خطوة واحدة أو إصدار أي صوت، مهما تبلغ رغبتك ومهما يشتد ضربك.

يمكنه رؤية أنها جادة، ويجد نفسه، متفاجئًا، أنه يصدق أنها بارعة كما تقول، ويلمس فيها عزمًا كافيًا لحرمانه من كل ما يتوق إليه، وعزيمتها هي عُملتها الوحيدة التي يضع لها قيمة، وهي كافية لإرغامه على التفاوض.

قال: «ما الذي تريدينه إذن؟».

- أعِد إليَّ الرسالة، وأمهلني أسبوعًا. أنجبتُ طفلين، توأمين، ليس لهم سواي، يمكنني تأمين مستقبلهما بالمال الذي وُعِدتُ به. دعني أذهب وأعطني مهلة أسبوع، وسوف أعود إليك، أقسم لك بدم حياتي، وبحياتهما، وبكل ما هو مقدس لدي. انظر في عينَيَّ وسترى أنني لا أكذب.

يبدأ بيترسن بالتعرق، ويهرش ما حول ياقته ليخفف الحكة.

قال: «هذا ما تقولينه الآن، وفي حال كذبك، فأنت تكذبين ببراعة. لكن جميع الكاذبين البارعين يصدِقون فيما يقولونه في لحظاتهم الحرجة، ثم يختلف الوضع لاحقًا».

يستشعر بيترسن وزن الرسالة في يده.

يتابع: «هل تضعين لحياة طفليك قيمة أكبر من قيمة حياتك؟».

- نعم.

- مئتا دالر. سوف يكون الصغيران على ما يرام بهذا الميراث.

ترى جبهته ترتسم بالأخاديد وهو يفكر، ثم يرطب شفتيه بلسانه ويدس الرسالة في سترته.

ويقول: «سأقدم لك عرضًا آخر. سأحتفظ بالرسالة كي أضمن إيفاءك بوعدك، أمامك أسبوع لتتدبري أمر طفليك، ثم تعودي وتسددي دينك، وبعد

ذلك سوف أحرص على وصول الرسالة إلى الشخص الذي تريدين إيصالها إليه، أيًّا كان».

تحاول آنا استينا بلا جدوى أن تجد مخرجًا أفضل، وتستعرض أصدقاءها في ذهنها ولا تجد أحدًا يصلح، لا أحد ليست مدينة له بالكثير سلفًا. ولا يبقى لها سوى واحد تجمعها به رابطة الدم، وتعود إليها كلمات أمها ماجا: *لا شيء يربط كالدم يا آنا، إذا كان والدك قد رآك بعينيه لما تمكن قط من التخلي عن مسؤوليته*. وجه كارل الصغير يحمل ملامح والده. تثبِّت بيترسن بنظراتها وتتعلق بآخر قشة متبقية.

تقول: «سأخبرك باسم شخص ومكان عندما أعود، أعطِ الرسالة للمراقب جوناتان لوف ليوصلها، وأخبره أن المال الذي سيتلقاه من نصيب التوأمين، ماجا وكارل، وعليه أن يشتري لهما عالمًا أفضل من عالمنا. وسوف يُخبَر لاحقًا بمكانهما».

يبصق بيترسن الاسم الذي سمعه للتو: «لوف؟ لماذا بحق الجحيم؟».

- إنه والد الطفلين، اغتصبني، لكنهما طفلاه رغم هذا. هل سوف تحرص على أن يلتزم بمسؤوليته إذا أخفق ضميره؟

- سوف أفعل، إذا رقصتِ مئة جولة حول البئر لي وللمعلم إريك.

تومئ لأن ليس بوسعها فعل شيء آخر. يبصق في قبضته، كتلة من عصير التبغ البُني، ويتصافحان عند عتبة الزنزانة، فتضيع يدها الصغيرة في يده.

وتقول: «أُقسم بحياة طفلَيَّ».

- وأنا بالله وبالشيطان.

وفي طريقه إلى الخارج لا يسعه سوى التماس الاطمئنان على أنه لم يخطئ السماع، بصوت يكاد لا يعدو كونه همسة: «مئة جولة؟».

- مئة.

الجزء الرابع

المينوتور
خريف 1794

أتستحق الحياة أن نعيشها حقًّا؟

لا، إنني أنفي هذا الزعم،

انظروا الآن متوخين الحذر

حيث يمتد طريقنا المشترك:

تطل علينا جمجمة ساكنة جوفاء

خصلات شعرها اللامع لم يبق منها شيء

ومحجرا عينيها أسودان خاويان

يراقباننا، لا يرحمان.

- كارل مايكل بيلمان، 1794

الفصل الحادي والسبعون

ما يزال المساء في بدايته، وأمامه ليلة طويلة، آخر ليلة يتعين عليه قضاؤها في «مدينة ما بين الجسور»، وكلمات وداعه لكارديل ما زالت تكوي لسانه. يسمع صوتًا عند بابه، فيفتح لهيدفيغ.

فتقول: «رأيت رسالتكَ في الزاوية، ماذا تريد؟».

يعود إلى رزمة الأوراق التي رتبها ليضعها في صندوقه، لكن ليس بالسرعة الكافية لمنع نظراتها اليقظة دومًا من الوقوع على السلسلة الذهبية التي تزيِّن صدريته، فيخرِج الساعة من جيبه ويرفعها أمامها.

ويقول: «كانت مع جان مايكل، طوال هذا الوقت، لا بد أنه وجدها في متجر الرهن في الشتاء الماضي، بُعيد موت سيسل، الله وحده يعلم مقدار ما كلَّفته، كل فلس من راتبه، وأكثر، لشهور. كان يرى أن ذكرى سيسل تستحق الجوع الذي سببته».

نبض الساعة النحاسي الدائب يحصي كل لحظة. وإثر ابتعاد إميل، تنظر هيدفيغ إلى الساعة مدة طويلة، كأنها تتحقق من أن كل تفاصيلها الدقيقة تماثل ما تتذكره عنها.

فيقول لها: «أتريدينها؟ خذيها. أنت أحق بها مني».

يفك السلسلة من عروة زر قميصه، ويضع الساعة على الطاولة ويستأنف حزم أغراضه، جميع مقتنياته متناثرة على السرير، جاهزة لكنسها في الكيس، مشط تنقصه بعض الأسنان وخبز وقارورة ماء بئر للطريق، وأوراق السفر الجاهزة، وحزمة الأوراق التي تركها سيسل في غرفته بالمروج، وجراب جلدي يحوي الأدوات الدقيقة اللازمة لصيانة الساعة. يحس بنظرات هيدفيغ تحرق ظهره، ولا يتمكن من التظاهر بالانشغال إلا بضع لحظات، ثم يستسلم ويقعد

أمامها وكتفاه متهدلتان واضعًا يديه في حجره، ويخفض بصره إثر رؤيته القلق على وجهها.

تقول: «ستتركنا إذن، لماذا تغيير الرأي المفاجئ يا إميل؟ ماذا حدث؟».

الذكرى وحدها كافية لجعل رئتيه تضخان أنفاسًا قصيرة متلاحقة.

قال: «خُيِّل لي أنني رأيته يا هيدفيغ، صباح اليوم، جاءني سيسل في الشارع، في منتصف النهار، حقيقيًّا كما أنتِ الآن. تهيؤاتي تعود، تفاقم مرضي ولا بد أن أعود إلى الديار، ما كان ينبغي لي أن آتي أبدًا».

- ستعود إلى مسكنك القديم إذن؟ لماذا؟ لتبدد حياتك؟ هل ستعود إلى الشراب مرة أخرى؟

- الشراب أفضل من حياتي هذه. أطباؤك في مصحة أوكسنستيرن للمجانين لم يعد لديهم علاج، لم يجدِ معي أي دواء، أخذوا ملابسي ووضعوني في غرفة مظلمة ذات فتحة في السقف، وعبرها كانوا يصبُّون عليَّ دلو ماء مثلج عندما أكون غافلًا، حتى تعيد الصدمة إلى جسدي صحته. وبعد مدة أدركت أنهم لم يُبقوا عليَّ إلا بدافع الفضول، كان يزورني صف من الطلاب ليحدقوا إليَّ عبر فجوة الباب، فكان الهروب فرصتي الوحيدة لأحافظ على القليل الذي بقي من رشدي، وحالما خرجت لم أجد عونًا سوى في الشراب، وربما أجد فيه عونًا مرة أخرى، قد أدفع ثمنًا باهظًا، لكن المرض أسوأ. لا أريد أن أرى سيسل في الشوارع مرة أخرى أبدًا، قال لي أشياء فظيعة، جميعها صحيحة.

تنحدر دمعة على خده في خضم غضبه من ضعف قدرته على السيطرة على نفسه، فتدعه هيدفيغ يهدأ قبل أن ترد. يستغرق مدة، وأخيرًا يكف ذقنه وكتفاه عن الارتعاش ويتباطأ تنفسه.

تقول له: «ينبغي ألا تخلط بين شقيقنا وبين الرؤى التي تسببها عِلَّتك».

- أيًّا كان ما رأيته كان منبثقًا من ذكرياتي، بطبيعة الحال. إذا كنت قد قابلت سيسل في ذلك المكان حيًّا، لقال نفس الكلام، كلمة كلمة.

تهز هيدفيغ رأسها وتقول: «كلا، هذا إجحاف منك، أو أن إحساسك بالمرارة ألقى بظلاله على ذكرياتك».

- أثبتي كلامك.

- هروبك من مقبرة الأحياء يا إميل، كيف حدث؟

- سرقت مفتاحًا.

- ممن؟ وكيف؟

- لا أتذكر.

- هل ظهر من العدم في غرفتك ذات ليلة عندما أُطفئت الأضواء؟ وهل كانت الأروقة خالية كأن الأمر مصادفة، حتى الساحة التي لا يضيئها قمر ولا فانوس؟

- ما الذي تحاولين قوله يا هيدفيغ؟

- ربما حظيتَ بمساعدة يا أخي الصغير، من شخص كان يعرف أنك ستُعرِض عن يد العون إذا عرفتَ صاحبها.

يحس إميل بالدماء تندفع إلى صدغيه وتنبض بإيقاع متسارع في جبهته.

فيقول: «سيسل؟ أتقولين إن سيسل ساعدني على الهروب؟ لكن كيف؟ أين عساه أن يجد المال لشراء حريتي؟».

يذهب إلى السرير ويخرج رزمة الأوراق البُنية من وثائق شقيقه، ويتصفحها بسرعة حتى يعثر على ما يبحث عنه، ثم يتابع النص بإصبعه إلى أن يجد التاريخ الذي لا يدع مجالًا لأي شك، فتظلم الدنيا أمام عينيه لوهلة.

قال: «رأيت هذا الإيصال من قبل، لكنني لم أنظر إلى التاريخ. رهن ساعته مرتين، المرة الأولى كانت ليدفع ثمن خروجي من مصحة المجانين».

- عندما وجدتك كنتَ في حالة مزرية يا إميل، لم تكن تعيش بيننا، وترى أشياء لا تبلغها أبصارنا، ولا تتكلم إلا مع الأشباح. ربما كان العلاج ليخفف معاناتك إذا بقيت مدة أطول قليلًا حتى يبدأ مفعوله. اختار سيسل طريقة أخرى، لكنني لا أشك في أن دوافعه كانت نفس دوافعي. ربما ما تزال مدينًا له.

يعيد إميل الإيصال حيث وجده ويغطي وجهه بيديه ويقول: «فات الأوان الآن».

يحس بيدها على كتفه، باردةً مواسية، وتقول: «هل فات حقًّا؟».

تتركه وحده في صمت لا يخدشه سوى تكّات الساعة.

الفصل الثاني والسبعون

الرضيعان يبكيان، وميكيل كارديل لا يسعه فعل شيء، فالأم التي يتوقان إليها اختفت وراء الغابة، والرجل الذي تركتْه في مكانها شخص لم يرياه من قبل، يتناول ألعابهما، حصان منحوت ودمية قطة قماشية، ويدليها أمام وجهيهما أملًا في تشتيت انتباههما، لكن بلا جدوى، بل ويعلو صراخهما أشد من ذي قبل، كما لو أنهما يعاقبانه على محاولة التقليل من شأن فداحة غياب أمهما، وتنحدر الدموع على خديهما المحمرين.

وفي خضم ذعره يؤدي كارديل حركات راقصة متثاقلة، لكنه يفشل في إثارة إعجابهما، فيضع سبابته اليمنى في أذنه ويحاول سد الأخرى بقبضته الخشبية، لكن الصرخات تواصل بلوغ مسامعه. ورغم أن الهواء بارد يلاحظ أنه دبق بالعرق تحت قميصه، ويتساءل عما إذا كان قد جلب معه الحمى من المدينة، لكن لا، الطفلان هما السبب، وبسباب شبه مكتوم يعود ويجثو على ركبتيه أمامهما ويحاول التكلم بصوت يتخيل أن الطفلين يودان سماعه بشدة.

يقول: «إذا تأدبتما فسأريكما شيئًا لم ترياه من قبل».

يرفع كلتا ذراعيه أمامهما ويسحب يده اليمنى خلسة إلى داخل كم معطفه، ويرخي الأربطة الجلدية التي تثبت الخشب في مكانه، ثم ينحني كأنه يريد التقاط قطة كارل القماشية، ويدع الطرف الأبتر يخرج من كمه. تسقط القبضة الخشبية على الأرض بصوت مكتوم ويتصنع كارديل الدهشة. تكف ماجا عن البكاء وتتفرسه بوجه مستغلق، وشقيقها الذي كان مغمِضًا عينيه يغلق فمه أيضًا عندما يدرك أن حدثًا جديدًا قد وقع، فيهرع كارديل ويلتقط ذراعه ليكرر الحركة، ويعيدها مرة، تلو مرة، تلو مرة. وعندما يملَّان منها

يتلويان ليفحصا الشيء الغريب الذي أمدَّهما بالتسلية، ويجدان أن القبضة المنحوتة لا تحتاج سوى إلى دفعة خفيفة حتى تتدحرج مبتعدة على التراب الناعم، فيتبعانها مدهوشين، يكدَّان في الحبو، لكن بصبر لا يُقهر.

تتراقص ألسنة لهب رشيقة فوق الجمرات وتلقي ضوءها إلى داخل المغارة مع غروب الشمس، وبالداخل يجلس كارديل متكئًا بظهره إلى الجدار الخشن، ويزحف الطفلان فورًا إلى جواره، فيساعدهما بحركات خرقاء بيده الواحدة، بحذر بالغ كأن أخف لمسة من شأنها أن تؤذيهما، وسرعان ما يجد كارل إصبع كارديل الصغير ويلتقمه، فيهدأ راضيًا، لكن البنت أشد فضولًا، تمد يدها نحو وجهه، فينكزها بطرفه الأبتر ليقربها حتى تشبع فضولها، فتمسح يدها الناعمة ندوبه الوعرة، وتتحسس أنفه الناتئ بزاوية غير مألوفة وعظام وجنتيه غير المتساوية، تطلق ماجا ضحكة مغرغرة. وسرعان ما يرخي الليل سدوله عليهم، كلاهما يتكور نحو دفء كارديل، فيحتويهما بين ذراعيه ويسترخي. لكنهما يواصلان التململ، ولا يريدان أن يناما، غير معتادين غياب أمهما وحضور الرجل الغريب الذي حل محلها.

قال لهما: «أتريدان أن أغني لكما؟».

يتنحنح كارديل ويبحث عن النوتة اللحنية التي يبدأ بها.

- أعرف زهرة جميلة، بيضاء كبتلات الزنابق...

صوته الأجش لا يصلح للغناء، وقد نسي كلمات التهويدة القديمة، ورغم هذا يحس بانتباههما، يكفان عن التلوِّي، وقد ملك كارديل المسرح.

قال: «لا بد أن أروي لكما قصة إذن، لكنني أعرف قصصًا قليلة، قصة شبح إندبتو والمراقب ذي الذراع الواحدة لا تناسب الأطفال البريئين».

يفكر هنيهات وهو يثبِّت نظراته على وجهيهما، ويلمح فيهما أمهما.

قال: «حسنًا إذن، ماذا عساي أن أفعل؟».

يتحرك حتى يضجع مرتاحًا وذراعه الواحدة ممدودة كوسادة لكليهما، يستكينان في مكانيهما كأنهما لم يحظيا بفراش آخر من قبل، ويمسك الولد

دمية قطته بذراعيه الصغيرتين. يعرف كارديل أنهما لن يفهما كلماته لكنهما يستمعان وأعينهما مفتوحة على اتساعها في ضوء الغسق.

قال: «كان يا ما كان، أمير شاب وسيم اسمه غوستاف، كان أبوه أجنبيًّا، أُحضر من بلاد بعيدة عندما مات الملك العجوز دون أن ينجب أطفالًا، ولم يوجد رأس في كل البلاد ليوضَع عليه التاج باطمئنان، وقد أراد الشعب ملكًا، لكنهم لا يريدون أن يمنحوه أي سلطة، ورضخ الأمير الجديد لإرادة الشعب، وجلس متبطِّلًا على عرشه وتركهم يحكمون بأنفسهم، لكن الأمير الشاب رأى الظلم متفشيًا في كل مكان، وعندما جاء يوم صعوده على العرش، وقف أمام الحرس الملكي وطلب منهم أن يقسموا بالولاء له لا لأحد آخر. كان الجنود رجالًا أفاضل، إذ لا يُسمح لسواهم بارتداء الأزياء الجميلة، وقد رأوا في الأمير الشاب وعدًا بمستقبل أفضل، بسطوا أسلحتهم عند قدمي الملك وجثوا على ركبهم. ثم حُمِل الملك عبر شوارع المدينة ليرى الجميع وجهه البريء العادل، وفي كل من رآه أُوقدت شعلة الأمل من جديد. شربوا نخبه واحتفلوا به طوال اليوم. ثم اتخذ الملك المتوج حديثًا زوجةً له، أميرة جميلة من الدنمارك، ولم تر أعين الزوجين الشابين سوى بعضهما، ولم يمر وقت طويل قبل أن يُثمر حبهما، ووُلد ابن أحباه حبًّا جمًّا لدرجة أن قلبيهما لم يطاوعاهما على إنجاب آخر. وعندما هدد الأعداء حدود الملك غوستاف بأسلحة مدمرة جبارة، أمر قوات البحرية بالدفاع عن المملكة حتى يعيش رعاياه أحرارًا سعداء كما كانوا. رأى الجميع أن قضية الملك عادلة، وتقاطروا من كل حدب وصوب لينضووا تحت لوائه، وكلفتهم الحرب خسائر فادحة، لكن الشعب آزر ملكه. وتهاوى الأعداء أمام الملك غوستاف، الذي رغم طبيعته المسالمة كان شجاعًا وعبقريًّا في أرض المعركة، وحقق انتصارًا باهرًا. ثم اعتنى الملك غوستاف بجنوده البواسل الذين أُصيبوا إصابات بالغة أقعدتهم عن استئناف مهنهم التي كانوا يمارسونها في أوقات السلم، وأمر بأن يُكللوا بالزهور ويُمدحوا حيثما ذهبوا، وعوَّضهم خير تعويض على خدمتهم حتى صاروا لا يتذكرون إصاباتهم إلا عندما يغمرهم الإحساس بالامتنان. وعندما بُسط السلام وصارت المملكة سعيدة مرة أخرى، قرر الناس تكريم عاهلهم المحبوب بحفل رقص تنكري».

لم يعد كارديل يرى شيئًا لكنه يسمع من تنفس الطفلين أنهما ناما على صوته.

فيقول: «فلننهِ القصة هنا».

ويغشاه النوم هو أيضًا، نوم قلق مع المسؤوليات غير المألوفة.

الفصل الثالث والسبعون

يستعيد كارديل وعيه ببطء، وبعد لحظة ينضح جسده عرقًا عندما يجد ذراعه خالية والطفلان اختفيا. رطوبة الندى عالقة في الهواء، يغمره وهج الصباح، وعندما يرمش بعينيه يرى أنها قد عادت وترضع صغيريها، فيحدق ببلاهة لثانية قبل أن يستفيق فيشيح بوجهه ويتركهم وشأنهم. يفرك النوم من عينيه، وينهض بشيء من الصعوبة ويجرجر ساقيه المتخشبتين إلى الخارج، وعندما تتبعه آنا استينا يكون قد أشعل نارًا في لحاء شجرة بتولا، وألسنة اللهب المتواضعة تبدأ بطرد الرطوبة من الخشب المبتل الذي يِهسُّ احتجاجًا.

تقول له: «شكرًا على بقائك».

يراها رؤية أكثر وضوحًا تحت ضوء النار، متسخة، وملابسها ممزقة. يرد عليها بإيماءة مقتضبة.

ويقول: «سأجلب الماء».

تشير له إلى الاتجاه، وبعدما يعود بوعاء ممتلئ وجوربين مبتلين، تنقع أوراق البتولا في قدح لتغسل نفسها وتدع بقية الماء ليغلي بعدما ملأته بأوراق التنوب، وقليل من الفطر المشوي على الحجارة يمثل إفطارًا مقتصدًا، يتذوقه كارديل مترددًا ثم يهز كتفيه ويأكل ما قُدِّم له. من حولهما تكاد الأشجار تتشح برداء الخريف. يرى كارديل أن آنا استينا تشعر بالبرد رغم أنها تخفي شعورها.

فيقول لها: «لا يمكنكِ المكوث هنا مدة أطول».

- لستُ مضطرة إلى المكوث.

يرى هالات حول عينيها وتبدو كئيبة، ويستشعر فيها شيئًا أسوأ من قلة النوم.

قال: «ألن تخبريني بالمكان الذي ذهبت إليه؟».

تهز رأسها.

فيتابع: «هل انتهت مهمتكِ على ما يرام؟».

يشيح ببصره ويجيب عن سؤاله بنفسه: «انسي الأمر، لديَّ عينان تريان».

يخبره صمتها بأنه محق. بداخل المغارة يطارد الطفلان ذراعه الخشبية، التي تتدحرج على الأرضية الترابية كلما أفلتت من قبضتيهما، فترن ضحكاتهما ويشرعان في المطاردة من جديد.

قال: «ماذا يمكنني فعله؟ تعرفين أن ما عليك سوى أن تطلبي».

تظل جالسة صامتة كأنها لم تسمع، وعيناها على الطفلين. ثم ينهض كارديل أخيرًا، ويستخدم ما بقي من ماء لجعل كوبه نظيفًا بقدر الإمكان، وعندما يتحرك ليضعه جوار كوبها، ينزلق الكوب من قبضته ويفعل شيئًا فعله مئات المرات من قبل والنتيجة هي نفسها: يمد الذراع ذات الطرف الأبتر ليلتقط ما أسقطه بيد لم تعد موجودة، عارفًا أنه كان بإمكانه تدارك خطئه إذا كان سليمًا، لكن الكوب الفخاري يسقط دون أن يعترضه شيء وينكسر إلى نصفين عندما يرتطم بالأرض بصوت مكتوم، وكلاهما يتحركان في نفس الوقت، يقرفصان ليلتقطا القطع المكسورة وتمتد يداهما إلى نفس القطعة، يمسك كارديل بشظية حادة بأصابع صارت خدرة في البرد ولا يرى أنه جرح نفسه إلا عندما تند صرخة عن آنا استينا.

ذكرى اللحظة المشابهة تجعلهما يتوقفان، آخر مرة كانا فيها قريبين من بعضهما هكذا كانت بينهما شفرة حادة أيضًا، كلاهما يمسكها، هو لينقذ، وهي لتقتل. يبحث كارديل عن عينيها، وعندما يجدهما لا يطيق التخلي عنهما، وكأنه مدفوع بقوى لا تخضع لإرادته يميل مقتربًا منها، مدهوشًا من نفسه بقدر دهشتها، تمر وهلة تردد بمقدار نبضة، ثم تجفل آنا متراجعة بعنف وتحرق يدها على الجمرات التي خلفها وهي تحاول تثبيت نفسها بشيء، ويجد كارديل رحمة في ارتسام تعابير الألم على وجهها بدلًا من التقزز

السابق. تصرخ وتتدحرج مبتعدة عنه أكثر. يعتدلان، وكلاهما بيد تتألم ألمًا مبرحًا، وأنفاسهما ترسم أبخرة بيضاء وهما يتمنيان زوال هذه اللحظة ومجيء أخرى، لكن بلا جدوى.

يقف كارديل على قدميه متثاقلًا ويتراجع ليمنحها مساحة إضافية، جاعلًا من النار حائلًا بينهما من أجل راحتها. يبحث عن كلمات اعتذار لكن لا يخطر له سوى لعنات يصبها على حماقته، فيضغط قبعته على رأسه متنهدًا ويتمتم بكلمات وداع وهو ينظر إلى النار.

قال: «طيب، سأعود أدراجي. تعرفين كيف تجدينني يا آنا، لا تترددي إذا اشتدت حاجتك».

ويستدير إلى المغارة ويلوِّح مودعًا التوأمين بيده الملطخة.

يقول: «وداعًا يا ماجا ويا كارل، أطيعا أمكما وأحسنا التصرف مع بعضكما».

يختلس كارديل نظرة إلى آنا استينا لا لشيء سوى أنه يعرف أنها ستكون النظرة الأخيرة، فالنزوة اللحظية أخبرتها بأن مساعدته مشروطة، ولن تطلبها مرة أخرى أبدًا. يرى فيها ما يجول بخاطره: كتفاها مرتفعتان، ليس اتقاءً للبرد، إنما توجسًا منه هو، وعيناها عينا حيوان يخشى الافتراس.

يسير كارديل متثاقلًا نحو بوابة الجبايات ويجتازها دون أن يلقي بالًا للحارس الذي يناديه، ويواصل السير عابرًا نورمالم إلى ثلاثي أبراج الكنائس التي ترسم حدود «مدينة ما بين الجسور». يتوقف جوار «المستنقع»، ويختار أشد الحانات تواضعًا، سقيفة متضعضعة لدرجة أن الرياح تجد طريقها سالكًا بين الألواح، ما من لافتة تشير إلى نشاطها، لا شيء سوى باب يتأرجح متداعيًا على مفاصل مكسورة وصعاليك يتقاطرون إلى الداخل والعطش باد عليهم ثم يخرجون ببقع على قمصانهم.

يزأر كارديل بصاحب الحانة بعدما يرشف أول رشفة من الجعة.

قال: «توجد رغوة أكثر في أوحال المستنقع، ولتحل اللعنة على عينَيَّ إذا لم تكن مياهه القذرة أفضل مذاقًا أيضًا».

يشرب إبريقًا تلو إبريق، ويذهب إلى البرميل بنفسه ليعيد ملء إبريقه حالما يلمح قعره. يمضي النهار ويزداد سُكره حتى يجد صعوبة في الوقوف على قدميه. نظرة آنا استينا الأخيرة ما تزال تلسع جلده. يدع كراهيته تنصب على كل ما يجعله رجلًا، عضلاته وقبحه، وهيئته التي لم تُخلق سوى لإلحاق الأذى بالآخرين، ينتمي إلى صنف من البشر يفعلون ما يحلو لهم بأمثال آنا استينا منذ بدء الخليقة، وهو عاجز مثل الآخرين عن التغيُّر. هادئًا عند طاولته ينتظر مجيء حثالة قاطني ضواحي المدينة، مستيقظين للتو أو عائدين من عمل لم يؤدوه بإتقان. يخفي ذراعه اليسرى خلف ظهره، وبعدما يصيرون كثيرين وثملين بما يكفي لقبول تحديه، يمشي متَّئدًا إلى أضخمهم وأشدهم ثقة بنفسه، ويقترب منه إلى درجة تكاد معها أن تندلع شرارة بين أرنبتَي أنفيهما، ويفحُّ بدعوة إلى شجار بأشد الكلمات نجاعة التي يمكن أن تخطر له وهو في حالته الراهنة.

قال: «ما الذي تحملق إليه بحق الجحيم؟».

يخرجان إلى الفناء حالما تجعلهما المشاحنة يتبادلان كلمات لا يمكنهما التراجع عنها، ويتحلَّق حولهما الرعاع، ويهتفون مشجعين، إذ يا لها من تسلية مجانية! وسرعان ما يعقدون الرهانات، ويربِّتون على كتف فائزهم المرجح هامسين في أذنه بنصائح نابعة من تعطشهم للدماء.

يتلقى كارديل اللكمة الأولى على جبهته فيحس بحاجبه ينشق كبثرة مفرطة النضج. ويضحك.

قال: «أظن أن خادمة صغيرة روَّحت عني بمروحة ريش».

تهوي الضربة التالية على خده فينبثق على الفور كيس دماء تحت جلده.

فيقول: «يمكنني التمتع بمداعبات كهذه في «شارع باغ» لكن سأضطر إلى دفع نقود».

يتلقى وكزة على أذنه فيحس بدفء يسيل إلى عنقه.

فيتابع: «تلقيت ضربة كهذه من أمك لأن لياقتي لم تكفِ سوى لنصف ليلة».

يدوي صدره كالطبل تحت وابل الضربات المنهمرة، وبعد هنيهة تعجز شفتاه المشقوقتان عن إخراج أي إهانات مسموعة، لكن الحاجة إليها انتفت، فالموقف واضح.

لا يعرفونه، ولمدة طويلة يظنونه مخاتلًا يتآمر مع صديق مراهن ويتلقى الضربات لجني المال. ولا يدركون إلا لاحقًا أن العراك من طرف واحد، وتتحول بهجة الدهماء إلى امتعاض عندما تُعد الرهانات لاغية، وفقًا لقانون شوارع غير مكتوب. يخمد المرح الصاخب إلى تمتمات لا تتخللها سوى بضع ضربات طاحنة.

وفي النهاية يتركون الفناء واحدًا تلو الآخر أو في مجموعات، ويبقى قليلون، فاغرين أفواههم من مقدار الضرب الذي يتلقاه الغريب دون أن تخور ركبتاه. وعندما تنخفض القبضتان الداميتان اللتان تتراقصان أمام وجه كارديل، يرى الاشمئزاز على وجوه بقية الحشد، وجميعهم ينظرون إليه شزرًا كأنه قاذورة.

وأخيرًا يدرك كارديل أن الجميع غادروا، بما فيهم خصمه، وأنه يقف وحده في بِركة، ويرفع طرف ذراعه الأبتر المثلم ضاربًا الهواء، ثم يرسل خاطره إلى الذراع الخشبية التي ما تزال مع الطفلين اللذين وجدا فيها بهجة بالغة.

الفصل الرابع والسبعون

يعرج كارديل إلى غرفته في الصباح الباكر، وقد تجمد وجهه بقناع من الدم الجاف، إلى درجة تفزع القليلين الهائمين صباحًا الذين يصادفهم في الأزقة، حتى جامعو الفضلات -المعتادون تحاشي الناس لهم كالطاعون- يبتعدون وَجِلين حتى يرتج البرميل الذي يحملونه وتندلق محتوياته على سيقانهم. يحرك لسان كارديل سِنًّا متقلقلة، وتصدر الجروح المكسوة بالقشور خشخشةً عندما يفتح فمه وينكز السن بإصبعه، ثم يدفعه للخلف حتى ينخلع من جذوره، ويبصقه في مجرى التصريف. وفي السلالم يضطر إلى الانحناء ليهدئ أنفاسه كل خطوتين بسبب ضلوعه الموجعة.

يجد إميل وينيه مقتعدًا عتبة الباب، متكورًا على الجدار وذراعاه حول ساقيه ورأسه على ركبتيه، يغط في نوم عميق، وكل زفير يتخذ شكلًا في الهواء البارد. يستريح كارديل متكئًا على الجدار، ويفتح وينيه عينيه فينظر إليه مباشرة.

تمر هنيهة قبل أن ينقشع رعبه الصامت ويتعرف على كارديل، الذي يرى شفتين تتحركان ويسمع همهمة الأسئلة ممتزجةً بطنين أذنيه، لكن لا طاقة له بالاستماع أو الاستيعاب، ويسخِّر كل ما بقي له من قوة ليدفع وينيه جانبًا ويفتح الباب ويترنح بساقين مرتعشتين قاطعًا المسافة التي تفصله عن سريره، ويغيب عن الوعي في لحظة ارتطام رأسه بالفراش.

يستيقظ بسبب آلام وجهه ويتعين عليه رفع يده ليستعين بإبهامه وسبابته ليفتح جفونه الملتصقة بالدماء والورم. يجلس وينيه على حافة الفراش وفي حجره وعاء ويغسل جبهة كارديل بقطعة قماش.

ويقول: «أيؤلمك وجهك؟».

- عندما أضحك فقط.

- ماذا حدث؟

- لا شيء على وجه التحديد. كان يوم تسميتي، والتقليد يقتضي أن أستمتع بشجار سنوي بوصفه إلهاءً.

يسمع كارديل نفسه يلثغ بشفتين سميكتين كشريحة لحم على طبق.

قال وينيه: «ذهبت إلى «الغراب» وأقنعت صيدلانيًا متتلمذًا بالمجيء. فحصك وأعطاني توجيهات لمزيد من العناية».

- لم نفترق ونحن على وئام، حسبما أتذكر، فلماذا هذا العطف المفاجئ؟

يمسح وينيه جرحًا على جبهة كارديل، الذي يشم الخل قبل ثانية من اشتعال الجرح فيذب اليد المداوية مزمجرًا.

ويقول: «كف عن العبث واتركني وشأني حبًا في الله!».

يشيح وينيه بوجهه متنهدًا، ويسير بالوعاء إلى النافذة ويفرغ محتوياته بالخارج، ثم يضعه ويشبك يديه خلف ظهره ويتكلم موليًا ظهره لكارديل: «عندما التقينا آخر مرة قلتُ الكثير مما أتمنى الآن لو لم أقله، انتقيتُ كلماتي لأجرحك، والآن أطلب غفرانك».

- ما الذي تغير في هذه الساعات القليلة؟

- أنا أصغر أشقائي، والذي اضطر إلى تدبر أمره بالذكاء القليل الذي بقي ليرثه. تحدثت مع شقيقتي، وقد ساعدتني على استيعاب كثير مما لم أكن أستوعبه سابقًا. ذكرياتي عن سيسل مشوبة بمشاعر مبنية على أساس خاطئ ولم يصححها الواقع منذ سنوات عديدة.

يمرر كارديل أصابعه على وجهه المعطوب ويقول: «عندما قابلت شقيقك أول مرة قبل عام في مقبرة ماريا، أنا أيضًا قلت بضع كلمات القصد منها الإيلام وسرعان ما ندمت عليها، وما قلتُه كان حقيقة، بطبيعة الحال، وكذلك

ما قلتَه لي، وإلا فكيف عساه أن يؤلم؟ يومذاك كانت الأدوار معكوسة وأنا الذي ذهبت إلى وينيه لأعتذر، وقبل اعتذاري دون تردد. ومن ناحية أخرى كان يحتاج إلى مساعدتي، كما أحتاج إلى مساعدتك. من عساه أن يعرف المقصود فعلًا بكلامه في مثل هذه الظروف؟».

يستدير وينيه ويهز رأسه قائلًا: «أيًّا كان نوع العفو الذي تشملني به فهو قرارك، إنني هنا أتوسَّله بصرف النظر عن كل شيء».

- ساعدني على قطع حشوة من التبغ وستنال العفو مقابل مساعدتك.

يصحب تنفس كارديل صفيرًا وهو يكز بأسنانه عندما يلسع عصير التبغ لثته المتقرحة وشفتيه المشققتين.

قال كارديل: «وماذا الآن إذن؟ هل ستأخذ عفوك وتعود إلى أوبسالا وتتصرف بحكمة، أم ستبقى وتساعدني على النفخ في هذه القِربة المثقوبة؟».

- سأبقى، إذا ما زلتَ تريد مني البقاء.

- أخبر شقيقتك بأنني مدين لها بشراب إذن، في حال كانت أفضل من شقيقيها فيما يتعلق بمسائل الشراب.

يرتسم الألم على وجه كارديل وهو يميل فوق المبصقة ويدع عصير التبغ يسيل فوق شفته التي تجد صعوبة في الحركة.

يتابع: «لكن المخاطرة ما تزال جسيمة، وفرص نجاحنا ليست أفضل مما كانت. ألم تخبرك شقيقتك بما ينبغي لنا فعله الآن؟».

يذرع وينيه الغرفة جيئة وذهابًا ويداه مشبكتان خلف ظهره. ثم يقول: «صحيح أن الوضع يبدو قاتمًا، لكن لا يسعنا الزعم أننا نعرف جميع ملابسات القضية يا جان مايكل، لا نعرف شيئًا عن سيتون هذا سوى ما أقر به بنفسه، ربما توجد ثغرة في درعه، علينا أن ننظر إلى الوضع من جوانبه كافة، وعندئذٍ يمكننا أن نوقن بما إذا كانت الصورة الكاملة ميؤوسًا منها مثل أجزائها».

يميل كارديل إلى الأمام ليقول شيئًا لكن لا يند عنه سوى تأوُّه عندما تتزامن حركته مع تنفسه فيؤلمه ضلعٌ مكسور. ومع هذا يومئ وينيه، كأن الصوت نقل له معنى.

ويكمل: «إننا نخاطر مخاطرة عسيرة يا جان مايكل، تحذير سيتون لا يدع مجالًا للشك، لا أود أن أتخيل ما قد يفعله بالأيتام ليضرب مثالًا إذا اكتشف أننا ما زلنا نتشمم في أعقابه. لا يسعنا سوى المواصلة متوخين أقصى درجات الحذر، اتفقنا؟».

- لا أظن أن الأرملة كولينغ ستكون آخر من يحرمها ذلك الشيطان من أطفالها إذا تُرك حرًّا. المخاطرة تستحق العناء، وسنواصل حذرين، لكن كيف؟

يميل وينيه مقتربًا ويخفض صوته كأنما يمكن أن يسمع شخص آخر كلامه ويقول: «عندما كنا نتناول العشاء لمحت خاتمًا في يد سيتون اليسرى، تايشو سيتون متزوج، واحتمال أن يكون زواجه سعيدًا هو المستحيل بعينه. ربما تعرف السيدة سيتون المزيد، وقد تكون راغبة في إخبارنا، إذا تمكنا من العثور عليها. متى يمكنك الوقوف على قدميك؟».

يتمدد كارديل في فراشه ليختبر أطرافه ثم يقول: «تلقيت معظم الضربات على رأسي، ولحسن الحظ إنه العضو الذي يمكنني الاستغناء عنه. لكن إذا أمهلتني يومًا حتى يخف التورم فستكون شوارع استوكهولم مدينة لك للأبد. هلَّا ناولتني شظية المرآة تلك التي جوار النافذة؟».

يتفحص كارديل قناعه المرسوم بالأحمر والأسود بعيني خبير ويقول: «طيب، فلتحل عليَّ اللعنة إذا لم يلكُم ذلك السفاح أنفي حتى استعدله!».

الفصل الخامس والسبعون

بالأسفل عند رصيف الميناء يجد وينيه مكتب بالندر خاليًا، الباب موصَد وعندما ينحني ليلقي نظرة عبر ثقب المفتاح يرى رفوف الملفات والدفاتر مبعثرة وفيها فجوات خالية. يأتي رجل في طريقه إلى باب مجاور ويرمقه بنظرات فضولية ويخفض صوته إلى همسة ودودة.

قائلًا: «هل جئت لتحصِّل ديونًا؟».

وعندما يهز وينيه رأسه يطلق الرجل ضحكة كالصهيل.

ويقول: «قابلت رودلوف بالندر قبل أيام هابطًا السلالم وذراعاه مليئتان بالأوراق، شاحبًا كشبح وعيناه كعيني بقرة جفول، فقلت لنفسي إن هذا رجلٌ الجنود في أعقابه ومعرَّض لخطر الزج في سجن المدينين في أي لحظة».

- جئت من الشرطة، لكن قضيتي مختلفة.

- حسنًا، بالنظر إلى استعجاله سأتفاجأ إذا ما زال موجودًا ضمن حدود هذه المملكة.

يخرِج الرجل علبة سعوط من جيب صدريته ويقدمها لوينيه، فيرفض، ويفرغ قليلًا في التجويف الذي بين إبهامه وسبابته ويقرِّبه إلى أنفه، ثم يعطس بصوت عال.

ثم يقول: «حسنًا، اللعنة! عندما يتعثر عمل المرء يجد العزاء في وقوع الآخرين في ورطة أكبر».

يقرر وينيه، بصرف النظر عما سينتهي إليه، زيارة الكنائس بالترتيب، غيرترود هي الأقرب، وتليها نيكولاي جوار جدار القلعة، وفرانسسكوس بعيدًا على جزيرتها. سجلات الكنائس فوضوية، وليس لدى وينيه تاريخ أو سنة محددة وهو يبحث في نذور الزواج والزيجات، يصعب فهم الكتابة، والفجوات العديدة في السجلات تشير إلى عمل مستعجل غير متقن، والقساوسة مشغولون فلا يجد منهم عونًا كبيرًا.

يختار كلما أمكنه مسارات حيث تكون السماء مفتوحة فوقه، يسلك الطريق الطويل المار برصيف الميناء و «تل الأسد»، ويجتازه حتى الدرب المحاذي لـــ «ملتقى الذباب» الذي يُثبت أنه جدير باسمه وحيث تنبعث نتانة المراحيض العامة. يسير حيثما تلتقي «مدينة ما بين الجسور» بالمياه ليحدد كيفية الوصول إلى وجهته سالكًا أقل عدد ممكن من الأزقة. يهرع عائدًا إلى البيت لكنه يشعر بخوف يتحول إلى غثيان، وتحمله خطواته نحو الضوء ورفقة الناس، وسرعان ما يجد نفسه واقفًا وقلبه في حنجرته أمام مقهى ويعثر على ركن خالٍ ويجلس، منسيًّا من العالم لكنه آمن في اللحظة الراهنة. ما زال الناس يتكلمون عن رودينسشولد وآرمفيلت، ويتساءلون عن التالي الذي سيتعرض للخيانة من بين أتباع المنفِي الأوفياء، وعما إذا كان بمقدور ريوترهولم هذه المرة أن يرسلهم إلى سيف الجلاد أم سيكتفي بالسجن.

جوار وينيه مجموعة سادة اجتمعوا بعد نهاية يوم عمل وكل منهم يهتف طالبًا كوبًا من الشوكولاتة.

- ولا تكن بخيلًا بالكاكاو، ينبغي أن يجعلني المشروب أستمر طوال الليل!

ينوون الذهاب إلى «شارع باغ»، وسرعان ما يبدؤون بالحديث عن المزايا والعيوب النسبية التي تتميز بها فتيات الليل وأيُّهن الأكثر تمرسًا في فنون ممارسة الحب.

- الحمل الصغير.

- «الغانية الألمانية»، بحق السماء.

- إما أنكم لا تعرفون الفرق بين الماء والنبيذ يا إخوتي، وإما أنكم لم تطارحوا «وردة شارون» الغرام.

«فلنكف عن الجدال ونخرج في غزواتنا الآن. إذا كانت أذواق الجميع متماثلة، لصار الانتظار أطول مما يطيقه أي رجل».

يضحكون من حقيقة كلمات المتحدث الأخير ويتركون خلفهم طاولةً ملطخة وفكرةً مبشِّرة لإميل وينيه.

يقاوم كارديل كل محاولة لإيقاظه.

يقول وينيه: «جان مايكل، إننا نعرف أن الورود الثلاث أوضح في قصته التي كتبها أن تايشو سيتون كان معروفًا في كل مواخير غوستافيا وممنوعًا من دخولها، ربما يكون هذا هو حاله هنا في استوكهولم أيضًا، صحيح؟».

يفتح كارديل عينه بمقدار ضئيل، كاشفًا عن شظية بياض بين طيات زرقاء مسودة، وينخر مجيبًا ثم يدور بؤبؤ عينه للأعلى، وينقلب على جانبه ويطلق شخيرًا عاليًا، فيرى وينيه أنه ينفخ في رماد، ويمضغ ظفر إبهامه بأسنانه حتى ينزف.

فيقول: «سأذهب وحدي إذن، أو لا أذهب».

يهبط السلالم إلى «زقاق النحات»، ويسير صاعدًا التل إلى الساحة. المدينة تربض في الظلام، لكن في الحانات يظل الضوء فتيًّا. تدوِّي خطوات المينوتور بين المنازل، لكنها ما تزال بعيدة. العديد من الفوانيس ما تزال معلقة غير مضاءة على امتداد واجهات المباني، وعلى أي حال أيٌّ منها ما كان ضوؤه ليبلغ البئر في منتصف الساحة، ورغم هذا يفضِّل وينيه الهواء المفتوح، ينحني قليلًا ويهرع. أحد الحواجز الذي بارتفاع الخصر الذي يمنع العربات من الاقتراب من المضخة مخفي في الظلال فيرتطم به بركبته قبل أن ينحني نحو الحجر الرطب ويأخذ الماء بيده ويغسل وجهه. تُضاء الأنوار في البورصة، وبضع شموع تلقي ضوءًا متراقصًا عبر زجاج نوافذ مكسو بالسخام، وأرضية صالة الرقص تُمسح وتُنظف، وفوق أفاريز المبنى يشمخ

برج الكاتدرائية الأسود. يمر رجال ونساء تحت جنح الظلام على مبعدة، ترافقهم ضحكات ومقتطفات من حوارات. يهرع مبتعدًا نحو الرصيف، ويمكنه سماع جلبة «شارع باغ» من بعيد قبل أن ينعطف عند الزاوية.

الضوء مختلف هنا، فالفوانيس محجوبة جزئيًا لإخفاء هوية الزوار الذين يسيرون في منتصف الشارع، ويُوجَّه الضوء إلى الأعلى لإبراز فخر كل دار، حيث تتبختر فتيات الليل عند النوافذ، إحداهن تجلس عاليًا على حافة ناتئة وبين شفتيها غليون فخاري، تدلي ساقيها العاريتين فوق موت محقق، وتروِّح طيات تنورتها القصيرة للذين يودون رؤية ما تحتها، وأخريات ينحنين للخارج ويهتفن بوعود امتلاكهن مواهب بعينها، أو يرسمن ظلالًا فاحشة على النوافذ المغلقة ليُبرزن عريهن دون أن يتِحن نظرة من كثب. وعلى الأرض يستفحل يأس الفتيات ترافقه جرأة أشد، يرى وينيه امرأة مخمورة تسير صامتة مترنحة على كل من تراه، فاغرة فمها بذهول وابتسامة بلا أسنان، وتشهد عيناها الخاويتان على حياة بائسة. سيدات المواخير يقفن خارج أبوابهن، ويعلنَّ عن مميزات دُورهن. قانون ريوترهولم التقشفي ضعيف الأثر على الذين يُعدون مذنبين سلفًا في أعين القانون، لكنهم يواصلون عملهم استجابة للطلب العام وأفراد حرس المدينة الذين يغضون الطرْف. هنا يرتدي الناس ملابس ذات ألوان برَّاقة بما يكفي لإضاءة الغسق، وفي كل مكان الرجال في طريقهم إلى الداخل أو الخارج: حرفيون يستمتعون بيوم عطلتهم، وبرجوازيون ميسورو الحال فرادى أو في مجموعات، وحشود شباب، إلى جانب خُطاة فرادى يخفون وجوههم بالمناديل، جميعهم توحِّدهم الرغبة.

وبينما يحاول وينيه المرور، تمسك بكم معطفه امرأة وافرة البدن وجهها ملطخ بمعجون رمادي فاتح، ترتدي معطفًا رماديًّا ذا ياقة بيضاء، وتنتعل خفًّا أحمر، وتحمل بيدها مظلة ذات لون أخضر براق، وما تكاد تبدأ تلاوة مغريات ماخورها حتى يقاطعها رجل أعجف يترنح حاملًا قنينة بيد وبالأخرى قبعته.

قائلًا: «عاهراتك القذرات أصبنني بالزهري يا مدام».

يتكلم بلسان ثقيل ويدير رأسه يمنة ويسرة بحثًا عن جمهور، ثم يسقِط القبعة والقنينة، ويحل بنطاله من خصره ليعرض قروحه التي ينز منها

الصديد، يزمجر بصوت متهدج يتردد صداه في الأزقة: «أيها الناس الطيبون احذروا من فتيات ماخور «السحلية»!».

فترفع المدام صوتها إلى درجة الصراخ حتى لا يضيع ردها: «إنك مخطئ يا سيدي الفاضل! جميع فتياتي يباعدن ما بين سيقانهن طائعات للطبيب كل يوم خميس».

ينزلق بنطال الرجل إلى ركبتيه، ويكاد يسقط في خضم غضبه إذ يقول: «مرض! مرض! ابتعدوا إذا كنتم تريدون ألا تتآكل أنوفكم وأعضاؤكم!».

تقرر المرأة تغيير الاستراتيجية، فتقترب منه خطوة وتخفض صوتها إلى نبرة مهدِّئة: «هوِّن عليك، لِم لا تهدأ قليلًا؟ لو ينقصك المال من أجل قليل من الزئبق وأسبوع في المشفى، فأنا متأكدة أننا لدينا مقدار فائض».

يدفعها عنه قائلًا: «اغربي عن وجهي أيتها الساحرة، ألا تدركين أنك دمرت حياتي؟ جميع مقتنياتي مِلكٌ لزوجتي وعندما ترى أن رجولتي تتفتت ستمنعني من دخول البيت إلى الأبد».

وعندما يبدأ بترديد تحذيراته المهتاجة للعابرين، تومئ المدام نحو سلالم ماخورها، فيخرج رجل قوي البنية يلوح الموت في عينيه، ويمسك بالمتظلِّم من تحت ذراعه ويقتاده إلى زقاق جانبي وهو يرخي هراوة من حزامه، ثم تتلاشى الصرخات تحت وقع الضربات، ويعود البلطجي وفخذاه مصطبغان بالأحمر حيث جفف يديه، وتمسك به المرأة من ياقته وتهمس في أذنه.

وتقول: «اعثر على التي قضت معه وقتًا مبهجًا واحرص على غيابها عن بصري».

ومن ظلال الزقاق الجانبي لم يعد يُسمع سوى نشيج متقطع. يحث وينيه خطاه موقنًا أنه لن يعرف شيئًا جديدًا في «شارع باغ».

يسير عكس تيار الناس، الذين يبدون جميعهم يسيرون في الاتجاه المعاكس. تضيق الجدران حوله ويتسلل إليه التوتر، لكن كلما بذل جهدًا أكبر ليشق طريقًا لنفسه، يجد مقاومة أشد بالقدر نفسه. يرتطم كتف بكتفه

ارتطامًا عنيفًا، وينغرس مرفقٌ في خاصرته. ومع استفحال نوبة ذعره يحس بيد تلمس يده.

«هل اسمك وينيه؟».

يلتفت فيرى امرأة تكبره ببضع سنوات، وديعة الوجه، وقد شاخت قبل أوانها بسبب مهنتها، وكلماتها تحمل نغمة لكنة شرقية.

تتابع: «رأيتكَ من نافذتي، جوار مثير المتاعب و «بلاتين الصغيرة»، المرأة التي تحمل المظلة الخضراء. اسمي جوانا، ويلقبونني بـــ «زهرة فنلندا»».

- كيف تعرفين اسمي؟

- اهدأ، لا يمكنني فهم ما تقوله.

- كيف تعرفين اسمي؟

- لديك شقيق، أليس كذلك؟ أكبر منك؟ إنكما متشابهان جدًّا. للحظة ظننت أنك هو. أردت أن أسألك عن أحواله.

- سيسل مات.

يسمع منها شهقة حادة وهي تشيح بوجهها قائلة: «أوه».

قال لها: «هل كان يزوركِ كثيرًا؟».

- أيفاجئك هذا؟

في البداية لا يعرف إميل ما ينبغي له قوله، غير متأكد من قواعد اللباقة التي تتطلبها مثل هذه الأحاديث، وأخيرًا يومئ لها إيماءة مقتضبة.

ثم يقول: «في هذه الأيام صرت أعرف عن شقيقي أشياء ما كنت لأتخيلها. لماذا تبكين؟».

- أقابل العديد من الرجال في مجال عملي هذا، رجال طيبون، ورجال أوغاد، رجال يفعلون ما أتوا لفعله ويذهبون في غضون عشر دقائق دون أن يسألوني عن اسمي، رجال يريدون أن يتعرضوا للإغواء، كما لو أنهم أُرغموا على المجيء إلى غرفتي كي أفعل بهم ما يحلو لي، رجال يتشاجرون، ورجال ينتحبون، ورجال لا يريدون سوى شخص يستمع إليهم، جميعكم مختلفون، الرغبة وحدها هي القاسم المشترك

بينكم. سيسل كان الرجل الوحيد الذي شعرت نحوه بعاطفة، اختارني لأنني أشبه زوجته التي كان يفتقدها، لم يكن يريد سوى أن أؤدي له تمثيلية، أن أضمَّه بطريقة معينة في أثناء نومه وأهدهده حتى يغيب في أحلامه، وأن أضع عطرها، كان ينال ما يجيء من أجله في اللحظات الوجيزة بين اليقظة والنوم عندما يتخيل أن الأشياء كما كانت من قبل، لم يطلب مني أكثر من هذا قط، كان يعطيني المال كي أتظاهر بأنني امرأة أخرى، وفي الصباح وهو يهمس باسمها وعلى شفتيه ابتسامة كان يريني عالمًا لن أعيش فيه أبدًا، صرت أحبه لكل هذا، ولأنه لم يعاملني قط بوصفي شخصًا أقل منه شأنًا.

تنظر إليه بعينين محمرتين وتتابع: «ألا تريد أن تتبعني إلى الداخل؟ يمكنني أن أقدم لك الخدمة نفسها، تبدو كأنك تحتاج إليها بقدر حاجة شقيقك».

- ليس لدي ما أدفعه لكِ.
- لا حاجة إلى الدفع. أود أن تدعني أعانقك.
- ربما في وقت آخر.
- لا بد أن يكون الليلة.
- لماذا؟ «بلاتين الصغيرة» أرسلت تابعها لإخباري بأنني عليَّ مغادرة الدار قبل صياح الديوك.

الفصل السادس والسبعون

تتشبث شعلةٌ محتضرة بذبالة الشمعة، يصدر الشحم دخانًا، وقريبًا ستستحيل الشمعة إلى بِركة تخمد النار. تُعلَن ساعات ما بعد منتصف الليل من أبراج الكنائس واحدة تلو الأخرى.

قالت: «إميل؟».

يدها على صدره، ورأسها على ذراعه، وهو يضجع محدقًا إلى الفراغ.

ويقول: «مستيقظ».

- كادت الليلة أن تنقضي، عليَّ الذهاب.

كلاهما لا يتحرك. ويحس إميل بنظرتها على خده، نظرة قلق.

قالت: «لا بد أن الأحلام التي تراودك فظيعة. كنت تنادي وأنت نائم، وأحيانًا تتكلم بلغة لا أفهمها».

- إنها الإغريقية على الأرجح.

- عندما أمسكت بيدكَ في الشارع كنت تبدو كأنك ترى أشياء غير موجودة، ما الخطب؟

- إنني أفقد عقلي، ببطء لكنني أفقده بلا شك، حدث أن فقدته مرة من قبل، تبدو العملية أبطأ نسبيًّا هذه المرة، لكنها هي نفسها.

- أما من شيء يخفف عنك؟

- الشيء الوحيد الذي يخفف عني يعجزني عن فعل ما يجب عليَّ فعله.

تتأمل قوله لوهلة، وتتذبذب الشعلة مع مرور تيار هواء.

تقول: «هذا هو حال العالم، كل دواء ينطوي على سم وكل الدروب تحفها الفخاخ، إنه مثل...».

تصمت عندما يصفع شخصٌ بابًا على الجانب الآخر من الدار، تنطفئ الشمعة وينهي إميل عبارتها قائلًا: «مثل متاهة».

يرتديان ملابسهما في الضوء الرمادي الذي يرسله الفجر المقترب، وكل منهما في ركن من الغرفة، وقد عادا غريبين عن بعضهما مرة أخرى. تملأ جوانا حقيبة قماشية بمقتنيات قليلة، ثم تعبر الغرفة وتدير ظهرها له وهي تقترب منه، وتزيح شعرها الطويل جانبًا، وحينما يفهم إميل المطلوب منه، يبدأ بضبط مشد صدرها بطريقة خرقاء.

تقول: «ما الذي جاء بك إلى «شارع باغ» ليلة أمس؟ لم تأتِ إلى هنا بنفس الدوافع التي يأتي الآخرون من أجلها».

- أتعرفين شخصًا يُدعى سيتون؟ تايشو سيتون.

- لا أعرف هذا الاسم.

- لديه ندبة ممتدة من زاوية فمه اليسرى إلى ما فوق خده، جرح قديم يجعله يبدو مبتسمًا، لم يلتئم كما ينبغي وما يزال ينز صديدًا. لكن ربما لم يكن مصابًا عندما جاء هنا، إذا جاء أصلًا.

يُحكِم مشد الصدر ويعقد ربطة فراشية في الأعلى.

فتقول: «أعرف من تتحدث عنه، نطلق عليه أسماء أخرى».

- هل رأيتِه قبل إصابته أم بعدها؟

تفتح الباب وتلقي نظرة سريعة على الخارج، الدار ما تزال نائمة، وفي الرواق تختلط أصوات شخير الزبائن الذين باتوا ليلتهم. تغلق الباب وتقعد على حافة الفراش.

وترد: «قبلها وبعدها، أنا عن نفسي لم أشاركه الفراش قط أو أقترب منه مجرد اقتراب، لكن الفتيات يتكلمن، والكلام هو سلطتنا الوحيدة، أن نضحك على زبائننا وراء ظهورهم، ونسلط الضوء على عيوبهم، ونجاري محاولاتهم

السخيفة في ممارسة الحب، ونسخر من تعابير وجوههم لحظة بلوغهم ذروة النشوة. كل من يدفع المبلغ المتفق عليه يمكنه فعل ما يحلو له، في معظم الأحوال، ويغادر ناعم البال عارفًا أنه دفع كامل ثمن متعته. لكن حتى نحن نضع حدودًا لما يمكن التسامح معه، ليس وكأن المدام تهتم لأمرنا اهتمامًا يتعدى اهتمام بائع متجول ببضائعه، لكن حتى إذا كنا مجرد لحم في نظرها، فاللحم يمكن أن يفسد وعندئذٍ لا يمكن بيعه. يوجد رجال يستمتعون بضربنا وإنزال الألم بنا، ويكون كل شيء على ما يرام ما دامت الكدمات يمكن تغطيتها بالمساحيق، معظمنا يعتدن الأمر. وللزبائن الذين يبلغون حد التطرف توجد بعض المخضرَمات، أكبر سنًّا عادة، من اللاتي ظللن هنا منذ مدة طويلة إلى درجة أنهن يكدن لا يشعرن بأي شيء، كأنهن ميتات من الداخل، وهن مستعدات لمجاراة المتطرفين إذا كان السعر مناسبًا وكافيًا لتغطية تكلفة المشروبات الكحولية طوال مدة تعافيهن. لكن عندما يطلب رجل مثل الذي ذكرتَه فتاة يافعة جاءت من الريف مؤخرًا أو خادمة فقدت عملها أو فتاة مات والداها قريبًا، فستُدمَّر إلى الأبد، وبعدها لن تستجيب لأي من تهديدات سيدة الماخور، لا الصفعات على الوجه، ولا حتى النبيذ يجدي، تتخشَّب لمجرد فكرة وجودها وحدها مع رجل، ولا يبقى حل سوى إلقائها في الشارع، بعدما كان بمقدورها جني ثروة في ليلة واحدة».

- وسيتون؟

- في البداية لم تكن لديه ندبة، وسيمٌ حتى، من النوع الذي تقتاده غير ذوات الخبرة طواعيةً إلى غرف نومهن قبل أن يعرفن أن المظاهر خدَّاعة. قيل لي إنه من النوع الذي يشاهد بدلًا من أن يفعل بنفسه، وأحيانًا يصطحب رجلًا آخر معه، وأحيانًا يريد إملاء تعليماته على فتاتين. عندئذٍ كانت نزواته ضمن حدود المعقول. في الليالي التي تقع فيها إصابة كان يدفع بسخاء ويعبِّر عن اعتذاره بلباقة بالغة فيُغض الطرف عن فعلته. اختفى مدة ثم عاد بخده الممزَّق، وعندئذٍ صار مختلفًا، أسوأ، وسرعان ما لم يعد أي ماخور في «شارع باغ» يود التعامل معه، ولم يظهر منذ ذلك الوقت.

- أتعرفين إن كان متزوجًا أم لا؟

- دائمًا ما كان يُقال إن زوجته هي التي أصابته، وما من أحد لم ير أن تلك المرأة قديسة. يقال إنه يبقيها سجينة عقابًا لها، لكن من يمكنه الجزم بصحة شائعة كهذه؟ عندما كان هنا آخر مرة ارتكب فِعالًا لم يستطع التعويض عنها بما في محفظته وحدها، وعندما تحدث أمور كهذه ترسل «بلاتين الصغيرة» أحد رجالها ليرافق المعتدي إلى بيته ويحرص على تسديد دينه، لذا ربما تتذكر مكان بيته.
- سأتحدث معها.

تتبعه وهما يهبطان السلالم ويخرجان إلى الشارع، حاملةً حقيبتها على كتفها، وتشير له إلى الاتجاه الصحيح، وهو عكس اتجاهها.

وتقول له: «وداعًا إذن، ويا إميل، كنت تتكلم مع شقيقك في نومك، كأنه ما يزال حيًّا. إذا رأيته مرة أخرى، من فضلك هلّا بلّغته تحياتي وأخبرته بأنني أشتاق إليه؟».

الفصل السابع والسبعون

يتعذر إيقاظ كارديل مهما يحاول وينيه، ما زال مضجعًا في سريره موليًا ظهره للغرفة وذراعاه متصالبتان على صدره المتضعضع، وشخيره كالرعد. من حين إلى آخر يتخلل تنفسَه تأوه عندما يخِزه ألم، لكنه لا يشوش نومه. لا السعال ولا النكز يساعد وينيه، الذي عندما يستخدم كلتا يديه ليدفع كارديل حتى يقلبه على ظهره، يحس كأنه يحاول إنهاض ثور. والرجل الذي ينتظر عند الباب -وهو قصير ممتلئ أصلع تمامًا- يتنحنح مُلَمِّحًا إلى نفاد صبره، فلا يجد وينيه خيارًا -شاعرًا بالحرج- سوى أن يخرِج محفظة كارديل المحشورة في طيات بنطاله ويحسب المبلغ المطلوب.

قال: «ثلاثون شلنًا».

يلقي الرجل نظرة سريعة على هيئة كارديل الغائبة عن الوعي ثم يقيِّم بِنية وينيه النحيلة كأنه يذكِّر نفسه بأن الحد الفاصل بين التفاوض والنهب يمكن أن يصبح ضبابيًّا وفقًا للظروف.

ويقول: «فلنجعلها دالرًا كاملًا، ما قولك؟».

غرفة كارديل ليست فيها مدفأة ولا مستوقد، ولا تُدفَّأ إلا في الأوقات التي تُشعل فيها نار في مكان آخر من المبنى. يطرق وينيه باب الغرفة المجاورة ليطلب قطعة فحم، وبها يكتب على الجزء الداخلي من الباب رسالة مستعجلة لكارديل ليقرأها عندما يستعيد حواسه أخيرًا. يأخذ وينيه شلنين من المحفظة، ثم يخرج هابطًا السلالم، وعند العتبة يتوقف هنيهة مغمِضًا عينيه وهو يحاول استجماع الشجاعة المستعصية عليه دومًا، ثم ينطلق.

يجد الهرج والمرج في الأزقة، يصادف أناسًا عائدين من الجانب الآخر من القنطرة حيث جرى حدث عام ضخم، إذ نُصبت منصة التعذيب اليوم على شرف إهرينستروم الذي كان -مثل ماغدلينا رودينسشولد- أحد الموالين لآرمفيلت، وقد قُرِّر فصم رأسه عن جسده هناك لتجنيب الجمهور مشقة السير عبر الاسكونز. وعندما هوت الضربة نحو العنق المكشوف، ضرب الجلاد هيكل التعذيب بدلًا من العنق، معلنًا أن إهرينستروم مُنح العفو في آخر لحظة وسيعيش بقية أيامه تائبًا نادمًا في زنازين حصن كارلستن الواقعة تحت الأرض. وصار موضوع النقاش الحامي هو ما إذا كان المدان قد أُخبر مقدمًا بخلاصه، أم أنه أظهر رباطة جأش أمام الموت، إذ يحاجج مناصرو ريوترهولم بأن الجمهور كان ليشهد عويلًا وبنطالًا مبللًا إذا لم يكن أحد قد أخبر السجين، في حين يزعم الغوستافيون أن إهرينستروم لطالما حمل بين جوانحه قلب أسد. لكن حقيقة أن الجمهور شهد دليلًا إضافيًّا على ضعف حكومة الوصي على العرش أمرٌ يكلف قليلون أنفسهم عناء الانتطاح حوله.

يشق طريقه متجاوزًا الحشد، ويعبر الجسر المتحرك الأزرق فوق القنطرة ويصعد التل إلى الساحة، هذه المرة الثالثة التي يرى فيها الشوارع نفسها في هذا اليوم، إذ إن بلطجي «بلاتين الصغيرة» أرشده الطريق إلى منزل تايشو سيتون ثم رافقه عائدًا معه ليقبض أتعابه. وعند كشك على «تل ناظر البريد» يبدِّل وينيه نقوده ببضع تفاحات وطعام جاف، ويدس الصرة في معطفه. تفاجئه الرياح من جانبه الأيمن، بهبَّة من بحيرة لاردر ترغمه على إمساك أنفه ويجاهد كي لا تنقلب معدته، ويهرع مبتعدًا إلى حيث تبدأ الأرض بالانحدار نحو بحيرة هامرباي.

المبنى الذي يبحث عنه بيت ضيعة على تخوم أبرشية كاتارينا، يمكن رؤيته من الورش التي جوار «مرجة الأطفال». ينتصب البيت الرئيسي خلف جدار تنمو عنده نباتات متسلقة كثيفة حيث بقيت ورود قليلة صامدة حِدادًا على الصيف الذي انقضى، وداخل البوابة حديقة ما تزال يانعة، كما لو أن إطلالتها على الجنوب جعلت الصيف يستمر عندها مدة أطول مقارنة ببقية

الأماكن، محتفظةً بمظهر ريفي في مكان قريب جدًّا من «مدينة ما بين الجسور»، وعلى الجانب الآخر من الشارع، على بعد مئة قدم، يجد وينيه المكان الذي اختاره سلفًا في ظل شجرة زيزفون متشابكة نامية على رابية صغيرة تحجبه عن الأنظار وفي نفس الوقت تتيح له مجال رؤية واضحة فوق الجدار والبوابة، يسوِّي الأعشاب الطويلة ليقعد عليها ويستريح في قعدته.

ينقضي العصر الطويل ويحل المساء وبعده الليل ووينيه ينتظر، ناظرًا إلى الاتجاه نفسه طوال الوقت، خشيةً أن يفوته أمر مهم إذا تشتت انتباهه ولو لحظة. المصابيح خلف النوافذ منطفئة، والسماء المدلهمة تجعل الليل حالك الظلام، ولعدة ساعات لا يتفاعل وينيه مع العالم سوى بحواس السمع واللمس والشم، يسمع المينوتور يتحسس النباتات بحثًا عنه، لكن ليس في المكان الصحيح، ربما ليس بمقدور الوحش أن يرى أيضًا.

وبحلول الصباح يرى أنه كان مخطئًا، فالأصوات التي سمعها كانت صادرة عن متشرد جاء مترنحًا ونام أخيرًا في الحفرة التي هوى فيها. يستيقظ الرجل في الصباح، ويصدر أصوات دهشة من وضعه، ويؤدي رقصة غريبة ليبعث الدفء في أوصاله المتجمدة، ثم يهرول عائدًا إلى المدينة ليداوي صداع ثمالته بالَّتي كانت هي الداء.

يأكل وينيه تفاحه ويلوك الخبز الجاف بصوت عال، وبحلول منتصف الصباح يتساقط مطر خفيف، فيقرفص قريبًا من جذع الشجرة ملتمسًا الحماية من الأغصان، لكن بلا جدوى، إذ تتسرب المياه إلى الأسفل عبر اللحاء. وهكذا يمضي اليوم الأول من الأيام الثلاثة التي حددها لنفسه.

الفصل الثامن والسبعون

«هل أشمُّ رائحة قهوة؟».

مظهر وينيه عند الباب يُرثى له، شاحبٌ كغريق يشبهه بملابسه المبللة أيضًا، ملطخ بالطين، وشعره مليء بالقش. ويجيبه كارديل مكتفيًا بالإشارة إلى وعاء نحاسي فوق الطاولة.

ثم قال: «أرسلتُ فتاة الجيران إلى رصيف الميناء لتشتريها لي من الذين يبيعونها تحت الطاولة، وطلبت منها أن تعود حاملةً الكيس تحت تنورتها، بقي كوب أو كوبان، لكنها فاترة ومعتكرة قليلًا. ربما يكون حظر القهوة أسوأ فعل ارتكبه ريوترهولم بحق هذا الشعب البائس، لكن الطغيان كُسر في هذه الغرفة ونقص وزن رأسي رطلًا».

- يقال إن فولتير لم يكن يشرب أقل من ستين كوبًا في اليوم.
- لحسن الحظ أن ريوترهولم ليس من هواة القراءة، وإلّا لحُظرت القهوة منذ أمد بعيد. لم أسمع بأي نظام حاكم لا يريد رعاياه بُلهًا مذعنين.

يستخدم وينيه إبهامه ليجفف حافة كوب كارديل الفارغ، الوحيد الذي يمكن أن يعثر عليه في الغرفة، ويصب فيه ما بقي من قهوة، محاذرًا ألا يثير الرواسب، ثم يدع السائل المر ينساب على لسانه جارفًا معه بقايا مذاق الشارع ورائحته. يلقي كارديل عليه نظرة عتاب.

ويقول: «إذا كنت قد كتبت لي مكان ذهابك، لجئتُ وتناوبت معك».

- لم أكن متأكدًا أنني سأجدك في حالة أفضل، حتى الآن.
- يسعدني دومًا أن أتجاوز التوقعات، حتى عندما يكون سقفها منخفضًا. إذن ما الذي انتهت إليه متاعبك؟

يفرِغ وينيه كوبه، وببطء يبتلع الرشفة الأخيرة ويلعق شفتيه.

ثم يقول: «أجل، يوجد أناسٌ في المنزل، تخرج خادمة كل صباح حاملةً سلَّتها إلى المدينة لتشتري الخبز والخضراوات واللحم، بكمية تكفي عدة أشخاص. ما من سبب يدعونا إلى افتراض أن سيتون يوظِّف خدمًا ليشغلوا المنزل فحسب، لذا أفترض أن الطعام يُجلب للزوجة التي لم تُر قط. في المساء لا تضاء سوى غرفة واحدة، وكل صباح يأتي رجل على متن عربة وحصان ويترك حِزم زهور كبيرة».

- ماذا عن الوغد المبتسم نفسه؟

- ظل الروتين هو نفسه منذ أن اتخذت مكاني. كان يأتي على عربة كل يوم قرابة وقت العشاء، ويمكث ساعة أو ساعتين، ثم يغادر البيت مرتديًا ملابس مختلفة للأمسية، ولا يعود إلا في نفس الوقت من اليوم التالي. إنه يمضي لياليه في مكان آخر.

- وماذا يخطر لك؟

يرفع إميل غطاء الوعاء كي يضغط براجم أصابعه في رواسب القهوة فيستخرج بضع قطرات لكنه لا يحصل على الكثير مقابل جهده.

- تروج في «شارع باغ» إشاعة مفادها أن سيتون يحتجز زوجته، وأقترح أن نبذل ما بوسعنا لنجتاز باب منزله ونأمل أن نتمكن من حمل الزوجة على التعاطف مع قضيتنا.

يحرك كارديل وزنه على الفراش ليختبر ساقيه، ويزمجر عندما يحتج ضلعٌ مكسور وعضلة ممزَّقة على تحركه.

فيقول له وينيه: «هل ستمكِّنك حالتك من مرافقتي يا جان مايكل؟».

يحدجه كارديل بنظرة مسمومة قائلًا: «لا تكن سخيفًا، ما دامت توجد فرصة لإحراز تقدم فسأكون بخير. الطريقة الوحيدة للتعامل مع الألم هي تجاهله، هذا ما تعلَّمته من تجارب باهظة الثمن. الورم خف بما يكفي للحلاقة، وأقترح أن تحلق أنت أيضًا قبل ذهابنا، السكين حاد، ويوجد ماء في الإبريق الذي جوار النافذة. إذا سنعتمد على طلعتنا البهية وحدها كي يُسمح لنا بالدخول، فأخشى أن مُحيَّاي الذي كان وضَّاحًا ذات يوم لن يكون ضامنًا لنجاحنا».

الفصل التاسع والسبعون

يُذهَل وينيه من مدى سرعة تعافي بدن كارديل الثقيل، الذي تبدو وعكته قد خفَّت بعدما سار وهو يعرج قاطعًا بضع ساحات، إذ استعادت عضلاته المفتولة عنفوانها مع عودة تدفق الدم إليها. لا يستمر سيرهم ساعة قبل أن يبلغا وجهتهما ويلوح لهما الجص الأصفر الذي يكسو القصر متوهجًا بلون ذهبي تحت أشعة الشمس المائلة نحو الغرب. يبصق كارديل حشوة تبغِه ويسحقها بكعب حذائه بصبر نافد.

ويقول: «أيجب عليَّ تلقينك ما عليك قوله؟ كلما وقفت جوار شخص يحمل اسم وينيه خارج مبنى مظهره ينذر بالسوء، فالاقتراح هو أن نطرق الباب ونعلن عن حضورنا».

- كنت على وشك قول كلامك نفسه. إنني متوجس مما سنجده.

يجتازان البوابة ويسيران على الممر المرصوف بصخور لوحية. تتأخر الاستجابة لطرْق وينيه مدة طويلة، وعندما تأتي، تأتي صوتًا مذعورًا عبر الباب.

يقول: «لا نريد أي شيء، دعنا وشأننا من فضلك».

لا ينفصل الباب عن إطاره بمقدار شق ضيق إلا بعدما يذكر كارديل اسم مدير الشرطة أولهولم. تفتح الباب امرأة شابة، خادمة بالنظر إلى فستانها، شعرها معقود عند عنقها ومخفي تحت وشاح، ووجهها شاحب متوجس.

يتكلم وينيه بنبرة مهدئة: «جئنا لتفقُّد السيدة سيتون».

تشهق الشابة كأنما طُلب منها المستحيل، وتهز رأسها قائلة: «السيدة لا تقابل أي أحد».

يدفع كارديل الباب فيفلته من قبضة المرأة بقدمه التي كان قد وضعها فوق العتبة ويخطو إلى الداخل.

ويقول: «اذهبي وأخبري سيدتك بحضور شخصين لمقابلتها، وأن بإمكانها الاستعداد بما تراه لازمًا أو استقبالنا وهي على حالها، سننتظر هنا، لكن إذا تأخرتِ فسنجد طريقنا إليها بأنفسنا».

تفر إلى الداخل وتتركهما في الصالة، التي يتراكم على أرضيتها غبار كثيف إلى درجة أنه يُظهِر آثار أقدام ساكني البيت وهم يتنقلون من غرفة إلى أخرى، لم تشعل أي شمعة بعد، واللوحات التي تعج بها الجدران لا تُظهِر سوى هيئات شبحية بالأسود والأبيض، ولا يبدو من الأثاث سوى كتل منتفخة. لكن مدة انتظارهما وجيزة، إذ تعود الخادمة وتلوِّح لهما دون كلمة. ينحني الرواق، وعند باب إلى اليمين تدعهما يمران إلى غرفة بداخلها كرسيان متجاوران، الغرفة مؤثثة بأثاث أنيق، والجدران مكسوة بورق حائط يحمل رسوم باقات زهور وأكاليل غار مضفورة، وتتدلى لوحات بورتريه ومناظر طبيعية بأشرطة حريرية من زينة الجص عند أركان السقف، ونافذتان كبيرتان مفتوحتان لتهوية الغرفة، وكلما هب على المنزل نسيمٌ خفيف تتموج الستائر البيضاء إلى داخل الغرفة، الزهور في كل مكان، في الأصص، وحوامل المزهريات، حتى إن بعضها في غلايات نحاسية كان ليخفف إحساسها بالغربة لو أعيدت إلى المطبخ. رائحة الزهور طاغية، طاغية بحلاوتها، ورغم هذا غير كافية لتبديد ما أريد لها تبديده: رائحة تحلُّل، كأنما يقبع جرذ ميت تحت ألواح الأرضية. وفي الغرفة سرير مغطى بستائر مسدلة، سُجُف بيضاء شفافة لا تتيح لهما سوى استشعار هيئة المرأة المضجعة خلفها، وتشغل مساحة السرير بالكامل رغم أنه يسع شخصين، ويرى وينيه كتلة لحم متورم يتموج بالتزامن مع أنفاس المرأة اللاهثة.

قال: «السيدة سيتون؟».

تأتي من الجانب الآخر من السدول قهقهة حادة كأنها ضحكة طفلة صغيرة.

تقول: «تطلبان مقابلتي وليس زوجي، رغم أن سبب مجيئكما متعلق به».

يحس كارديل بجلد ذراعه يقشعر من الصوت، إذ يبدو صوتها أشد حدة من أن يأتي من جسد كهذا، لكنه يتَّسم بِسمة أخرى أيضًا، تلعثمٌ كما لو أن لسانها وشفتيها لا يقدران على تشكيل الكلمات كما ينبغي، كل كلمة يعقبها تنحنح وصوت استنشاق.

قالت: «أتُضمِران لزوجي سوءًا؟».

يأتي رد وينيه دون تردد: «بالتأكيد».

- انتظرتُ مدة طويلة مجيء أشخاص مثلكما، لكنني سأكذب إذا قلت إن مظهركما يرتقي إلى توقعاتي.

تصمت، ساكنةً سكونًا تامًّا، لا تتحرك قيد أنملة، ثم يُسمع رنين جرس من الفراش، وبعد لحظة ينفتح الباب مواربًا وتطل الخادمة بوجهها.

تقول: «نعم يا سيدتي».

- عزيزتي غوستافا، هلّا تلطفتِ بالوقوف هنا أمام السرير؟

تثني الخادمة ركبتيها وتهرع إلى المكان المقصود، فتسألها المرأة: «منذ متى وأنا تحت رعايتك؟».

- مضى على وجودي في البيت ستة أشهر يا سيدتي.

- تقومين بعمل ممتاز في تغيير أغطية فراشي وتنظيف قروحي الناجمة عن ملازمتي السرير مدة طويلة، لكن الرب يعلم أنك لست على جانب عظيم من الذكاء، أليس كذلك يا غوستافا؟ ورغم هذا، فإن الوقت الذي أمضيتِه هنا ربما يكون طويلًا بما يكفي لك لتخمني كيفية انتهاء المطاف بي إلى هذه الحالة، صحيح؟

تتململ غوستافا كأنها وُخزت بدبوس ولا تجرؤ على التفوه بكلمة.

فتكمل: «إنه يشعرك بالرعب، أعني زوجي، أليس كذلك؟».

تختار الخادمة نقطة على الأرض بين قدميها لتثبت عليها نظراتها، ويداها مشبكتان أمامها، وتبكي بصوت خافت.

تتابع: «بلا شك. تايشو يدفع لك أكثر مما تستحقين بكثير، ويطالب بولائك بالمقابل. إذا لم يذكرا لك الشرطة لأطعتِ أمره ولم تسمحي بدخول أي ضيف. أنا متأكدة أنك تودين الاعتذار بالنيابة عنه، لكن انظري إلى هذين الرجلين،

إذا قلتِ كلمة واحدة لزوجي بشأن هذه الزيارة، فسيؤذيانك أذى شديدًا حتى تبدو لك معاناتي كأمسية مبهجة في «متنزه الملك». ذلك الضخم مراقب، كما ترين زيه بنفسك، سيأخذك إلى مشغل النساء، وهناك، إذا لم يسبق لك أن بذلتِ نفسك للدعارة، فستجدين مُعلِّمات أكثر مما يتمنى أشد التلاميذ اجتهادًا، مظهرك جميل بما يكفي، وستصطف النزيلات الأخريات لنيل متعة الإحساس بقربك، ولن يتركنك وشأنك حتى يمشين جميعهن مبتعدات وسيقانهن متباعدة بسبب قروحهن، أتفهمين ما أقوله يا عزيزتي غوستافا؟ أجل، أومئي فحسب، وأسرعي إليَّ وامسحي فمي».

تهرول الشابة إليها وتزيح السجف جانبًا بحذر حتى تفعل ما أُمرت به، ثم تهرع مبتعدة وهي تنشج بمرارة، فتتبعها خطوات مبتلة من البركة التي تركتها خلفها وقد طغى على رائحتها عبيرُ الزهور.

تقول الزوجة: «هل صدمتكما؟ ينبغي أن تكونا أدرى. أنا زوجة تايشو وأستحق أن أحمل اسمه».

يخزِّر كارديل عينيه كي يلقي عليها نظرة أفضل لكن بلا جدوى.

ويتنحنح وينيه ويطرح سؤاله: «أتعرفين مكان زوجك الآن يا سيدة سيتون؟».

- رأيتما شكل وجهه، ذلك عمل يدي. تايشو سيتون ليس رجلًا يسهل الاقتراب منه، لكنني سرقت موسيً حلاقة ذات يوم وانتظرت حتى حانت اللحظة. والآن أضحك عليه كلما رأيت الصديد يسيل من زاوية فمه فيرغمه على إخراج أحد مناديله الحريرية، أو عندما يمرر طرف لسانه على الجرح كأنه ما زال حديثًا، لا بد أنه يتذوقه على الدوام. حركاته هذه متعة لي. يستكثر تايشو عليَّ حتى هذا العزاء البسيط، ويتعين عليَّ إخفاء بهجتي عندما يزورني، فهو يعود قطعًا مرة أخرى، ونصير زوجًا وزوجة من جديد، رغم أنه ظن أنني مت منذ زمن بعيد.

- هل كان خارج البلاد وعاد قبل وقت قريب؟

- عزيزي تايشو عاد العام الماضي، لكم افتقدته! آخر مرة رأيته كان رأسه عالقًا في أنشوطة لم يفلت منها إلا بأعجوبة. ظننته بمأمن في مكانٍ ما على الجانب الآخر من العالم، لكنه عاد إلى الديار، بل وتمكن ببضع

مناورات من التغلب على جميع أعدائه وتوصل معهم إلى هدنة. وبملجأ أيتامه جعل نفسه حصينًا، إلى درجة أن الساخطين عليه سيخسرون أكثر مما يستفيدون إذا لاحقوه، لذا يتحيَّنون الفرصة ويتظاهرون بأنهم راضون بهديته الصغيرة، أي الورود الثلاث المسكين وزوجته الجميلة. إنه لا يخفي عني شيئًا، وإلى حدٍّ بعيد ما يزال تايشو صبيًّا صغيرًا يتوق إلى مدح أمه الغائبة، والآن صرت أؤدي دورها بعدما لم أعد قادرة على أن أكون زوجة له، وأستمع إليه بعطف وهو يبثُّني همومه. أبتهج لنجاحه، إذ يتيح لي فرصة المساعدة على سقوطه. يتربص القدر به بتصفية حساب أود المساهمة فيه. ولهذا أنتما هنا، صحيح؟ ظللت آمل هذا منذ مدة طويلة.

يجيبها كارديل هذه المرة، إجابة مقتضبة مباشرة تليق بجندي: «طلبت أمٌّ مني أن أحقق في ظروف موت ابنتها، وزوجك هو المسؤول».

تضحك وتقول: «يا لها من صدفة! أنا أيضًا ابنة أُم، يسعدني أنني لم أضطر سوى إلى الانتظار في هذا السرير ست سنوات قبل أن يعرف خادمو العدالة طريقهم إليَّ، حتى لو لم يأتوا إليَّ بوصفي ضحية بل شاهدة. لكن الشرطة تتردد في ملاحقة تايشو، فحلفاؤه ذوو نفوذ قوي، لذا لا بد أنكما، إلى حدٍّ ما، تتصرفان من تلقاء نفسيكما».

صمتهما إقرار بصحة كلامها. وتصدر أصوات نشيج من الظلام قبل أن تعثر المرأة على صوتها مرة أخرى.

فتتابع: «إنني أتمدد هنا متشحةً بأنعم الملاءات المنسوجة من الحرير، لكن بعد كل هذا الوقت أحس كأنني أضجع على أوتاد حادة. بيد أنني وجدت الله هنا، الخادمات يقرأن لي، ليس إله العهد الجديد، ما مقدار معاناة ابن الله مقارنة بمعاناتي؟ إذا أمكن له مسامحتي فلا لشيء سوى أنه لم يتعذب بما فيه الكفاية، كأنني لن أستبدل ببضع ساعات على الصليب السنوات التي أمضيتها في هذه الغرفة دون أدنى تردد! كلَّا، إله النصوص الأقدم هو إلهي، الإله الذي أغرق العالم عندما لم يُبدِ له التعظيم الكافي، الإله الذي خنق المواليد من الأبناء البكور في مصر، الذي أرسل دببته لتهرس الاثنين وأربعين

الذين سخروا من النبي اليسع، الذي حكم بأن العين بالعين والسن بالسن، هذا هو الإله الذي يستحقه البشر».

تجلجل الضحكة الطفولية مرة أخرى فيرتعد كارديل.

تقول: «إنني مصابة بقروح ناجمة عن ملازمة الفراش، وهي متقيحة، ومتأكدة أنكما تشتمانها رغم الزهور. كل يوم أُغسَل وتُغير أغطية فراشي، لكن القروح لا تندمل، صار جلدي رقيقًا كالحرير ويتمزق من أخف لمسة. سوف تنتهي معاناتي عما قريب، وإذا أرسلني إلهي إلى الجحيم، فسوف يبدو لي كحقول فردوسية مقارنة بالوقت الذي قضيته في هذا المكان».

تصمت.

ثم تقول: «أنت، الضخم، هلا اقتربت من النافذة حتى ألقي عليك نظرة أفضل؟».

ينهض كارديل مترددًا قليلًا ويفعل ما طُلب منه.

تقول: «خضتَ شجارًا قبل مدة قصيرة، هل تسببت فيه بنفسك؟».

يومئ كارديل. وتمر هنيهات لا يسمع خلالها سوى تنفس مجهَد من السيدة سيتون.

ثم تتنحنح وتواصل الكلام: «وهل تسعى إلى تحقيق العدالة؟ مهما تعنيه هذه الكلمة في عالم مثل عالمك؟ تجدر بك معرفة أنك لا يمكنك الاعتماد على مساعدة أي أحد، حتى إذا حاصرت تايشو في ركن وهو يحمل اعترافًا موقَّعًا وعليه شهود».

تبدو كأنها تفكر في كلامها هي نفسها، ويحس كارديل بنظراتها تعلق بقسمات وجهه الخَرِب.

تقول: «جاء زوجي إليَّ في وقت سابق من هذا الأسبوع، وبعدما تكلمنا قليلًا انسحب ليحادث ضيفًا في الغرفة المجاورة. الجدران رقيقة، ويبدو أن سمعي يزداد حدة بمرور كل عام، رتَّب تايشو لاجتماع مع ممثل التنظيم الذي كان ينتمي إليه ذات يوم، من أجل التفاوض بشأن وضع حد نهائي للعدائيات. إذا تمكنتما من التنصت على هذا النقاش فربما تجدان فيه عونًا كبيرًا لقضيتكما. هل تعرفان «قصر الجَدِي» في جزيرة الملك؟ سيجتمعون

هناك في منتصف الليل في الجناح الذي يؤدي فيه الجراحون عملهم، اذهبا في الوقت المناسب، وابحثا عن الغرفة الوحيدة التي ما تزال مضاءة، لا تنصدما من طبيعة المكان، فأمثاله من عادتهم اختيار أماكن لقاءات غير مألوفة، لكنني أظن أن بإمكانكما استغلال تفاصيل المكان لمصلحتكما والعثور على مخبأ يتيح لكما الرؤية دون أن يروكم».

يتحرك كارديل نحو الباب سعيدًا بأن التعويذة التي كانت تسمِّره في مكانه قد انكسرت أخيرًا، لكن إميل وينيه يظل في كرسيه.

ويقول: «ما عِلَّتك يا سيدة سيتون؟».

- ظهري مكسور، لا يمكنني فعل شيء سوى تحريك رأسي.

- فِعلَته؟

- المشاجرات التي كانت تسود زواجنا تجاوزت الحدود، وجهه أولًا، ثم ظهري. كان تايشو مزهوًّا بمظهره، وأنا من وضعت حدًّا لأيام بهجته أمام المرآة، فكان ارتياعه باديًا بطبيعة الحال، وهذه ردة فعله. لم ينته الأمر كما خُطط له، أنا بدينة الآن، لكن لمدة قصيرة كنت محتفظة بجسدي الشاب، رشيقةً جذابة، لكنني عاجزة عن الحركة. ثم إنه حاول إعادة إشعال مُتع الحب الليلية، أساسًا ليؤكد لي عجزي. أطرافي هامدة، لكنني أعرف زوجي تمام المعرفة، لذا في أثناء قيام خادمه بكل ما يأمره به وهو جالس يشاهد، أضجعُ هنا وأفِحُّ لزوجي بكل الأشياء التي أعرف أنه يخشاها أيما خشية، حتى يذبل عضوه ويتعين عليه جرجرة قدميه وإمتاع نفسه في مكان آخر. ومنذئذٍ متى ما يرغب في إيلامي يحين دوري في الضحك لأنني لا أحس بشيء مهما يفعل. لم يكن قط شخصًا يهتم بدقائق الأمور ويعرف مداراة نياته، تكفيه الوحشية السافرة، وصرتُ لا ألبِّي رغباته.

- هل من مساعدة يمكننا تقديمها لك يا سيدة سيتون؟

- لا تهدر شفقتك عليَّ، لا بد من وجود كثير من التعساء الذين يطلبونها. هذا الفراش الذي تعذبت فيه مدة طويلة سيكون فراش موتي عما قريب، كما ينبغي ألا نثير شكوك تايشو بغيابي المفاجئ. سأقضي نحبي قريبًا، والصبر فضيلة تسنَّى لي وقت كاف للتحلِّي بها.

يقطع وينيه نصف المسافة إلى الباب، لكن عندما يتبعه كارديل توقِفه.

وتقول: «كارديل! رأيتُك، فهل تود رؤيتي أيضًا قبل ذهابك؟».

يفكر كارديل في العرض هنيهة، ثم يومئ، يسير إلى جانب السرير ويزيح الستارة، ويرغم جفنيه على البقاء مفتوحين ويمسك أنفه بإبهامه وسبابته.

تضحك مرة أخرى وتقول: «أرسل لي غوستافا وأنت في طريقك إلى الخارج. لوثتُ نفسي وأحتاج إلى تغيير ملابسي».

وخارج البوابة ينحني كارديل مسندًا مرفقه إلى ركبته، ويتنفس أنفاسًا عميقة، ويدير وينيه ظهره حتى يبصق كارديل منظِّفًا فمه.

يقول وينيه: «جان مايكل...».

- لا تسألني، أبدًا. عُد وانظر بنفسك إذا شعرت بالفضول.

- كيف رنَّت الجرس؟

- كان مخيطًا بأذنها.

الفصل الثمانون

تتدفق الأضواء من «قصر الجَدي» من الشمعدانات الموضوعة على كل إطار نافذة، ومن خلال الممر المقنطر المفضي إلى الفناء يريان ظلال الحشد، إذ يقام حفل، والجهود المبذولة في صالة الرقص تدفع الضيوف إلى الخارج ليبرِّدوا أبدانهم، رغم برودة هواء المساء الشديدة، ومن الداخل يأتي صوت كمان ومزمار، وتنتقل أصوات صاخبة عبر حجارة الأرضية اللوحية. الأخشاب التي استُخدمت لتشييد منصة تعذيب رودينسشولد ما زالت مكومة بالجوار في انتظار حملها إلى مكانٍ ما. يتابع وينيه وكارديل سيرهما عبر الساحة نحو القصر، الذي تشكِّل مبانيه الشرقية الملحقة حديقة مثلثة، والملحق منفصل عن بقية المبنى، وقد علَّق «المجلس الطبي» شعاره فوق الباب. يُميِّزان المشرح التشريحي بنوافذه الطويلة التي يتراقص من خلالها ضوء الشموع، الباب غير موصد، وفي الأروقة الهواء مشبع برائحة الخل. يتوقفان عند العتبة، ويصيخان سمعهما تحسُّبًا لأي حركة بالداخل، ثم يتقدم كارديل إلى الرواق.

بمحاذاة جدران المسرح التشريحي ترسم المقاعد حلقات ثُمانية الأضلاع متدرجة تمتد إلى السقف لتتيح رؤية واضحة لأكبر عدد ممكن، وتتدلى الشمعدانات أزواجًا من جميع جوانب الطاولة التي في مركز الحجرة، مضاء منها زوجان، وعلى الطاولة يتمدد جسد امرأة ترتدي فستانًا مزخرفًا، شاحبة وساكنة، ومقتنياتها القليلة جُردت منها ووُضعت على الأرضية جوار الطاولة،

قبعة وحذاء ذو أربطة حمراء وزوجا جوارب نسائية بلون أزرق سماوي. يقف وينيه وكارديل عند الباب المزدوج ويجيلان بصرهما في المشهد الذي أمامهما.

- ما هذا بحق الجحيم؟ هل ستُقدم محاضرة في التشريح أيضًا؟

يخرج وينيه ساعته من جيب صدريته ويميلها نحو الضوء حتى يتمكن من قراءة الوقت، ويجده قد تجاوز منتصف الليل للتو. ومن خلفهما يسمعان خشخشة عند المدخل ويتبعها وقع أقدام على الأرضية الحجرية، ثم صوت شخص.

يدفع كارديل وينيه إلى الحجرة ويهمس في أذنه: «اصعد إلى المقاعد وابق منخفضًا، هناك بالأعلى، حيث المكان مظلم ويمكن لكلينا أن يرى ويسمع».

يمتثل وينيه لما قيل له ويهمس برده فوق كتفه: «تذكر يا جان مايكل، لا يمكن أن نكشف عن وجودنا تحت أي ظرف».

يومئ كاريل ردًّا عليه ويتقدم بخطوات حثيثة ووينيه يغلق البابين خلفهما بهدوء، ولا تمر مدة طويلة قبل أن يتأرجحا ويُفتحا مرة أخرى.

الرجل الذي في المقدمة شاب في العشرينيات من عمره، طويل ونحيل، يضع مئزرًا على إحدى ذراعيه ويحمل بالأخرى حقيبة، ويبدو كأنه لم يعتد بعد نمو أطرافه السريع، ملابسه مهترئة وغير متناسقة، يرتدي معطفًا أصفر شاحبًا فوق صدرية ملطخة ويضع مشبكين غير متطابقين عند ركبتي بنطاله القصير، يتكلم بلا انقطاع، بصوت متحمس يحمل خنَّة، ما يزال يشبه صوت الصِّبية، وعندما يرى الجثة يقاطع نفسه بصيحة جذلة.

يقول: «كما قلتَ يا سيد سيتون! لم أجرؤ على تصديق أنها حقيقية. ليست لديك فكرة عن مدى الصعوبة التي نواجهها نحن الطلاب في سبيل إيجاد عينة نتدرب عليها لإجادة مهنتنا، لا أفهم كيف يتوقع بروفيسوراتنا أن نتمكن من تعلم المهارات اللازمة بالمشاهدة فقط. سأكون ممتنًّا لك أبد الدهر».

يسير سيتون خلفه، ويداه مشبَّكتان خلف ظهره، مرتديًا ملابس تجعله يبدو كأنه جاء للتو من الحفل القائم على الجانب الآخر من الساحة، وتتراقص الظلال على وجهه المشوَّه.

قال سيتون: «بل على العكس، أنا من ينبغي لي أن أشكرك يا نايبيرغ، إذ من الصعب أيضًا حضور عرض توضيحي حيث يضطر المرء إلى التزاحم مع الدهماء الذين لا ينجذبون سوى إلى الإثارة في الموضوع، أحسب نفسي محظوظًا بإتاحتك لي فرصة حضور عرض خاص».

يحمل نايبيرغ إحدى الشموع الموقَدة من الشمعدان وينقل اللهب إلى بقية الشموع، ثم يعلق معطفه ويحيط خصره بمئزره ويشمر ساعديه.

ويقول: «ماذا عن الجثة؟ يُلزمني الاحتراز بأن أتأكد أنك جلبتها بوسيلة مشروعة».

- لا تقلق من هذه الناحية، ليست لديها أسرة قد تطرح أي أسئلة. جلبها خادمي جاريك في وقت سابق وفقًا لترتيباتنا، وأفترض أنك تعرف وسيلة للتخلص منها، صحيح؟

يضع نايبيرغ حقيبته على مقعد، ويفتح غطاءها، ويمرر يده على صفوف الأدوات الفولاذية اللامعة، ثم يومئ إيماءة مقتضبة.

يقول: «حمَّالنا الليلي يتولى هذه المسائل عادةً، سيأتي قبل الفجر لينظف ويحملِ البقايا للدفن. وقد وعدته بدعوة عشاء بالخارج مقابل أي متاعب إضافية».

يرخي الأربطة التي تثبِّت أحد المباضع في مكانها ويختبر نصله على ظفر إبهامه، ثم يبصق على المشحذ ويشحذ المبضع مزيدًا من الشحذ. ويستغل سيتون الوقت ليجلس على مقعد في أقرب حلقة.

ويقول: «هلّا تلطفت بشرح كل جُرح تُحدِثه يا نايبيرغ؟ كما يشرح بروفيسوراتكم وهم يقدِّمون المحاضرات الرسمية، يؤسفني أن معرفتي ضئيلة بوظائف أعضاء الجسد البشري، لكن فضولي لا تحده حدود».

- بالطبع يا سيد سيتون، أرجو أن تبلغني إذا خطر لك أي سؤال في أثناء العمل. سأبدأ بفتح البطن لأكشف عن تجويف الصدر، وبعدها سأزيل الضلوع بمنشار وخُطاف حتى نتمكن من رؤية الأعضاء الكبيرة.

يتنحنح سيتون ويمسح زاوية فمه ثم يقول: «إذا لم تمانع يا نايبيرغ، أُفضِّل أن نبدأ بداية متمهلة قليلًا، فلنقُل مثلًا بالكشف عن أعصاب ومجموع عضلات ساق أو ذراع، ما رأيك؟».

يبتسم نايبيرغ لسيتون ابتسامة تفهُّم ويقول: «آه، تود أن نبدأ بشيء بسيط؟ عليك أن تلتمس لي العذر يا سيد سيتون، فنحن الطلاب نمضي وقتًا طويلًا بصحبة بعضنا إلى درجة أننا نفترض أن جميع الناس يعرفون خبايا الجسد البشري كما نعرفه، لذا ندخل مباشرة في قلب الموضوع، إن جاز التعبير. بالطبع يمكننا العمل تدريجيًا كما تشاء».

يختبر المبضع مرة أخرى ويرضى عنه، ثم يرخي أربطة بقية أدواته، ويضعها على مقعد أمامه بالترتيب الذي يعتزم استخدامها به، ويختار مقصًا أولًا.

ثم يقول: «سأبدأ بإزالة ملابسها، أتود أن أبقي جذعها مغطى في الوقت الراهن؟ في أثناء محاضراتنا يجده أصدقائي مشتِّتًا للانتباه».

- هذا لا ينطبق عليَّ.

وما يكاد نايبيرغ يشرع في شق الفستان حتى ينفلت المقص من يده ويسقط على الأرضية وهو يجفل متقهقرًا ويقول: «سيد سيتون! وقع خطأ فادح، هذه المرأة ما تزال حية، ما تزال دافئة ورئتاها تسحبان الهواء، رغم أن أنفاسها واهنة. هلا أسرعت وجلبت قليلًا من الماء بينما أحاول إنعاشها قليلًا؟».

يظل سيتون جالسًا ويصالب ساقيه ويقول: «لم يقع أي خطأ يا نايبيرغ، ظننت أن الأمر سيكون أكثر تشويقًا على هذا النحو. وإذا لديك هواجس بشأن حياتها، فدعني أطمئنك بأن جرعة صبغة الأفيون التي أعطيت لها أكبر بكثير

مما يمكن لأي أحد أن يأخذها ويظل على قيد الحياة، لذا مهما تفعل فستكون هذه الساعة هي آخر ما بقي من عمرها. خادمي ثبَّتها بأربطة جلدية رقيقة، لكن ليريني إتقان عمله فحسب، إذ لم تعد بمقدورها الحركة وبلا شك لن تشعر بأي شيء، موتها حتمي، ولا ذنب لك فيه، أقسم على هذا بقبر أبي».

يحدق نايبيرغ إلى سيتون هنيهة ثم يستدير إلى المقعد ويجمع أدواته ويقول: «كنت مخطئًا بشأنك بشدة يا سيتون، إنك مجنون. ألا تعرف شيئًا عن قَسَم أبقراط؟ مهنتي هدفها إنقاذ حياة الناس لا غير. سأذهب لإخطار حرس المدينة بما يجري هنا، ولن أتردد في الإدلاء بشهادتي على ما اقترفتَه».

- خادمي لديه تعليمات بأن ينتظرني جوار باب بيتك يا نايبيرغ، حيث تنام جميلتك أُولا وصغيرتك أولريكا نومًا هانئًا. تحلَّ بالهدوء من فضلك، جاريك سيظل خارج البيت حتى تمام الساعة الرابعة، وإذا لم أعد إليه بحلول هذا الوقت لأخبره بأن كل شيء جرى بما يرضيني، فسيكسر القفل ويدخل، وما سيفعله عندئذ لا يمكن استيعابه.

ظل وينيه منذ أن بدأ يتوقع حدوث الأسوأ يراقب كارديل، والآن عندما يحاول المراقب النهوض من مخبئهما، يضع يديه على كتفَي كارديل بأقصى قوة يتيحها له وزنه، وتحت أصابعه يرتعش جسد كارديل بغضب ملجوم بالكاد. يقرِّب وينيه شفتيه من أذن كارديل ويحاول أن يبث في كلماته المهموسة كل قدراته على الإقناع.

فيقول: «جان مايكل، لا يمكنك فعل شيء، إذا قتلت سيتون هنا فستكتب نهاية الأطفال، تمامًا كما قال».

قبضته وحدها تمنع كارديل من افتضاح أمرهما، لكنها لا تكفي، وفي خضم يأسه يمسك بالمراقب من أذنيه، وعندما يعجز عن إمالة رأس كارديل يضطر إلى التحرك حتى تلتقي أعينهما كما أراد من البداية.

فيقول: «سمعتَ ما قاله، المرأة في عداد الموتى سلفًا، إذا مددت يدك عليه فستذهب كل جهودنا أدراج الرياح، ألا تستوعب هذا؟».

ما من شيء يدل على التفهُّم في عيني كارديل المحتقنتين بالدماء، البؤبؤان المتسعان يتغير لونهما إلى الأسود، فيتشبث وينيه بآخر حجة تخطر له.

قال وينيه: «جان مايكل، ما كان سيسل ليرغب في أن يراك قاتلًا».

تنقشع الأزمة. تلين تعابير وجه كارديل المتعطشة إلى الدماء، ويحل محلها التسليم مع اقتناعه بالمنطق، ويومئ لوينيه إيماءة إذعان.

يقف نايبيرغ صامتًا على الأرضية، وقد تلفَّع وجهه ببياض قميصه. ويتركه سيتون يتلعثم بمزيج من الاسترحامات والاحتجاجات، والوعود والتهديدات، ثم يُخرسه بإشارة.

يقول: «صمتًا أيها الشاب، ما من أحد هنا سوانا، وما من قوة عُليا ترى أو تحكم، الطبيعة نفسها لا تبالي، لن تبدي أي اعتراض إذا هلك جنسنا البشري بأكمله في خضم بؤس ومعاناة. المرأة الممددة هنا ستنضم قريبًا إلى الألوف المؤلَّفة من الموتى الذين نمر بقبورهم كل يوم، ولن يسأل عنها أحد أبدًا. ألا تقطِّع اللحم على مائدتك كل ليلة لتطعم نفسك وتقدمه للآخرين؟ هل ما نحن بصدده مختلف حقًّا؟ عندما نغادر هذه الغرفة ستكون ذكرياتك هي الرابط الوحيد بينك وبين ما حدث هنا، لذا انس الأمر. فكر في نفسك وزوجتك، وكن زوجًا وأبًا مُحِبًّا إذا كان هذا يرضيك. فليكن اليوم مجرد حلم».

يصمت سيتون ليمسح ذقنه ويتابع: «الوقت يمر يا نايبيرغ، ابدأ العمل الآن. الساق اليمنى أولًا، أم ما رأيك؟ ولا تنسَ وصف عملك كما وعدتني».

تُسمع كلمات نايبيرغ بالكاد: «*العضلة رباعية الرؤوس الفخذية...*».

- هلا تلطفتَ وضغطتَ الخرقة إلى حنجرتها؟ أظنها على وشك الاستيقاظ، ولا أريد لصرخاتها أن تشتت انتباهك.
- لكنك قلت صبغة الأفيون... وأن الأوان قد فات على إنقاذها.
- يؤسفني إبلاغك بأنها ثملة فحسب. لكن حتى إذا كان ما قلته سابقًا كذبًا، فهو الحقيقة الآن بفضل ما أحدثتَه من جروح، ألا تتفق معي؟

حياتها تتسرب مع نزيفها وستموت قريبًا، هيا الآن، الخرقة من فضلك، ألا تسمع صراخها؟

ينصاع نايبيرغ لما أُمر به.

قال سيتون: «أستميحك عذرًا يا نايبيرغ، سأريح نفسي مزيدًا من الراحة».

يحل سيتون أزرار بنطاله ويدعه يسقط إلى ركبتيه. ويرى كارديل من مكانه بالأعلى بين المقاعد يدَ سيتون تتحرك إلى الأعلى والأسفل بإيقاع منتظم وهو يميل رأسه إلى ظهر كرسيه، وأصوات نشيج نايبيرغ والمرأة تصير أنينًا خافتًا، ويسيل اللعاب على قميصه دون أن يشعر.

الفصل الحادي والثمانون

يسير إميل وينيه بمحاذاة رصيف الميناء باتجاه التيار، ولا ينعطف إلا بعدما يسمع النهر الذي يهدر في طريقه نحو أقواس الجسر غير مكتملة التشييد، تلوح له القلعة كصورة ظلِّية قاتمة أمام البحر الذي تهب منه رياح باردة تخترق المباني التي تشكِّل جدار المدينة المقابل للأرخبيل، وحالما يتجاوز «تل الأسد» ينعطف ويعود أدراجه بمحاذاة الرصيف، حيث ما زالت بقايا سوق ميكالماس موجودة متمثلة في بعض أصحاب المتاجر العنيدين.

يحتمي بضعة بحارة من الرياح بكومة جوالات ويلعبون الورق على الأرض المرصوفة بالحجر، واضعين العصا على الأوراق المكشوفة على الأرض حتى لا تطير مع الرياح، والذين لا يقرفصون ليلعبوا يحركون أيديهم ويضربون بأرجلهم ليحافظوا على دفء أجسادهم، وكل واحد منهم كتفاه مرفوعتان إلى أذنيه وقبضتاه تحت إبطيه. يسير وينيه إلى الأمام دون هدى ويتوقف كلما خاطر باعتراض طريق حمَّال أو صبي مرسال، الرصيف الحجري ما زال غير مألوف لديه، بحجارة جرانيت منحوتة تبدو دومًا قابعة في انتظار تعثُّر العابرين الساهين عليها. تسير شقيقته إلى جواره، وهي أقل اكتراثًا بالطقس والرياح.

وتقول: «حمدًا للرب لأن صديقك تعقَّل».

- جان مايكل ليس أحمق، ربما يكون عاصفًا بطبعه، لكن هذا كل شيء. إنه ينطوي على غضب مستعر، إصاباته تضرمه بالألم. عندما لا يكون واضعًا قبضته الخشبية يأتي بحركات أحيانًا كما لو أن ذراعه المفقودة ما تزال موجودة، أظنه ما زال يحس بها، إن كان أمرٌ كهذا ممكنًا.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- معاناتها كانت قصيرة، أقصر بكثير مما أراده سيتون، ربما كان الطالب حاضر البداهة فثقب أحد الشرايين الكبيرة بدافع الرحمة. ثم غادرا كلاهما، تاركين ما بقي ليتخلص منه الحمَّال. وانتظرنا مرور بضع دقائق، ثم غادرنا أيضًا، ماذا كان عسانا أن نفعل؟

تهز هيدفيغ رأسها فيجذب النسيم شعرها إلى جانب وهي تنظر إلى وينيه في عينيه وتقول: «السيدة سيتون خدعتكما. قرأتْ كارديل قراءة صحيحة في أثناء لقائكم، لا بد أنه كان سهلًا عليها. تقول إن وجهه تبدو عليه إصابات، وهذا يؤكد نزعته للعنف، وقد أرَتْه نفسها كي تزيد من كراهيته لزوجها، ثم أرسلتكما إلى فخها بافتراضات خاطئة، كانت تأمل أن تجعل من كارديل قاتل زوجها».

- لكن لماذا؟ مساعدتها لنا ستمكننا من تحقيق تقدم في قضيتنا وبالتالي تحقيق العدالة لها.

- إنها لا تظن -لسبب أو لآخر- أن تحقيقكما سيكلَّل بالنجاح، ربما ترى أن وكالة الشرطة نفسها ستخنق التحقيق في مهده حالما تعلم بأمره، بصرف النظر عن كل ما اكتشفتماه. وربما استخفت بكما، ففي نظرها أنتما مراقب معاق وطالب لم يكمل دراسته وترعبه أصوات لا يسمعها سواه. السيدة سيتون لا تشغل نفسها إطلاقًا بالأطفال في «تل هورن» ولا تخشى مصيرها في الحياة الآخرة.

يومئ إثر سماعه وقع الحقيقة في كلماتها ويقول: «فلنأمل أنها أخطأت الحكم علينا».

يقعد على كومة خشب وينو ببصره بعيدًا، ويقطِّب حاجبيه ليحمي عينيه من هبَّات الرياح، الغيوم خفيفة بما يكفي للسماح بتغلغل أشعة شمس باهتة عبرها وتلألؤها على الأمواج التي تتكسر حول لسان من الأرض داخل في البحر، السفن تربض في صفوف مقيدة إلى الرصيف وإلى بعضها، وصواريها تتمايل. يتنهَّد.

ويقول: «لا أدري ما ينبغي فعله يا هيدفيغ، تدور أفكاري في دوامات، بسرعة إلى درجة تعجِزني عن الإمساك بأي فكرة منها».

تقعد إلى جواره وتقول: «صمود سيتون وسقوطه مرتبط بـــ «تل هورن»، فلا بد من تجريده من هذه الحماية، وربما يمكن هذا بشرائها».

- كيف؟

- إذا أمكن تأمين إدارة ملجأ الأيتام بطريقة أخرى، فسوف تنتفي الحاجة إلى سيتون وسيكون طريقكم إليه سالكًا. أنت وصديقك سعيتما لحل المشكلة كأنها مسألة إيجاد الشخص المسؤول وتحميله المسؤولية، لكن يبدو لي أنها مسألة أموال.

- ما لدينا من أموال أقل من الآذان الراغبة في سماع أدلتنا. لا بد أن دار «تل هورن» تكلِّف أموالًا أكثر مما ينفقها التاج على دار إندبتو بأكملها وجميع موظفيها.

ينهض مرة أخرى، وتتحرك يداه من تلقاء نفسها لتساعده على ترتيب أفكاره العديدة.

يتابع: «إلا إذا...».

تومئ هيدفيغ له مشجِّعة وتقول: «تابع».

- إريك الورود الثلاث. سيتون يتحكم في ميراثه. ربما تحسنت حالة الورود الثلاث، وربما يمكننا حمله على التوقيع على وثائق جديدة. بدأ كل شيء في خليج الدنمارك، وإلى خليج الدنمارك يجب أن أعود.

يهم إميل بالذهاب لكنها توقفه، قبضتها على ذراعه تجعله يستدير حتى يقفا وجهًا لوجه، ومرة أخرى يُذهَل من مدى خفة تأثير السنوات عليها.

فيقول: «لا بد أن أُسرع يا هيدفيغ، غبائي كلفنا الكثير من الوقت».

تلامس خده بيدها الباردة وتقول: «أتتذكر عندما كان أبي يحبسك في القبو في المساء، عندما لا تتمكن من حل ألغاز المتاهة بالسرعة الكافية؟ أنا وسيسل لم يكن بوسعنا فعل شيء سوى سماع نشيجك لأن أبي كان يحرس الباب ولا يدعنا نساعدك أبدًا. لكن عندما كبرتُ كنت أنا التي أحبسك، وعندما أتذكر هذا أحس بالخزي إلى درجة أن قلبي يُعتصَر في صدري. إذا سامحتَ سيسل أفلا يمكنك مسامحتي أيضًا؟».

- لم تكوني تريدين سوى مصلحتي.

- *«الانحدار في طريق الشر سهل»*.

- فيرجيل؟

- آلمتُك، وأطلب غفرانك.

تنثال الدموع على خديها فتعجز عن الكلام للحظة. ويجد إميل في قلبه أنه سامحها منذ مدة طويلة، وأن الكلمات المطلوبة للتأكيد تخرج من شفتيه بسلاسة بالغة.

فيقول: «لولا مساعدتك لما تمكنتُ من تدبر أمري ولا تسديد دين شقيقنا. نعم، نعم أسامحك».

- تعرف أنني لطالما أحببتك حبًّا يفوق حبي للآخرين يا عزيزي إميل، وسيسل أيضًا.

حتى إذا كانت قد عانقته من قبل، فهو لا يتذكر متى كانت آخر مرة. والآن مع عدم اعتياده عناقها، يتخشب جسده في البداية حتى توحي له غريزة منسية بكيفية تسليم جسده لجسدها، الخد على العنق، وذراعه حول ظهرها، وأخيرًا يغمض عينيه ويحس بالسَّكينة التي ظل يسعى إليها طوال حياته.

الفصل الثاني والثمانون

ماجا وكارل أثقل مما تصدِّق آنا استينا، ورغم هذا تحس بالعبء طبيعيًّا، كلاهما وجدا مكانًا يستكنَّان فيه فوق عظام وِركيها، كما لو أن أسابيع الغابة قلَّصت خصرها إفساحًا لمكان لهما، حالما جعلت من الملاءة مِعلاقًا يمر بسيقانهما ويرتفع فوق كتفيها، صارا يقعدان مرتاحَين، ولم تعد تحتاج إلى ذراعيها إلا لتثبيت ظهريهما. وألقت فوق ظهرها كيسًا محتوياته تخِز ظهرها مع كل خطوة.

وعندما تخرج من طرف الغابة تيمِّم بصرها شطر سقف نقطة المراقبة وأجنحة الطاحونة الهوائية الصامتة. طرق ضواحي استوكهولم نادرًا ما تكون أسوأ مما هي عليه الآن، مشبعة بأمطار الخريف الغزيرة وليس فيها موطئ قدم ثابت، وسرعان ما يكسو الطين ساقيها حتى ركبتيها. تتسلل المدينة إليها خلسة عندما ترى البيوت الخشبية التي انبثقت متناثرة عشوائيًّا مؤخرًا تبدأ الانتظام في صفوف، مما يجعل الشوارع مستقيمة بما يكفي لإطلاق أسماء خاصة عليها. تدور حول التل حتى ترى قمة برج الكنيسة، وتسأل عن الاتجاهات امرأةً تحمل مقعدًا بيد ودلوًا بالأخرى. لم يبق أمامها سوى بضع مربعات سكنية، ولا يمضي وقت طويل قبل وصولها. الجزء الخارجي من المبنى يمتد بطول مربع سكني كامل، بارتفاع ثلاثة طوابق ومتوَّج بشقة على الطابق الأعلى، يتعين عليها السير إلى الأمام والخلف حتى تعثر على المدخل الصحيح، فتسلك الطريق المنحدِر نحو المياه وتتبع عربة خباز إلى الداخل تحت الممر المقنطر.

يحتضن «ملجأ الأيتام العام» الفناء من ثلاثة جوانب، ترى خلف الجدار حديقة واسعة تمتد على الأرض المنحدرة إلى الأسفل حيث الأراضي السبخة في مروج «خليج اللقطاء»، وعنده تصعد المياه وتهبط رماديةً كالسماء التي فوقها، وبالأسفل من ورشة الحداد جوار المياه تسمع أنفاس الكير الثقيلة ورنين المطرقة والسندان، وترى خارج المبنى أشرعة منسوجة جديدة معلَّقة لتجف في الرياح.

تخرج من المدخل امرأة مكتنزة ذات يدين مشققتين من الغسيل أو الخَبز، وتقف على السلالم ويداها على وركيها لتتفحص آنا استينا.

ثم تقول: «هل جئتِ لتسليمهما؟»

تثني ركبتيها وترد: «أيمكنني النظر في أرجاء المكان أولًا؟».

تميل المرأة رأسها إلى جانب وتقول: «أتلمِّحين إلى أن الملجأ قد يوفِّر رعاية أسوأ من التي اعتادها الطفلان؟».

تجيب المرأة عن سؤالها قبل أن تجد آنا استينا الفرصة: «طيب، لن أوبخ أمًّا على رغبتها في رؤية العناية التي سيتلقاها طفلاها، حتى إذا كانت تتخلى عنهما للآخرين. اسمي إبا، وأنا القيِّمة هنا، اذهبي وانظري في الأنحاء، وعودي إليَّ عندما تكونين مستعدة للتسجيل».

تتأمل ربة الدار الصغيرين بنظرة صارمة وتقول: «اثنان، هه؟».

تومئ آنا استينا وتقول: «إذا تركتهما فهل سيُسمح لهما بالبقاء معًا؟».

تزم إبا شفتيها وتعقد ذراعيها قائلة: «إذا أصررتِ فسنبذل ما بوسعنا، لكنني أحذرك، في هذه الحالة ربما يشيخان في هذه الدار، إذا لم تأخذهما الحمى. طيب، أمامي شؤون أخرى عليَّ تولِّيها».

تثني آنا استينا ركبتيها مرة أخرى، تهرع القيِّمة مبتعدة، فتصعد آنا السلالم وتدخل. فترى خلف غرفة الخَبز والمطبخ صالة طعام للصبية والفتيات، وجوارها صفوف دراسية في كل منها أكداس متأرجحة من كتب التعاليم الدينية والتراتيل تحيط بإنجيل أسود واحد على الرفوف، والغرف مشبعة برائحة خل نفاذة، لكنها أضعف من إخفاء ما قُصد منها إخفاؤه، إذ

يمكن للمرء استشعار وجود الأجساد المتزاحمة، بأوساخها وعرقها. ولا ترى أيًّا من الأطفال.

ترى آنا استينا في ركن المتخلفين عقليًّا أن أحدهم رسم شكل حمار بسيط، وعندما تجابه أبوابًا موصدة تستدير وتخرج عائدة أدراجها.

بالخارج في الفناء يقف رجل يضع باروكة مهترئة ويتجادل مع الخبَّاز جوار عربته بشأن سعر بضاعته، والخبَّاز عاقد ذراعيه ويرفض الاقتناع بالحجج، رغم أن الرجل يأخذ رغيفين ويضربهما ببعضهما كقطعتي حطب، ثم يمد يده إلى منتصف كومة الخبز ويخرِج رغيفًا يتخلله عفن الفطر مطلِقًا صيحة ظافرة، وعندئذ يرضخ الخباز.

ويقول: «خمسة أرغفة مقابل فلس إذن، لا لشيء سوى أنني أحب الأطفال».

وعلى مبعدة في الفناء ترى آنا طفلًا لا بد أن يكون أحد اليتامى، رغم أنه أكبر من الآخرين الذين رأتهم من قبل، يبلغ الثانية عشرة أو ربما الحادية عشرة من عمره، يرتدي معطفًا من النوع الذي يرتديه الفرسان فوق دروعهم ويضع وشاحًا أسود، وقد كبر حجمه على قميصه الأزرق، فيترك فجوة تظهِر بطنه وظهره، وهو حافي القدمين رغم الهواء البارد، ممسك بمكنسة أمامه، متأرجحًا ببطء إلى الأمام والخلف، دافعًا أمامه قشًّا مبتلًّا وروث خنازير، فمه مفتوح ولسانه يتدلى متورمًا فوق شفتيه وهو يقترب من عربة الخباز، وفي لحظة غفلة تنطلق يده وتختلس قطعة خبز، ويخفيها تحت قميصه، وللحظة وجيزة تتَّقد عيناه بالحذر ثم يتابع عمله ببطء راسمًا التعابير نفسها على وجهه، وهو يدندن دون لحن منتظم. تتبعه آنا استينا خلف الزاوية.

وتقول: «لديَّ توت، أتود قليلًا منه؟».

يتأرجح الصبي إلى الأمام والخلف، ويتحرك فكه مرتعشًا وهو يتصنَّع التشوش.

تقول: «رأيتكَ، ولن أشي بك».

يجول بعينيه في محيطه، ثم يهز كتفيه ويمسح ذقنه ويتخلى عن التمثيل، ثم يقول: «أظنك تريدين شيئًا من الخبز بالمقابل».

صوته ما يزال طفوليًا. ويسيل لعاب آنا استينا من الفكرة، إذ انقضت شهور منذ أن تناولت خبزًا آخر مرة.

فتقول: «إذا أردتَ، يمكننا أن نتشارك».

تستدير وتريه الكيس الذي تحمله، فيقيِّم حجمه ويهز رأسه باتجاه مكان العربات.

يقول: «ليس هنا، هناك خلف كومة الروث. اذهبي أولًا، سآتي بعدك. أُترستروم ما زال يتجادل مع الخباز الوغد وإذا وقع بصره عليَّ فستسوء الأمور بشدة».

يستغرق مدة طويلة حتى يجرجر قدميه عابرًا الفناء، وخلف مكان العربات يوجد صندوق قديم يُستخدَم مقعدًا، تعافر آنا استينا خيط كيسها حتى يحمل الصبي كارل ويضعه على حجره، فيصير كلاهما بيد واحدة، ويتشاركان التوت والخبز، لا يشيح بعينيه عنها أبدًا، يمضغ ويزدرد بأقصى سرعة، وهي أيضًا تأكل، وتجد مذاق الخبز غريبًا لذيذًا، رغم أن كل لقمة ينبغي ترطيبها في الفم مدة أطول قبل بلعها.

قال: «أرى أنك تودين طرح سؤال».

- لماذا يوجد أطفال قليلون هنا؟

- لا يريدوننا أن نبقى، يرسلوننا لآخرين، ليربونا، كما يسمونها.

تصب المزيد من التوت له وهي تنتظر توضيحًا منه. يقتطع خبزًا بين إبهامه وسبابته ويعطيه لكارل ليتذوقه، فيطقطق كارل بشفتيه ويدع لسانه يجاهد مع الكتلة غير المألوفة، والتعابير التي ترتسم على وجهه تنتهي إلى تقزز مضحك، فيضحك الصبي.

ويتابع: «وضعوني في العربة ثلاث مرات مع بضعة أطفال آخرين. يقودوننا إلى الريف، إلى القرى النائية، ويحاولون العثور على شخص يرغب في توفير مأوى لنا، إذ يزيد احتمال أخذنا حيث المَزارع في حالة سيئة والفلاحون يسحقون لحاء الأشجار في الدقيق، ونجد ترحيبًا حارًّا من الذين يحتاجون إلى من يعمل لهم دون مقابل سوى كسرة خبز وكومة قش ننام

عليها، ومقابل كل طفل ينالون ثمانية دالرات كل عام، الفتيات يذهبن أولًا، ثم الأفضل من بين الصبية. وكل مرة كنت أعود وحدي».

- لماذا تتظاهر بالبلاهة؟

- أحيانًا عندما يهرب الأطفال أو يُنبَذون يسيرون مسافة طويلة حتى يبلغوا استوكهولم، وعندما أراهم أجدهم في حالة أسوأ مما لو كانوا قد بقوا هنا. أولئك الآباء المتبنُّون الذين يحفرون القبر قبل أن يلوِّحوا لعربة ملجأ الأيتام لتتوقف، الذين يهلِكون الصبية والفتيات بالعمل – ماذا تظنين أنهم سيفعلون مع أمثالي؟ إذا رأوا أنني محدود الذكاء وأن مجهود تعليمي العمل أكبر من نتائجه فسيدعونني أبقى هنا، على الأقل لبضع سنوات إضافية. لا يبقى هنا سوى الذين يتعذر إيجاد مكان آخر لهم، محدودو الذكاء، والمشوَّهون، والقبيحون. الوضع ليس جيدًا هنا، لكنه أفضل من البديل.

- وكيف هي الحياة هنا للذين يبقون منكم؟

يتنهَّد ويقول: «حساء كل يوم، خفيف أقرب إلى الماء، بلفت مطبوخ وجزر، ولحم مالح إلى درجة أنهم أنقذوا فتاة من البئر بعدما حاولت رفع الماء وحدها، تتعلمين تصفية الحساء بين أسنانك لتفرزي شظايا النحاس الدقيقة التي تأتي من الغلاية التي لا ينظفونها أبدًا، لأنك إذا ابتلعتِه فستتقيئين كل شيء، لذا من الأفضل أن تجنبي نفسك العناء. نتلو التعاليم الدينية كل صباح حتى حفظناها عن ظهر قلب، بمساعدة العصا، والأستاذ يسمي هذا تعلُّمًا. وكل من يعيش مدة كافية يُستغل في العمل».

- أي نوع من العمل؟

يشير الصبي إلى الطابق الثاني من الجناح.

- اذهبي وانظري بنفسك.

تنهض لتذهب في الاتجاه الذي تشير إليه يده، وعندما يناولها كارل يميل نحوها مقتربًا.

ويقول: «أتعرفين؟ لم يعودوا يرونني إلا بالكاد، وعندما يتكلمون لا يكترثون بي أكثر مما يكترثون عندما يرون حصانًا أو خنزيرًا يتنصت عليهم.

عندما جاء أترستروم جديدًا إلى الدار، أخذوه في جولة حول المكان، وكان يطرح أسئلة كثيرة، في أول صباح له هنا جاء مراقبون حاملون رضيعين وجدوهما في الشارع وبعد ذلك بوقت قصير جاءت امرأة تعرج لتتخلى عن رضيعها، مثلك تمامًا، فسأل أترستروم عن كيفية تحمُّل نفقاتهم جميعًا، فأجابه السادة الذين كانوا يرافقونه في الجولة بأن التكاليف أقل بكثير مما تبدو، لأن من بين كل خمسة أطفال ينجو واحد فقط ليشهد نهاية العام الأول. الصغار يأتون هنا ليموتوا، ملجأ الأيتام هذا هو أفضل من يخرِّج الملائكة في المدينة، إذا أردت مصيرًا مختلفًا لصغيريك فخذيهما إلى أبعد مكان ممكن من هنا. حسنًا، ينبغي ألا أتلكَّأ، وإلا فسيرتابون في أمري. روث الخنازير لن يكنس نفسه جيئة وذهابًا عبر الفناء طوال اليوم».

- أتمنى لك حظًّا سعيدًا.

- الأمنيات في يد، والروث في أخرى، سنرى أي يد ستمتلئ أولًا. لكن ربما نلتقي مرة أخرى.

- أو ربما لن نلتقي.

ترفع آنا استينا طفليها على وركيها وتسير نحو الجناح، وتسمع الصوت وهي ما تزال على السلالم، صوت تعرفه خير المعرفة ولن تنساه أبدًا، جوقة أنين خشب يحتك بحركات منتظمة، تحت صوف هامس وقعقعة آلة الندف. لا تحتاج إلى الرؤية كي تعرف، لكنها تنظر على أي حال، ترى ثلاث نجفات غير مضاءة متدلية من السقف، وعجلات غزل في صفوف طويلة، ينكفئ طفلٌ على كل واحدة منها.

وبالخارج في الشارع تنظر إلى اليسار أولًا، حيث تنتظر الغابة خلف منازل المدينة، الغابة التي ستفقد خيراتها وفواكهها عما قريب ولا تَعِد سوى بالجوع، ثم تدير رأسها ناحية اليمين، نحو «مدينة ما بين الجسور»، حيث تنتصب ثلاث كنائس بالترتيب، نيكلاس، وغيرترود، وكاتارينا على التل خلفها. تقرقر ماجا مبتهجة، وقد شبعت الآن، ويغفو كارل فتضع آنا استينا يدها خلف عنقه ليظل رأسه مرفوعًا. لم يبق سوى مكان واحد يمكنها الذهاب إليه، لكنها تتردد مدة طويلة. ترتطم قبضة ميكيل كارديل الخشبية بأسفل ظهرها وهي تهتدي بأبراج الكنائس.

الفصل الثالث والثمانون

تتراقص أوراق الأشجار هائمة على أرض فناء المستشفى حتى تجرفها ريحٌ غاشمة إلى الجدول الذي ينساب متكاسلًا من البحيرة إلى الخليج، كل شيء أجرد وموحش، وقد صار الطقس قاسيًا على المرضى فلا يسعهم فعل شيء سوى انتظار الربيع وهم خلف جدرانهم. يدفع كارديل وركيه إلى الأمام واضعًا يديه على أسفل ظهره، ما يزال متشنجًا رغم السير حتى «خليج الدنمارك»، إذ اضطر إلى النوم على الأرضية وقد تركت ألواحها أثرها عليه. وعندما يقترب كارديل ووينيه من مبنى المستشفى، يأتي رجل منعطفًا عند الزاوية، وعندما يراهما يطلق صرخة دهشة خافتة.

ويقول: «أستميحكما عذرًا، لم نكن نتوقع زوارًا في يوم كهذا».

قصير يرتدي معطفًا رماديًّا ويضع باروكة ضخمة تبدو كقلنسوة، عيناه يقظتان وهو يتفحص الرجلين، ثم أخيرًا يختار مخاطبة كارديل وهو يومئ إلى وينيه، الذي يصوِّب نظراته المتوترة إلى المصحة الواقعة على مبعدة على الجرف.

يقول الرجل: «هل جئت لتجد مكانًا لرفيقك؟».

يعبس كارديل وينخر قائلًا: «ما الذي تتكلم عنه؟ جئنا لرؤية إريك الورود الثلاث، إنه أحد مرضاكم في المصحة».

يحمر الرجل قليلًا ويطلق ضحكة حادة ثم يقول: «عليكما أن تلتمسا لي العذر يا سيدَيَّ، الهلوسة متفشية هنا إلى درجة أنها صارت مُعدية. اسمي ناستروم، طبيب الحي في كاتارينا، لكنني آتي إلى هنا لأساعد متى ما أتيح

لي الوقت، والرب يعلم بمدى الحاجة الماسة. أعرف من تتكلمان عنه تمام المعرفة».

ينضم إليهما في سيرهما، ويلوح الجص الأصفر الذي يكسو مصحة المجانين متناقضًا تناقضًا صارخًا مع سواد جروف البحر.

يشبك وينيه يديه خلف ظهره ويسير جوار الرجل ويسأل: «أتعرف شيئًا عن حالته؟ هل أبدى ما يدل على التحسُّن؟».

ينظر ناستروم إليه نظرة أسف ويقول: «أفهم أنك الذي حرصت على أن يحظى بغرفة أفضل، صحيح؟ هذا كان إجراءً طيبًا. الآن يتشارك الصبي غرفة أفضل، نُصب فيها حاجز لحمايته من الآخرين، فهو للأسف غير قادر على الدفاع عن نفسه».

يتابع السير هابطًا المنحدر ويشير إلى الأرض ليحذِّرهما من موطئ أقدامهما، حيث صارت التربة موحلة بالأمطار وهواء البحر الرطب.

قال ناستروم: «أُبلغت أن الحالة التي وجدتما الورود الثلاث عليها لم تكن من فعل مؤسستنا، وأود أن أؤكد أن حالة الصبي الآن أفضل كثيرًا. كنت بعيدًا عن واجباتي لمدة لدواعي شخصية، وعندما عدت جزعت من الحالة التي تدهور المكان إليها، قذارة وسوء إدارة، ومهام مهمَلة، ومعتوهون يتجولون بحرية. الآن يمكنكما الاطمئنان إلى أن الصبي يحظى بزيارات تفقدية يوميًا وأن جميع احتياجاته تُلبى حالما تُعرف».

وما إن يبلغون وجهتهم، يلقي ناستروم بثقله على الباب حتى يفتحه ويدعو كارديل ووينيه للدخول بذراع ممدودة.

سأل وينيه: «هل يتواصل بأي طريقة؟».

يهز ناستروم رأسه إجابة عن سؤال وينيه ويشير إلى الاتجاه المؤدي إلى السلالم.

ويقول: «أمضيت بعض الوقت مع الصبي، وهو يمضي ساعات يقظته بالوضعية التي يُترَك عليها، لا يتحرك إلا باهتزازات طفيفة على الأرجح ناجمة عن سوائل جسده أو نبضات قلبه، ومن حين إلى آخر يدندن مع نفسه لكن دون لحن يُذكَر».

الرواق الذي يقودهما ناستروم عبره مختلف عن الرواق الذي مرا به المرة الماضية، وعندما يفتح الباب حتى يدخلا، يريان أن النافذة لم تعد مغطاة على الأقل وتسمح بدخول الضوء، ويقسِّم الغرفة جدارٌ خشبي رُكِّب على عجالة مزود بكوة في منتصفه، ويسمعان من الجانب الآخر خطوات متثاقلة تتحرك جيئة وذهابًا على امتداد الغرفة وأنفاس ثقيلة تتخللها تمتمات. يقتعد إريك الورود الثلاث كرسيًّا جوار النافذة، ناظرًا إلى الجانب الآخر، وقد نما شعره كثيفًا، تلتمع من خلاله ندبة حمراء على فروة رأسه. ثم يدركان أن مقعد الكرسي به فجوة وُضعت أسفلها مبولة غرفة، ويغطي قميص طويل النصف الأسفل من جسد الورود الثلاث العاري، ويتكئ رأسه على ظهر الكرسي، وعيناه نصف مغمضتين ونظراته خاوية. وعندما يقتربان منه يسمعان منه صوتًا رتيبًا، همهمة واهنة.

يجثو ناستروم جوار الكرسي ويتفحص وجه الورود الثلاث.

ويقول: «يجب ألا نتخلى عن الأمل يا سيدَيَّ، وأن نتعامل مع إريك بصبر، إنه ما يزال يافعًا، وللجسد قدرة مذهلة على التعافي ما دام يستشعر مستقبلًا يستحق العناء. التأم جرحه وصار نظيفًا، وبمرور الوقت ربما تبلغ عملية التعافي جذر المشكلة وتعالَج علَّته، إذا عاملناه باللطف والاحترام الذي يستحقه بوصفه إنسانًا. يجدر بكما أن تعرفا، كما أعرف أن اسمي هو ناستروم، أن الحب يجترح معجزات لا يستوعبها العلم. طيب، سأترككم وشأنكم».

ينتظر وينيه تلاشي وقع أقدام الطبيب ثم يقعد على حافة السرير، الوجه الذي إزاؤه مُنهَك وشاحب، يبحث عن نظرات الورود الثلاث، لكن عينيه تبدوان غير قادرتين على التركيز على عيني وينيه وتحدقان إلى الخواء أمامه، نقص وزن الصبي مزيدًا من النقصان، ويمكن عد جميع ضلوعه في الأماكن التي التصق فيها قميصه الكتاني على صدره بالعرق.

يقول وينيه: «إريك!».

الأنفاس قصيرة وتسبب غرغرة كلما امتلأت الرئتان.

يضع وينيه يده على كتف الصبي الناحل ويهزه بحذر ويقول: «إريك، لا بد أن تستمع إليَّ، كان تايشو سيتون قد أعطاك أوراقًا لتوقِّعها، سواء بنفسه أو عبر وسيط، أو كلاهما. هل هذا صحيح؟ أين الأوراق يا إريك؟».

يحاول إعادة صياغة كلماته، وجعلها أقصر أو أبسط، كأنما اللغة تنطوي على مفتاحٍ خفيٍّ ما قادر على انتشال الصبي من ذهوله، لكن بلا جدوى.

ويشير كارديل الذي ظل يذرع الغرفة إلى أسفل السرير ويقول: «يوجد صندوق، أظنه نفس الصندوق الذي أتذكره من غرفته في المستشفى».

يحركانه بمجهود مشترك ويجدانه غير مقفَل، وبداخله يقبع كل ما بقي من إريك الورود الثلاث الذي كان ليقدر على الإجابة عن أسئلتهما، سترة، وبنطال سرقتْ إبزيماته أصابع رشيقة، وقلم، ودواة جافة، وتحتها كومة مراسلات، يرفعها وينيه بيدين مرتعشتين، وبعدما يتصفحها سريعًا يعبر الغرفة ليرفع بعضها بزاوية معينة نحو الضوء، واحدة تلو الأخرى.

يشاهد كارديل هذه التحركات مقطبًا حاجبيه: ويقول: «ما الذي يجري بحق الجحيم؟».

يلوِّح وينيه له ليقترب ويناوله الأوراق ويقول: «انظر هنا، هذه هي الرسالة التي من المفترض أن مرسلها هو اسكيلدت ابن عم الورود الثلاث بعدما غادر لينخرط في النضال من أجل التحرير في هيسبانيولا. ارفعها إلى الضوء يا جان مايكل، هل ترى؟ على كل رسالة منها يمكنك قراءة خط مضغوط من أثر رسالة سابقة».

يخرِّز كارديل عينيه متضايقًا ولا يفهم ما ينظر إليه فيقول: «ماذا بها؟».

- كتبها اسكيلدت جميعها في الوقت نفسه، واحدة تلو الأخرى، والأوراق موضوعة فوق بعضها، وقد أرغمه سيتون على هذا بلا شك، قبل أن يلطِّخوا جلده ويبيعوه عبدًا. ومن حين إلى آخر كان سيتون يعطي إريك آخر رسالة بوصفها دليلًا على أن اسكيلدت ما زال حيًّا. قصة هروبه ليست سوى كذبة.

يهز كارديل رأسه ويبصق ثم ينسحب ليفسح المجال لوينيه حتى يتابع بحثه، ويقف ساكنًا طوال الوقت، باحثًا في وجه إريك الورود الثلاث الجامد

عن بقايا إنسانية، يتاح له متسع من الوقت، لكنه يعجز عن العثور على أي شيء، وعندما يرفع بصره يجد إميل وينيه جالسًا على حافة السرير واليأس بادٍ عليه، والأوراق متناثرة حوله في دائرة عريضة.

ويقول: «جرَّده سيتون من كل شيء، من كل فلس، البيت والأراضي سوف تُقسَّم وتباع، ولم تبقَ سوى الديون، إذا خرج إريك من هنا يومًا، فلن يجد بانتظاره سوى سجن المدينين».

يعود وينيه إلى جانب الورود الثلاث ويستحثه بأسئلة غير مسموعة، ويدعه كارديل وشأنه حتى تخف حدة أسئلته، ثم يضع يده على كتف وينيه ويحثه على النهوض.

ويقول: «الفتى ضائع، ألا ترى؟ ليس بوسعنا فعل شيء. وفي الهوة المظلمة التي غاب فيها عقله يظن أنه هو الذي قتل عروسه، رغم أن ذلك الشيطان الباسم هو من يقع عليه اللوم كله. إننا عاجزون عن مدِّه بهذا العزاء البسيط، وما دام «تل هورن» موجودًا فسيكون سيتون محميًّا به، آمنًا من القانون الآن كما كان عندما بدأنا بحثنا. والآن تبدد آخر بصيص أمل لدينا، اللعنة على كل شيء! فلنذهب».

يُسمَع صوت قطرات خافت من مبولة الغرفة التي أسفل الورود الثلاث، فيشيح كارديل بوجهه ليتجنب نظرة الرعب والاشمئزاز على وجه وينيه. يفرك كارديل وجهه، ويمدد ظهره المتشنج ويدير وركيه من جانب إلى جانب، وهو غير معتاد وزن القبضة الخشبية المعلَّقة تحت مرفق ذراعه اليسرى، وقد نُظفت وأزيلت عنها رسومات أطفال الشوارع، لامعةً وجديدة لا تحمل رائحة الكحول الرديء والدم الجاف، إنما تعبق برائحة مطمئنة غير مألوفة، رائحة الغابة والندى، ومياه الينابيع، والطحالب والتراب، ورائحتها ورائحة طفليها، الذين بأمان في غرفته الآن، التي وإن لم تكن في غاية الدفء، فعلى الأقل أدفأ من «الفيء العظيم».

الفصل الرابع والثمانون

الطرف الأبتر يؤلم ويلسع، غير معتاد الآن تجويف الذراع الخشبية الذي فارقه لمدة، وقد أرخى كارديل الأربطة وعلَّق الذراع حول عنقه ليخفف عن نفسه قليلًا، وفوق قميصه يدلك بلطف الجلد الذي غشيته الندوب أملًا في انحسار الألم. الإحساس ما زال غريبًا حتى بعد مرور السنوات الطويلة، يستحيل اعتياده، خفَّت وطأته لكنه حاضر دومًا، وصبره الأبدي هو ما يجعله أسوأ من أي شيء أحس كارديل به، إذ لا ينساه إلا في المواقف التي تستحوذ على كامل انتباهه. أحيانًا تداهمه وخزات وإحساسات دغدغة مفاجئة تجعل جسده بكامله يقفز كما لو أن شخصًا صب دلو ماء بارد فوق ياقة قميصه. ومن حين إلى آخر ينتقل الألم إلى اللحم الذي لم يعد موجودًا، ورغم أن كارديل يرى عدم وجوده، فالفراغ الذي كانت تشغله ذراعه المفقودة ذات يوم يشتعل بألمٍ يتعذَّر إخماده، وفي أسوأ الحالات يستفحل حتى يحس بأن قبضة سلسلة المرساة تطبق على ذراعه مرة أخرى وتبرِّحه أيما تبريح.

يسمع صوت وينيه إلى جواره، لكن لا يمكنه إعارته سوى أقل قدر من الانتباه، أفكار مبعثرة تتخذ صوتًا، نظريات تتحول سريعًا إلى كلمات، تحليلات منطقية تدور في حلقة مفرغة، حجج جميعها معروفة. ومنه هو لا تُنتظر إجابات، يستعرض وينيه التفاصيل أملًا في أن تمده إحداها بخيط جديد وتفتح له طريقًا لم يطرقه من قبل.

يحس كارديل كما لو أن حاسةً سادسةً ما تنبِّهه قبل أن تؤكد عيناه شكوكه بأنهما مراقَبان، غريزةُ جنديٍّ من نوعٍ ما، هاجعة منذ أمد بعيد، تجعله يلقي نظرة فوق كتفه وهما يسيران عبر بوابة الجبايات، وبطرف عينه يستشعر

ظلًّا في ضوء الغسق، شخص يقف جوار شجرة على جانب الطريق ويظل واقفًا حتى يدير كارديل رأسه إلى الأمام. يسيطر كارديل على نفسه ويدع رفيقهما يمر دون أن يتعرض له وحتى يجد فرصة أفضل لتأكيد شكوكه، وعندما يقتربان من القنطرة، ينعطفان عند زاوية، ويتوقف كارديل بعد بضع خطوات في الزقاق ليتخلَّص من حصاة مُتخيَّلة في حذائه، ويسمع شهقة عندما يدرك الغريب أنه أوشك على افتضاح أمره ويتراجع سريعًا بحيث تفصل الزاوية بينهما مرة أخرى، وإلى جوار كارديل يتوقف وينيه من تلقاء نفسه، مشتَّت الانتباه كدأبه دومًا، وللمرة المئة منذ مغادرتهما خليج الدنمارك يذكر اسم شقيقته.

يقول: «لا بد أن أشاور هيدفيغ».

يأخذ كارديل بذراعه ويقتاده إلى الاتجاه الصحيح ويقول: «ربما تخطر لك فكرة أفضل بعد النوم، سأسير معك إلى الغرفة».

ما يزال كارديل غير واثق بنفسه تمام الثقة بشأن متعقِّبهما، ربما يكون مجرد شخص جلبه القدر إلى نفس مسارهما، شخص بريء أجفل من رؤية مظهر كارديل وزيه. يسلك الطريق الطويل ويدور حول مربع سكني كامل دون أي سبب، وعندما يرى أن ظلهما سلك الطريق نفسه يقتنع اقتناعًا كافيًا. يودِّع وينيه وينتظر على السلالم حتى يسمع صوت إغلاق الباب فتنقطع التمتمات التي كانت تُسمع، ثم يواصل السير في الشارع عائدًا أدراجه نحو القنطرة، وبنظرة سريعة حذرة يتأكد من أنه ما يزال يحظى برفقة.

بالأسفل جوار سلالم مبنى «وكيل العائدات» انطلقت نساء القوارب في رحلتهن الأخيرة قبل أن يجعل الظلام استخدام مجاديفهن مستحيلًا بين شبكة حبال المراسي التي ترتخي وتشتد مع حركة الأمواج. وقلة من الناس يعبرون الجسرين المتحركين، سواء الأحمر أو الأزرق، إذ تأخر الوقت والظلام رادعٌ كاف. ومعربدو المساء بلغوا وجهاتهم منذ وقت مبكر، وكل من يعلق على الجانب الخطأ من القنطرة ما عليه سوى تهيئة نفسه للمصير الذي ينتظره. يدندن كارديل بأنشودة قصيرة وهو يسير في الطريق المحاذي للطاحونة،

ذات الواجهة البحرية الواطئة التي يتخللها صف من النوافذ كي تتيح للطحَّانين وزبائنهم الرؤية دون المخاطرة بإشعال أي نار. ينعطف عند الزاوية إلى آخر شارع في «مدينة ما بين الجسور»، أو أول شارع تابع للجزيرة الجنوبية، وفقًا للشخص الذي يُطرَح عليه السؤال. تقعقع الحجارة تحت نعلي حذائه الجلديين حيث يندفع تيار مياه الطاحونة تحت أقواس خفية. المنطقة خالية، كما كان كارديل يأمل، ويستند بظهره إلى الجدار، فيسمع خرير التيارات المائية من جميع الاتجاهات، فيعدل طرفه الأبتر ويحكم شد الأربطة بأقصى قوة، ويصيخ سمعه مترقبًا وقع الأقدام المقتربة، وينتظر.

يكون متأهبًا للانقضاض عندما ينعطف الشخص عند الزاوية، في متناوله كما توقع، فيطلق ذراعه اليسرى بكل قوة، ويهوي بظهر القبضة الخشبية على الوجه مباشرة، لا يحتاج إلى الرؤية بوضوح ليعرف مدى الضرر الذي أحدثته الضربة، إذ يحس بدفق دافئ، وملح يلسع عينيه، وعضًّة في طرفه الأبتر كأنما أطبق ذئب فكيه عليه، لكن لا بد أنها لا شيء مقارنة بالطرف الآخر الذي تلقى الضربة، وهو رجل ضخم، كما يسمع من صوت ارتطام الجسد حالما تهالكت الساقان. يمسك الجسد الهامد من ياقته ويسحبه في الزقاق، ويخبط على باب حتى يطل وجه طحان متتلمذ مذعور، وهو الذي كان قد عُهدت إليه الحراسة.

يرفع كارديل له شلنًا ويقول: «مساء الخير يا معلم الرقص، جئنا لنجرب أرضيتكم قليلًا، أنا وصدِيقي هذا، نأمل أن يكون رسم الدخول هذا كافيًا».

يومئ الفتى مبتسمًا ابتسامة واسعة ويفتح الباب، وتحت ضوء فانوسه يرى كارديل الضرر الذي أحدثه، الأنف لم يعد سوى أطلال، لم يبقَ منه سوى شظايا عظام زهرية، والشفة العليا متدلية مُزعًا فوق فمٍ تهشمت أسنانه الأمامية، الدماء ما تزال تتدفق، سوداء حالكة تحت ضوء شعلة الفانوس، وكل نفَس متحشرج يتعين عليه شق طريقه بصعوبة. يسحب كارديل الرجل إلى حيث يريده، ويعطي الفتى شلنًا آخر مقابل استعارة الفانوس، ويطلب منه ألا يعود إلا بعد انقضاء ساعة. وغَرفة ماء تكشف لكارديل شيئًا من ملامح الوجه،

ثم يسمع تمتمة كلمات، يتبين كارديل بصعوبة أنها فرنسية، فيربِّت بقسوة على خد الرجل.

ويقول: «أنت جاريك على ما أظن، تابع سيتون، صحيح؟ تعقبتنا من خليج الدنمارك. هل أُمرت بالانتظار هناك أم أن الصدفة هي التي جمعتنا؟».

تنفتح العينان، والنظرات الواهنة تطفح بالغِل، ثم تخرج الكلمات بنفس اندفاع الدماء، فيهز كارديل رأسه.

قائلًا: «لا أتكلم الفرنسية، لكن هذا النوع من الكلمات يمكنني تمييزه في أي لغة. هل تطعن في شرف أمي؟ وتقول لي أن أذهب إلى الجحيم؟ سمعت كل شيء، والأقذع من هذا. أود أن أعرف أمرًا آخر، ولا أظنك راغبًا في الغناء طواعية، لذا سأريك شيئًا أرغم العديد من الرجال على تغيير آرائهم.

يضم المبنى أربع عجلات مائية، كل عجلة يبلغ ارتفاعها ضعفَي طول رجل، وتمر قناتان عبر المبنى، تضيقان إلى قناة رئيسية حيث تلتقي المياه بشفرات العجلات، فترغمها على الدوران على محاورها التي تصدر صريرًا. يمسك كارديل كتلة من شعر جاريك ويجذبه حتى يرغمه الألم على الترنح إلى الأمام، نحو أقرب عجلة، يثبت كارديل رأسه فوق التيار.

ويقول: «انظر إلى الأسفل».

لا يمكن رؤية المياه لكن يمكن سماعها، دوامة داكنة تغلي من الغضب إذ وجدت طريقها مسدودًا.

ويتابع: «أريد مقابلة سيدك الليلة، وستصطحبني إليه».

يأتي جاريك بمحاولة للبصق على وجه كارديل لكنه يكتشف أنه لم يعد قادرًا على زم شفتيه الممزقتين حتى تؤديا المهمة.

فيقول كارديل: «سأريك أحد تقاليد استوكهولم القديمة، لا سيما وأنت أجنبي. يفعل أطفال الشوارع هذا عندما يشعرون بالملل، لكن توخ الحذر، كل خطوة يمكن أن تكون خطوتك الأخيرة، رأيت صِبية تزل أقدامهم فيضيعون تحت العجلة، وإذا حالفهم الحظ يُسحبون تحتها ويحملهم التيار إلى السطح على الجانب الآخر، حيث ينتشلهم أصدقاؤهم بعصي بالأسفل جوار الرصيف، لكنهم صغار رشيقون يا جاريك، وأنت بدين ثقيل، فلن أتفاجأ إذا عِلقتَ بين

المجداف والقاع حتى يشتد ضغط المياه فتكسر عمودك الفقري وتلفظك على الجانب الآخر طعامًا للسلطعونات. مستعد؟ خذ نفسًا عميقًا الآن، ها نحن نرقص».

يجذب كارديل حتى تتشنج عضلاته، ويوقِف جاريك على العجلة الدوارة المتمايلة، فيتعلم اللعبة سريعًا، إذ ما من شيء عليه فعله سوى التسلق، وأن يجتاز كل لوح زلِق بسرعة قبل دوران العجلة، يستقر إيقاعه، وكلما ينزلق حذاؤه ينخفض ويتعين عليه مضاعفة مجهوده، ووزنه نفسه يؤثر في دوران العجلة. يتكئ كارديل على عارضة خشبية ويشاهد، ويرى تحدِّي جاريك يذوب مع تبلل ملابسه بالماء البارد، ويناضل كي ينأى بنفسه عن فكَّي الموت الذي ينتظر -بصبر وتلهُّف- نهاية معركة لا أحد يمكنه الفوز بها. والزمن هو الذي يحسم الأمر، اللحظات الطويلة التي تخبره بأن أي لحظة منها قد تكون الأخيرة، وهذا الإدراك يبدد أي فكرة أخرى حتى لا يبقى بداخله سوى رعب محض. ومع هذا تأتي صرخات الاسترحام أسرع مما توقع كارديل، ويجد أن مثل هذه الكلمات -أيضًا- يسهل فهمها بأي لغة.

الفصل الخامس والثمانون

يتناول تايشو ستون وجبته في وقت متأخر، وحده في حجرة منفصلة عند طاولة مجهزة لشخص واحد، في ركنٍ قصيٍّ من حانة «السلام الذهبي» يكاد لا يُسمع فيه ضجيج صالة الطعام الرئيسية. ومن أجل كارديل جُلب كرسي ثانٍ، وقد رفض الطعام لكنه رحَّب بالنبيذ. يلتهم سيتون بشراهة الطعام الذي يقدَّم له طبقًا تلو طبق، وتتساقط قطرات المرق والفتات على ربطة عنقه من امتداد زاوية فمه. ومن حين إلى آخر يتلوى طرف اللسان الأحمر فوق الشفتين وإلى حواف الجرح، ومن وميض عيني سيتون يستشعر كارديل أن تقززه يسلِّي الرجل، لكن كما هو الحال دومًا لا يمكنه الجزم بما إذا كان يرسم ابتسامة ساخرة أم أنه تلاعُب الضوء فحسب. وبينهما يحمل شمعدان ذو شِعب اثنتي عشرة شمعة على أذرع فضية، فتضيء الغرفة كأنها شمس. ولمدة لا تُسمع سوى أصوات مضغ سيتون، ثم يجفف فمه بمنديل حريري ويلقيه على الأرضية، وبإشارة واحدة للخادم ذي السترة الأنيقة يُفهِمه أن يملأ كأسيهما ثم يتركهما وشأنهما. يشربان. وكارديل هو من يكسر حاجز الصمت.

قائلًا: «هل اتفقنا إذن؟».

يفرغ سيتون كأسه ويعيد ملأها ويقول: «هل تستعجل مغادرة طاولتي إلى هذه الدرجة؟».

يحدق كارديل إلى سِماط الطاولة وسيتون يتابع كلامه: «طلبتُ القهوة، وحتى هنا إنهم مستعدون لتحدي الحظر ما دام الزبون سيدفع الثمن.

يحرقون قطعة كتان فوق القِدر حتى لا يسترعوا برائحة المشروب انتباه أي واشٍ متيقظ».

يشعل سيجارة شيروت من إحدى شعلات الشمعدان ويمجُّها حتى يكاد الدخان يحجب الرؤية أمامه.

ويقول: «سأخبرك بثمن اتفاقنا، أي ما عليك تجاهله حتى تبتعد عني. هذا أكثر من عادل، صحيح؟ تريد أن تعرف جميع التفاصيل؟».

يضم شفتيه ويدع الدخان يتسرب عبر خده، كدوامات شبحية رشيقة عند حافة الجرح.

ويتابع: «أقراصي جعلت إريك الورود الثلاث يغفو منكفئًا على طبق طعامه، وحرصتُ على حمله إلى غرفة الزفاف دون لفت الأنظار، ثم أرسلت في طلب العروس. رافقناها إلى أعلى السلالم بالقوة، كانت ما تزال متوردة الخدين وتضحك ظنًّا منها أن الأمر برمته لعبة، اقتيدت إلى الغرفة حيث كان زوجها النائم مضجعًا على الفراش سلفًا ومغطى دون ملابسه. ثم بدأ السادة يمرحون، وراحوا يتناوبون على الرقص معها رقصات حميمية وينقلونها من حضن إلى حضن وهم يخلعون ملابسهم، وعندئذ كان يمكن رؤية بصيص أمل في عيني الجميلة اليافعة أنها صارت هدفًا لمقلب سكارى تمادوا قليلًا. أولئك السادة يستمتعون بمثل هذا الغموض، كالقطط التي تلاعب الفئران، إذ يودون إطالة الليلة بقدر مستطاعهم. ظلت الملابس تتساقط، وعندما بدأ الامتقاع يسلبها جمالها، صارت تتلقى القرصات واللطمات، وأمكنني رؤية أنها عرفت أن الليلة لن تنتهي بخير، لكن لم تعرف إلى أي مدى. ثم وضعوا أقنعتهم، عراةً، أحدهم بوجه خنزير، وآخر حمار، وثالث وعل، باختيارات عشوائية. ربما يظن المرء أن مثل هذه الأمور لا تهم، لكنك ستتفاجأ، جميعهم يعرفون بعضهم منذ مدة طويلة، لكن في خضم العربدة لا يسهل التذكر لاحقًا أي واحد كان يضع أي قناع، أو أي واحد فعل ماذا، إذ إن التنكُّر يساعدهم على التخلص من أي وعي بالذات قد يعيق متعتهم. سارت أمور العروس من سيئ إلى أسوأ، استحال فستان زفافها إلى أسمال قرمزية، وسرعان ما صارت كما ولدتها أمها، وراحت تخربش متى ما أمكنها، رافضة الانصياع لما تؤمَر به -كما يفعل كل من يستحقون العناء، وفقًا لإجماع الخبراء- وتولى حسم أمرها السيد الذي يضع قناع الحمار، تسلَّح أولًا بصندوق خزفي لكنه

تهشم إلى ألف شظية بعد ضربتين فحسب، ووجد أحد الرفاق النابهين أن أحد أعمدة السرير يمكن خلعه، وهي أنسب للمهمة. وعندئذ، يا كارديل، أدركتْ أن الليلة ستكون آخر ليلة في حياتها، وستكون طويلة للغاية. كان الأمر كرؤية مزهرية جميلة تتشقق، في البداية لا تبدو مختلفة كثيرًا، لكنها لن تصدر رنينًا مرة أخرى أبدًا عندما يُنقر عليها. صار الجميع يمرحون الآن، أحد الذين ينتظرون دورهم رفع إريك الصغير من الفراش وأسنده على حافته ليستغله فيما يمكن استغلاله، وعندئذٍ صرخت الفتاة صراخًا حقيقيًّا لأول مرة. طيب، تعرف معظم ما حدث بعد ذلك، كل واحد أشبع رغبته كما يحلو له. كانت ذات روح قوية، تمامًا كما ذكر إريك في مذكراته. تمكنوا من الإبقاء على حياتها مدة طويلة، وحتى بعدما وجدت روحها مهربًا، قدمت جثتها لهم شيئًا من المتعة لبعض الوقت، ثم لم تعد سوى جيفة».

يرغِم كارديل قسمات وجهه على السكون، إذ ليس بوسعه فعل شيء في هذه الحجرة سوى حرمان سيتون من متعة رؤية الكراهية السافرة على وجهه.

ويقول: «وأنت نفسك أين كنت؟».

- على كرسي جوار الباب، لا أشارك، متعتي تكمن في المشاهدة. وعندما اطمأننت أن كل شيء سار على ما يرام، وأن العريس سيستيقظ في الوضع الذي رتَّبته، تمنيت ليلة طيبة للجميع. وفي طريقي إلى الخارج، رأيت رجلًا كنت قد رأيته كثيرًا من قبل مرتديًا ملابس من حرير ومخمل ومزخرفة بالذهب ومزينة بالأوسمة والحلي ويتكلم مع لوردات المملكة. وعندئذ رأيته عاريًا على أطرافه الأربعة وعجيزته في الهواء وصدره ملطخ بالأحمر، فمه مليء بالأسنان الصناعية، ويعوي مثل كلب تحت البدر المكتمل. وُلد ووجد كل ما يمكن أن يتمناه، لكنه لا يستطيع أن يكون على طبيعته إلى أقصى حد إلا في مثل هذه اللحظات. أمر مدهش، أليس كذلك؟

ينفث سيتون حلقات دخان فوق الطاولة، فتتلاشى عند شعلات الشمعدان، وتلسع الغيمة عيني كارديل، الذي يحاول السيطرة على نفسه، لكنه يميل فوق الطاولة كأنه جُذب بخيط خفي إلى الدخان المنبعث من سيتون، الذي يميل بكرسيه للخلف.

يقول كارديل: «كنتُ هناك، في المسرح التشريحي حيث استغللتَ ذلك الطالب، شاهدتك، قبيل أن تنزف الفتاة حتى الموت، رأيت شيئًا في وجهك

كنت قد رأيته عدة مرات من قبل فلا يمكن أن أخطئه، رأيته في الحرب، عندما كان رجالنا يستعدون لنيران العدو، إنه الخوف، إنك خائف، مذعور كأي شخص رأيته من قبل، كنتَ كأنك على وشك التبول على نفسك في أي لحظة، كأن حياتك هي التي بلغت لحظاتها الأخيرة وليست حياتها. تستمتع بسرد مثل هذه القصص، لكن فيما يتعلق بك توجد قصة أخرى، أليس كذلك؟».

يظل سيتون جالسًا للحظة مشدوهًا عاجزًا عن الكلام، ثم يدع ساقَي الكرسي الأماميتين ترتطمان بالأرض ويسحق عقب سيجارته في بقايا طبقه، وتتفيل كلماته يجعل جرحه يتدفق دمًا بحواف حمراء.

ويقول: «سأخبرك بسبب قبولي عقد هذا الاتفاق، أيها المراقب، ليس من أجلك، إذ رأيتُ رجالًا من أمثالك مئات المرات، إنك عادي، ما من مكان في هذه الجزر يمكنني فيه إلقاء حجر فوق كتفي دون أن يقع على شخص من شاكلتك، شخص لا يقدر أحد على تمييزه عن رفاقه سوى أمه، لا أخشى أن يصيبني شيءٌ من أمثالك، انظر إلى حالك، جسدك مستنزَف، حطام بالٍ لا يحرِّكه سوى العناد. إنني معتاد قراءة الناس، وأنت لست استثناءً، رجل عادي جميع أفعاله يسهل توقعها. كلا، أرغب في التنازل لك من أجل ذلك الآخر، الصغير النحيل، وينيه، إنه يعاني خطبًا أعجز عن تحديد ماهيته تحديدًا دقيقًا، عندما أراه لا أعرف ما يدور في رأسه، لو كنت مكانك لابتعدت عنه، لا خير يمكن أن يأتي من معاشرة أمثاله».

ينهض كارديل ويمد يده الواحدة، راغبًا فجأة في تأكيد اتفاقهما بوسيلة غير الكلمات، لكن أفكاره تعود إلى غرق *إنجبورغ* وقبضة سلسلة المرساة التي حرمته من اليد الأخرى، يحس أنه كان من الأفضل أن يضع يمناه جوار يسراه في ذلك الفك نفسه.

لكن سيتون يتراجع خطوة ويهز رأسه قائلًا: «لا أصافح، لكنني سألتزم بكلمتي».

يزمجر كارديل مودعًا ثم يستدير ويغادر قائلًا: «إذا لم تلتزم بها فستعرف أنني من يستحق خوفك».

ربما يبتسم سيتون ردًّا عليه، وربما لا يبتسم.

الفصل السادس والثمانون

قال كارديل: «انتهى الأمر».

يقف إميل وينيه متسمرًا في مكانه في غرفته المستأجرة ويحدق إلى كارديل بعينين متسائلتين قائلًا: «ما الذي تقوله؟».

يدير كارديل ظهره ليتحاشى النظر إلى وجه وينيه، ويحدق إلى الضوء الساقط على الجدار خلفه، ذرات غبار تتراقص سابحة لا وزن لها في حزمة أشعة الشمس.

يرد عليه: «سأذهب إلى بلوم في دار إندبتو غدًا لألغي ترتيباتي مع وكالة الشرطة».

- لا يا جان مايكل، لم نفقد كل أمل. ناقشت القضية مع شقيقتي، وشرحت لها الوضع، ووعدتْ بمقابلتي عند رصيف الميناء بعدما تفكر في المسألة مليًّا.

- يكفي يا إميل، كنتَ محقًّا عندما جئت إلى غرفتي لتودعني، وكان ينبغي أن أتحلى بالتعقل الكافي وأقتنع بكلامك.

- لكنك لم توافقني، ماذا تغير؟

- كل شيء، اللعنة! كل شيء! سرنا في كل طريق، وفي كل مرة وجدنا حائطًا لم نقدر على هدمه أو تسلقه. لم يبقَ لنا أي أمل، دعنا نستسلم قبل أن تضيع الفرصة.

- التفت نحوي من فضلك يا جان مايكل.

- لماذا؟

- أرجوك التفت نحوي وانظر في عيني وأنت تقول مثل هذا الكلام.

دون إرادته يفعل كارديل ما طُلب منه، ولا يتمكن من مبادلة وينيه النظر إلا لوهلة وجيزة قبل أن تسقط نظراته على الأرضية، لاعنًا نفسه على حماقته.

فيقول وينيه: «إنك لا تقول الحقيقة يا جان مايكل، أو على الأقل لم تخبرني بكل شيء. ماذا حدث؟».

- لم يحدث شيء.

- كُم قميصك عليه دماء، والبقع حديثة.

- المدينة خطرة في الليل.

- ألن تخبرني بالحقيقة؟ إنك تخفي شيئًا عني، ودون أن أعرف جميع أرقام المعادلة فالأمل ضئيل في إيجاد حل لها.

يأخذ كارديل نفسًا عميقًا، ويكوِّر يده خلف ظهره بقوة حتى تنزف راحة يده إثر انغراس أظفاره فيها، ويحدق إلى عيني وينيه.

ويقول: «ذهبت إلى مقبرة ماريا في وقت متأخر من الأمس بعد عشائي، إلى قبر سيسل، وفي أثناء وقوفي هناك، متذكرًا ما أنجزناه معًا، أحسست كما لو أن كل ما قلتَه لي سابقًا صار معقولًا لدي، فأدركتُ أمرًا، وهو أنك لست كما كان سيسل، لا تعرف ما كان يعرفه، وقد كنتُ أحمق بظني أنك قادر على ملء فراغه، حتى ولو لحظة. كان يجدر بي أن أدعك تثمل حتى الموت كما يحلو لك، فهذا كل ما تصلح له، خيَّبت ظني يا إميل، ولا ألوم إلا نفسي، والآن هذه المسرحية انتهت».

يستدير ويسير نحو الباب، مغمِضًا عينيه بشدة وعلى وجهه ترتسم تعابير الألم، والصوت الذي يسمعه فوق كتفيه يأتيه ضعيفًا متوسِّلًا.

فيقول وينيه: «أعدتَ إليَّ حياتي يا جان مايكل، والآن بعدما قلَّت فائدتي تُلقيني كعود ثقاب مستنفد؟ لا يجوز لك أن تتركني وحدي مرة أخرى، ألا تشعر بأي مسؤولية؟».

يضع إميل وينيه يده على كتف كارديل ليوقفه، لمسة خفيفة كأنها لمسة طفل، لكن عالم كارديل يصطبغ بالأحمر، فيستدير على عقبيه ويمسك بيده اليمنى ياقة وينيه ويدفعه حتى يرتطم رأسه وكاحلاه بالجدار المكسو

بالجص، ثم يرفعه حتى تتدلى ساقاه على ارتفاع قدم فوق ألواح الأرضية، ويظل رافعًا إياه كأنه منعدم الوزن. وأصابع وينيه النحيلة تنهش معصم كارديل بيأس، وجهًا لوجه، والرعب يطفح من عيني وينيه، وعينا كارديل تحملان الموت، يكشر عن أسنانه ويخاطبه بزمجرة خافتة.

قائلًا: «نسيتَ نفسك، نسيت من أنا ومن أنت، إنك طالب فاشل لم ينجز شيئًا عدا إفراغ القناني. وأنا خضت الحرب، وإذا رغبتُ يمكنني تمزيقك إربًا الآن، وما من أحد سيحزن أو يتساءل جوار جثتك بشأن موتك. عد من حيث جئت. إذا رأينا بعضنا مرة أخرى، فابتهل لآلهتك أن تكون أنت من تقع عيناه عليَّ أولًا».

يرفع قبضته الخشبية، مخضلةً بالدماء كما كانت دومًا، ويثبتها تحت أنف وينيه، ثم يلكم الحجر الذي جوار أذنه. تسقط الضربة على نحو سيئ، ليس بالزاوية التي يفضِّلها، إنما رأسيًّا، فيحتك الخشب بالعظم المبتور الذي لم يكن لدى الجرَّاح وقت لتسويته. يُعمي الألم بصره، فيغيب عقله للحظات وتتلاشى ما فيه من أفكار، لكن اللحظات تنقضي بسرعة، يرخي يده، فيهوي وينيه على الأرضية، ويصفق كارديل الباب خلفه فيُخرِس النشيج الذي يتبعه، يصفقه بقوة تجعل شظايا الخشب تتطاير من إطار الباب.

الفصل السابع والثمانون

آنا استينا تحمل كارل، وكارديل يحمل ماجا، مغتبطًا بثقتها به بقدر ما هو مرعوب من الفكرة.

قال: «ماذا لو تعثرتُ وأسقطتها؟».

- هل تسقط عادةً وأنت تسير في الشارع؟

كان قد عدَّل وضعيتها على ذراعه اليمنى وبسط يسراه أمامه درعًا للحماية من العالم. تتململ ماجا في البداية، ممتعضة من مقعدها غير المألوف، ثم يبدو عليها كأنها تذكرت لقاءهما الأول، جسده الضخم ذو روائح العرق والدماء وليالي استوكهولم، وتتقبله، فيتنفس الصعداء وهو مدهوش من مدى خوفه من حُكم طفلة عليه، كانا قد تقبَّلاه في ظلام المغارة، لكن عندئذٍ لم يكن لهما من يواسيهما في غياب أمهما. وعندما يمرون بجوار الجسر بمحاذاة المستشفى و «دار سك العملة الملكية» يداهمه إدراكٌ آخر، فتتباطأ خطواته حتى تتقدمه آنا استينا مسافة، وعند طرف الحقول تلتفت إليه متسائلة فيهز رأسه متشوشًا.

ويقول: «معذرة، ما من شيء».

- هيا، أخبرني.

- ذراعي، لم أعد أشعر بها.

تنظر إليه مبتسمة وتحرك كارل بين ذراعيها لتريه الكيفية.

- غيِّر قبضتك إذا صارت خَدِرة.

لا يصحح لها سوء فهمها، لكن ماجا تنظر إليه، وتمد أصابعها الناعمة نحو قشور جروحه ولحيته النابتة التي يبلغ عمرها يومًا، وتطلق ضحكة مغرغرة كأنها فهمت.

تسبح غيوم شاهقة متكاسلة عبر اللجة الزرقاء، وتطل من بينها الشمس التي ما تنفك تنخفض مع مرور كل يوم، كأنها أُرهقت من تسلق السماء يوميًّا، ورغم برودة الهواء تبث أشعتها شيئًا من الدفء. يومئ كارديل إلى الاتجاه الصحيح عند كل مفترق طرق، وسرعان ما يرون الدار.

تزداد عينا آنا استينا اتساعًا مع كل خطوة، ثم يجدون أنفسهم جوار أشجار تفاح، حيث يجري الحصاد على قدم وساق، أطفال يرتدون معاطف صوفية دافئة يضحكون ويساعد بعضهم بعضًا، منهم من يتوازن بين الفروع على سلالم، وآخرون يقفون مستعدين لالتقاط الفواكه التي تُلقى ويجمعونها في سلال. كل ما رآه كارديل في زيارته الأولى يتضح لها أيضًا، هؤلاء أطفال ليسوا كغيرهم، وهذا مكان بعيد عن أمراض المدينة وفسادها، هنا الأمل والراحة.

تقول: «كيف يمكن أن يكون هذا واقعًا؟».

- ينبغي لكِ أن تكوني ممتنة لوجوده فحسب، طفلاك سيحظيان ببيت هنا، وهو أفضل ما وجدته.

- مهما كلَّفك؟

تنبثق من ذاكرة كارديل صورة وجه إميل وينيه الشاحب وعيناه المغرورقتان بدموع الخوف، فيحس بطرفه الأبتر يشتعل كأن القبضة الخشبية ارتطمت للتو بجدار الغرفة، ورغم الألم يعرف أنه لم يكن أمامه خيار آخر.

تقول له: «لن أقدر على رد جميلكَ أبدًا».

- لستِ مدينة لي بأي شيء.

على مبعدة يتعرف إلى الفتاة كلارا فينا والفتى يواكيم، كما يرى أنهما تعرفا إليه فيلوِّحان ويهرعان مبتعدين، وسرعان ما يعودان وورودستِدت الأصلع في أعقابهما، ويبتسم لهم ابتسامة واسعة من سلالم الدار.

ويقول: «ماجا وكارل، صحيح؟ كنا في انتظاركما. أطفالي الأعزاء! رحِّبوا بأخويكم الجديدين».

ينحني يواكيم، وتثني كلارا فينا ركبتيها رافعةً تنورتها فوق الأرض. وينحني رودستِدت لآنا استينا.

ويقول: «مرحبًا بك في «تل هورن» يا سيدتي. مهدا الصغيرين جُهِّزا سلفًا، هلا تبعتِني لتري بنفسك؟».

بالطابق الأعلى لدى الأطفال الصغار غرفة منفصلة عن الأطفال الأكبر، ما من أثر هنا للروائح الحامضة التي اشتمتها آنا في ملجأ الأيتام، روائح الأجساد الصغيرة المهمَلة المحشورة في أماكن قذرة وضيقة. ويبدو رودستدت كأنه يقرأ أفكارها.

يقول: «الأطفال يتولون النظافة بأنفسهم، يكشطون الأرضيات كل يومين، وإذا وجدنا قملًا أو أي حشرات نبذل ما بوسعنا لنعثر على المصابين حتى نغسلهم ونمشِّط شعرهم، في حين يدخِّن أصدقاؤهم الغرف».

يشير رودستدت إلى امرأة تنتظر في الغرفة ويقول: «غريتا إحدى مرضعاتنا».

شابة ممتلئة وافرة الصحة، ذات وجه عادي مألوف وغمازتين في خديها وشعر بني فاتح تحت وشاحها. تثني ركبتيها لآنا استينا.

وتقول: «سيدتي، أتودين أن تريني كيف يفضِّل طفلاك أن يُحملا؟».

يضع رودستدت يده على كتف كارديل ويغلق الباب خلفهما، ويهبطان السلالم، يلقي رودستدت وشاحًا حول عنقه ثم يستأذن ويخرج إلى البستان.

ويقول: «إنه يعد بحصاد جيد».

يقتعد كارديل أدنى درجات السلالم وينتظر، يغمض عينيه ويدير وجهه إلى الشمس كي ينعم بالدفء البسيط الذي تبثه.

عندما ترفع الفتاة غريتا بلوزتها فوق رأسها كاشفةً عن صدرها، تشيح آنا استينا بوجهها غريزيًا.

فتقول غريتا: «ينبغي ألا تستحي مني يا سيدتي، تعالي وأريني كيف يرضعان على النحو الأمثل».

تضع آنا استينا ماجا عند الثدي الأيسر وكارل عند الأيمن، كما يفضِّلان دومًا، لكن ذراعي غريتا غريبتان، فيركلان متضايقَين وهما يحاولان الاستكانة، وكارل أول من يبدأ البكاء، بعويل خافت يرتفع تدريجيًا مع تصاعد الدماء إلى وجهه وانبجاس دمعة ثقيلة من كل عين وتشبثهما بأهداب رموشه الطويلة، وسرعان ما تتبعه شقيقته، رغم تهدئة غريتا، التي تحاول لمدة أن تحملهما على الرضاعة، ثم تغيِّر مكانهما وتومئ مستحسنة وشفاههما تعثران على الهدف فيسترخيان. تبتسم لآنا استينا.

وتقول: «هذا غريب، معي يفضلان العكس».

ما يزالان يفلتان من حين إلى آخر، محتاران من مكانهما الجديد وربما من اللبن ذي المذاق المختلف، ويديران أعينهما في محاجرها بحثًا عن أمهما، وينتحبان بين الفينة والأخرى، ويحاولان الالتفات نحوها، فتفعل آنا استينا ما تفعله لهما عادةً، يريد كارل الإحساس بيدٍ دافئة على بطنه، وتريد ماجا أن يُمسح على رأسها، كما يريد كارل اعتصار دمية القطة التي ورثها من قبر غير شرعي. وسرعان ما يغطان في النوم تحت لمسات أمهما المألوفة، وقد وجد كارل إبهامها وأحاطه بقبضته، كدأبه دومًا، ومن قبضته تحس بنبضات قلبه السريعة، ثم بلطف حتى لا تزعجه تسحب يدها وتضم أصابعه حول إصبع غريتا بدلًا منها، وفي أثناء نومه لا يلاحظ الاختلاف.

لمدة طويلة لا يُسمع صوت في الغرفة سوى صوت رضاعة الطفلين، وهما بين النوم واليقظة، راضيان وناعما البال، حتى تدرك آنا استينا صوتًا آخر، أنين غريب كأنه صرير عجلة عربة أو حيوان صغير يعاني، فتتساءل عما يمكن أن يكون، ثم تسمع همسة غريتا المترددة.

تقول: «أتودين استعارة منديلي يا سيدتي؟».

ثم تحس بيد رودستدت اللطيفة على كتفها، وعيناه تفيضان حنانًا، يديرها كأنه يراقصها رقصة بطيئة، ويقتادها إلى الخارج.

ويقول: «هوِّني عليك، فلنغادر الآن، إنهما مطمئنان، وما يزالان صغيرين، وسوف ينسيان عما قريب».

وعندما تخور ساقاها يسارع إلى إسنادها، ثم ينغلق الباب خلفها فيحجب صغيريها، اللذين يتهدهدان على ركبتي غريتا وهي تغني لهما: «صغيري كارل نَم وانعم بالرضا، ستستيقظ عما قريب، وتجد الزمن قد انقضى، فتصيب منه ما تصيب».

تهبط السلالم نحو كارديل وعيناها جافتان لكن حمراوان، وقد كفكفتهما بعناية حتى لا يظن أن امتنانها له غرق في الدموع. يتأمل ما آلت إليه الأمور، ويقفان صامتين. ثم يشرعان في السير نحو الطريق، ويريان طفلة تلقي عابثةً لب تفاحة على طفلة أخرى فيوبخها طفلٌ أكبر، ثم تتلاشى ضحكات الأطفال مع المساء إثر استدعائهم إلى مائدة العشاء فيتركون سلالهم المليئة مرصوفة بنظام على السلالم. وبعدما يتسلقان حافة الوادي وقد غابت الدار عن أنظارهما، يتنحنح كارديل.

قائلًا: «أتمنى لو أمكنني قول شيء، لكنني لم أبرع يومًا في استخدام الكلمات».

تأخذ بذراعه وتقول: «إن كان لا بد أن يقول أحد شيئًا، فهو أنا، إنني في غاية الامتنان لما فعلته من أجلي يا ميكيل، أتمنى لو أمكنني إظهار مدى سعادتي لك، لكن حزني أعظم».

- ماذا الآن؟

- سأذهب غدًا لأسدد دينًا.

- هل سنلتقي مرة أخرى؟

- فلنأمل أن نلتقي.

تحتفظ لنفسها بأول ما خطر لها إثر سماعها السؤال الأخير. إذا قُدِّر لهما أن يلتقيا مرة أخرى، فهي ليست متأكدة مما لو سيتعرف إليها.

الفصل الثامن والثمانون

تستيقظ آنا استينا في الفراش شاعرةً بخطبٍ ما، وتدرك أن البرد هو ما أيقظها، إذ تغلغل في جسدها حتى أعادت الارتعاشات إليها وعيها، إحساسها بالبرد ليس جديدًا، إنما مألوف، لكنه صار غير مألوف بسبب ذكريات الماضي القريب، فمنذ الصيف ظلت تنام وإلى جانبيها طفلان، فكان دفء أجسادهم الثلاثة معًا يقيهم البرد، واليوم هو أول صباح دونهما، إذ تركتهما بالأمس في «تل هورن»، هي والمراقب.

يتصاعد شخير كارديل من الأرضية، بطيئًا وثقيلًا، وقويًّا بما يكفي للإحساس به عبر ألواح الأرضية. تنظر آنا استينا إلى السماء عبر النافذة فتعرف أن الشمس لم تشرق بعد، لكن ضوءها المقترب ينير الأفق، تزيح البطانية جانبًا وتنهض ببطء حتى لا تزعِج كارديل، وقد ارتدت سلفًا تنورتها وبلوزتها، فلا تحتاج سوى إلى ربط منديلها حول رأسها، وإلقاء الوشاح على كتفيها، ثم تحمل الكيس من الركن. يسمح مشبك الباب لنفسه بأن يُرفع دون ضجيج، ثم تجتاز العتبة. وكارديل متكئ بظهره العريض على أحد الأركان وطرفه الأبتر تحت ذراعه، ويده تحت إبطه وساقاه ممددتان أمامه، وأحد حذائيه فوق الآخر، وجهه الذي غشيته الندوب هادئ في نومه وآنا استينا تخطو فوق ساقيه بحذر، ومرور ظلها يجعله يعقد حاجبيه بقلق نائم، ويبحث عن موضع عضة قملة بأظفار خرقاء، ثم يغمغم بكلمات غير مسموعة، ويُحكِم عقد ذراعيه حول صدره.

وبالخارج يشهد الزقاق عملية تغيير المناوبات بين عامة الناس، يترنح السكارى نحو بيوتهم في حين يهرع الكادحون محاولين استغلال كل لحظة من لحظات النهار. تقف آنا استينا لوهلة جوار مجرى التصريف، وتحس بوزن كيسها على كتفها، فتسأل نفسها فجأة عن جدواه، لا تحتاج إلى شيء الآن، ربما يفيد شخصًا آخر. تضع الكيس جوار جدار، وعندما تبلغ نهاية المربع السكني وتلقي نظرة سريعة خلفها، لا ترى له أثرًا.

لم يُحدد وقت لوصولها، وإذا وُجِد باب واحد سيكون مفتوحًا أمامها على الدوام، فهو الباب الذي في طريقها إليه، إنهم مستعدون آناء الليل وأطراف النهار للترحيب بها وتوصيلها إلى أحضان بيتر بيترسن، المتلهف تلهفًا متعاظمًا بغيابها. تجد آنا استينا نفسها تجرجر ساقيها، إذ يغمرها شعور غريب بالسكينة في هذه الساعات الأخيرة، الوقت محدود الآن، ولم يبق لها سوى تسديد الدين الأخير، لم تعد تنتظرها مسؤوليات أو مهام، وقد ودَّعت التفكير في الأسباب والنتائج. تسير نحو القنطرة، حيث تهب نسمات من المياه تبدد الروائح الدهنية المنبعثة من المنازل. تجول ببصرها فيما حولها للمرة الأخيرة، وربما لأن نظراتها قد أصبحت تنتمي إلى عالم آخر تدعها الآن تتملَّى أشياء لم تلاحظها من قبل في «مدينة ما بين الجسور»، التي تباغتها بجمال غير متوقع، شروق الشمس الأخَّاذ يضفي رونقه على المباني الصفراء، صياح ديك أجش مبحوح، وجوار قدميها ترى نبتة تمكنت من العثور على غذاء بين حجارة الرصف. ماجا وكارل آمنان، ومستقبلهما مأمون، عندما يستيقظان سيستمدان الدفء من بعضهما. أي مواساة أعظم من هذه قد تطلبها أي أم؟ وبأي حق تذرف الدموع؟

تمر آنا استينا جوار رصيف التحميل، حيث تنتظر مجموعة ترتدي الأسمال زورقًا يقترب عبر الخليج، بضربات مجدافين متمهلَين، وسرعان ما ينشب الجدال بشأن الرسوم مع نساء القوارب. والذين يعانون آثار ما بعد الثمالة لا يصمدون أمام وقاحة نساء القوارب، وبعدما تنتقل النقود المعدنية من يد إلى أخرى ينطلق الزورق مرة أخرى. وترى آنا استينا فتاة تشبهها، أو

كانت تبدو مثلها ذات يوم، تحاول عرض بضاعتها على رجل ألماني، ليست تفاحًا أو ليمونًا كما كانت تبيع هي نفسها، إنما علب ثقاب، ست حزم مقابل قطعة فضية، تحدق آنا استينا من بعيد إلى وجهها الشاحب، وتعرف التعابير التي تراها على وجه الفتاة، القناع نفسه الذي كانت تضعه كثيرًا، ابتسامة متزلِّفة منهَكة من الجوع واليأس، الفتاة ماهرة، تعرف كيفية استخدام رموشها الطويلة وغمازتيها لتُنجِح عملية البيع، لكن اللغة تقف عائقًا أمام إتمامها، يحس الألماني بالحرج ويرفض الشراء، فتجرجر الفتاة قدميها مبتعدة ومعهما أذيال الخيبة، وتستأنف آنا استينا أيضًا سيرها، عاجزةً عن مساعدتها.

الفصل التاسع والثمانون

يقف كارديل على «تل القلعة» ويحدق إلى الظل الذي يرسمه جسده، الذي يمتد طويلًا دقيقًا بشمس الصباح الساطعة على ظهره. وعلى مبعدة جوار رصيف الميناء تنحني أشجار الزيزفون أمام الرياح، التي كلما اشتدت تُنتزَع الأوراق الجافة من الأغصان وتُحمَل في دوامة عظيمة، ثم تتهاوى على أسقف المنازل المتداعية المكتظة وسط الفقر في «المروج». ويتذكر كارديل -واضعًا في اعتباره الشتاء القادم- حفنات التراب التي سوف تُنثر على أغطية التوابيت، إذ سرعان ما سيُحكِم البرد قبضته حول المدينة ويعتصرها، وقبل تغيير الفصل، كثير من الذين خُلقوا من التراب سيعودون إليه، حالما تذوب الأرض بما يكفي لاستقبال جثثهم.

ويرى بالأسفل عند زاوية الشارع مجموعة حرفيِّين متجولين يُحدِثون جلبة، جميعهم سكارى، يترنحون على أقدامهم ويستعينون بجدران المبنى من حين إلى آخر، أحدهم في حالة أسوأ من الآخرين، فصار مصدر مرحهم، إذ يحاول مرارًا، فاغرًا فمه ومحدقًا بعينيه الخاويتين، أن يرفع نفسه من مجرى التصريف، لكنه يفقد توازنه ويسقط مجددًا، فيضحك رفاقه من كدحه إلى حد الإغراب، وأخيرًا يستسلم وينبطح ساكنًا، ويغرغر كرضيع، فيخيم صمت الإحباط على الجماعة من حقيقة أن اللعب قد انتهى على ما يبدو، ثم يقترب أحد الحرفيِّين بساقين متقلقلتين، ويحل بنطاله ويتبول على الرجل الساقط، وسرعان ما ينضم إليه الآخرون، ويتردد صدى ضحكاتهم في الأزقة.

تبدو دار إندبتو مختلفة عما كانت عليه، المبنى هو نفسه كما كان، مائلًا منحرفًا، ومهمَلًا ومعرَّضًا للتيارات الهوائية غير المرغوبة، مستوى الفوضى

العام هو نفسه أيضًا، وانعدام النظام محسوس، لكن الأجواء تغيرت تحت إدارة مدير الشرطة الجديد. ماغنس أولهولم يعبد السلطة، وفي مدة خدمته صارت مهمة الشرطة الرئيسية هي الاستماع إلى المخبرين وتعقُّب الإشاعات الخبيثة وصولًا إلى مصدرها، وإذا تعذر تحديد المصدر، يتخذون القرار الذي يليه من حيث الجدوى، وهو تفضيل معاقبة شخص بريء على السماح بوقوع جريمة دون عقاب. والغرض من كل شيء هو تحذير الآخرين، والآن مع اشتداد البرد وخطورة النوم تحت سماء عارية، لم يعد يوجد نقص في المشرَّدين المستعدين للاعتراف بأي شيء مقابل سقف فوق رؤوسهم في زنزانةٍ ما، كما لا ينقصهم الشهود الراغبون في اتهام الآخرين بأي جريمة على الإطلاق، لا لشيء سوى التنفيس عن ضغينة.

يشق كارديل طريقه عبر حشد مرتجف من مأمير الشرطة والرقباء، الذين يعلقون شاراتهم اللامعة حول أعناقهم، حاملين إما حِزم أوراق عمل وإما خطاة قُبض عليهم للتو. وهنا تعلق رائحة من يعانون آثار الثمالة في الهواء قويةً كالضباب، فنبيذ الأمس تحمَّض على شكل بقع على الأقمصة والبناطيل، ورائحة القيء الحامضة تزكِم الأنوف. يصعد كارديل السلالم، ويقفز آيزاك بلوم مذعورًا عندما يدلف كارديل إلى مكتبه، وقد كان مشغولًا بحشو مدفأته بالأوراق.

يقول بلوم: «كدت أن تصيبني بأزمة قلبية يا كارديل، اللعنة، ادخل وأغلق الباب».

يعود السكرتير المكتنز إلى مكتبه، والأوراق التي وُضعت على الجمرات تشتعل بفرقعة، ويفرك بلوم يديه ليدفئهما.

ويقول: «ما لدينا من حطب لا يكفينا إطلاقًا، وهكذا يمكنني تنظيف المكتب واتقاء البرد، رغم أن الأمر يشبه قليلًا التبول على نفسك، راحة لحظية سرعان ما تندم عليها. أمَلي الوحيد هو أن أكون بعيدًا عن هنا عندما يأتي يوم يتولى فيه أحدهم السجلات».

يهز كارديل كتفيه ليدفع مزيدًا من الدم إلى ذراعيه ويقول: «ماذا يحدث في هذه المدينة؟ نلت كفايتي من رؤية السكارى، لكن نادرًا ما يكونون كثيرين هكذا في وقت مبكر من اليوم».

- آه، ألم تسمع؟ عقوبة مالا رودينسشولد لم تنل رضا العامة كما كان يظن باروننا الطيب ريوترهولم، وما تراه الآن هو آخر مناورات البارون لتملُّق العامة وكسب رضاهم، الذين يخشى سخطهم الآن بقدر خشية الملك الراحل غوستاف لهم. أمر البارون جميع الحانات بالسماح للحرفيين بالإسراف في الشراب كما يحلو لهم، وتعهد بأن يسدد التاج الفواتير.

- هل فقد الرجل صوابه؟ إذا سُمح للناس بالشرب مجانًا، فستسود الفوضى المدينة قبل نهاية الأسبوع.

يهز بلوم كتفيه، ويغلق باب المدفأة ويصعد على كرسيه، ويرفع ياقة معطفه إلى أذنيه ويقول: «فلنأمل أن تؤدي سوء إدارة ريوترهولم وموارد المملكة المالية الضعيفة إلى إنهاء العبث قبل وقوع الكارثة. طيب، بمناسبة الحديث عن المال، هل جئت من أجل دفعة أخرى؟».

- بل العكس.

يقف كارديل موليًا ظهره لحجارة المدفأة مستمدًّا منها الدفء ويقول: «جئت لإلغاء تعييني، إذا كان هذا هو المصطلح الصحيح لاتفاقنا».

يمد بلوم يده في درج مكتبه ويخرج قنينة نصف ممتلئة وكوبين، ويرفع حاجبه لكارديل، ويتلقى منه إيماءة، فيملأ الكوبين ويدفع واحدًا عبر المكتب وهو يفرغ كوبه، ويلقي كارديل رأسه إلى الوراء ويقذف بالمشروب في حلقه ليجنِّب نفسه المذاق بقدر الإمكان، الذي لا سبيل إلى تجنبه بالكامل، فالمشروب رخيص وغير نقي، لكن قوته لا جدال فيها، وحرارته المريحة تملأ صدره. يعيد بلوم بحذر السدادة إلى القنينة.

ويقول: «سأُبدي لك احترام عدم التظاهر بأنني فوجئت، فالحقيقة هي أنني كنت أتوقع زيارتك».

يتكئ بلوم على ظهر كرسيه ويشابك أصابعه فوق كَرْشه قائلًا: «رفيقك جاء هنا البارحة وهو في حالة عقلية مضطربة للغاية، أثار جلبة في السلالم، وإذا لم أذهب لنجدته لنفد صبر الشرطيين ولقيَّدوه بالحديد حتى يهدأ. وقد بذل ما بوسعه ليقنعني بأن أنقل تفويض سلطات الشرطة إليه وحده».

- إميل كان هنا؟

- لم يكن من السهل استيعاب ما يريده، كان منزعجًا و -إن لم أكن مخطئًا- خائفًا. ومرارًا كان يتوقف عن الكلام ليصغي إلى شيء ما، فتساءلت عما إذا كان سمعي يضعف لأنني لم أكن أسمع شيئًا، لكن لم يكن يوجد أي صوت. لا أعرف فيم كنتَ تفكر عندما قررت التعاون مع شخص كهذا، أو بالأحرى أعرف بالطبع، إنهما متشابهان جدًّا من حيث المظهر، هو وشقيقه، أليس كذلك؟ قل لي، هل أخبرك بالكثير عن ماضيه؟

- ليس بالكثير، لا أعرف أكثر مما أخبرتني به بنفسك، كان في حالة سيئة عندما صادفته أول مرة، مدمن شراب.

يومئ بلوم ويقول: «ظللت مطلعًا على أخبار السيد وينيه الصغير منذ أن رأينا بعضنا آخر مرة، عن طريق معارفي الذين بقوا في أوبسالا مدة أطول مني، الذين رأوا ما حدث لاحقًا. أتعرف بوجود شقيقة أكبر من الشقيقين؟ هيدفيغ، إن لم تخني ذاكرتي، امرأة عنيدة صعبة المراس، إذا أمكنني تصديق مصادري. تعرض إميل لانهيار عصبي، كما قلتُ سابقًا، وفي النهاية جاءت هيدفيغ وينيه لاصطحابه، على الأرجح بعدما تلقت رسالة من أحد بروفيسورات شقيقها، وأخذته إلى الأوكسينتيرن، جوار الكاتدرائية، وتركته يتعفن هناك».

يشير كارديل إلى عدم فهمه بهز كتفيه.

فيقول بلوم: «مصحة مجانين يا كارديل، أدخلته إلى مصحة مجانين».

يرى بلوم وجه كارديل يمتقع، ويعطيه القنينة وهو يربت على كتفيه هو نفسه كي لا يرتعد.

ويتابع بلوم: «أهم ما أود معرفته من قصة إميل وينيه هو الجزء المتعلق بهروبه، فكما تعرف يا كارديل إن الحراسة في مثل هذه الأماكن مشددة أكثر من حراسة أي سجن، فأن يتمكن لص من الهروب ليس بالأمر الجلل، لكن لا أحد يريد معتوهًا طليقًا في الشوارع. أفعال اللص ناجمة عن الضرورة، أو الجشع، ويمكن توقعها إلى حد ما، لكن لا أحد يمكنه الجزم بما قد يفعله المجنون. تسمية مصحات المجانين بمقابر الأحياء لم تأت من فراغ. لا أظن

أن هروب كازانوفا من زنزانته المبطنة بالرصاص يمكن أن يكون أكثر دراميةً من هروب إميل. وسأخبرك بأمر واحد يا كارديل، حقيقة أن إميل وينيه قد تمكن من الهروب هي الدليل الوحيد الذي يقنعني بأنه يضاهي شقيقه في الدهاء».

- لذا وافقتَ على طلبه؟ أهذا ما تحاول قوله؟

يأتي بلوم بحركة استنكار ويقول: «رباه! لا! عندما لم يتقبل رفضي قلت له أن يذهب إلى الجحيم، وعندما لم يأتِ هذا الكلام أيضًا بالنتيجة المرجوة، اضطررت إلى أن أطلب من شرطي مرافقته إلى الباب. إنه فاقد صوابه، بوسع أي أحد ملاحظة هذا، وهذا ما سمعته من آخرين. جعل من نفسه أضحوكة في ذاك اليوم. تعرف أن سيسل كان معروفًا ومحترمًا هنا، وفي البداية ظن الجميع أن «شبح إندبتو» صار جديرًا باسمه حقيقةً عندما وقعت أعينهم على شقيقه أول مرة. ولاحقًا خرج إميل وينيه هائمًا باتجاه رصيف الميناء، قريبًا من هنا، وهو يحرك يديه مهتاجًا كأنه يكلم شخصًا آخر، لكن لم يكن معه أحد».

الفصل التسعون

يدفع كارديل الباب إلى الداخل، فيرتطم بصندوق ثقيل دُفع إلى الباب ليبقيه مغلقًا، يزفر متضايقًا ويسند كتفه إلى الخشب ويدفع بكامل وزنه مستنفرًا عضلات فخذيه حتى يتحرك الصندوق محتكًّا بالأرضية. وحالما يدخل يرى إميل وينيه مختبئًا في أقصى ركن، محتميًا خلف الطاولة، خائفًا شاحب الوجه. يسند كارديل ذراعه الخشبية إلى ركبته وهو يلهث من مجهوده، ويرفع راحة يده بإشارة يأمل أن تدل على المصالحة.

ويقول: «اهدأ أرجوك، لن أفعل شيئًا يؤذيك».

ينتظر حتى يهدأ تنفسه حتى يتكلم بأريحية ثم يقول: «جئت من دار إندبتو. وأخبرني بلوم بأنك أيضًا زُرته».

يحدجه وينيه بنظرة تحدٍّ ويقول: «يا جان مايكل، حقيقة أنك تريد التخلي عن قضيتنا لأنك تراها ميؤوسًا منها لا تعني أنني أشاطرك الرأي، العدالة لا تغيِّر مظهرها من يوم إلى آخر، وربما ما زال بوسعي المساعدة على تحقيقها».

- لدى بلوم رأي مختلف بحسب ما سمعتُه منه.

يومئ وينيه مترددًا ومغمومًا ويقول: «لم يدع لي مجالًا للشك في هذا الصدد».

- وماذا الآن؟ هل أنت مستعد لإلقاء أسلحتك؟

- غادرتْ هيدفيغ للتو، ووعدتني بالتفكير مليًّا في القضية. إذا لم تتقاطعا على السلالم، فلا بد أنك سرت جوارها في الزقاق. ماذا عنك؟ هل جئت لتهديدي حتى أغيِّر رأيي؟

يمدد كارديل جسده ويقعد على السرير ثم يقول: «هيا يا إميل، اخرج من الركن. وبما أنني لم أحظ بشرف لقاء شقيقتك، رغم أننا نتعاقب على الأماكن نفسها كثيرًا، فهلّا أخبرتني بشيء عنها؟».

- إنها أكبر مني، لكنك لن تصدق هذا. متوقدة الذهن للغاية. نشبت خلافات بيننا في الماضي، لكننا تصالحنا أخيرًا.

- هل تعيش في المدينة أم أنها زائرة فحسب؟

- سمعتْ من أحد أفراد العائلة أنني هنا لأتولى أمر مقتنيات سيسل، التقينا عند قبره، حيث كانت تذهب لعدة أيام متواصلة أملًا في مقابلتي.

ينظر كارديل في أرجاء الغرفة ويقول: «قل لي، أين أوراق شقيقك؟ وهل تفحصتها جميعها؟».

يهز وينيه رأسه ويقول: «لم أنظر فيها إلا بحثًا عن إيصال متجر الرهن الذي تلقاه مقابل ساعة والدنا».

- هلّا سمحت لي بإلقاء نظرة؟

- لماذا؟

يهز كارديل له كتفيه قائلًا: «يخامرني إحساسٌ ما، ربما أجد في الأوراق ما يؤكده أو ينفيه. هذا لن يضير أحدًا، صحيح؟ دعني ألقي نظرة عليها وأعدك بأن أدعك وشقيقتك لما تخططان له».

- تفضَّل.

يشير وينيه إلى رف عليه حزمة وثائق سميكة، مغلفة بورق بُنِّي ومربوطة بخيط. وينظر كارديل إليه ويقول: «هلا ساعدتني على حل الخيط؟ العُقَد هي ألد أعداء كل ذي ذراع واحدة».

وبينما وينيه يشاهد، يقعد كارديل إلى الطاولة ويبدأ بفرز الوثائق إلى مجموعات، ويجد ما يبحث عنه قرب نهاية الحزمة، رسالة مصدَّرة بعنوان وتاريخ، يرفعها كارديل نحو الضوء كي يتبيَّن خط اليد الأنيق، وعندما ينتهي يضع الرسالة جانبًا، ويواصل تصفح بقية الأوراق ويجد رسالة أخرى يضعها جانبًا. ثم يخفي وجهه بيده ويفرك عينيه المجهدتين.

ثم يقول: «آه يا إميل».

يُنتشَل وينيه من أفكاره ويرد: «ما الأمر يا جان مايكل؟ ما الخطب؟».

- حاول الجميع إخباري، كل من قابلك، بأن ثمة خطبًا ما. وأنا الوحيد الذي ظل أعمى.

- ما الذي تقوله؟

- لا شقيقة لك. ماتت يا إميل، قبل أربع سنوات.

- ما الذي تتكلم عنه؟!

يدفع كارديل الرسالتين على الطاولة، واحدة تلو الأخرى وقال: «هذه رسالة وداعها لسيسل، وهذه رسالة من قس الأبرشية الذي يؤكد الدفن ويقدِّم تعازيه. كتبتْ اعترافها لسيسل، انتحرت يا إميل. أخفت شقيقها في مصحة مجانين قبل أن تتسبب إشاعة وجود الجنون في الأسرة في إعاقة الزواج الذي كان يعِدها بحياة هانئة، وعندما بدأتْ تلاحظ أعراض الجنون عينها في نفسها قررت تجرع السم وهي ما تزال محتفظة بعقلها فتقدر على رفع القنينة إلى شفتيها».

يرمش وينيه وقد ألجمت الصدمة لسانه، ثم يتلعثم على نحو مثير للشفقة: «كانت هنا قبل قليل يا جان مايكل، غادرت قبل أقل من عشر دقائق. أرادت أن تخرج لتتمشى قليلًا حتى تستجمع أفكارها، ووعدتني بأنها ستعود».

- كتب القس أنها مزجت كمية كبيرة من سم خانق الذئب بنبيذها إلى درجة أن جلدها كان رماديًّا مشققًا عندما أودِعت القبر. كنتما معتادين السير بمحاذاة رصيف الميناء معًا لتتشاورا، أليس كذلك؟ رآك آيزاك بلوم وآخرون هناك. لطالما كنتَ وحدك دومًا، وما من أحد آخر معك. إنها من نسج خيالك يا إميل. كنت وحدك طوال الوقت.

- إنك فاقدٌ صوابك.

- ليس أنا.

تتذبذب عينا وينيه بين سطور الرسالة حتى تجعِّد يده البيضاء الورقة، ويتلوَّى وجهه من الألم ويقول: «طلبتْ مني مسامحتها، وقالت لي إنها أحبتني».

في آخر كلمات هيدفيغ لسيسل ما من أثر للشك أو الندم، وما من رغبة في المصالحة، لا شيء سوى الغضب من رؤيتها في المرآة نفسَ العلامات التي لاحظتها على شقيقها، وسرد مرير لمراحل تفاقم حالتها بإيقاع متسارع، أصوات لا يسمعها أحد آخر، أصوات أشخاص في الصمت، صحبة الذين رحلوا، ويغلي بين السطور تعبيرها عن ازدرائها الذي تحس به إزاء مثل هذه المخلوقات، وبدلًا من الانضمام إلى زمرتهم اختارت وداعًا سريعًا، ولم تذكر شقيقها الأصغر باسمه ولا مرة.

ترتعش كتفا إميل وينيه النحيلتان، ويغص حلقه من الحزن. لا يدري كارديل ما عساه أن يفعله حتى توشك ساقا وينيه على التهالك، فيدركه سريعًا لتلافي سقوطه، ثم يحيط وينيه بذراعيه وكلاهما يغوصان نحو الأرضية، يحس كارديل برأس إميل على صدره حيث تبلِّل الدموع الدافئة قميصه وتتغلغل إلى جلده. يظلان جالسَين هكذا لمدة، يتأرجحان من جانب إلى آخر، بإيقاع قديم قِدم الإنسانية نفسها.

وعندما يسمع كارديل خفوت حدة النشيج يهمس بصوت متهدج: «تعال معي الآن يا إميل».

- إلى أين؟

- خليج الدنمارك.

يومض الرعب في عينيه ويقول: «ليس إلى مصحة المجانين يا جان مايكل».

- لا يا إميل، ليس مصحة المجانين، أبدًا. سنذهب إلى المستشفى فحسب، إلى الدكتور ناستروم.

الفصل الحادي والتسعون

يجد كارديل عند «الأرض المحروقة» عربةً صاحبها مستعد لإيصالهما إلى ما وراء البوابات مقابل شلنين، وتحت غطاء العربة المرفوع تحلّق استوكهولم جوارهما، رصيف الميناء والقنطرة، والساحة الجنوبية وما وراءها من أحياء فقيرة خرِبة. الرحلة غير مريحة، وكلما ارتطمت العجلات بحجر يميلان معًا إلى جانب، فيتمتم كارديل بسباب ويبذل ما بوسعه ليستعد للانحرافات المفاجئة بإحكام قبضته على جانب العربة، لكن وينيه لا يكلف نفسه عناء تخفيف مطبات الطريق، يتمايل جسده الضاوي إلى الأمام والخلف كساق نبتة في مهب الريح، وقد انحسر البكاء الذي شوَّه وجهه، ويرسل بصره إلى المناظر الطبيعية التي يمرون بها دون أن يثبِّت نظراته على أي شيء، ما زالت الدموع تنثال، لكن على خدين أملسين الآن، دون محاولة لمسحها.

يقول وينيه: «النبيذ وسم خانق الذئب، كانت تعرف سقراط الذي تحبه. لطالما كان أبي يقول إنها لو وُلدت رجلًا وتحلَّت بعقل أقل منطقيةً قليلًا لأصبحت فيلسوفة عظيمة. ذات يوم رأيت قطة تموت بسُم خانق الذئب يا جان مايكل، في الأوكسينستيرن حيث يُعالَج الذين أصيبوا بالجنون بسبب المرض الفرنسي، لا أحد كان يعرف كيف تناولت القطة السم، ربما لعقته من قنينة مندلقة، أو ربما أعطاه لها أحد الصبية الحقودين. عَوَت عواءً فظيعًا، وهي تجر نفسها إلى الأمام بساقيها الأماميتين تاركةً وراءها خيطًا من اللعاب يسيل من فمها بلا انقطاع، وعضَّت مقبض المدفأة بقوة كسرت أسنانها، ثم أمسك بها خادمٌ رابط الجأش من ساقيها الخلفيتين وطوَّح بها مرة وهشم رأسها على الجدار».

يفرك عينيه بمفاصل أصابعه ويتابع: «بدت هيدفيغ لي حقيقية للغاية يا جان مايكل».

يضع كارديل يده على كتف إميل ليواسيه، بحركة تبدر منه تلقائيًّا، ولأنه لا يعرف شيئًا آخر يمكنه فعله، لكن رغم هذا تبدو الحركة غير كافية على نحوٍ غريب.

يقول له: «هوِّن عليك، المساعدة موجودة، سنجدها عما قريب».

يحدق وينيه إلى كارديل بعينين خاويتين ويقول: «قُدِّمت لي مساعدة من هذا النوع من قبل، ما لديهم من علاجات ضررها أكبر من نفعها».

يهز كارديل كتف وينيه ويميل مقتربًا منه لينظر في عينيه ويقول: «لم أعش حياتي دون أن أصادف عددًا كبيرًا من أصحاب المهن المُدَّعين، إنهم في شتى المجالات، بعضهم يمارس مهنته لأنه لا يجيد فعل أي شيء آخر، وبعضهم يستمتعون بسلطتهم في أحيائهم والاهتمام الذي يجدونه. ومن حين إلى آخر يصادف المرء شخصًا يبدو أنه وجد طريقه إلى مهنته بعد تفكير وتقدير، كيفما وقعت هذه المعجزة في وادي البؤس هذا، ويبدو لي أن ناستروم من هؤلاء القِلَّة».

يهز وينيه رأسه ويلوذ بالصمت لبقية الرحلة، حتى يجذب الحوذي الأعِنَّة ويفتح العربة ليترجلا عند سياج المستشفى. ويريان الحديقة مهجورة خلف البوابة، حتى جدول الطاحونة يبدو كأنما نضبت الحياة منه، وقُطع تياره، وعما قريب سيتشح برداء الثلج وينتظر الربيع. ينتهي بهما المطاف بالانتظار في رواق المستشفى. ويسمعان من صحن الكنيسة همهمة صلوات من المقاعد وتأوهات من الدهاليز المفضية إلى الخارج حيث الأجنحة. المكان بارد، وقد جعلته التيارات الهوائية والرطوبة أسوأ. لا ينقضي وقت طويل قبل أن تأتي خادمة حاملةً دلوًا وغلاية نحاسية، وترمقهما بنظرة متسائلة، فيمدد كارديل نفسه ويفعل ما بوسعه ليبدو لائق المظهر بقدر الإمكان.

يقول كارديل: «جئنا لمقابلة ناستروم، الدكتور ناستروم».

يتلقى منها نظرة تشوش وهي تقول: «لا أعرف هذا الاسم، لكنني لا أعمل هنا منذ مدة طويلة. إذا انتظرتما هنا لحظة، فسأعود مع شخص أكثر معرفة مني».

يقتعدان آخر صفوف المقاعد والخادمة تهرع مبتعدة. من السقف المطلي بالأبيض غير المزخرف تتدلى ثريا غير مضاءة، والضوء الموجود في المكان يدخل عبر نوافذ مقوسة على جانبي المذبح. تبدو تدفئة المكان الضخم مستحيلة، ويصعد البرد عبر الأرضية من حجارة أساسات المبنى الرطبة والجدول الذي يمر تحتها، يتساءل كارديل أيهما وُجد أولًا، الجدول أم المبنى، ويجد أن من الغريب تشييد المبنى فوق الماء بقدر غرابة حفر نفق تحته. وجوار كارديل يظل وينيه صامتًا، ومعطفه مشدود حول جسده، وذراعاه معقودتان على صدره، يحس كارديل بارتجافه من خلال المقعد، سواء أكان يرتجف من البرد أم من انفعالاته، أو كليهما. وفي الصفوف التي أمامهما يريان ظهورًا منحنية على أيدي متشابكة، امرأة رمادية الشعر على أعتاب القبر تهمس بتسع كلمات وتهتف بالعاشرة، ورجل يشهد تأرجح جسده الرتيب على علَّةٍ ما، جسدية أو روحية. وبالأمام فوق المذبح يسوع المسيح مصوَّرًا عند مكان تضحيته، ذراعاه الممدودتان تِعدان بعناقٍ دامٍ، وبين الفينة والأخرى يأتي أحد نزلاء المستشفى الجدد مجرجرًا قدميه ليبدي توقيره للوحة المذبح، ثم يخرج بعدما يحقق هدفه. يتنحنح شخص خلف كارديل، فيجعله يدرك أنه غفا جالسًا على مقعد صُمم خصيصى ليكون غير مريح من أجل تعزيز انتباه الذين يخشون الرب.

«هل أنتما من يسأل عن ناستروم؟».

ينهض كارديل واقفًا على ساقين تصلَّبتا سريعًا في البرد، ويرى أمامه رجلًا طويلًا نحيلًا ذا شعر خفيف، ويضع نظارة مشقوقة، وعلى صدريته لطخة وتفوح منه رائحة نبيذ. ويتبين كارديل شكل قنينة في جيب معطفه.

فيتابع الرجل: «اسمي سوندِليَس، أستميحكما عذرًا، لكنني لا أريد سوى التأكد من عدم وجود سوء تفاهم. هل أنتما متأكدان من الاسم ناستروم؟».

- إنه الاسم الذي أخبرنا به بنفسه عندما جئنا هنا إلى المستشفى قبل يومين.

يضحك الرجل، ويهز رأسه بشدة تجعل شظية زجاج غير ثابتة في إطار نظارته تصدر رنينًا.

ويقول: «هذا غير ممكن. الدكتور ناستروم غير...».

يستوي جبين سونديليس كأنه أدرك شيئًا فجأة ويقول: «آه، هلَّا تبعتماني؟».

يقتادهما خارجًا إلى الرياح التي تهب من البحر، على الدرب المفضي إلى مصحة المجانين، وعند مدخل المبنى يهتف لصبي مرسال.

ويقول: «ابحث عن جوزيفسن واطلب منه إحضار توماس معه».

ينتظرون مدة ثم يسمعون جلبة على السلالم، ووقع أقدام مسرعة بإيقاع جامح، ثم يهبط من السلالم رجل دون بنطال يتنفس كأنه يعوي، ويزبد من جانبي فمه وذيل قميصه يرفرف خلفه، يدير ذراعيه كطاحونة هوائية وهو يركض جوارهم، ويجذب مهتاجًا مقبض الباب الموصد المؤدي إلى الفناء، ثم يختفي في رواق. يبتسم سونديليس ويشير بإبهامه إلى الاتجاه الذي اختفى فيه الرجل.

ويقول: «هل هذا هو الدكتور ناستروم الذي تبحثان عنه؟».

يعتصر كارديل ذهنه بحثًا عن ملامح ناستروم في الوجه المضطرب الذي مر جوارهم.

ثم يقول: «عليَّ اللعنة إذا لم يكن هو. ما الذي يجري؟».

يهز سونديليس كتفيه قائلًا: «إنه توماس، أحد نزلاء المستشفى. يكون هادئًا في معظم الأوقات، ويُسمح له بالتجول لأن الغرف مكتظة بشدة، كما يجده كثيرون مسليًّا، لأنه كثيرًا ما يتقمص شخصيات جديدة ويؤدي أدواره أداءً مقنعًا للغاية، ولا بد أن ناستروم أحد تلك الشخصيات، من التي لم أتشرف بلقائها بعد».

يطوِّح كارديل بذراعيه في الهواء بإشارة غضب وهزيمة في آن واحد.

- هل أُفرغ كلٌّ من الجنة والجحيم من قاطنيهما ليعبثوا مع الأحياء؟ إما هلوسة وإما تمثيلية!

يسمعون وقع المزيد من الأقدام الهابطة عبر السلالم، لكنها ليست مستعجلة كسابقتها، وعند الزاوية يرون حارسًا، نفس الحارس الذي رأوه في بداية الصيف وأرشدهم إلى غرفة إريك الورود الثلاث، حاملًا بيده عصا في نهايتها أنشوطة الغرض منها إبقاء النزلاء بعيدًا وإخضاعهم في الوقت

نفسه، الحارس محمر الوجه ويلهث، يتوقف لينحني ويلتقط أنفاسه أمامهم وهو يتلعثم.

ويقول: «توماس... هل جاء للتــو...».

عندما ينتصب الحارس ويرى من أمامه أول مرة، يفتح عينيه على اتساعهما مذهولًا ويقول: «أنتما! لكن كيف عرفتما بهذه السرعة؟».

يتلفظ إميل وينيه بأولى كلماته منذ ساعة قائلًا: «ماذا تعني؟ تكلم بوضوح».

- فتى باقة الزهور، الورود الثلاث، لقد هرب.

- وكيف يمكن هذا؟

يهز الحارس كتفيه كأنما السؤال أجاب عن نفسه ويقول: «الغرفة الوحيدة التي اضطررنا إلى إدخاله فيها كان قفلها مكسورًا، لهذا كانت فارغة».

- عندما زرناه آخر مرة كان من المستحيل التواصل معه بأي طريقة، هل جاء شخص واصطحبه؟

- يسهل فتح البوابات من الداخل، لكن ليس من الخارج، فأفضل تفسير هو أن حالته تحسنت وأنه خرج بإرادته.

- متى؟

- في وقتٍ ما من الليلة الماضية، وجدت الغرفة خالية صباح اليوم، لذا لا يمكنني تحديد الساعة.

يلوح الحارس بذراعيه بابتسامة امتعاض ساخرة عندما يرى الذعر على وجه وينيه ويقول: «ما كنت لأقلق دون داع لو كنت في مكانكما، النزلاء المسالمون وحدهم هم الذين لا نحرص على قفل أبوابهم بالمفاتيح، وعادة ما يعودون إلينا سريعًا، إما بكامل إرادتهم وإما بصحبة شخص آخر عثر عليهم، بعدما يرون الوضع بالخارج ويجدون توصيلة للعودة. حسنًا، الواجب ينادي».

يختفي الحارس خلف الزاوية، وقد هدأت أنفاسه، حاملًا عصاه فوق كتفه وهو يصفِّر.

قال وينيه: «جان مايكل، فلننس كل ما حدث في الأيام القليلة الماضية، لأن علينا الآن أن نستعجل غاية الاستعجال».

يرمش كارديل وهو لا يفهم، لكن وينيه الممتقع ذُعرًا يدفعه بصبر نافد نحو المخرج ثم يدفع الباب ويشرع في الركض في الدرب الذي يمر جوار المستشفى، وإلى بوابة الجبايات التي وراءها، صوته مشوب بالقلق وهو يصيح فوق كتفه.

قائلًا: «ألا ترى ما يحدث؟».

الفصل الثاني والتسعون

يسير إريك الورود الثلاث، وتجهده كل خطوة، يحس بجسده متضعضعًا خامل الأطراف والمفاصل، كأنما كل ما يريده منه هو السير في درب طويل شاق قبل أن يحدث أي شيء، لكنه يطيعه ولو على مضض، يسير وهو لا يرتدي سوى قميصه، حافي القدمين وعاري الساقين، والألم في رأسه فظيع. ظل يسير مدة طويلة، في الليلة الماضية أحس بكل خطوة جديدة كأنها ضربة برق، وحالما أشرقت الشمس غمرته بضوء باهر فاضطر إلى الاحتماء منه بيديه ولم يسعه سوى النظر إلى العالم من خلال أصابعه. عندما يلمس وجهه يحس كأنه يلمس جلد شخص آخر، كأن المعدن الذي ثقب جمجمته سلبه من كل إحساس، شفتاه تشكلان الكلمات بالكاد، لكنه لا يحتاج سوى إلى كلمة واحدة، كلمة أخيرة، ويتمرن على نطقها في أثناء سيره، مرارًا وتكرارًا، وعندما يرتطم بإدراك أنه حُرِم من الحاسة التي أتاحت له ذات يوم الإحساس بقُبلة لنيا شارلوتا يطلق صيحة يأس وكرْب شديدين، ثم يتعين عليه التوقف كي يستجمع أفكاره، ويذكّر نفسه بوجهته.

كتبها اسكيلدت جميعها في الوقت نفسه، واحدة تلو الأخرى.

وفي الليل يصل وهو يعرج إلى الجسر المتحرك الأحمر عند القنطرة، تحت ضوء القمر. «مدينة ما بين الجسور» لا تنام أبدًا، ويواصل السير بمحاذاة الرصيف ويجتاز «ملتقى الذباب»، الناس يهرعون غدوًا ورواحًا، بعضهم يشابكون أذرعهم في طريقهم إلى حانةٍ ما، وآخرون يهرولون بدافع الحاجة الماسة نحو المراحيض. لم يعد إريك كما كان ذات يوم، والعالم الذي يراه

ليس كما كان من قبل، يسوده الصخب والاضطراب، كل شيء ضبابي مسربل بالظلال. عندما يقترب الناس منه يراهم على حقيقتهم، هيئات بشعة ذات ملامح منفرة تحيط بحلوقهم النَّهِمة حيث يُلتهَم اللحم ويُتقيَّأ، جميعهم متشابهون.

جرَّده سيتون من كل شيء.

الذين ينتبهون له لا يلقون نحوه سوى لمحة سريعة، فما يرونه ليس استثناءً لافتًا: بائس آخر أسرف في الشراب ويترنح متشحًا بأسمال الفقر، في مسعى عقيم لإيجاد ركن لم يتقيأ فيه أحد ولم يتبول فيه سوى قليلين، لينال بضع لحظات نوم، مستعدًّا ليُسجَّى بالبياض عندما يأتي صقيع الليل. بعضهم يقرِّبهم الحظ العاثر منه عندما يتبدد الظلام بظهور فرجة بين الغيوم أو بعين فانوس شارع كعين الذئب، ويرون في وجهه الكسيح شيئًا يجعلهم يجفلون ويبتعدون عنه. يختار أقوى يد عنده ويجعل منها مخلبًا، ويمسك بكل من يقع في متناوله، وللذين يمسكهم يهمس بالأصوات التي ظل يتدرب عليها منذ مغادرته مصحة المجانين، اسم مكان، وأحيانًا يحالفه الحظ، فيفهم بعض الناس ما يقصده ويشيرون له إلى الاتجاه الصحيح مقابل نيل حريتهم.

يظن أنه هو الذي قتل عروسه.

يترنح بعد منتصف الليل فوق الجسر الذي يقطع بحيرة كلارا، والقمر فوق الخليج يضيء قمم الأمواج الداكنة. يحس بجيش من الأشباح يسير جواره، جيش يغني له أغاني الحب، والخيانة، والثواب والعقاب. سينبلج الفجر خلف ظهره قريبًا، يجتاز مستشفى سيرافيم، ثم لا يعود يرى منازل حجرية، لا يرى سوى أكواخ وسقائف خشبية بين الحقول والمراعي، لا يصادف سوى أناس قليلين، والذين يرونه من بعيد في ضوء النهار يستشعرون منه خطبًا وينأون بأنفسهم عنه. الشمس تخترقه، وترتحل منخفضة إلى يساره وتجعل رحلتها وجيزة، كما يقتضي هذا الوقت من العام، وسرعان ما تتجاوزه وتغدو أمامه، تميل نحو الأفق، باهرةً عينيه، وقد حل العصر الآن.

ذلك الشيطان الباسم هو من يقع عليه اللوم كله.

يبلغ هدفه. الدار مشيدة على هضبة صغيرة وسط الوادي المنحدِر نحو المياه، محاطة ببستان أشجار تفاح، يراه بضعة أطفال يلعبون الغميضة بين جذوع الأشجار، ويضحكون من الهيئة الغريبة التي ترتدي قميصًا كبيرًا يرفرف حول الساقين، يقتربون منه ويجعلونه جزءًا من اللعبة، يأخذون بيده ويدورون به ويرقصون في دوائر، يتلعثم بالكلمة نفسها التي ظل يكررها، فيُومئون له سعداء، ثم يرن جرس من الوادي يدعوهم للعشاء، فينطلقون أمامه بين الأشجار نحو الدار، لكنهم يلتفتون ويلوحون عندما يرونه متسكعًا جوار الطريق. ينتظر في أثناء هبوط الظلام، الذي يدفع الجميع إلى الداخل، فيجد نفسه وحده حيث يقف، وفوقه يرى النجوم بادية، وبينها وجهها، وجه لنيا شارلوتا، ويسمع صوتها من الأجمات والأشجار، تحثه على المواصلة مطمئِنةً إياه بأن كل شيء سينتهي قريبًا، وأن لا بد من فعل ما عليه فعله، لا يحس بانحدار الدموع الدافئة على خده، كما لن تحس شفتاه الخَدِرتان بشفتيها، لكن همستها تحمل وعدًا: سيلتئم شملنا عما قريب يا حُبِّي، وعندئذٍ ستكون قُبلتنا مكافأتك، القبلة التي انتظرتها مدة طويلة، وعندما تأتي سوف تحس بها كما أحسست بسابقتها.

ما دامت «تل هورن» موجودة فسيكون سيتون محميًّا بها.

يتحرك نحو الوادي، على الدرب الممتد بين الأشجار المتكئة عليها سلال الفاكهة، في انتظار استمرار الحصاد. الدار مظلمة، ويوجد فانوس واحد مُشعَل جوار الباب لإضاءة السلالم للذين يتعين عليهم الخروج إلى المرحاض الخارجي مدفوعين بحاجة مُلِحَّة لا يمكن أن يُعهَد بها إلى مبولة الغرفة. تستدعيه شعلة الفانوس ليقترب، مشوَّهةً خلف نتوءات الزجاج، وتستعير صوت لنيا لتخاطبه، أليس ما يُقدِم على فعله رحمةٌ للجميع؟ أي قدَر تخبئه الحياة لهؤلاء الصغار عدا الخيار الذي يُرغَم على اتخاذه جميع البشر؟ وهو أن يكونوا ضحايا أو معتدين. من الأفضل لهم أن يناموا بريئين وألا يستيقظوا أبدًا. وكم يتمنى لو أن أحدًا آخر كان قد أبدى له الرحمة نفسها! يمد يده المرتعشة ليحرر الشعلة من سجنها الزجاجي.

الفصل الثالث والتسعون

تتسكع آنا استينا عند الساحة الروسية حيث تعود إليها ذكريات قديمة، وتسير إلى الموازين فترى الحديد محمولًا على ظهور منحنية تحس بألم العمل في نهاية اليوم، ثم تواصل سيرها، إلى أبعد مكان ممكن، متجاوزة كنيسة ماريا والحدود التي كانت «الحيزبون» تعمل فيها ذات يوم. ترى جنازة على مبعدة، والمتسولون يقفون عند مدخل مزين بأكاليل الزهور، والمتشحون بالسواد حِدادًا ينحنون للراحل. وللأمام ينتظرها «جسر التنهدات»، بعد أحواض السمك الزنخة التي فيها هيئات أسيرة تسبح في دوائر لتزجية الوقت. وعندما ترى الجانب الذي يميل إليه ظلها، تلاحظ أن الشمس قد بلغت الجانب الآخر، وتتفاجأ بطول الوقت الذي أمضته في الطريق. تمتد «الندبة» عند قدميها، وتلوح لها قمة برج كنيسة المشغل كشوكة في سماء المساء.

تنتظر حتى يتلاشى الضوء ويهبط الليل، مبطئة سرعتها لكن دون توقف، كل خطوة تحملها نحو نهاية الطريق، حيث ينتصب أمامها خشب البوابة، وتقف عندها مدة طويلة حتى تعتاد أذناها الصمت وتستشعر ما وراء البوابة، تنهدات عجلات الغزل في آخر ساعة من المناوبة المسائية، وأصوات تروس الساعة التي تقيس الزمن الممل. تظل واقفة في انتظار لحظة إعلان الجرس نهاية يوم العمل، وسرعان ما يبدأ رنينه، فترفع يدها لتطرق الباب حالما يتلاشى الصدى، لكن يبدو لها أن دقاته الأخيرة لا تريد أن تنتهي، تظل مستمرة حتى تسير آنا حول زاوية المشغل حائرة، وتتبع الجرف إلى قمته، وعنده تفتح عينيها على اتساعهما لترى في الظلام، جرس «جزيرة الملك» هو الذي يرن، بثلاث دقات متتابعة، كل منها يعقبها توقف قصير، ثم تتكرر مرارًا، وفي البرج تومض الفوانيس، تُرفع ثلاثًا منها كل مرة. إنها

تعرف معنى هذه الإشارة تمام المعرفة، تدير عينيها نحو الغرب، وتستغرق لحظة حتى تستوعب ما تراه. تبدو الشمس كأنها عكست مسارها، صاعدةً من الغرب. وعندئذٍ تركض آنا استينا.

الفصل الرابع والتسعون

بداخل قصر تيسين الأبواب مفتوحة لتبديد حرارة الحشد. يتحرك تايشو سيتون في كرسيه وينظر إلى الخارج إلى متاهة الشجيرات التي يبلغ ارتفاعها الركبة في الحديقة حيث يتمشى بعض الضيوف ليبرِّدوا أنفسهم، وتمر نظراته بتمثال مينيرفا، المنحوت من الرخام بهيئة ترحيب أبدي، ويبتسم، وعندما يدير رأسه يلمح نظرة من أحد السادة المتأنقين في الصف الذي أمامه، يحمر وجه الرجل ويشيح بتعابير التقزز البادية عليه، فتزداد ابتسامة سيتون اتساعًا. إنهم لا يريدونه بينهم، وجوده يثير نفورهم، ويعرفون أنه لا ينتمي إلى طبقتهم، لكن طموحه ودهاءه فتحا أمامه حتى هذه الأبواب، كل مكان حوله مكتظ بأهم علية القوم في البلاد. يخرِج منديله، متمهِّلًا غاية التمهُّل، ويمسح خده حيث فتحت ابتسامته جرحه فتبلل ذقنه. ولاحقًا، عندما يستمتع بسيجارة في الحديقة سيتخذ مكانه في دائرتهم، ولن يجرؤوا على منعه، وسيشاهدهم يتململون وهو ينفث الدخان عبر خده، لا لشيء سوى أن يجعلهم يرتعدون.

الموسيقيون يضبطون آلاتهم، والضيوف يتخذون مقاعدهم، وهم يتبادلون آخر كلمات حواراتهم ويتنحنحون قبل بدء العزف. يعرِّف مضيف الأمسية بالمقطوعة الموسيقية: يبلغ عمرها قرنًا، كانون بمقام ري. يعزف الموسيقيون نوتة جماعية، وأعينهم تلتقي فوق حركات أيديهم المتسقة، ثم يبدأ التشيلو لحنًا مصاحبًا من ثماني نوتات، *دا كابو*، وينضم كل عازف كمان بقوسه، واحدًا تلو الآخر، يردد الكمان الثاني صدى الأول، والثالث صدى الثاني، فيصعد الأول باللحن إلى ذُرى شاهقة على الاثنين بلوغها خلفه تباعًا، ودومًا بتناغم مدهش، والنتيجة خلَّابة، فمع انتصاب الشعر على ذراعي

سيتون، يتمايل إلى الأمام والخلف مع نبض التشيلو الثابت، ويغمض عينيه ويميل رأسه للوراء، دون أن يكلف نفسه عناء مسح خده عندما يسيل جرحه إلى عنقه وتبدو البقع على وشاحه الحريري، تأسره الموسيقى وتُسلِمه إلى أحضان سكينة تامة.

الفصل الخامس والتسعون

يركض كارديل في الغسق، والجزء العلوي من جسده منحنٍ لتخفيف الوخز الذي يحس به في خاصرته، ويصفع نعل حذائه الأرض الصلبة، ورغم أن مجهوده يفرز مذاق الدم في فمه فهو غير قادر على اللحاق بوينيه، ما يزال يرى هيئته الطويلة المهزولة بين المنحدرات أمامه، ومن حين إلى آخر يسمع صوتًا من الظلام يحثه على الإسراع، أسرِع! فيكز أسنانه، ويضغط قبضته على بطنه مرغِمًا ساقيه على المواصلة.

وعند بوابة الجبايات يجد وينيه قد اعترض طريق حصانين ليرغم العربة على التوقف، ورغم أن قلب كارديل يخفق بقوة في أذنيه إلى درجة عدم قدرته على سماع أي كلمة، يخمن الموقف بنظرة سريعة، يوجد راكبان في العربة، رجل ممتلئ الجسم وامرأة شابة، ويبذل الحوذي كل ما بوسعه بشأن المهمتين اللتين فرضهما قدَرٌ قاسٍ عليه فجأة: تهدئة حصانيه المذعورين بمظهر وينيه، والدفاع عن حق زبونيه في العربة التي استقلَّاها سلفًا. وحتى لكارديل تبدو محاولات وينيه لتغيير رأي الحوذي كهذيان رجل مجنون، وكارديل نفسه يتعين عليه التقاط أنفاسه قبل أن يتمكن من نطق كلمة واحدة. وعندما يبدأ الحوذي بالتلويح بسوطه مهددًا وينيه، يتمكن كارديل أخيرًا من الكلام، ويشير إلى الحوذي أولًا.

قائلًا: «إذا لمسته بسوطك مجرد لمسة فستقضي بقية أيامك ومقبض السوط محشور في مؤخرتك حتى تحس به في حلقك».

تلوذ المجموعة كلها بالصمت وتنتظر رسالته التالية، ويستدير كارديل إلى الرجل القاعد في العربة، ولا يحتاج إلى رفع صوته، إذ تعلَّم منذ وقت طويل أن قليلًا من التهديدات الجدية ينبغي الصياح بها.

فيقول: «لسنا قاطعَي طريق، والنقود التي دفعتها ستُرد إليك، لكن عليك الخروج من هذه العربة حالًا، كما لك حرية اختيار كيفية خروجك، وإلا فسيكون أنفك أول ما يلامس الأرض».

يكفي هذا. تُسوَّى المشكلة، فينطلقان في طريقهما، وتلحقهما لعنة عندما يرى مُرسِلها أن المسافة آمنة. يجلس وينيه بالأمام مع الحوذي، وكارديل بالخلف وقدماه مغروستان في أرضية العربة. يوجِّه وينيه الحوذي ويحثه على السرعة، وعندما لا يبدو الإيقاع سريعًا بما يكفي، ينتزع كارديل من يد الحوذي السوط ويفرقع به حول آذان الحصانين حتى ينطلقا عدوًا، وتتحول احتجاجات الحوذي إلى تجديف وهو يجاهد كي يبعد العجلات عن الحُفر.

ومن ظلام الليل الممتد أمامهم يسمعون رنين أجراس طويلًا، يتردد منتظمًا، ثلاث دقات كل مرة، إنه برج هيدفيغ إليونورا يعلن عن فاجعة، والرسالة تنتشر، فعندما يبلغون منتصف الجسر المؤدي إلى «جزيرة الملك»، يبدأ قارع الجرس في كنيسة كلارا بالدقات نفسها خلف ظهورهم، وكلا البرجين رفعا الفوانيس في سماء الليل.

يبلغون ضواحي المدينة القابعة في الظلام حيث لا يعود من السهل تمييز الطريق عن بقية الأرض، ولا يسعهم فعل شيء سوى تضييق أعينهم وتفادي السياجات والأمل في ألا يداهمهم منعطف حاد فلا يتمكنوا من تفاديه. وسرعان ما يستحيل الليل نهارًا أمامهم، يرون ضوءًا مصدره محجوب خلف التلال، وهو قوي بما يكفي لتوهُّج الغيوم، والضياء المنعكسة على الأرض تستثير تنهيدة ارتياح من الحوذي. تغير الرياح اتجاهها، فيشتمُّون رائحة الدخان، كما يشتمها الحصانان، إذ يملكان حواسًّا تمكِّنهما من استشعار الخطر الماثل أمامهما، فينخران ويظهِران بياض أعينهما، ويتوقفان وهما يمضغان شكيمتيهما ويلوِّحان بعُرفيهما كأنهما يحذران سيدهما، ثم لا يقدر

حتى السوط على إرغامهما على الطاعة، ولا يسع الحوذي سوى هز كتفيه إزاء تعنيف كارديل.

ويقول: «الشيطان نفسه سيعجز عن إرغامهما على التقدم، ترى السبب».

يأخذ كارديل نفسًا ليواصل توبيخ الحوذي، لكنه يجد أن وينيه قد تركهما خلفه، ويدرك ابتعاده بسماع سعال لاهث من حُجُب الدخان الحائمة فوق الأرض بأشكالها المتموجة، كأنها أشباح عمالقة.

يلقي كارديل بمحفظته للحوذي، ويردفها بتحية وداع بذيئة، وينطلق في الطريق، يجتاز آخر قمة تل، ويكاد يرتطم بظهر وينيه، الواقف محدقًا إلى ما يحدث في الوادي، وحتى من هذه المسافة يشعران بالحرارة على وجهيهما المشدوهَين. «تل هورن» طُعمة للنيران، نصف سقفها مشتعل، وكثير من النوافذ تشققت بفعل الحرارة، وعبر الفجوات المسودة ينفث السعير ألسنة اللهب في السماء.

يسمع كارديل وينيه ينادي اسمه، وقد صار الآن خلفه، وهو نفسه بعيد أمامه، يعدو نحو الخطر بأقصى سرعته، يهبط إلى الوادي ويخترق أشجار التفاح التي بدأت تشتعل تباعًا، تتغضَّن أوراقها، ثم تصدر دخانًا فتبتلعها ألسنة اللهب، وتمتص الحرارة عصارة الشجرة تلو الشجرة.

يُحجم كارديل ضد إرادته عند الباحة التي أمام الباب، وقد اجتاحه رعب قديم. تلعق ألسنة اللهب بنَهَم واجهة المبنى.

مصراعا الباب مرتخيان على الإطار، حيث فقدت المفاصل المتوهجة قبضتها، وخلف الباب يلمح كارديل البهو، نشبت النار في عوارض السقف، وتمور بأشكال مستحيلة، ويأتي نسيم غريب من كل الاتجاهات داخلًا إلى الدار مع تنفس النار، نسيم قوي بما يكفي لجذب سترة كارديل، الذي يرفع يده أمام وجهه ليتقي الحرارة، ثم يستعيد سيطرته على نفسه ويرغم ساقيه على طاعته، فيركض عبر قوس النيران، ويقفز فوق العتبة المشتعلة.

ينتظره عالم آخر على الجانب الآخر، الوهج أبيض باهر، ورغم أنه يضيِّق عينيه، تدمعان دفاعًا عن نفسهما، تزأر النار فيما حوله، وتصدر ألسنة اللهب أصواتًا خاصة بها، تهسُّ وتقرقع وهي تزحف من وجبة إلى وجبة، وكل ما تلتهمه ينضم إلى جوقة الحِداد: خشب يطلق صريرًا ويتلوَّى قبل أن ينهار، وزجاج وقنانٍ تتهشم بجلبة حادة. يمتص الهواء كل شيء للأعلى، ويجعل كل شق بين ألواح الأرضية والجدران يطلق صفيرًا، وفوق كارديل يلوح السقف مائجًا بالفقاعات، كأنه بحر ساطع يُنظر إليه من الأعماق، وتحلِّق الأقمشة والأوراق في الهواء بأجنحة متوهجة.

إنه «الديك الأحمر»، قابله كارديل من قبل، عندما التهم السفن التي ضربتها قذائف الروس التي حُميت حتى صارت حمراء، ويخطر له الآن ما خطر له عندئذٍ، هذا كائنٌ حي، مخلوقٌ أزلي يطفح حقدًا ظل متحينًا الفرصة، يبدو للجميع طيِّعًا سهل الانقياد عندما يكون متربصًا في كل مستوقد ومدفأة، منتظرًا بصبر إطلاق العنان له ليجمع كل ديونه، وعندما تُنزع أصفاد سيد الجحيم فما من شيء يمكن فعله سوى الفرار، لكن على كارديل أن يقتحم النيران.

الفصل السادس والتسعون

يقف إريك الورود الثلاث بمأمن تحت شجرة، حيث الهواء دافئ لطيف، على مبعدة من «تل هورن»، وجواره حوض لسقي الخِراف، برميل من خشب البلوط مقطوع من منتصفه وما يزال مليئًا بالماء، ومن حين إلى آخر يمرر إريك يده على سطح الماء، ويشاهد صامتًا تهاوي أخشاب الدار، وانهيار سقفها، مُطلِقًا شلالًا من الشرارات فتضيء أعمدة الدخان. يعرف أنه قد أكمل مهمته، لكنه لا يعرف ما سيحدث بعدها. ألا ينبغي لها أن تأتي الآن وقد صُحِّح ما كان خطأ؟ وتضمه بين ذراعيها وتلصق شفتيها بشفتيه بالقُبلة التي وُعِد بها؟ وقَلِقًا يرفع يده إلى وجهه الخَدِر مرة أخرى ويتساءل للمرة المئة عما إذا سيتمكن من الإحساس بالقُبلة كما أحس بها ذات يوم.

تلامس يدٌ كتفه، فيلتفت بصعوبة وترقُّب، ليست هي، ليس بعد، إنه وجه ممتقع وجسد مهزول، مألوف، يحاول الشخص الكلام معه، لكن كلماته المتلعثمة لا تثير اهتمامه، فيفقد إريك صبره ويستدير إلى مشهد ألسنة اللهب، ورغم هذا لا يود الشخص أن يتركه وشأنه، إنما يقف أمامه ويجذب قميصه الممزَّق ليسترعي انتباهه، إشارات بسيطة تنقل له معنى، يشبِّهها إريك باحتكاك حجر صوان بالفولاذ، إنه إصبع اتهام موجه إليه، فيومئ إريك الورود الثلاث معترفًا، ثم عندما ينظر فيما حوله مرة أخرى يجد نفسه وحده، ويلوح له زائره العابر كنقطة خلفها النيران وهو ينادي اسم شخص آخر.

الفصل السابع والتسعون

يحمي كارديل فمه وأنفه بمرفقه، ممتصًّا الهواء عبر القماش، ويرغم ذهنه المتبلِّد بالخوف على استجماع ما يتذكره عن تفاصيل الدار الداخلية، ويهرع نحو السلالم، المتماسكة حتى الآن، ويصعدها ثلاثًا ثلاثًا، إلى هواء أشد حرارة، يجد نفسه في جانب من الدار لم يشتعل بعد، حيث ما تزال الجدران الداخلية تصد اللهب، يتطاير الطلاء نُدَفًا، ويتقشر ورق الحائط، وتسوَدُّ أشغال الزينة الخشبية، ويحوم الدخان تحت السقف مثل سحابة تُرعِد وتُبرِق. يتذكر المكان الذي يقصده، فينحني ويواصل التقدم.

يبدو كأن النار قد سلبت الهواء كل ما فيه من أكسجين، فيحس كارديل كأنه يتنفس بلا جدوى، ويغيم بصره، فيضطر إلى الجثو على أطرافه الأربعة، فيجد أن الهواء أفضل، ويواصل الزحف على ألواح أرضية ساخنة كأن النيران نشبت فيها بالأسفل، بوصتان من الخشب تفصل بينه وبين الجحيم نفسه، ويستشعر أن النيران تمضغ العوارض التي تدعم الألواح تحته، قريبًا ستفقد قوتها فينهار الطابق بأكمله، وبلا شك سيهدم معه بقية الدار. لكن كارديل وصل الآن، ويدفع الباب الذي يظنه الباب الصحيح، فيرى ما يبحث عنه: المهدان، تُركا كما كانا عندما رآهما المرة الماضية، فيضيِّق عينيه ويتحسس طريقه إلى الجسدين الصغيرين المنتظرين، ويرفعهما بين ذراعيه ويستدير وهو يأمل أن يكون الطريق ما زال سالكًا.

وفي الرواق يجد اللهب ينبجس عبر شقوق الأرضية التي خرقتها الحرارة، يأخذ نفسًا يكوي صدره، ويأمل أن يكون كافيًا، ويركض عائدًا من حيث جاء، نحو السلالم، وسرعان ما يضطر إلى الحبو مرة أخرى، ويبدأ الزحف،

وعندما يقطع نصف المسافة إلى السلالم يلاحظ خطبًا، يحس بحمله مختلفًا وأخف من ذي قبل. جلد وجه كارديل متورم والدخان حوله كثيف، لكنه يتحسس الطفلين بيده، إنه كارل، يعرفه بشعره الذي ظل دومًا أقصر من شعر شقيقته، لكن ينقصهما شيء، ترك شيئًا خلفه، شيئًا مهم، ربما القطة المصنوعة من الخِرق المعقودة التي يحبها كارل ودائمًا ما يمسكها في أثناء نومه، فيتحسس كارديل الأرضية خلفه بلا هُدى، بحثًا عن الشيء المفقود، وسرعان ما تجده قبضته، لكنه يحس بالشيء مختلفًا عما توقعه، طرف جسد صغير، ذراع أو ساق، فيحاول كارديل جاهدًا بيده الواحدة إعادتها إلى مكانها، لكنه يسبب مزيدًا من الضرر، إذ إن اللحم غض ويتفتت من لمسته. يرتفع زئير ألسنة اللهب من حوله ويرغمه على الإسراع، فيجمع ما يمكنه جمعه ويستأنف التحرك نحو السلالم. لم يعد يقوى على الوقوف، لذا يضم الطفلين بين ذراعيه ويتدحرج، ويهبط إلى أرضية البهو، فيجد أن مزيدًا من الدمار قد حاق بالمكان، ويضطر إلى الزحف عائدًا إلى الأعلى، درجة درجة، متشبثًا بكل ما يجده، يئن وينشِج محاولًا إعادة الطفلين إلى الشكل الذي كانا عليه، إلى جسدين مكتملين يمكن إغراء الحياة بالعودة إليهما، لكنه لم يعد قادرًا على فتح عينيه ولا معرفة أي عضو ينتمي إلى أي طفل، يفتح جروحًا جديدة أينما وضع يده، يصيران كقطعتي لحم تُركتا في قِدر لتنضجا على نار هادئة طوال الليل، رماديان رخوان، لا يبقى أي قدر من التماسك بين القبضة الخشبية وبين اليد الحية، وكل ما يفعله يزيد الطين بلة، لا يعود بمستطاعه التفريق بينهما، وسرعان ما لا تبقى سوى كومة عظام ليِّنة. وبينما هو جالس منكفئًا على مسعاه الميؤوس منه، تعلق النار بشعره وتحرق فروة رأسه بأكملها، فيضطر إلى ضرب رأسه، ثم يضرب ضربًا أشد مما ينبغي، ويحس بقروح دامية وبثور مسودة تظهر بين ألسنة اللهب.

الفصل الثامن والتسعون

تبلغ آنا استينا قمة التل، حافية قدمين نازفتين لكنهما خدرتان بعد المسافة الطويلة، وفي البداية لا تستوعب ما تراه في الوادي، فحيث كانت الدار منتصبة، الدار التي تركت فيها طفليها، لم يعد يوجد الآن سوى بقعة حمراء داكنة يتغير لونها مع هبَّات الرياح، تبدو كأفعى ملتفة حول نفسها ناعسةً بعدما أكلت ملء بطنها.

يمتد الدرب أمامها كشريط فضي بين الأشجار، ومع ضبابية رؤيتها من دموعها وعقلها من إرهاقها، تتساءل عما إذا كان ما تراه تمظهرًا شبحيًّا للمكان الذي رأته قبل مدة قصيرة: الغدير الذي أطلق عليه طفلاها قاربهما الخشبي، وأصوات ضحكاتهما المتلاشية مع ابتعادهما في منحدر الغابة.

تهتف باسميهما وهي تعدو: «ماجا!».

تهتف مرارًا: «كارل!».

ولا يملك الليل جوابًا.

الفصل التاسع والتسعون

يبرد الهواء ببطء حول إريك في أثناء انتظاره، يفقد السعير ضراوته، ثم تصير الجمرات أكثر من ألسنة اللهب. وتصل مضخة فوق التل، يجرها حصان متمرس تعلَّم ألا يخشى النار، ويسحب مجموعة رجال خراطيمهم في خضم صيحات لإخماد النار ومنع انتشار الشرارات، وبفؤوس ومناشير يقطعون الأشجار ويتخذون مكانس من أغصانها ويبللونها بالماء ويضربون بها الأرض.

ثم يأتي شخص آخر نحو إريك، قادمًا من الوادي، يترنَّح دون هدى في البداية، لكنه يرى إريك فتصير خطواته أشد حزمًا، يجتاح إريك الرعب من مظهره، يكاد لا يبدو بشريًّا، إنما أقرب إلى وحش تمخَّضت عنه النار نفسها، شعره مسفوع وفروة رأسه جرداء مُكلَّلة بالدخان، وجهه مسود، وملابسه أسمال محترقة، وذراعه اليسرى تتوهج حمراء. وعندما تفصله عن إريك بضع خطوات يتوقف ويحدق إليه، فينظر إريك إلى عينيه المحتقنتين بالدماء وينتظر. ثم تخبره حاسةٌ ما بأنه سينال مكافأة جميع مجهوداته، فيحس باختلاجة في بطنه.

يقترب الشخص منه ويرفعه بين ذراعيه كأنه طفل، فيداخله إحساس غير مألوف يُشعِره بالدوار، ويحس لهنيهة أنه يسبح في الهواء كشرارة نحو السماء، ثم يحس بماء وبرد، يُثبَّت تحت سطح الماء، فيتضايق في البداية، لكنه ضيقٌ زائل، فتحة الماء تسود السكينة والبرودة والصمت، ويُرحِّب بالتغيير، ولا يتململ جسده مقاومًا إلا عندما يرغب في التنفس، لكن لا حول له إزاء القوة التي تضغط عليه. يتيح له الوهج القادم من الوادي رؤية الوجه

الذي فوقه، مرتسمةً عليه تعابير الألم. وأخيرًا يتوجب عليه التنفس، والمقاومة التي يلقاها في البداية غريبة، لكن حالما تمتلئ الرئتان بالماء تغمره العافية، وعندئذ يرى أن الوجه الذي فوقه وجه مختلف: وجهها! خلاب كإطلالة شمس ربيع على مروجٍ هاجعة، إنها هي التي تميل فوقه، فيبتسم لها، إذ يعرف القادم، ولا يعودُ قلقًا بشأن وجهه الخَدِر، إنها آتية، ستأتي في أي لحظة، القُبلة التي يستحقها أيما استحقاق.

الفصل المئة

الموسيقى على أشدها، تتقافز أصابع العازفين وأقواسهم فوق آلاتهم حتى لا يعود بمقدور تايشو متابعة الألحان، الدور الرئيس تعزفه فتاة في ميعة الصبا، مليحة، ذات قسمات دقيقة وأنف صغير حاد، وشعرها مُبعَد بعناية خلف أذنيها حتى لا يعيق الأوتار، مستغرقة في عزفها، وتتمايل بها الموسيقى كأنها تراقصها، عيناها نصف مغمضتين تحت رموش طويلة تتابعان نقاط وخطوط النوتات الموسيقية. ويغمر سيتون شعورٌ بأنه يشهد لحظة شديدة الخصوصية، وأنه في حضرة شيء حميمي وحسِّيٍّ. وفي تلك اللحظة تحقق الفتاة ذاتها إلى حد الكمال، كأنها وحدها والصالة خالية. لكن الموسيقى تستعيد استحواذها على سيتون، ويتعين عليه إغماض عينيه. تمتزج أصوات الفرقة الرباعية خالقةً كمالًا آسِرًا، ويتعذر تحديد أي صوت صادر من أي وتر، يتمايل سيتون في كرسيه تمايلًا متزامنًا مع الموسيقى، فاغرًا فمه.

يهز شخص جلف كتف سيتون، فيتبدد افتتانه، ويستدير في كرسيه متفاجئًا غاضبًا، فيجد جاريك جاثيًا على ركبتيه جواره، ويبدو شاذًّا غريبًا عن المكان كأنه كلب ضال، وجهه قناع من الكدمات والجروح، والخدم الذين يرتدون زيًّا موحدًا وقد فشلوا في منعه من مقاطعة الأداء يقفون عند الصف الخلفي عندما يرون أنه رجل سيتون، وعندما تجعل أصوات الجمهور المطالِبة بالصمت عازفَ التشيلو يفقد إيقاعه، ينخر جاريك برسالته في أذن سيتون.

يحس بالدماء تجف من وجهه، وتميد به الأرض، فينهض وَجِلًا فيسقط كرسيه نحو المرأة التي خلفه، ويتعين عليه الاستناد إلى كتف جاريك ليحافظ على توازنه، انتهى أمره، أعداؤه يُعَدُّون ولا يُحصَون، وقد أَمِن جانبهم مؤخرًا بعدما أرغمهم على هدنة، وسرعان ما سيتكالبون عليه عندما ينتشر الخبر. وسيلة دفاعه دُمِّرت دمارًا لا يُرجى إصلاحه، سواء كان حادثًا أو متعمَّدًا. يترنحان معًا نحو الباب، وكثيرون يشيرون ويتهامسون، غير قادرين على إخفاء بهجتهم برؤية الحالة التي صار إليها. ينحني الهاربان تحت سماء «تل القلعة» المرصعة بالنجوم، ويهرولان ليتواريا عن الأنظار في شبكة الأزقة، وسرعان ما تبتلعهما الظلال التي لا تحكم على أي إنسان. وفوق أسقف «مدينة ما بين الجسور» ترن أجراس الكنائس من جميع الأبراج، ومعًا تُرعِد في الليل محذِّرةً من خطرٍ محدق.

الفصل الأول بعد المئة

يبتسم، إنه يبتسم، هذا المتسبب بالحريق، ويحرِّك شفتيه كأنه يهم بتقبيل شخص وهو في قاع وعاء الماء ويوشك على الغرق، وبداخل ميكيل كارديل يستعر غضبٌ لم يشعر بمثله من قبل، فيرفع يده اليسرى ويسمعها تهِسُّ بالكراهية مع اختراق الخشب سطح الماء، ويضعها على الشفتين المبتسمتين، ويضغط بكل وزنه، فتتفتح وردة حمراء داكنة تحت الماء، دليلًا على النهاية، وتصعد شظايا بيضاء وسط فقاعات إلى السطح ثم تغوص وتستقر في القاع، ويضغط كارديل بمزيد من القوة، يضغط حتى يشتعل طرفه الأبتر من الألم، حتى لا يحس بأي مقاومة. ولا يصدق كارديل عندما يسمع صرخة القاتل، عواءٌ صامت يفيض ألمًا وغُبنًا، ولا تتوقف الصرخة حتى عندما يدرك أن الصوت صوته.

الفصل الثاني بعد المئة

يقف إميل وينيه بالأسفل جوار طرف بساط الجمرات عند أقرب نقطة تتيحها له الحرارة، لا تُرى ألسنة اللهب الزرقاء الشاحبة إلا في المنتصف، والوهج الأبيض الأشد حرارة يكسو العوارض التي كانت تحمل وزن الدار ذات يوم. يحاول إميل أن يعد الحيوات التي فُقِدت، وأن يتذكر ما إذا كان سيتون قد أخبره برقم.

مئة، ربما أكثر، بقاياهم تجعل نُدف الرماد المتساقطة ثخينةً دبقة.

ثم يرى أن برفقته شخصًا، شابة جاثية على ركبتيها على مقربه منه، ورغم أن وجهها مكسو بالسخام ومخطط بالدموع، ففيه شيء يبدو له مألوفًا، وتعابيرها تكشف عن كَرْب يجعله يحس بالخزي من كرْبه. ينبش ذاكرته بلا طائل، ثم يسعفه الإدراك، إنها هي، الفتاة التي كان كارديل يتكلم عنها، التي بحث عنها بلا جدوى، التي وصف وجهها وصفًا لا يقدر عليه إلا من يحبُّه. وبهذا الإدراك يفهم أشياء أخرى، يفهم السبب الذي نبذه كارديل من أجله، ويدرك أن كارديل هو من وجد ملاذًا لطفليها في الدار. يهز رأسه ويستدير ليحدق إلى الضوء المتلاشي أمامه.

يصدر الخشب المتفحم أصوات رنين، مصطبغًا بحمرة قانية. ويرفع يديه المرتعشتين أمامه اللتين تحملان اللون نفسه.

«آه يا هيدفيغ، لولانا لما حدث أيٌّ من هذا. كيف سنتطهَّر من كل ما علِق بنا؟».



يستدير حتى يسمع الرد واضحًا، متشوشًا لوهلة، لكن التي خاطبها امرأة لم يقابلها من قبل، ويتذكر أن الشقيقة التي حظي بها ذات يوم قد اختارت التابوت بدلًا من أن تشاركه مسؤوليته وإحساسه بالذنب.

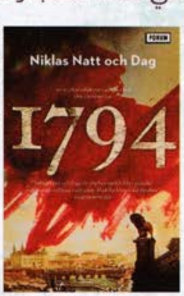
والآن يسمع جؤار ميكيل كارديل، صيحة كأنها مِن عالم آخر، يصعب تصديق أنها صادرة من حنجرة بشرية. يستدير ويهرع في اتجاه الصوت بين الأشجار الصريعة، محاولًا العثور على الطريق الصحيح في الظلام الذي أعادته النيران المحتضرة إلى الليل. يضل طريقه باستمرار، يذهب إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة أخرى، وتهمس النسمات بتحذيراتها عبر خشخشة الأوراق، ففي الظلال يتربص خطرٌ غير مرئي، ويستشعره إميل بكل كيانه، ثم تتباطأ خطواته إثر رعدة، فما يراه صار أمامه مباشرة، متواريًا خلف جذع شجرة تفاح كثيرة العُقد، إنه قريب، بقيت له انعطافة واحدة إلى مركز المتاهة.

يفتح وينيه عينيه على اتساعهما، ليحسِّن رؤيته، وبغتة يشلُّه خوف مدوِّخ إثر تعرفه على ظهر كارديل العريض المنحني فوق وعاء الماء، منكباه الضخمان، وذراعاه المفتولتان، وقبضته الخشبية الحمراء، وهناك فوق كتفيه يرى رأس ثور متوَّجًا بقرنين حادين. لكن الآن عندما يرى وينيه بعينيه الوحش، لا يخيفه بالقدْر الذي كان يظنه، ثم يقترب منه ويمسك بيده.

1794

الأكثر مبيعًا في السويد، حيث بيعَت منها أكثر من 1.5 مليون نسخة.

في رواية 1794، الجزء الثاني من ثلاثية نِكلاس نات أو داغ التاريخية، يلتئم شملنا بميكيل كارديل، ووِينيه، وآنا استينا كناب، والأحداث الصاخبة التي دارت باستوكهولم في نهاية القرن الثامن عشر كما قرأناها في 1793 الذئب والمراقب.



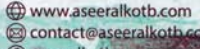
المدينة مُقبِلة على أيام سوداوية إثر تساقط الأقنعة، وتلاشي الماضي الوردي، فيُسفِر عمَّا خفي في أزِقَّة المدينة وحواريها.

تصميم الغلاف: محمود هشام









aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb